

التاريخ الروماني

عصر السُّورَة

(من تيريوس جراكوس إلى كنافيانوس أغسطس)

مكتوب

عبد الحليم عبد الحليم

أستاذ التاريخ البيزنطي والرومان
كلية الآداب - جامعة القاهرة

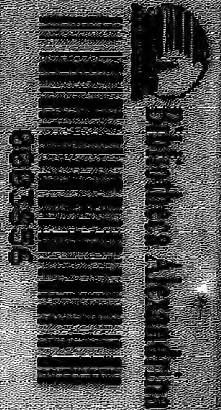
طبعة منقحة

١٩٨٨

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

٣٢ شارع عبد الغال شروت



التاريخ الروماني

عصر الثورة

(من تيريوس جراكوس إلى أكتافيانوس أغسطس)

١٣١٩

دكتور
بهاء الدين عبد الحليم
أستاذ التاريخ اليوناني - الروماني
كلية الآداب - جامعة القاهرة

طبعة منقحة .

١٩٨٨

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر
٣٢ شارع عبد الحافظ شروت

الفصل الأول

الثورة : الدور الأول

النضال بين الأرستقراطيين والديمقراطيين

(١٣٣ - ٧٨)

السناتو والزعماء الشعبيون :

كان القرن الأخير من عصر الجمهورية (١٣٣ - ٣٠) عصرا حافلا بالأحداث الجسام لا بالنسبة لروما وحدها بل بالنسبة للحضارة الغربية كلها . فقد بلغت الأخطار التي أحلقت بالدولة في الداخل والخارج مبلغا يتطلب سياسة وجنودا من الطراز الأول . وقد تحقق ذلك كما سنرى . ففى هذا القرن ظهرت أشهر الشخصيات الرومانية التي ألغنا سماع أسمائها : تييريوس جراكوس وأخوه جايوس جراكوس ، وماريوس وسلا ، وبومبي وكراسوس وشيشرون وقيصر ، ثم أوغسطس الذين ساهموا جميعا بمختلف الوسائل في انقاذ إيطاليا والامبراطورية من الافحلال المبكر . كان العصر في الواقع عصر الشخصيات العظيمة ، وفيه أيضا أصبحت الأخلاق الشخصية مثار الاهتمام الشديد بين الناس كما لا تزال بيننا في العصر الحالي . وقد حدث أن تضاعف سلطان الدولة حتى عجزت عن فرض الطاعة والنظام على المواطنين ، فتهيات للفرد فرصة اظهار قوته ، وبلغت هذه القوة في بعض الأحيان حدا قد يحملنا على تركيز الاهتمام في الأفراد البارزين ، واغفال الدوافع المتداخلة والمصالح المتضاربة في العالم الذي عاشوا فيه . غير أننا نجانب الصواب اذا فعلنا ذلك ، لأن أى المام طفيف بالحقائق يظهر لنا هؤلاء الرجال العظام وهم يكافحون المشاكل القائمة باستمرار ، ولكنهم ينحرفون عن طريقهم الطبيعي بتأثير تيارات مضادة . ومع هذا فلا جدال في أن هذه الحقبة بخيرها وشرها لا مثيل لها في التاريخ من ناحية

تأثرها بالسلوك الفردى . وكما استعرضنا من قبل الأخطار والمشاكل ،
فنستعرض فى هذا الفصل وما يليه الجهود التى بذلتها تلك الشخصيات
الكبيرة لمكافحة هذه الأخطار وحل هذه المشاكل .

تييريوس جراكوس :

قانون الإصلاح الزراعى

كانت أولى المشاكل التى تتطلب علاجاً سريعاً هى مشكلة اقبحار
الريف من الفلاحين الأحرار وتدهور الزراعة (١) . وقد بدأت محاولة
الإصلاح فى عام ١٣٣ لا على يد السناتو الذى كان الواجب يحتم عليه
ذلك ، بل على يد شاب متحمس فى الثلاثين من عمره ، ينتمى الى أسرة
شهيرية (nobilis) (٢) ، ويعد من بعض النواحي من أرفع الشخصيات

(١) انزعج تييريوس من سوء الأحوال فى اتروريا أثناء مروره بها وهو فى طريقه الى
اسبانيا ليتولى منصب الكورستور عام ١٣٧ وأثناء عودته الى إيطاليا اذ لاحظ انقراض طبقة
صفاد الزراعين الأحرار وتضخم أعداد العبيد فى الضياع الفسيحة (latifundia)
لا تجربتهم فى الأعمال الزراعية بل لرخس المتهتم وسهولة ارفاعهم على العمل بالسياط مما
أوفر صدورهم حتى أنهم هبوا للثمن فى الضياع الكبيرة بصقلية على كبار الملوك الرومان
واليونان عام ١٢٥ ، وانلدروا بالتمرد والثورة فى جهات أخرى من جنوب إيطاليا وآسيا
الصغرى .

(٢) وهى أسرة « جراكوس » وكانت أسرة نبيلة (nobilis) بمعنى لامعة او شهيرة
وتوصف الأسرة عند الرومان بأنها نبيلة اذا لمع أحد افرادها ببلوغ منصب رفيع يحول
صاحبه "سلطة الامبريوم" كالفنصلية التى تقابل فى الواقع رئاسة الجمهورية . وكان أبو
تييريوس قد تولى الفنصلية فى عام ١٧٧ ، والكنسورية عام ١٦٩ ، ثم الفنصلية للمرة الثانية
فى ١٦٢ . غير ان عشيرة سمبرونيوس (gens Sempronia) التى تنسب اليها اسرته
كانت تنحدر من طبعا للمعهوم السائد عند الرومان - الى طبقة العامة (plebs) لا الى
طبقة الاشراف (patricii) وان كانت المساواة الاجتماعية والسياسية قد رجعت بين
الطبقتين . ولو كانت عشيرة تييريوس من الاشراف لما جاز له قانونا ان يرشح نفسه نقيباً
للعمامة . وقد زاد من شهره اسرته ان أباه كان قد تزوج : كورنيليا ابنة اسكيبو الأكبر
« قاهر افريقيا » الذى هزم هنبيل فى موقعة زاما عام ٢٠٢ . وقد أتجب منها عدة أبناء
كان من بينهم تييريوس وجايوس واخهما سبيريونىا التى تزوجها اسكيبو ايجيليانوس القائد
الشهير الذى دمر قرطاجنة فى الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦ ، كما انتصر على الاسبان فى
نوماتيا عام ١٢٢ ، ولقب هو الآخر « قاهر افريقيا » (الاصفر) « وقاهر نوماتيا »
(Numantinus) .

ولعل اسم الاشراف Patricii مشتق من كلمة Patres "الآباء" وهو اسم يطلق ايضاً على أعضاء السناتو القديم الذين
كانوا الأكثر ثراءً ونفوذاً (وربما مراقبة ايضاً) من سواهم فى

في التاريخ الروماني . كان تيريوس سمپرونيوس جراكوس (Tiberius Sempronius Gracchus) كاسلافه عميق الشعور بالواجب ، وعلى غير ما عرف عن الرومان مثاليا يفيض رقة ونبلا . لكنه وقد تلقى تعليما اغريقيا نظريا يتضمن ابلاغة والفلسفة الرواقية ولا يتضمن دراسة الحقائق البحتة ، فقد كانت تعوزه الخبرة العملية والمعرفة الواسعة اللازمات لمن يضطلع بمثل المشكلة الاقتصادية الاجتماعية التي تصدى لها ، والتي لا يصدر اليوم بها قانون الا بعد أن يدرسها الخبراء من كافة جوانبها دراسة فاحصة عميقة .

كان تيريوس قد ارتقى أول درجة في سلم الوظائف العامة بفوزه بمنصب « الكوبستور » عام ١٣٧ الذي قضاه في أسبانيا . وفي أواخر صيف عام ١٣٤ رشح نفسه قريبا للعامة (tribunus plebis) وتقلد منصبه مع زملائه التقباء التسعة في يوم ١٠ ديسمبر من السنة عينها . وسرعان ما أعلن برنامج الإصلاح في مستهل عام ١٣٣ . وقد اجتذب اليه دهماء المدينة الذين كانت لهم أصوات كثيرة في القبائل الريفية ، لأن بعضهم ممن وفدوا من الريف الى العاصمة في السنوات الأخيرة كانوا تواقين الى العودة الى أسلوب حياتهم القديم ، ولأن بعضهم الآخرين ، وإن لم تكن لديهم أى رغبة في اقتناء قطعة من الأرض ، فما هم كانوا يأملون في أن يؤدي المشروع الى تقليل عدد سكان العاصمة وبذلك تزداد فرصهم في العثور على عمل . وكان بين الدهماء فريق يؤيد المشروع بدافع من الحسد والحقد على الأثرياء . وثمة فريق آخر تأثر بفصاحة تيريوس أو أعجب بمنطقه في الدفاع عن مشروعه واستناده الى أسس أخلاقية سامية ووطنية صادقة . وأهم من ذلك أن نأ المشروع اقتشر بسرعة في أرجاء الريف الايطالى فتدفقت جموع غفيرة من الفلاحين على العاصمة يوم الاقتراع عليه ، واكتظت قاعة الجمعية القبلية بناخين من خارج روما قلما سبق لهم حضور جلساتها أو لم يحضروها قط من قبل . وفي وسعنا أن نتصور أن صفار المزارعين الذين

== مجتمع المدينة . وقد تضاعف عدد عشائهم وأسرهم بمرور الزمن لكنهم ظلوا متمتعين ببعض امتيازات مقصورة عليهم وقد

تدهورت احوالهم وتهددتهم الخراب قد بذلوا جهودا مضاعفة للحضور الى روما في الموعد المضروب على أمل أن يتيح لهم المشروع فرصة لبدا حياتهم من جديد ، وأن الأجراء الزراعيين الأحرار كانوا مستعدين للتضحية من أجل المشروع على أمل أن يصبحوا بصققتضاه ملاكا لمزارع صغيرة بعد أن كانوا بالأمس أجراء . كذلك استطاع تييريوس أن يستميل الى جانبه بعض أقطاب روما الأكفاء كأييوس كلوديوس بولكر زعيم مجلس الشيوخ (princeps senatus) ^(١) وكراسوس موكيانوس المحامي ^(٢) ، وبوبليوس موكيوس سكيثولا ، أول من اشتهر بالفقه بين أفراد أسرته وأحد قنصلى سنة ١٣٣ .

تقدم تييريوس بمشروعه الى الجمعية القبلية وتمكن من أن يستصدر به قانونا في وسعنا أن نسميه « قانون الملكيات الصغيرة » أو — مع شيء من التجاوز — « قانون الاصلاح الزراعى » . وينص على ألا يمتلك أحد أكثر من ٥٠٠ فدان روماني (iugerum) ^(٣) من الأراضى العامة (ager publicus) ^(٤) يضاف اليها نصفها اذا كان لديه ولد واحد ،

(١) أى اقدم عضو في السناتو ، وصاحب الاولوية في التصويت عند الاقتراع على أي مشروع (rogatio) . وكان بولكر قد تولى القنصلية عام ١٤٢ . وقد تزوج تييريوس ابنته كلوديا (Claudia) .

(٢) تولى القنصلية بعد ذلك في عام ١٢١ ، وهو حمو جايوس جراكوس الذى تزوج ابنته لىكينا (Licinia) وهو شقيقه سكيثولا المذكور في المتن .

(٣) أى حوالى ٢٠٠ فدان مصرى حيث ان الـ iugerum الرومانى يعادل قريبا ثلاثة اخماس الفدان المصرى ، فالفدان = ٤٥٠٠ م^٢ بينما الهكتار = ١٠٠٠٠ م^٢ .

(٤) جرت عادة روما أثناء فتوحاتها في ايطاليا على أن تنتزع من المدن والشعوب المقهورة جزءا من اراضيها وتضمه لملكيات الشعب الرومانى . وكانت الحكومة تقسم هذه الاراضى وتوزعها كانهبة صغيرة على المواطنين الرومان الفقراء ، او تبيعها او تؤجرها لامد قصير او طويل . لكن في معظم الاحيان كانت الحكومة لا تفعل شيئا بهذه الاراضى اكثر من اعلان ملكية الدولة لها . وفى هذه الحالة كان في وسع الراغبين من الافراد ان يحصلوا على تصريح زراعتها والانتفاع بها نظير ايجار ضئيل . وغالبا ما كان المواطنون الرومان يستفيدون من هذه الرخصة . لكن حدث احيانا ان الحكومة لم تطرد الملاك الاصليين من اراضيهم المزروعة وبذلك احتفظ كثير من الايطاليين في الواقع باراضيهم التى كانوا تنازلوا عنها لروما تنازلا اسميا . وكان الافراد الذين وضعوا ايديهم على الاراضى العامة بهذه الطريقة

تصاهروا وافراد طبقة " النبلاء " الصاعدين (الذين اسميئناهم كذلك لمجرد التطابق الصوتى وهم " اللامعون " nobiles ومسمن الفريقين تآلف " الحزب الارستقراطى " .

ومثلها اذا كان لديه أكثر من ولد . وكان الأراضي العامة أراضى تمتلكها الدولة ولكن بعض النبلاء من طبقة السنانو وغيرهم من ذوى النجاه والثراء تمكنوا من وضع أيديهم عليها وادعاء حيازتها (possessio) فظير ايجار لم يدفعوه بانتظام أو توقفوا عن دفعه . وقد نص القانون - الذى عرف باسم قانون الأراضي (lex Sempronia agraria) (١) - على مصادرة ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية من الأراضي العامة ، وتقسيمه مع سائر ما تملكه الدولة من أراض فى إيطاليا الى أنصبة صغيرة (٢) ، وتوزيعها على المعدمين من الرومان والإيطاليين نظير ايجار رهزى ، على أن تحتفظ الدولة بملكيتها وتحرم بيعها - وهى محاولة يائسة لاعادة الناس الى الريف وربط الفلاحين بالأرض حتى ولو كرهوا ذلك (٣) . ويلاحظ أن المشروع لم يتناول الأراضي الخاصة (ager privatus) بل اقتصر على الأراضي العامة (ager publicus) مما ينهض دليلاً على أنه لم يكن ثورياً أو متطرفاً بل كان متسماً بالاعتدال ، وانه

يعرفون بالحائزين للأراضي possessores (تميزاً لهم عن الملك) وظلت الدولة محتفظة بحقها فى طردهم فى أى وقت تراه مناسباً لتصرف فى الأرضى على نحو آخر . ولا كان الملاك الأرضى يسيطرون فى العادة على الأداة الحكومية ، فقد تبين لهم منذ وقت مبكر أن مصلحتهم تقتضى أن تترك الحكومة معظم الأراضي العامة دون تصرف لم يستحوذون عليها أنفسهم . وقد جرت محاولات من وقت لآخر للحيلولة دون ذلك ونادى البعض بضرورة توزيع الأراضي العامة على الفقراء أو بفرض حد أقصى لحيازة الفرد لهذه الأراضي . وبزيادة نفوذ الأغنياء استطاعوا وقف توزيع الأراضي العامة على المعدمين ، وتغلب القيود القانونية المفروضة على حيازة هذه الأراضي . وهكذا صار كثير من هؤلاء حائزين لساحة شامخة من الأراضي العامة التى كان يمتلكها الشعب الرومانى امتلاكاً اسمياً .

(١) لم يكن القانون عند الرومان ينسب الى اسم الشخص الذى اقترح مشروعه أو الى لقب أسرته بل الى اسم عشيرته ولذلك عرف هذا القانون باسم « قانون سمبرونيوس للإصلاح الزراعى » . كذلك نجد القوانين التى تبناها اخوه جايوس منسوبة الى العشيرة ذاتها . وكان الاسم الرومانى يتكون عادة من ثلاثة عناصر : الاسم الشخصى (Tiberius) واسم العشيرة (Sempronius) و لقبه . الأسرة (Gracchus) ولأباً ما يرمز الى الاسم الشخصى بالحرف أو الحروف الأولى فقط ، (Ti = Tiberius) . وعن هذا الموضوع ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » - ١٩٧٠ - ص ٤ ، حاشية ٢ .

(٢) كل منها حوالى ٢٠ فدانا بومانيا ، وإن كان هذا الرقم مستمداً من فكرة مثبوتة .
يقول بلدستارخوس ران الهدف من المشروع كان تخفيف وطأة لافقر عن الدماء ، بينما يقول اربيانوس انه كان لتمكينهم من بلوغ النحرصاب (العينى أو النقدى) الموهل للخدمة العسكرية .

لم يهدف الى أكثر من تنفيذ قوانين قديمة مهمة كانت تنص على تحديد ما يجوز ان يبقى من الأراضى العامة فى حيازة فرد واحد^(١) ، والى استرداد الدولة لأراضيها من أيدي الذين استحوذوا عليها عن طريق غير شرعى ، والى متابعة سياسة توزيع الأراضى العامة على المواطنين على نطاق أوسع من ذى قبل . هذا الى ان المشروع قد نص على أن تتنازل الدولة لكل واحد من حائزى الأراضى العامة (possessores) عن مساحة منها تتراوح بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ فدان رومانى تبعاً لحجم أسرته ، وتسلم له بملكيتها الكاملة الدائمة ، مع اعفائه من الضريبة والايجار ، بل قيل ان المشروع فى صورته الأصلية كان يتضمن نصاً بدفع تعويضات لهؤلاء الحائزين نظير ما اتفقوه من أموال فى استصلاح هذه الأراضى .

وقد وافقت الجمعية القبلية على هذا المشروع الذى قصد منه النهوض بالزراعة وتعمير الريف بالفلاحين الأصحاء ، وهم عصب الجيوش الرومانية . وما ان تمت موافقة الجمعية حتى صار المشروع قانوناً واجب النفاذ . واختيرت لجنة ثلاثية دائمة من تيرىوس نفسه^(٢) ، وأخيه جايوس وحميه أييوس كلوديوس للإشراف على تنفيذه . وخولت هذه اللجنة التى عرفت باسم *Triumviri agris iudicandis assignandis* سلطة معاينة الأراضى العامة المطلوب مصادرتها وإعادة توزيعها على فقراء الرومان والإيطاليين ، وبعدئذ سلطة قضائية للفصل فى المنازعات التى تثور حول ملكية الأراضى التى تطالب بها الدولة . وما تزال تشاهد حتى الآن بعض الأحجار المنقوشة التى أقامتها لجنة الإصلاح الزراعى كعلامات فاصلة بين حدود الملكيات الزراعية^(٣) .

(١) هكذا - اعلى ما يبدو - نص أحد قوانين ليكينيوس سكيتوس فى ٣٦٧ .

(١) وفى ذلك تجاهل للقانون العائلى بان من يعترخ لجنة ٧ يجوز له ان يكون عضواً فيها .
ولعل العضوية فى اللجنة كانت لمدة سنة قابلة للتجديد .

(٢) *cippi terminales*

ونستطيع أن نقطع من النظرة السطحية الى هذا المشروع بأنه كان من شأنه أن يؤدي الى زيادة كبيرة في عدد صغار الملاك . ولقد تزايد بالفعل عددهم كما يتضح من قوائم تعداد المواطنين في سنتي ١٣٠ ، ١٢٥ ، وان كان لا ينبغي أن نعزو هذه الزيادة الى تسلط لجنة الاصلاح الزراعي دون سواه (١) .

لقد أحرز المشروع نجاحا في حل مشكلتي اقمار الريف وتدهور الزراعة . غير أن هذا النجاح كان جزئيا ومؤقتا لأن المشروع لم يكن هو العلاج الجذري الشامل لمشكلة الأراضي أو مشكلة دهماء العاصمة الذين لم يطرأ على حالتهم أى تحسين مستديم بدليل التجاء جايوس جراكوس فيما بعد الى وسائل جديدة لاصلاح حالة تلك الطبقة . وحتى اذا سلمنا بازدياد عدد صغار الفلاحين في الريف فنتيجة للمشروع فان مدى بقائهم مرتبططين بالأرض كان مرهونا بالأحوال الاقتصادية التي لا نعرف عنها شيئا مؤكدا ؛ بل نحن نشك في أن تييريوس نفسه قد عنى بهذا الجانب من المشكلة أو كان لديه معلومات أوفر مما لدينا عن حقيقة تلك الأحوال . كذلك لا نعرف كيف كانت طريقته في اختيار المنتفعين بالأفضية الزراعية وهل كان ينوى أن يختار صغار الزراع من بين دهماء المدينة أم كان لديه خطة معينة لاختيارهم من بين من كان لهم دراية بالفلاحة . وازاء جهلنا بالتفاصيل يتعذر علينا أن نحكم على

(١) ذلك لان قوائم التعداد كانت تشمل على أسماء جميع المواطنين الرومان الذين تبلغ اعمارهم ١٨ سنة فأكثر ، وليس فقط على من كان يتوافر لديهم النصاب العقاري المؤهل للخدمة العسكرية . ولا شك في أن كثيرين ممن كانوا قد قصروا في قيد أسمائهم بقوائم التعداد بعد أن فقدوا مزارعهم الصغيرة قد بادروا الى قيد أسمائهم عندما تسلموا حصصهم الزراعية الجديدة . لكن لا شك أيضا في أن كثيرين غيرهم ممن كانوا ياملون في الحصول على نصيب من الأراضي العامة المصادرة قد تقدموا الى السلطات لقيد أسمائهم في قوائم التعداد . وفي الوقت نفسه كان زعماء كل من الحزبين الأرستقراطي والديمقراطي أثناء الصراع من أجل السيطرة على التجميعتين حريصين على تدوين أسماء أتباعهم (clientes) وعلى الإخص متقاتلهم وغيرهم ممن كانوا يعيشون حالة عليهم ، في القبائل والوحدات الثوية .

المشروع حكما يقينيا ، وان ماورنا الشك في احتمال نجاحه على فطاق واسع بحيث يؤدي الى تغيير جوهرى في الأوضاع القائمة ، أو الى وقف التحول الزراعى الذى كان سائرا فى مجراه ، لأنه لم يتخذ أى اجراء من شأنه أن يجعل الضياع الكبيرة غير مربحة أو أن يجعل مالك الأرض الصغير أكثر قدرة على الوقوف فى وجه منافسة جاره الاقطاعى الكبير . وكان قانون الاصلاح الزراعى يتضمن نصا يمنع صفار الفلاحين من التصرف فى حصصهم الزراعية سواء بالبيع أو الرهن أو التنازل أو غير ذلك من الطرق . واذا صح أن هذا القيد ألغى فيما بعد ، فان تفتت ضيعة كبيرة الى مزارع صغيرة لكى تتكون من الأخيرة ضيعة كبيرة أخرى بعد فترة قصيرة ، كان كميلا بأن يجعل أثر القانون مؤقتا .

ولا جدال فى أن مشروع الاصلاح الزراعى كان له ما يركبه من وجهة النظر القانونية البحتة . غير أن المشكلة كان لها جانب آخر . ذلك أن الحائزين (possessores) الذين قضى المشروع بنزع ملكيتهم للأراضى العامة ، لم يكونوا فى الواقع هم عين الأفراد الذين استحوذوا عليها . عن طريق وضع اليه (١) . ففى حالات كثيرة بقيت هذه الأراضى العامة أو تلك فى حيازة أسرة بعينها طوال أجيال عديدة حتى لم يعد هناك فى نظر الناس ما يميزها عن الملكية الخاصة . فقد تنقلت هذه الأرض من يد الى يد عن طريق الشراء والبيع والرهن والوصية حتى لم تعد هناك فى الغالب سوى صلة واهية أو صلة على الاطلاق بين الحائز الحالى للأرض وبين الحائز الأصلى الذى كان قد تحايل على القانون . لقد قصرت الدولة فى تأكيد حقها أو المطالبة به الى أن طواه النسيان . بل انها توقفت عن تحصيل الايجار الضئيل الذى كانت قد فرضته فى

(١) تمت حيازة الاراضى العامة التى تقع فى جنوب ايطاليا بعد عام ٢٠٠ . واما الاراضى العامة التى تقع فى النورديا ووسط ايطاليا فان المرجح ان حيازتها تمت فى تاريخ سابق على ذلك .

الأصل على حائز الأرض نظير انتفاعه بها . ولم تفعل شيئا لتذكيره بالفارق بين الأرض التي يمتلكها امتلاكاً شرعياً وتلك التي احتازها لنفسه بوضع اليد^(١) . وفي مثل هذه الظروف كان من المحتمل أن يقيم الحائز دعوى مستندة الى مبدأ العدالة ان لم يكن الى مبدأ القانون . وكان لا بد من أن يشمر بأن حقه الجوهرى قد انتهك تحت ستار من حرقية النص القانونى .

كان تييريوس جراكوس مصلحاً نظرياً . لقد رأى داءً ويلاً ، واعتقد أنه اكتشف الدواء ، وصمم على تنفيذ مشروعه . ويتبين لنا مما نعرفه عنه أنه كان بالفطرة غير قادر على رؤية جانبى قضية من القضايا ، بل غير قادر حتى على ادراك أنه قد يكون لها جانبان . ولما كان معتمداً من استقامته ، ومقتنعاً تماماً بصواب سياسته ، فقد عجز عن أن يتصور شيئاً كالاختلاف فى رأى . واذا كان قد افترض أن معارضة خصومه لمشروعه مبعثها الانحراف وسوء النية أو الغفلة ، فقد تعذر عليه أن يتصور أن يكون الاختلاف فى رأى ثريها . ومع رجل من هذا الطراز لم يكن هناك أمل فى التفاهم للوصول الى حل وسط ، أو فى اربابه لرحمته عن موقفه . ولما كان من المستبعد أن يرضخ النبلاء من طبقة السناتو لقرار ينطوى على مصادرة جزء كبير مما استحدثوا عليه فقد أخذوا الأهبة لخوض المعركة ضده حتى الرمح الأخير .

ولقد ذكرت أن المشروع بعد تصديق الجمعية القبلية صار قانوناً واجب النفاذ . وفى الحق ان رجال طبقة السناتو سلموا بشرعية القانون بعد صدوره وان كانوا قد سعوا خلال السنوات القليلة التالية الى عرقلة أعمال لجنة الاصلاح الزراعى . لكن السناتو كان من سوء الحظ قد بذل قصارى جهده لاحباط المشروع منذ البداية لأن تييريوس على غير العرف المتبع تجاهله وتخطاه فلم يستشره فيه بل طرحه على الجمعية

ثمة فرق واضح بين الملكية الشرعية (*dominium*) وبين الحيازة بوضع اليد (*Possessio*) حيث يجوز للحائز حق الانتفاع بالأرض (= حق الارتفاق) نظير ايجار (*VECTIGAL*) وبين

تقبلية مباشرة اما كمبا للوقت أو تجنباً للمعارضة (١) . ولما لم يكن في وسع السناتو أن يتصدى للمشروع فقد أوعز الى أوكتافيوس (M. Octavius) - وهو أحد زملاء تييريوس - في أن يعترض عليه . وكان اعتراض قيب العامة (intercessio) اجراء دستوريا سليما لا غبار عليه ولا سبيل الى تجاهله أو الاستخفاف به . لكن تييريوس بوصفه قيباً هو الآخر لم يكن أمامه سوى عام واحد ، وإذا لم ينجح في استصدار قانونه خلال ذلك العام ، فمعنى هذا أنه سيضطر الى الكف عن المحاولة فترة طويلة من الزمن . وقد لام زميله على موقفه المريب لوما شديداً ، ولكن أوكتافيوس لم يسحب اعتراضه . وأرجئت جلسة الجمعية الى يوم آخر على أمل أن يراجع نفسه ويعدل عن موقفه . لكنه عاد متمسكاً برأيه . وعندئذ اقترح بعض المعتدلين طرح الخلاف على السناتو فقبل تييريوس الاقتراح عن طيب خاطر لتقته الكبيرة في سلامة مشروعه وعدالته . غير أن السناتو بدلاً من الالاحاح على أوكتافيوس ليسحب اعتراضه ، اقلب على تييريوس مندداً بمشروعه الذي ينم في رأيه عن انجاء غوغائى . ولما كان تييريوس مؤمناً بضرورة ابقاء بلده ، ولم يكن هناك شيء يستطيع صدده عن المضي فيما اعتزمه ، فان المعارضة لم تزد الا عناداً . وتخلت العجلة على التانى فأخل تييريوس بالدستور والعرف عامداً اذ تقدم الى الجمعية مقترحاً عزل زميله المتواطىء مع مجلس الشيوخ . وكانت حجة هي أن أوكتافيوس تحدى ارادة العامة الذين انتخبوه مثلاً لهم ، ومن حق العامة اذن أن يعزلوه من منصبه . لكن الحق الصراح هو أنه كان من المستحيل عزله شرعياً فلما كان حاضراً الجلسة . وكان من حقه أن يعترض لا على المشروع فقط بل

(١) مقديا في ذلك بنقيب العامة جايوس فلامينيوس (C. Flaminius) الذي كان قد استمد في عام ٢٢٢ قانوناً للإصلاح الزراعى يقضى بتوزيع اراضى غالة وبيجينوم على افراد الرومان عن طريق الجمعية العليا دون استشارة السناتو بل رغم معارضته . وكان لايوس (Laelius) اللقب بالحكيم (Sapiens) ، فنصل عام ١٤٠ ، قد فكر هو الآخر في الإصلاح الزراعى وتوزيع الاراضى العامة على الجنود المسرحين والفقراء . المقصود بارضى غالة - في مشروع فلاميتيوس هي الـ Galliae Agri تلك الاراضى قرب ساحل البحر الاورياتى (بين بلدتى اريمتوم وانكونا باقليم اومبريا) والتي كانت روما

على أى اقتراح يرمى الى تنحيته شخصيا عن منصبه . وهنا لهم الحماس على التروى فأصدرت الجمعية قرارا شعبيا بعزل أوكتافيوس الذى انسحب من القاعة خوفا على حياته ، ورشحت الجمعية قيبا آخر أسلس منه اقيادا ليحل مكانه . هكذا تمت الموافقة على مشروع تييريوس بعد أن أقدم على خطوة لا سابقة لها وتعتبر انتهاكا صارخا للدستور .

ولم يعد فى وسع السناتو أن يفعل شيئا مجديا بعد أن أصبح المشروع قانونا . لكنه سعى - على نحو ما ذكرنا - الى عرقلة أعمال لجنة الاصلاح الزراعى . ولذلك رفض السناتو اعتماد الأموال اللازمة لتمويل المشروع (كتزويد صغار الملاك الجدد بالماشية والآلات الزراعية ... الخ) . وعندئذ اضطر تييريوس الى استصدار قرار شعبى آخر بتخصيص جزء من التركة التى أوصى بها أتالوس الثالث (Attalus III) ملك برجامون للشعب الرومانى ، لمساعدة صغار الفلاحين متحديا بذلك السناتو ومفتتتا على حقه فى الاشراف على أموال الدولة والشئون الخارجية (١) .

واذ كان الوقت يمضى بسرعة ، وكان خصوم تييريوس يترصدون به شرفا فقد رأى - حماية لنفسه من المحاكمة السياسية التى قد يتعرض لها بعد تجرده من حصانة المنصب ، وحرصا على تنفيذ مشروعه بصورة فعالة - أنه لابد من اعادة ترشيحه قيبا للعامة فى السنة التالية ١٣٢ . وكانت اعادة الترشيح للمنصب عينه فى سنتين متواليتين أمرا محظورا

(١) هذه التركة لم تصل الى روما الا فى عام ١٢٩ أى بعد مصرع لييريوس بسنوات . ويبدو أن كثيرين من رجال الاعمال الاثرياء (وهم من عرفوا فيما بعد باسم طبقة الفرسان) والذين كانوا قد عارضوا مشروع الاصلاح الزراعى ، فقد ايدوا المشروع الخاص بتركة اتيوس الثالث نظرا لانفاله مع مصالحهم . ومن هذه التركة ، راجع : OGIS 338; 438; Syll. 694 = Lewis-Reinhold, Roman Civilization I (1951), pp. 321-323.

قد صدرتها من قبائل الـ *Sensones* الغالية بعد دحرهم وطردهم من هناك فى عام ٢٨٣ .

مقتضى قانون فيليوس (lex Villia annalis) الصادر في عام ١٨٠ . ومع أنه ليس من المؤكد أن هذا القانون كان ينطبق على تريونية العامة لعدم اعتبارها - من الناحية الفنية - منصبا عاما (magistratus) من مناصب الشعب الرومانى كافة ، فإنه لم يحدث أن تكرر ترشيح أحد لعين المنصب مرتين متواليتين منذ النضال القديم بين طبقتى العامة والاشراف . لقد أقدم تييريوس اذن على عمل جرىء آخر ، ومع أنه كان على ما يرجح موافقا لمعارض - والدستور الا أنه كان مجافيا لروحه لما فيه من خروج على القاعدة العرفية المستقرة منذ القرن الثالث .

وفى تلك الاثناء كان كثير من الفلاحين قد غادروا العاصمة الى الريف لحلول موعد الحصاد . وأما دهماء المدينة فقد فتر حماسهم بعد بلوغ مأربهم ولم تعد مسألة كاعادة الترشيح لتقابة العامة لتثير مثل اهتمامهم السابق . ومضت من الصيف فترة وحل يوم الانتخاب فدنا تييريوس أنصاره للاجتماع به عند الفجر فوق تل الكايتول حيث تنعقد الجمعية القبلية . وقد ثارت فيها مناقشات بين قباء العامة حول شرعية ترشيح تييريوس قهيا للمرة الثانية . وتبين أن فريقا منهم لا يقر هذا الترشيح . وهنا أعطى تييريوس لانصاره اشارة أولت على غير مقصدها فتثار شغب شديد أدى الى مناوشات . وانسحب بعض قباء العامة من الجلسة ، وتلبد الجو بشائعات مغرضة وأقاويل طائشة بلغت مسامع مجلس الشيوخ الذى كان منعقدا وقتذاك فى معبد « ربة الزهرة »^(١) لقد عرض تييريوس نفسه - على الرغم من أهدافه السلمية - لتهمة انتهاك سنة السلف (mos maiorum) بغية الاستئناء بالهكم . وكانت احدى القواعد العامة فى الدستور الرومانى تجيز انتباحة دم من يسم الى تنصيب نفسه طاغية . وطالب كثير من أعضاء السناتو القنصل مسكيقولا بأن يتخذ ابراء رادعا يوقف تييريوس عند حده ويحمى الدولة من خطره . لكن هذا القنصل رفض أن يتخذ أى اجراء غير

(١) الزهرة FIDES التى كانت تحسيدا للمعانى الاخلاص =

قانوني . وعندئذ ثارت ثائرة المتطرفين من رجال السناتو الذين عقدوا العزم على الحيلولة دون اعادة انتخاب تييريوس قريبا بأي ثمن ، واندفعوا مع طائفة كبيرة من أتباعهم وعبيدهم نحو الكابيتول وعلى رأسهم سكيبيو ناسيكا (Scipio Nasica) ، الكاهن الأعظم والقنصل السابق ، وهاجموا تييريوس وبعض أنصاره عند باب معبد جوبيتر الكابيتوليني وصرعوههم بالقرب من تماثيل ملوك روما القدماء . ويدو أن بعض أنصاره الآخرين قد بهتهم رؤية أقطاب السناتو الغاضبين أو فزعولهم تدهور الموقف تدهورا فاق حد تصورهم فولوا هارين دون أن يفهموا بمحاولة لاقتاد زعيمهم من أيدي خصومه . وفي الليل ألقيت جثث القتلى المتراوح عددهم بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ في نهر التير . وبادر السناتو إلى تشكيل محكمة خاصة برئاسة بوبيلليوس لايناس (P. Popillius Laenas) (١) لاجراء محاكمة صورية للبارزين من أنصار تييريوس . وقضت هذه المحكمة باعدام البعض ونفى البعض الآخر ، بنهمة استعمال العنف أو التهديد باستعماله .

ولعل قصة تييريوس جراكوس هي أكبر مأساة في التاريخ الروماني لأن قليلا من الصبر والتروي وقليلا من التساهل من جانب الطرفين كان كفيلا بافقاذ الموقف قبل أن يتدهور . وكان مبدأ النظام والطاعة الذي أخذ به الرومان قد تجنب منذ القدم كل مظاهر العنف ، وتغلب على المشاكل الدستورية بطريق التفاهم والتراضي . لكن تييريوس هز الدستور بعنف فقبول بالعنف من جانب حماته الأدعياء . ولم يقصد تييريوس سوى تحقيق الإصلاح فاتهى به الأمر إلى التهديد للثورة .

(١) وهو ابن جايوس بوبيلليوس لايناس قنصل عام ١٧٢ ورئيس السفارة الرومانية التي عهد اليها باللعب الى مصر لطالبه انطيوخوس الرابع ملك سوريا بالتسحب من الاراضي المصرية عام ١٦٨ . فلما التقى الملك السلوكي قرب الاسكندرية رسم بعضه في الرمال دائرة حول الملك وأمره بلهبة جارمة أن يرد على قرار السناتو قبل ان يغادر خارجها ، راجع كتابنا "مصر في التاريخ الروماني" (ط ١٩٨٨) ص ٨٩ .

= والولاء للدولة ، وحسن النية والنوفاة بالعهد عند ابن سراج
معاهدة او ميثاق او عهد اتفاق بين طرفين وكان معبدها فوق
الكابيتول بجوار معبد جوبيتر نفسه .

وكان هناك الى جانب اقفار الريف خطر داخلى آخر لا يقل جسامته عن سابقه وان لم يكن من اليسير تمييزه . ونعنى بذلك خطر العبيد وقيام العمل على سواعدهم . وثلثا العذر لتيريوس الذى لم يتم بمحاولة جدية لمعالجة مشكلة العبيد نظرا لخفاؤها ، وان كان قد حدث قبل توليه منصب التريونية مباشرة أن قام العبيد فى صقلية بثورة كشفت عن الخطر العسكرى والاقتصادى الذى يهدد كيان الدولة . فقد روى أن حوالى ٧٠.٠٠٠ عبد هبوا ثائرين فى وقت واحد ضد أصحاب الضياع الرومان والاغريق بتلك الجزيرة فى عام ١٣٥ . ولم تقمع ثورتهم الا بعد صراع طويل فى عام ١٣٢ . وكانت هذه الثورات التى قام بها العبيد فى فترات متباعدة وانتهت بثورة هائلة قام بها المجالدون (gladiatores) فى ايطاليا بزعامة اسبرتاكوس (Spartacus) الطراقى بعد ستين عاما (٧٣ - ٧١) أعراضا لداء يتطلب طبيا بارعا . لكن هذا الطبيب لم يظهر الى أن جاء يوليوس قيصر . فحتى ذلك الحين لم يجد الرومان متسعا من الوقت للتفكير فى ذلك الخطر ، فقد عاشوا فى عالم غاص بالعبيد واعتقدوا أن العبيد مصدر من مصادر رخائهم . واذا كانوا مصيبين فى اعتقادهم الى حد ما بسبب تناقص عدد الأيدي العاملة الحرة ، فقد بقيت المشكلة خافية عليهم . وعلى الرغم من جميع هذه اثورات الخطيرة ، فليس فى مؤلفات ذلك العصر الكثيرة ما يشير الى الاحساس ببلغ خطورة الداء الويل .

جايوس جراكوس

ظهور الحزب الديمقراطى

بعد مقتل تييريوس بتسع سنوات انتخب أخوه الأصغر جايوس جراكوس (Gaius Sempronius Gracchus) قهيا لعام ١٢٣ . وكان قد اختير عضوا فى لجنة الاصلاح الزراعى وهو فى سن الحادية والعشرين ثم شغل منصب الكويستور فى عام ١٢٦ وخدم فى ولاية سردينيا .

وقد تعلم كأخيه تعليما اغريقيا ولكنه كان بالفطرة رجلا عمليا فعالا . وكان أشد من أخيه حماسا ، وأسرع انفعالا ، وأخصب خيالا ، وأوسع أفقا . ويشهد له شيشرون نفسه بموهبته الخطائية الفذة . وفي الحق انه قد توافرت فيه كثير من مؤهلات الرعامة كالذكاء وقوة الشخصية والمقدرة والحيوية والتصميم . ولدنا ترجمة لسيرته بقلم رجل كان يعرفه - فيما يلوح - معرفة شخصية ، وهي تصوير حي ينطق بهذه المواهب لأول وهلة . كان جايوس وهو في أوج نشاطه السياسى يبدو - في نظر ذلك الشاهد للعيان - كأنه ملك منهمك في تصريف شتى شئون الدولة . ولا جدال في أنه كان رجلا دولته من الطراز الأول . ويتضح من دراسة كل ما وصلنا عنه بامعان أنه كان في حقيقة الأمر أحد هؤلاء الرجال القلائل الذين يعتقدون اعتقادا راسخا - كيوليوس قيصر من بعده - أنهم أقدر من سواهم على الاضطلاع بالمشروعات التى تحتاج اليها أمنهم ، وأن اعتقادهم هذا كان له ما يبرره . وكان من الطبيعى أن يحتضن مشروع أخيه ولكنه ذهب الى أبعد مما ذهب اليه أخوه . فقدبنى برنامجا اصلاحيا لا يدانيه في شموله أى برنامج تبناه قبيب آخر للعامة في عصر الجمهورية . وكان جايوس يقوم بتنفيذ مشروعاته بسرعة مذهلة ولا يألو جهدا في ذلك مشيرا دهشة خصومه بعزيمته التى لا تكل وبطريقته في حث غيره على العمل . ولعل السر في ذلك هسو أنه كان رجلا مهذبا بكل معانى الكلمة . ويروى لنا بلوتارخوس (١) أنه كان دائما في معاملاته مع الناس أبى النفس دمث الخلق معطيا كل ذى حق حقه .

الواقع أن شخصية هذا الرجل هى التفسير الصحيح لأعماله ، فلو أنه استطاع أن يحتفظ بنفوذه الشخصى وسلطته التشريعية بضع

(١) انظر بلوتارخوس « سيرة جايوس » وبخاصة الفصلين ٥ ، ٦ حيث يردد المؤرخ رواية منقولة عن شاهد لقيه ميانا .

سنوات - كما يتوقع أى سياسى فى العصر الحديث - لكان من المحتمل أن تجتاز روما بسلام مرحلة الخطر والتدهور . لكن ذلك لم يكن ميسورا لأن الطريق المؤدية الى الإصلاح كانت مخوفة بعقبات منها هولاك الدستور القديم التى بلى أكثرها وأصبحت لا تتلاءم وحاجات دولة كبيرة ، وضيق أفق هيئة السناتو للأولجركية التى عارضت كل تغيير حرصا على مصالحها الذاتية ؛ وأخيرا قلب أهواء جمهور المدينة المختلط الذى كان صاحب الكلمة الأولى فى التشريع والانتخاب . وتضائل ما كان لجايوس من نفوذ شخصى بينما كان يحاول التغلب على هذه العقبات ، ووجد مشروعاته تنحرف عن هدفها الأصلى . وقد تولى التريونية مرتين ، الأولى فى سنة ١٢٣ ، والثانية فى سنة ١٢٢ (١) ، واستطاع خلالهما أن يقوم بإصلاحات جد قيمة ، ولكنه أخفق بسبب دسائس السناتو فى انتخابات المرة الثالثة لسنة ١٢١ ، فأصبح مواطنا عاديا (privatus) .

* * *

لكن ينبغى قبل الكلام عن برنامج الإصلاح أن نستعرض الموقف فى الفترة ما بين الأخوين (١٣٢ - ١٢٤) . لقد اشتلت حركة المعارضة ضد السناتو على الرغم من مصرع تييريوس جراكوس ، وظهرت فى الأفق طبقة جديدة بدأت تتطلع الى نصيب من السلطة . كانت هذه الطبقة هى هيئة الفرسان أو بالأحرى رجال المال والأعمال الذين ازدادت أهميتهم كعامل له وزنه على مسرح السياسة الرومانية . وأما دهماء المدينة فقد تزايد تصورهم من النبلاء بعد أن شاهدوا بأعينهم نهاية

(١) أعيد انتخاب جايوس نيبيا لسنة ١٢٢ ون معارضة . ولعل هذا يرجع الى احتفاله بنفوذه وشعبيته مما جعل رجال السناتو يسلمون بالأمر " و . هذا مع أننا نشك فى صدور أى قانون منذ مصرع تييريوس يجيز تكرار الترشيح فى سنتين متعاقبتين . وكان أحد التغيرات قد تقدم فى عام ١٢١ أو ١٢٠ بمشروع فى هذا الصدد وبإيه بالفنل . غير أن بعض الباحثين يرون أنه ربما صدر مثل هذا القانون فى تلك الفترة ، راجع على سبيل المثال : M. Cary, A History of Rome (1949), p. 285 f. ; H. H. Scullard, From the Gracchi to Nero (1959), p. 31.

تيريوس ومصير أعوانه مما ملأ نفوسهم أسى ومرارة (١) . ولقد علمتهم التجربة كيف لا يعلقون أملا على السناتو أو يتوقعون الخير على يديه . ونيس أدل على تباعد الفرسان عن السناتو من صدور بعض تشريعات في تلك الفترة ضد مشيئة السناتو . ولعل أقرب تفسير الى الصواب هو أن الفرسان وعزوا الى أتباعهم المسجلين في القبائل الريفية وتأيد تلك التشريعات . ففي عام ١٣١ أو ١٣٠ نجح قيب العامة يدعى كاربو (C. Papirius Carbo) في استصدار قانون يجعل الاقتراع سريا في التشريع كما هو الحال في الانتخابات . ثم تقدم هو نفسه بمشروع قانون يجيز إعادة انتخاب قباء العامة مرتين متعاقبتين ، ولكنه أخفق في تنفيذه وإن كان بعض الباحثين يظن أن قانونا بهذا المعنى ربما يكون قد صدر في غضون السنوات القليلة التالية (٢) . وعلى أى حال فليس من المستبعد أن يكون هذا النقيب قد لقي تأييدا من الفرسان الذين لم يكن أى من المشروعات لينطوى على اضعاف لنفوذهم بقدر ما كان ينطوى على اضعاف لنفوذ النبلاء . وفي عام ١٢٩ جردت لجنة الاصلاح الزراعى من سلطاتها القضائية فيما يتصل بأراضى "الحائزين" غير الرومان وقلت الى أحد القنصلين . وفي العام نفسه مات فجأة سكيبيو إيميليانوس في ظروف غامضة ، وكان هو صاحب ذلك الاقتراح ، وصاحب أقوى نفوذ في روما . كان قد عرف بالاعتدال في سياسته والنفور من التطرف والعنف . وبذلك انزاحت بموته عقبة كانت تعترض طريق الزعماء الشعبين (٣) وكان بين الايطاليين كثيرون من حائزى الأراضى العامة ، الذين أزعجهم نشاط لجنة الاصلاح الزراعى ونشر بينهم التدمير والسخط . ومع أن هذه اللجنة أصبحت عديدة السلطة وتوقف نشاطها

(١) في عام ١٢٢ أوفد السناتو سكيبيو ناسيكا مع أربعة آخرين الى ولاية أسسيا الجديدة لتنظيمها ولتجنيبه موجة الكراهية التى نالت قصده في روما بسبب الثور الذى قام به في مصرع تيريوس جراكوس .

(٢) راجع الحاشية ١ ص ١٦ ١٥٠ راجع ص ٢٢ حاشية (٢) وأنظر ايضاً (٣) من سكيبيو إيميليانوس : راجع ص ٢٢ حاشية (٢) وأنظر ايضاً A.E. ASTIN, Scipio Aemilianus (1967)

تقريباً إلا أن كثيرين من حائزي الأراضي الايطاليين ساورهم القلق من أن يأتي مصلح آخر وينادى بإحياء هذه اللجنة فتستأنف نشاطها وتبدأ في مضايقتهم من جديد . وقد زاد من قلقهم أنه لم يكن لهم - على خلاف حائزي الأراضي الرومان - صوت مسموع في الجمعية القبلية نظراً لعدم تمتعهم بكامل حقوق الجنسية الرومانية . وقد تبين لهم من تجاربهم مع الرومان أن الجنسية الرومانية هي أمضى سلاح يستطيعون به التعبير عن وجهة نظرهم والدفاع عن مصالحهم . كان ذلك - على ما يرجح - هو السبب الذي دفع الايطاليين وقتئذ الى المطالبة بالجنسية الرومانية . ولا مرأى في أنه كانت هناك أسباب أخرى كثيرة لاستياء الايطاليين كسوء معاملة السلطات الرومانية لهم ، وإجبارهم على الخدمة في الجيش الروماني بأعداد متزايدة تجاوزت الحدود التي نصت عليها المعاهدات . ومع ذلك فنحن لا نجانب الصواب إذ نستخلص أن حركة الإصلاح الزراعى هي التي أدت الى إثارة تذمر الايطاليين من الأوضاع .

وحدث في عام ١٢٦ أن عاد الى روما من ولاية آسيا الحاكم الذى عهد اليه بتنظيمها بمعاونة لجنة العشرة السناتورية ، فأقيمت عليه دعوى الابتزاز . لكن محكمة الابتزاز المشككة من محلفين من طبقة السناتو برأته من التهمة برغم توافر الأدلة على ارتشائه . وأثارت القضية فضيحة في روما وأثارت كذلك حنق الفرسان ، وجعلتهم يؤيدون ترشيح فولفيوس فلاكوس (M. Fulvius Flaccus) وهو صديق تيرينوس وعضو لجنة الإصلاح الزراعى بعد موته ، قنصلاً لعام ١٢٥ (١) . وكان ذلك دليلاً

(١) بعد مصرع تيرينوس جراكوس في نهاية عام ١٢٢ ، حل موكياتوس محله كمفسو و لجنة الإصلاح الزراعى . ولما لقي موكياتوس مصرعه في آسيا الصغرى عام ١٢٠ حل محله فولفيوس فلاكوس . ول تلك الأثناء كان ابيوس كلوديوس بولكر قد مات (آخر ١٢١) فحل محله نقيب العامة كاريو كمفسو في تلك اللجنة (١٢٠) . وعلى ذلك صار تشكيل اللجنة على النحو الآتى : جايوس جراكوس ، وبابريوس كاريو ، وفولفيوس فلاكوس وظلت كذلك حتى عام ١٢٢ .

آخر على اشتداد حركة المعارضة ضد السناتو . وما أن تقلد فلاكوس منصبه حتى يادر الى تهدئة خواطر الحلفاء باقتراح مشروع يقضى بمنح الجنسية الرومانية للاتين والايطاليين أو منح من لا يرغبون منهم في الاندماج في الدولة الرومانية حق التظلم من أحكام المندوبين الرومان . ولعل فلاكوس أقدم على ذلك مدفوعا اما برغبة صادقة في حل المشكلة أو برغبته في التخفيف من شدة معارضة الايطاليين للجنة الاصلاح الزراعى وتمهيد الطريق لاجراء يمكن اللجنة من استئناف نشاطها . لقد كان الايطاليون - وفقا لرواية المؤرخ أيبافوس - مستعدين للتنازل عما في حيازتهم من أراض عامة في مقابل اكتساب الجنسية الرومانية . غير أن المشروع لم يلق أى تأييد سواء من جانب السناتو أو حتى من العامة (وربما أيضا من الفرمان) فسحبه فلاكوس قبل الاقتراع عليه . ورحل الى جنوب غالة حيث أسندت اليه قيادة أحد الجيوش الرومانية للدفاع عن مرسيليا ضد البرابرة . كان فلاكوس اذن هو أول من أثار المسألة الايطالية . غير أن رفض مشروعه أيقظ الفتنة النائمة بين الحلفاء ولاسيما بعد أن حاول پنوس (M. Junius Pennus) أحد قباء العامة ، أن يستصدر - بإيعاز من السناتو كاجراء مضاد لمشروع فلاكوس - قافونا بتحريم سبكنى غير المواطنين في المدن الرومانية وبطردهم من العاصمة لكى يحرم اللاتين بوجه خاص من ممارسة حقهم في الاقتراع بالجمعية القبلية . وأوشك صبر الايطاليين أن ينفد لولا أن السناتو صرف النظر عن مشروع پنوس بعد رحيل فلاكوس عن العاصمة ، ولولا أن رقيبى (censores) عام ١٢٥ تساهلا في قيد أعداد كبيرة من الايطاليين في قوائم تعداد المواطنين في ذلك العام حتى أن العدد الاجمالى ارتفع من ٣١٨ر٠٠٠ الى ٣٩٤ر٠٠٠ . ومع هذا فقد انفجرت فريجىلاى (Fregellae) ، وهى احدى المستعمرات اللاتينية ، ثائرة في وجه الرومان بسبب اخفاق مشروع الجنسية . واذ كان الحلفاء الايطاليون لم يوحدا صفوفهم بعد ، وكانت سياسة السناتو ما تزال تجرى على عزل مدتهم

الراحدة عن الأخرى بقدر الامكان ، فقد ألقت فريجللاى نفسها وحيدة في الميدان . ولم يجد الرومان صعوبة في قمع ثورتها وتدميرها في العام نفسه (١٢٥) . لقد عوقبت فريجللاى على تمردھا عقابا رهيبا ، لكن تدمير الايطاليين ظل كامنا في صدورهم كجذوة متقدة تحت الرماد .

خلال تلك الفترة التي امتدت حوالى عشر سنوات كان جايوس جراكوس نائب التفكير في برنامج للإصلاح وأفضل السبل الى تحقيقه . ورأى قبل الشروع في أى خطوة أن يؤمن طريقه حتى لا يتعثر أو يتعرض لما تعرض له أخوه من قبل . ولعله فكر حتى قبل ترشيح نفسه قهيا في تأليف جبهة من طبقتى دهماء العاصمة الفقراء والفرسان الأغنياء لكي تتحقق له الأغلبية اللازمة لتنفيذ مشروعاته ويتمكن من تحطيم سيطرة طبقة السناتو الارستقراطية . وكان سبيله الى ذلك هو أن يتبنى مشروعات من شأنها اجتذاب هاتين الطبقتين الى صفه على الرغم من تضارب مصالحهما في بعض الأحيان . وبدهى أنه لم يغفل طبقة صغار الفلاحين في الريف فاحتضن مشروع أخيه حتى يضمن استمرار تأييد هذه الطبقة ، وان كان لم يعول عليها كثيرا نظرا لعدم استقرارها في العاصمة بصفة دائمة مما يقلل من تأثيرها عند الاقتراع في الجمعية . وحاول أن يزيل أسباب تدمير الايطاليين بإيجاد حل لمشكلتهم . لكن من الانصاف أن تؤكد أن بعض هذه المشروعات كان نابعا من رغبة صادقة في اصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بما يحقق الخير والرفاهية لروما وايطاليا والولايات .

وقد استطاع جايوس خلال الفترتين اللتين تولى فيهما منصب قهيب العامة ان يستصدر عددا من القوانين . غير انه من المتعذر ان ترتبها ترتيبا زمنيا طبقا لتاريخ صدورھا ، بل نحن لا نعلم بأى منها صدر في الفترة الأولى وأى في الفترة الثانية . ومن الملائم ان تصنف اما حسب الموضوع أو حسب الهدف الذي صدرت من أجله . وإيا كان الأمر فقد بدأ

جايوس باقتراح مشروع ينص على أن الشخص الذي عزل من منصبه بقرار من الشعب لا يجوز له أن يرشح نفسه لأي مناصب أخرى . ومع أن نص المشروع كان عاما مبهما ، لقان الباعث الحقيقي لم يخف على الناس الذين أدركوا أن المقصود به هو أوكتافيوس ، خصم تيريريوس الذي كان قد اعتزل الحياة السياسية . واحص جايوس بعدم ارتياح الرأي العام الى المشروع فسحبه - على ما يروى - استجابة لتوسلات أمه اليه . لكن اذا كان قد عدل عن مشروع أراد به الانتقام لأخيه ، فسرعان ما تقدم بآخر لتأمين مركزه كزعيم شعبي ، اذ اقترح اجراء اصلاح قضائي يحميه من مثل تلك المحاكمة التي قضت بالموت او بالمنفى على أنصار تيريريوس ، وكانت أحكامها تنطوي على معنى الادانة لأخيه حتى بعد مقتله . لقد نجح في استصدار قانون ينص على ادانة الحاكم الذي يقضى باعدام مواطنين رومانيين دون أن يخولهم حق التظلم امام الشعب (١) . وقد جعل هذا القانون بأثر رجعي لكي ينطبق على پوپيلليوس ، قنصل عام ١٣٢ ، الذي رأس المحكمة التي قضت باعدام تيريريوس . وقد أقيمت الدعوى على پوپيلليوس بمقتضى هذا القانون وأدين ففادر البلاد الى المنفى ، وهو ما ابتهج له جايوس . وكان غرضه الرئيسى من القانون تجريد السناتو من سلطته الرهية التي

(١) كان حق استئناف احكام الاعدام امام الجمعية المنوية ، واحكام الغرامات الكبيرة الجمعية القبلية ، وهو ما يعرف بحق التظلم إلى الشعب (provocatio ad populum) بوصفهما معكمتين شيعيتين (iudicia populi) ، وكنا هاما من حقوق المواطن اللنية ويكاد يعادل بالنسبة لغير المواطن حق الجنسية الرومانية نفسها . وقد حصل العامة على هذا الحق أثناء نضالهم ضد الاشراف من أجل المساواة الاجتماعية والسياسية بمقتضى قانون الاثنا عشر (اللوح رقم ٩) في سنة ٤٤٥ . ثم تأيد هذا الحق بقانون فاليريوس (lex Valeria de provocatione) الذي صدر في سنة ٢٠٠ . وكان هذا الحق لا يسرى قديما الا داخل حدود المدينة (Pomerium) ومسافة ميل واحد وراها ، ولكنه اصبح يسرى بعد ذلك في أى جزء من اجزاء الامبراطورية بمقتضى قوانين پوركيوس (leges Porciae) التي صدرت في سنتي ١٩٩ ، ١٩٨ والتي نصت على عدم جلد أى مواطن روماني (verberatio) دون اعطائه فرصة استئناف الحكم . وكانت عبارة انا مواطن روماني (civis Romanus sum) تخول المرء حق المحاكمة في روما نفسها .

اتحلها بالبطل . واصطر السناتو الى الكف عن تشكيل المحاكم الخاصة ، ولكنه ابتكر سلاحا جديدا لمواجهة أحوال الطوارئ . وكان من مخزية القدر أن جريت فعالية هذا السلاح أول ما جريت ضد جايوس نفسه .

ولكى يسترضى دهماء روما (plebs urbana) ، وهم إحدى الطوائف التي كان حريصا على كسب أصواتها لنجاح مشروعاته ، استصدر جايوس جراكوس قانونا يعرف بقانون الغلال (lex Sempronia frumentaria) . كان اطعام جمهور العاصمة الفقير مشكلة قديمة نشأت عن تزايد عدده بنسبة فاقت حد التصور ، وعدم انتظام تموينه بالقمح ، وعن تقلب سعر الغلال المستمر بسبب انتدعب والمضاربة . وأدرك جايوس أن المشرع الذي لا يعمل على الحيلولة دون ارتفاع سعر القمح ارتفاعا فجائيا قد يتعرض لسنخ الجمهور ، فحدد له سعرا ثابتا أقل من سعر السوق ، على أن تتحمل الدولة الفرق بين السعرين ، بغض النظر عما تتكبده من خسارة (١) . ولقد قيل في قد هذا المشروع بأن جايوس اشتط فيه لأنه أوهن به عزائم الدهماء وأفسدهم فصاروا أكثر تواكلا وامتهارا ، وهيا به لهم الفرصة فيما بعد لاجداث مزيد من الشغب والضرر البليغ ، وتنكب طريق الصواب لأن الدولة أصبحت في الواقع هي التي تقطع على نفقتها معظم جمهور المدينة منذ ذلك الحين ، كما شجع - دون أن يدري - على تدفق أفواج

(١) بمعنى أن تشتري الحكومة من الخارج كميات كبيرة من الحنطة وتودعها في المخازن بميناء أوستيا (Ostia) ثم تبيع كل شهر إن يطلب من جمهور العاصمة كمية محددة من القمح (حوالي ٢ كيلة) بسعر يساوي تقريبا نصف سعر السوق ، أي بسعر الفصاء ستة أسات ولث أس (أي ثوبان) مليم لأن الأس يساوي عشرين مليم (تقريبا) للمودبوس الواحد modius (حوالي نصف كيلة) . وقد بولغ في مدى الخسارة التي تتحملها الدولة من جراء هذا المشروع ، حيث أن الدولة كانت تبيع القمح بسعر يقرب من سعره في أسواق مناطق إنتاجه . وبمضي أن سعره وقت خروجه من الموانئ كان أدنى بكثير من سعره في سوق روما . وعن ثم ندره كذا آثار المشروع معارضة كبار ملاك الأراضي والمصارفين في سوق القمح إذ سد عليهم طريق التلاعب وبنى أرباح طائلة وبخاصة في أوقات النقص والشدة .

جديدة من الريف الى العاصمة ، وهو اتجاه مناقض لاتجاه أخيه ومشروع الاصلاح الزراعى . غير أن مشروع الغلال لم يكن بدعة لأنه حدث حتى قبل زمن جايوس أن لجأت الحكومة الرومانية أحيانا الى اتباع هذه الوسيلة في أوقات الشدة . وكانت رقابة الدولة على أسعار القمح أمرا مألوفا في أثينا في القرن الخامس ، بل وفي الاسكندرية زمن البطلمة في القرن الثالث . وكان من بين المبادئ العامة المسلم بها وقتئذ في المدن الكبرى بالشرق الهلينستى ان الدولة مسئولة عن إقاشة الفقراء من المواطنين . وفي أغلب الظن أن جايوس أحاط علما بهذه النظريات ، وأنه تأثر بها ان لم يكن قد استوحى مشروعه منها . وبدهى انه لم يقب عن باله ان مشروع الغلال سيزيد في الوقت عينه من شعبيته بين دهباء العاصمة وأنه ربما يضعف الروابط بين الارستقراطيين وبين أتباعهم الذين قد يصبحون أقل اعتمادا عليهم في الحصول على خبزهم اليرمى . وأما عن النفقات التى قد تتحملها الحكومة نتيجة لبيع القمح بتمن زهيد فلعل جايوس بررها بأن العامة يستحقون نصيبا من الدخل المتحصل من الولايات الرومانية . ولما كان العامة - طبقا لقانونه - مطالبين بدفع ثمن ما يشترونه من قمح ، وكانوا لا يتسلمونه دون مقابل فان جايوس لا يعتبر مسئولا عن استحداث نظام هبات القمح المجانى . صحيح انه اتخذ خطوة في هذا الاتجاه ، ودل على الطريق الذى يمكن أن يسلكه الساسة المتلهفون على التودد الى الدهماء على حساب الدولة . غير أنه من التجنى ان نحمله تبعة هذا الانحراف ، أو تبعة أى مشروع غوغائى صدر من بعده لتوزيع القمح بالمجان على دهباء روما بقصد ارضائهم أو اسكاتهم أو شراء ذمتهم ، الأمر الذى جعلهم يتردون في حماة العسوز والفاقة ويستمرئون البطالة والعيش عالة على الدولة . ولا شك في أن جايوس لم يقصد ان تتحمل الدولة أى خسارة اذا نظمت عمليات انتاج القمح واستيراده وشحنه وتخزينه على النحو الذى رسمه . ولا شك أيضا أنه أراد بقانون الغلال أن يخفف من أزمة البطالة لأنه

كان بمثابة اعانة للمتعطلين . ولعله رأى أن ذلك الدواء المسكن للمشكلة (فهو ليس بالعلاج الجذرى) خير من ترك الأمور تتدهور فيحدث في روما ما حدث في بعض مدن بلاد اليونان ، ويثور الفقراء على الأغنياء ثورة لا تبقى ولا تذر ، وربما في وقت يخيم فيه على الدولة شبح الخطر من الخارج فيتصدع صرح الجمهورية فجأة وينهار . وينبغى ان لا يغرب عن البال أن قانون الغلال لم يكن الا واحدا من عدة مشروعات تبناها جايوس لمعالجة مشكلة البطالة . ولما كانت روما تعتمد على القمح المستورد من صقلية وافريقيا فقد حرص جايوس على ان تخزن الحكومة مقادير كبيرة منه كافية لتموين روما حتى يتيسر لكل فرد من دهمائها الفقراء أن يشتري الحصة المقررة له شهريا بالسعر الرسمى . اذلك ضمن مشروعه اقتراحا ببناء صوامع غلال كبيرة . وكان يرمى أيضا الى أن يفتح لعدد كبير من الأيدى الحرة المتعطلة أبواب العمل في بناء هذه الصوامع ، ولو بصفة مؤقتة .

واستصدر جايوس قانونا بانشاء شبكة من الطرق الريفية في مختلف أنحاء ايطاليا ، وتحسين الطرق الريفية القديمة . وقد أولى هذا المشروع عناية خاصة حتى تكون الطرق نافعة وجيدة ، ولا تقل جودة عن الطرق العسكرية المنتشرة في أرجاء شبه الجزيرة . وكان يرمى بذلك الى تيسير نقل الغلال والمحاصيل الزراعية الأخرى الى الأسواق القريبة فيسهل على صغار الزراع مهمة تسويقها محليا . وهنا نلمس أيضا حرصه على توفير العمل للمتعطلين من دهماء روما في شق الطرق ، وعلى تشجيع المستعمرات الزراعية لأن الأراضى المتاخمة لهذه الطرق وزعت على فلاحين أخذوا على عاتقهم مسئولية صيانة الطرق نظير اعفائهم من الایجار . واذ كان قد أخذ على عاتقه مواصلة عمل أخيه ، فقد استصدر قانونا أحيا به قانون الاصلاح الزراعى ، وسعى الى تنفيذه بتلك الروح العملية المثابرة التى لمسناها في ترجمة بلوتارخوس لحياته . ومن المرجح أنه أعاد للجنة الاصلاح الزراعى سلطتها القضائية التى سلبت منها في

عام ١٢٩ بعد مصرع أخيه بسنوات قليلة . ولما كان معظم الأراضي العامة التي يمكن التصرف فيها قد تم توزيعها وقتئذ فقد بحث جايوس عن وسائل أخرى يدعم بها برنامجها في الإصلاح الاقتصادي - الاجتماعي .

اقترح جايوس مشروعاً بإنشاء عدد من المستعمرات (coloniae) في إيطاليا . وفي أكبر الظن أنه كان يستهدف أولاً تخفيف أزمة تضخم سكان روما وغيرها من المدن . ومن بين المستعمرات التي ينسب إليه تأسيسها كانت اثنتان وهما نبتونيا (Neptunia) بالقرب من تارتوم ومينرفيا (Minervia) بالقرب من اسكولاكيوم (عند أصبع القدم الإيطالية) مرافئ بحرية . ويبدو أنه اختير لتعميرها - إلى جانب الفقراء - أفراد يتوافر لهم قدر من رأس المال الذي يمكنهم من إنشاء صناعات صغيرة والاشتغال بالأعمال التجارية . غير أن أهم مشروع جرى له في هذا الصدد هو محاولته تأسيس مستعمرة - لأول مرة - عبر البحر - مقتدياً بالآغريق - في مكان قرطاجة القديمة التي ظلت خاوية منذ تدميرها في عام ١٤٦ أو على مقربة منها . وقد اعتمد تأسيس هذه المستعمرة بصدور قانون روبريوس (lex Rubria) نسبة إلى نيب العامة الذي تبنى المشروع بإيعاز من جايوس . وكان القصد منها امتصاص الفائض من سكان العاصمة المتعطلين الذين يرهقون خزانة الدولة ، وارضاء فقراء الرومان والإيطاليين ، إذ تقرر إشراك حوالي ٦٠٠٠ منهم في هذه المستعمرة وإعطاء كل واحد منهم حصة كبيرة تبلغ حوالي ٢٠٠ فدان روماني لتكون امتلاكاً خاصاً معفى من الإيجار . ومن الواضح أن هذه المستعمرة التي عرفت باسم يونونيا (Iunonia) كانت ذات طابع زراعي . وفي الحق أن الساسة الرومان من بعد جايوس لم يجدوا وسيلة أفضل من إنشاء المستعمرات لمعالجة مشكلة البطالة التي بقيت بسبب انتشار الرق مشكلة مزمنة ، وبقيت معها الحاجة إلى

مشروعات كنوزيع هبات القمح المجاني ابتغاء شراء مكوت غوغاء روما
أو شراء ذمتهم .

واتبع جايوس ذلك بمشروعين أحدهما يهدف الى التخفيف من
صرامة الخدمة العسكرية الالزامية بمنع التجنيد قبل من السابعة عشر ،
والآخر ينص على أن تصرف الدولة للجنود الملابس مجاناً دون خصم
الثن من رواتبهم .

وقد بدأ جايوس عمله السياسى باقتراح زيادة عدد أعضاء مجلس
الشيوخ الذى كان محور الدستور ، وذلك باضافة ٦٠٠ عضو اليه
يختارون من الطبقة التى تلى طبقة السناتو مباشرة من حيث النصاب
المالى (١) . ولا ندرى - ازاء تضارب الأقوال - قصده الحقيقى من
هذا المشروع ، وهل كان يهدف الى تطعيم هذا المجلس بدماء جديدة
نشطة أم كان يهدف الى توسيع دائرته فقط بحيث يسهل اختيار محلفين
من بين أعضائه لمحكمة الابتزاز لا يتصفون بالتعصب فى آرائهم أو
التحيز فى أحكامهم . وإيا كان القصد فقد قوبل الاقتراح بمعارضة
شديدة من جانب السناتو فسحبه جايوس . غير انه تمكن من استصدار
قانون ينص على فرض عقوبات على محلفى محكمة الابتزاز (وهم من
رجال السناتو) الذين ثبتت ادانتهم بالرشوة باعتبارها جريمة . وأخيراً
كال للسناتو ضربة قاصمة باصدار قانون اكيلوس (lex Acilia)
الذى يحمل اسم أحد زملائه وغير به تشكيل محكمة استرداد الأموال
المبتزة (Quaesto de Repetundis) . كانت هذه المحكمة
المدنية مختصة بالنظر فى دعاوى الابتزاز المرفوعة على حكام الولايات
السابقين والزامهم فى حالة ثبوت التهمة بدفع تعويضات عن الأضرار
بعد أن أصبح الابتزاز من أهالى الولايات ظاهرة شائعة مزعجة .

(١) وفى رواية أخرى انه اقترح اضافة ٢٠٠ عضو ليصبح عدد أعضاء مجلس
الشيوخ ٦٠٠ .

وباستناد من قانون اكيلوس برغم وصوله اليها مشوها أنه كان ينص على استبعاد حكام روما أثناء توليهم مناصبهم ، ورجال السناتو وأفراد أسرهم ، من هيئة المحلفين (حوالي ٤٥٠) التي كان يختار منها خمسون عضوا لينظروا في كل قضية من قضايا الابتزاز . ومع ان النص قد خضعت منه الشروط المحددة واللازم توافرها في المحلفين الجدد ، فإنه يكاد يكون من المؤكد أنها صيغت بحيث تنطبق على طبقة رجال الأعمال وملاك الأراضي الأثرياء الذين أصبح يطلق عليهم جميعا منذ ذلك الوقت اسم هيئة أو طبقة الفرسان (Ordo Equester) ، وكان الحد الأدنى لثروة الواحد منهم ٤٠٠.٠٠٠ سسترتيوس (sestertius) (١) . ولعل هذه هي أول مرة يحدد فيها نصاب الفرد من هذه الطبقة ، وأول مرة يرد فيها تعريف لطبقة الفرسان بأوسع مفهوم لها . وبذلك يكون جايوس قد أكد الوضع السياسي لهذه الطبقة الاجتماعية التي كانت قد اكتسبت أهمية اقتصادية منذ عصر التوسع الاستعماري . لقد أصبح الفرسان بمقتضى اسناد مهام رسمية اليهم أكثر احساسا بقوتهم ومصالحهم

(١) عملة فضية رومانية كانت في الأصل تساوي ٢٥٠ أس (as) . راجع ص ٢٢ هامش - أي حوالي ٩٠ مائلا . وقد حلت محل الأس البرونزي كوحدة للحساب النقدي عند الرومان منذ الحرب البونية الثانية . والمبلغ المشار اليه في المتن يعادل الآن ... ٦٠٠ جنيه مصري على وجه التقريب .

وعن قانون اكيلوس الخاص باسترداد الاموال المبتزة

(lex Acilia Repetundarum)

والذي ينسب الى مانيوس اكيلوس جلابريو أحد زملاء جايوس في نقابة العامة سنة ١٢٢ ق

راجع :

S. Riccobono, *Fontes Iuris Romani Antejustiniani*, I (1941), 84 ff.; E. H. Warmington, *Remains of Old Latin*, IV (L.C.L., 1940), 317 ff.; Lewis-Reinhold, *Roman Civilization* (1952), 247-251; E. Badian, *Amer. Journ. Philol.* (1954), 374 ff.; M. I. Henderson, *Journ. Rom. Stud.* (1951), 71 ff.; A. N. Sherwin-White, *Journ. Rom. Stud.* (1952), 34 ff.

وقد يشار الى هذا القانون احيانا باسم قانون سمبرونيوس للاصلاح القضائي

lex Sempronia iudiciaria

ومن طبقة الفرسان ، انظر : H. Hill, *The Roman Middle Class*. (1952)

C. Nicolet, *L'ordre équestre à l'époque républicaine*, I (1966)

الذاتية ، وبدأت المنافسة تحدث بينهم وبين رجال السناتو . وفي الحقيقة أن السيطرة على محكمة الابتزاز ستصبح في الفترة التالية مثار نزاع مستمر بين أعلى طبقتين في المجتمع . ومع أنه كانت هناك بعض اسباب تبرر تغيير هيئة محلفي هذه المحكمة التي دأبت على اصدار احكام مشوبة بالتحيز في السنوات الأخيرة ، فإن قانون أكيليوس لم يكن من شأنه أن يؤدي الى اصلاح محكمة الابتزاز ، أو رفع مستوى نزاهتها أو احياء أمل أهالي الولايات في العدالة بعد ان وضعت المحكمة في قبضة رجال كان جل اهتمامهم منصبا على استثمار أموالهم في الولايات واستغلال أهاليها . وكان في استطاعتهم عندئذ ارباب الولاة العادلين الذين كانوا يحاولون حماية الأهالي من جشع ملتزمي جباية الضرائب . لقد كان لرجال طبقة الفرسان مصالح كثيرة في الولايات . وكانت هذه المصالح حليقة بأن تدفعهم الى الاصطدام بالولاة . وبينما كان للفرسان المشتغلين بالتزام جباية الضرائب مصلحة واضحة في تحصيل أكبر ايراد ممكن من أهالي الولايات ، كان الواجب يملى على الولاة - وهم من طبقة السناتو - حماية هؤلاء الأهالي من التعسف والاعتصاب . وإذا كان عدد غير قليل من الولاة قد آثر مهادة ملتزمي جباية الضرائب ، فقد كان هناك قلة آخرون رفضوا التواطؤ معهم والتضحية بالأهالي من أجلهم . وقد زاد الطين بلة أن المحلفين الجدد من طبقة الفرسان لم ينطبق عليهم قانون جايوس الخاص بفرض عقوبات على المرتشين من المحلفين بحجة أن هذا القانون صدر قبل اعادة تنظيم محكمة الابتزاز ، ومن ثم فلا يقع المحلفون الجدد تحت طائلته . وترتب على ذلك أن أصبحت محكمة الابتزاز بتشكيلها الجديد أميل الى ادانة المتهمين منه الى تبرئتهم . وشجع ذلك ملتزمي جباية الضرائب (publicani) والمرابين والسيارفة ومن اليهم (negotiatores) على الاستغلال والابتزاز والتعسف مع أهالي الولايات لاطمئنانهم الى أن الولاة لن يجسروا على التعرض لهم اما عن رهبة من الاصطدام بهم أو عن رغبة في التواطؤ

معهم . وثمة واقعة صارت مضرب المثل على انحراف هيئة المحلفين الجديدة وقضائها الظالم : كان ررتيليوس روفوس (P. Rutilius Rufus) - نائب موكيوس اسكيڤولا حاكم ولاية آسيا في عام ٩٧ - رجلا نزيها فوقف للتمزى جباية الضرائب الجشعين بالمرصاد ، فلفترا له تهمة وأقيمت عليه الدعوى امام محكمة الابتزاز المؤلفة من محلفين من طبقة الفرسان ، وأداته المحكمة وقضت عليه بالنفى في عام ٩٢ فرحل الى ولاية آسيا حيث عاش مكرما بين الأهالي الذين اتهم بأنه تعنت معهم وابتز أموالهم !

كان جايوس يدرك تماما مدى تأشير هذا القانون لأنه علق عليه قائلا بأنه حطم نفوذ السناتو وانه سيطل - حتى بعد موته - بمثابة شوكة في جنب ذلك المجلس . ويكشف ذلك عن رغبة في الانتقام كانت خليقة بأن تشوه كفاية العساق وقصدت النزبه في الاسلح . ولا يجادل أحد في أن الوقت كان قد حان لكى يتاح للفرسان نصيب من السلطة السياسية أكبر مما كان مناحا لهم . غير أن قانون جايوس جاء قاصرا فلم يستطع تحقيق ذلك الهدف . وكان الأثر السياسى الذى ترتب على تشريعه القضائى هو أنه حد من شركة السناتو دون اصلاح حاله ، وخول للفرسان سلطة دون تحصيلهم أى مسئولية .

لقد كان من العسير الجمع بين مباداة الحرص على مصلحة أهالى الولايات وسياسة الحرص على كسب ولاء الفرسان . ويتضح ذلك من قانون العشور الذى يكشف عن تناقض في الاتجاه ، وقد استصدره جايوس لاعادة تنظيم جباية ضريبة العشور (decum) على كل المحصولات الزراعية في ولاية آسيا (١) . وكانت مدن هذه الولاية هى التى تتولى جباية هذه الضريبة عن طريق جباة محليين . وجاء قانون جايوس لينص على أن عقود التزام جباية هذه الضريبة في كل مدن تلك الولاية ينبغى ان تتم عن طريق مزاد يجريه الرقيبان (censores)

(١) يعرف هذا القانون أحيانا باسم : Lex de provincia Asia.

في روما بعد تحديدهما الشروط اللازمة . ولما كان المتعهد الذي يتقدم بأعلى عطاء مطالباً بأن يدفع للحكومة مبلغاً اجمالياً ضخماً ، ثم يسعى هو الى تعويضه مع الأرباح بجباية ما يمكن له جبايته من أهالي المنطقة فان ذلك لم يكن بالأمر الميسور الا لشركة مقتدرة . كان القصد من القانون اذاً هو حرمان الجباة المحليين في ولاية آسيا من تحصيل هذه الضريبة لأن شروط العقد كانت في الغالب باهظة ، ولا تستطيع الوفاء بها الا شركة من شركات التزام الضرائب الغنية (societates publicanorum) التي كان كبار المساهمين فيها هم رجال طبقة الفرسان الرأسماليين . ولعل جايوس افترض ان القانون يساعد على حماية أهالي الولاية من جشع الحكام . ولعله افترض كذلك ان هذه الشركات الرومانية التي تحصل على امتياز جباية الإيرادات الموحدة من الولاية برمتها ، كانت أقدر من سواها على التقدم الى الحكومة بعطاءات عالية تحقق للخزانة العامة دخلاً ثابتاً ضخماً . غير أنه في حقيقة الأمر جعل من التزام جباية العشور في ولاية آسيا احتكاراً في يد شركات الفرسان . ولما كانت هذه الولاية من أغنى الولايات الرومانية ، فقد أتاح جايوس بقانونه - سواء عن قصد أو عن سهو - لرجال الأعمال الرومان فرصاً لجنى أرباح طائلة من وراء هذه الصفقات . ولا شك في أنه ارضاهم وضمن تأييدهم مثلما ارضاهم من قبل بقانون آكيلوس . غير أن قانون العشور تمخضت عنه عواقب وخيمة وكان في جملته وبالإضافة الى أهالي ولاية آسيا ، الذين سلمهم جايوس - دون ان يفتن - الى يد شركات الملتزمين التي استغلتهم استغلالاً فاحشاً ، وكانت تدير نشاطها من مراكزها الكائنة بعاصمة الامبراطورية . وزاد الأمر سوءاً أن هذه الشركات كانت قطاعاً خاصاً فلم يكن أعضاؤها يقعون تحت طائلة قانون مكافحة الابتزاز ، اذ لم يكن من الجائز اقامة الدعوى عليهم كما هو الحال بالنسبة لحكام الولايات ، بينما كان من السهل ان تلفق هذه الشركات القوية أي تهمة لحاكم الولاية الذي يعترض سبيلها ..

وما دنا بصدد الكلام عن الولايات فينبغي أن نشير الى القانون الذى استصدره جايوس جراكوس لاضعاف سيطرة السناتو . كانت انتخابات القنصلية فى العصر الأخير للجمهورية تجرى أثناء الصيف قبل بداية السنة الرسمية بحوالى ستة أشهر . وكان السناتو بعد أن يعرف أسماء القنصلين المنتخبين للسنة التالية (consules designati) يخصص لكل منهما ولاية لكى يتولى حكمها بعد اقضاء مدته فى القنصلية . ومعنى ذلك أن السناتو كان يتحكم فى القنصلين بطريق غير مباشر لأنه كان فى وسعه أن يلوح باسم ولاية غنية للقنصل الذى يجده طيعا له مستجيباً لرغباته ، بينما يحرم القنصل المناوئ له من مثل تلك الولاية . لذلك نص قانون جايوس الخاص بالولايات القنصلية (lex Sempronia de provinciis consularibus) على الزام السناتو بتحديد أسماء الولايات قبل اعلان نتيجة انتخابات القنصلية فى كل عام وليس بعد اعلانها أو أثناء فترة تقلد القناصل مناصبهم ، حتى لا يكون قد عرف أسماء الفائزين ويبدأ فى مساومتهم ويحايى انصاره بولايات سمان ويعاقب خصومه بولايات عجاف . لقد كان القناصل يتطلعون الى ما بعد القنصلية ، الى يوم تسند اليهم - بوصفهم قناصل - حكم ولايات غنية تعوضهم عما أنفقوه من أموال فى الدعاية للفوز بالقنصلية . وثمة ملاحظتان على هذا القانون الذى قدر له البقاء احدهما أن السناتو قد اصبح ملزماً بتحديد اسم الولاية مقدماً وقبل التأكد من صلاحية المرشح لحكمها بمدة طويلة تبلغ حوالى ١٨ شهراً ، والأخرى هى أن هذا القانون تضمن نصاً غريباً يقضى بحصانة من اعتراض قباء العامة أى عدم سريان حق الاعتراض عليه . وفى هذا ما يكشف عن رأى جايوس نفسه فى النقض . ، ذلك الحق القديم الذى كان بمثابة صمام امان ودرع لصيانة حريات العامة .^(٩)

وفى عام ١٢٢ أى فى مدة قباة جايوس الثانية ، زامله فى المنصب ،

(٩) المصطلح اللاتينى لحق النقض هو INTERCESSIO ومترجمة احياناً بحق الاعتراض ، ويعرف فى عصرنا الراهن بحق "الفيتو" وهى كلمة لاتينية ايضا (VETO) بمعنى "أنا أمنع" أو اعترض أو احوّل دون .

صديق قديم للأسرة وهو فولشيوس فلاكوس عضو لجنة الاصلاح الزراعى ، الذى سبق أن تولى القنصلية فى عام ١٢٥ ، ولكنه لم يأتف من أن يرشح نفسه لمنصب أدنى ويتولى تربية العامة ليرضى نزعته الى الاصلاح ويقف الى جانب جايوس . ويذكر القارىء كيف حاول فلاكوس من قبل أن يزيل أسباب تدمير حلفاء روما فى ايطاليا وينصفهم من الرومان (١) . تناول جايوس مشروع فلاكوس القديم وعدله ونقدم بمشروع قانون يقضى بمنح الحقوق اللاتينية للايطاليين والجنسية الرومانية للاتينيين (٢) . غير أن هذا المشروع الذى ينهض أكثر من سواه دليلا على سعة أفقه السياسى ، كان أول خطوة فى طريق سقوطه السياسى . واذا كان جايوس قد لقي أثناء مدته الثانية تأييدا من جانب فلاكوس ، فقد فوجئ بمعارضة قوية من جانب زميل آخر من قباء العامة يدعى ليثيوس دروسوس (M. Livius Drusus) . هذا النقيب توطأ مع الستاتو الذى أوعز اليه فى صحاربه جايوس بسلاحين أحدهما هو أن يضاربه بمشروعات براقة ليجتذب اليه الجماهير ويصرفهم عن معسكر جايوس ، والآخر هو أن يحبط مشروعاته - اذا اقتضى الأمر - بما يملك من حق "الفيتو" . ولم يكن دروسوس قد اشتد ساعده بعد حتى يجرؤ على اشهار السلاح الثانى ، فتقدم مقترحا تعديل قانون الاصلاح الزراعى باعفاء أصحاب الأنصبة الجدد من الإيجار السابق تحصيله منهم ، وتعديل مشروع جايوس الخاص بالمستعمرات باقتراح تأسيس اثنتى عشرة مستعمرة فى ايطاليا على ان يلتحق بكل منها حوالى ٣٠٠٠ من أفقر فقراء المواطنين دون أى مؤهل أو اشتراط مالى . وأفسد على جايوس مشروع الجنسية بأن كاله صاعا بصاع مقترحا استثناء اللاتينيين من أحكام الجلد حتى فى أثناء خدمتهم العسكرية تحت امره القواد الرومان ، وهو ما يجعلهم فى وضع أفضل من وضع المواطنين

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٩ .

Lex de sociis nomine Latino.

(٢) يعرف هذا القانون أحيانا باسم :

الرومان أنفسهم الذين كانوا يتمتعون فقط بحق التنظيم من مثل هذه العقوبة . ومع أنه لم تتخذ أى تدابير عملية لتأسيس المستعمرات الجديدة ، - وهى مستعمرات ظلت حبرا على الورق - إلا أن مشروعات دروسوس صدرت كقوانين وعزى اليه فضل استصدارها . وتألفت لجنة لتخرجها الى حيز التنفيذ ، ولكنها لم تحقق منها الا النزر اليسير ، وهو ما ينهض دليلا على أن دروسوس لم يكن ينفى الاصلاح الاقتصادى بقدر ما كان ينفى تفويض تفوذ جايوس .

وقد تضاعف فعلا تفوذ جايوس ولم يعد لخطبه النارية ما كان لها من تأثير بعد ان ألقت الجماهير سماعها ، وفقدت ما كان لها من سحر فى قلوبهم . كذلك لم تعد الجمعية القبلية التى تقدم اليها جايوس بمشروع الجنسية صفا واحدا مواليا له بل بدت منقسمة على نفسها . بل ان فانيوس الذى عاونه جايوس فى الفوز بالقنصلية عام ١٢٢ ، فتر حماسه له وسرعان ما تخلى عنه وحرص الدهماء على الاقتضا من حوله . ولم يصادف المشروع هوى فى نفس السناتو أو العامة ، اذ رفض السناتو ، وهو معقل العصيات القديمة ، ادماج عناصر غريبة فى هيئة المواطنين ، ورفض العامة أنفسهم بدافع من الانانية والمنصبية ، اشراك الايطاليين معهم فى حق الانتخاب والامتيازات الأخرى . وتجنبنا لما قد يحدث من شغب اوحى السناتو الى القنصلين أن يصدرا قرارا بطرد الايطاليين من روما والمنطقة المتاخمة لها فى حدود خمسة اميال حتى لا يؤثروا على الجمعية يوم الاقتراع على مشروع الجنسية . واخفق المشروع الجليل - وان قدر له ان يثار مرة اخرى بصورة أعنف - اما لأن دروسوس تشجع وشهر ضده سيف الاعتراض أو لأن الجمعية خذلت عند الاقتراع عليه . واذا كان جايوس يفتر وقتئذ الى التأيد الشعبى فانه لم يحاول مجاراة ما فعله أخوه تييريوس فى مثل هذا الموقف منذ سنين .

وكان من بين العوامل التي أدت الى تضاؤل نفوذ جايوس غيا به
عن روما هو وفلاكوس مدة تزيد على شهرين ، اذ حدث ان رحل الى
أفريقيا مع صديقه ليشرف بنفسه على تأسيس مستعمرة يونونيا .
واستغل خصومه فرصة غيا به واتهموه بأنه تجاوز العدد المعتد
للمستعمرين واقحم فيه زورا عددا آخر من المستعمرين غير الرومانيين .
وروجوا شائعات كاذبة وأراجيف غريبة عن المستعمرة وما صاحب
محاولة افتتاحها من نفس ونذر شر مستطير ، فزعموا ان مؤسسها قد
استباح موضع قرطاجة اللعين ، وان الزوايج المحملة بفضب السماء
قد عصفت ببعض علامات الحدود في المنطقة ، وأن الذئاب قد اقتلعت
بعضها الآخر الى مكان ناء سحيق . ومع أن جايوس حرص
- فيما يرجع - على أن يتجنب المنطقة الملعونة ، فإن غيا به عن روما
لم يتح له الفرصة للرد على خصومه وتكذيب الأراجيف . ولم يرجع
الى العاصمة الا بعد قوات الفرصة . ولما رجع وجد نجه قد أفل ،
وشعبته بين عامة المدينة القلب قد هبطت الى الحضيض . لذلك أخفق
في الانتخابات عندما رشح نفسه قيبا للمرة الثالثة . هكذا صار في
آخر عام ١٢٢ مواطنا عاديا مجردا من حصانة المنصب ، (privatus) ،
وان ظل محتفظا بعضويته في لجنة الاصلاح الزراعي . واذ كان السناتو
وأعوانه قد استقر عزمهم على التخلص منه الى الأبد فقد أخذوا
يستقنونه ويتحرشون به . وأغروا . قيباً للعامة يدعى مينوكيوس
بأن يتقدم بمشروع لالغاء قانون روبريوس الخاص بانشاء مستعمرة
يونونيا . لكن سرعان ما اتضح أنه لم تكن ثمة حاجة الى ذلك لأن
النزاع بين جايوس والسناتو انقسم بأسلحة أخرى .

وينما كان مشروع مينوكيوس معروضا على الجمعية لمناقشته ،
حشد جايوس الذي تملكه الغضب أنصاره لمقاومة المشروع واحباطه .
ولما كان قد شعر بأن حياته قد أصبحت مهددة فقد أحاط نفسه بحرس
خاص . وحدثت بين أنصاره وخصومه مناوشات قتل أثناءها أحد

معاوني أوبيميوس (L. Opimius) قنصل عام ١٢١ الذي أخذ من قبل ثورة فريجلاني دون شفقة (١) ، وكان يمقت جايوس مقتا شديدا . واستطاع هذا القنصل أن يوغر صدر « الآباء » (٢) فاجتمع السناتو وقرر ازاء خطورة الموقف أن يعهد الى القنصل بحماية الذوة من الخطر . وكانت هذه أول مرة في تاريخ الجمهورية يصدر فيها مجلس الشيوخ قراره الذي عرف فيما بعد باسم قرار السناتو النهائي أو الأخير (Senatus consultum ultimum) ، وكان بمثابة اعلان للأحكام العرفية في حالة الطوارئ . ومنذ ذلك الحين كان السناتو يستخدمه كسلاح قوى جديد ليسحق به خصومه (٣) . وكان هذا القرار ينطوى على تأييد أدبي للقنصل الذي كان يكلف في الأزمات الطارئة باتخاذ ما يراه من تدابير لوقاية الدولة من الضرر وحمايتها من الخطر (٤) .

(١) راجع ما تقدم في ص ١٩ - ٢٠

(٢) الآباء (Patres) اسم يطلق على أعضاء مجلس الشيوخ الروماني "المشرفين".
(٣) ينبغي ان نتذكر ما أثبتته الاخوان من ان السناتو لم يكن سوى هيئة استشارية لا تتمتع بسلطة دستورية مباشرة ، ولم يجد امامه من حيلة سوى اللجوء الى هذا الاجراء الاستثنائي . وعن اكتساب هذا القرار صفة دستورية ، انظر ص ٣٦ حاشية ١ فيما يلي .

(٤) يبدو ان صيغة الفرار النهائي لم تكن ثابتة لان شبشرون يقول في احدى خطبه ضد ماركوس انطونوس المشهورة باسم الفليبيات (الثلثة - ٤ - ١٤) ان صيغته اول ما صدر جرت على النحو التالي :

"Quod L. Opimius consul verba fecit de republica de ea re ita censuerunt, uti L. Opimius consul rem publicam defenderet."

لكنه يعود فيقول في موضع آخر (الخطبة الاولى ضد كتيлина ، ٢ - ٤) ان صيغته جرت على هذا النحو :

"Decrevit quondam senatus, ut L. Opimius consul videret, ne quid res publica detrimenti caperet."

وقد أصدر السناتو قراره الأخير عشر مرات في الفترة ما بين سنتي ١٢١ ، ١٩ ، وخمس مرات في الفترة ما بين سنتي ٤٩ ، ٤٠ ، وأصدره لآخر مرة في سنة ٤٠ ق.م .

K. von Fritz, *Ann. Rep. of the Amer. Hist. Assn.* (1942), 221-237.

C. Wirszubski, *Libertas as a Political Idea at Rome* (Cambridge, 1950), 55 ff.; H. Last, *CAH*, 1X (1932), 85 ff.

F.B. Marsh, *A History of the Roman World from 146 to 30 B.C.* 2nd ed. rev. by Scullard (London, 1953), 70 f.

وكان جايوس قد اعتصم هو وأنصاره . بمثل الأفتين ، فبادر القنصل أوبيميوس الى تعبئة قوة مسلحة من أنصار السناتو وأتباع الارستقراطيين وعبيدهم وغيرهم من أعداء جايوس ، وأرسل في طلبه للمثول أمامه ومحاسبته وأعوانه ، ومطالبهم بالاستسلام دون قيد . غير أن فلاكوس صمم على المقاومة بالقوة على الرغم من عزوف جايوس نفسه عن الالتجاء الى العنف . عندئذ هاجم أوبيميوس قل الأفتين . وفي الاشتباك الدامى لقي فلاكوس وابناه مصرعهم ، وأما جايوس جراكوس فقد عهد الى أحد عبيده بأن يطعنه بخنجره وينهى حياته حتى لا يقع في أيدي خصومه . وألقى القنصل القبض على عدد كبير من أنصار جايوس وأودعهم السجن ثم أمر باعدامهم . وقيل أن عددهم بلغ ٣٠٠٠ قتيل ألقيت جثثهم في نهر التير . وبعدئذ أجرى القنصل تطهيرا دينيا (lustratio) للمدينة من الدماء التى سفكت . وامثالا لأمر السناتو رُحِمَ بناء معبد الوثام (Concordia) القديم في السوق الرومانية (Forum) عند أسفل الكايتول . وفي احدى الليالى تسلل مجهول الى المعبد تحت جناح الظلام ودون تحت لافتته عبارة تقول « لقد بنت رعونة الخصام معبد الربِّ الوثام ! »

هكذا كانت نهاية جايوس جراكوس ، وهى نهاية مثيرة للأسى والأسف لأنه كان أول سياسى قدير تنجبه روما . ولا مراء فى أن مقتل رجل له هذه الأهداف السامية وهذا النبوغ يعد خسارة فادحة لاطاليا وانبجهورية . وكانت روما قد صرعت أخاه يديها من قبل . وبذلك تكون قد قضت على حياة رجلين من أفع رجالها ، وستقضى فى القرن التالى على حياة كثيرين غيرها .

(١) الربّة Concordia = (Homonolia فى اليونانية)
تعنى تجسيد لمعنى التآلف بعد التخالف او الوفاق بعد

وقد يبدو لأول وهلة أن السناتو خرج من المعصة منتصرا (١) ، وأن جهود تييريوس وجايوس ضاعت سدى ، وأن سيرة الأخوين لم تكن سوى عبرة لغيرهما من المصلحين لعلهم يدركون عدم جدوى الاستنجاد بالجمعية الشعبية واستعدادها على مجلس الشيوخ . ومع هذا فقد ترك الأخوان جراكوس أثرا مستديما في التاريخ الرومانى . لقد أصابا يد السناتو لفترة - وإن كانت قصيرة - بالشلل التام ، وأحدث فجاجهما العابر تأثيرا أقوى مما أحدثه فشلها النهائى . وكان المثل الذى ضرباه حريا بأن يحفز كثيرين غيرهما من المصلحين إلى أن يجربوا قوتهم تحدياً للسناتو ولا يتهيؤوا منازلته .

وبقى أن نقيم أعمال تييريوس وجايوس ونستعرض ما ترتب عليها من آثار . كان اخفاق الأخوين مأساة سياسية كبيرة . وقد ظلت ذكراهما ماثلة في أذهان الناس حقبة طويلة من الزمن . وبينما احتلت هذه الذكرى موضع الاعزاز والاكبار في قلوب أنصارهما ، كانت في الوقت نفسه مثار استهجان واستنكار بين صفوف خصومهما الذين كان لهم تأثير كبير ككتاب التاريخ الرومانى . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأخوين كانا وطنيين غيورين مقتنعين اقتناعا صادقا بضرورة حل المشكلات التى تصدى لها ، وأنها كانا على يقين من صواب المشروعات التى احتضناها . لكننا لسنا على يقين من صواب الوسيلة التى اتبعها أو المسلك الذى

(١) فى عام ١٢٠ اخبر مركز السناتو عندما قدم أوبيميوس - بعد انقضاء مدة فصليته - للمحاكمة (ad populum) بسبب ما فعله بمقتضى قرار السناتو النهائى ، وأعداه مواطنين رومانيين ودون اعتبار لقانون جايوس القاتل بالا بعدم أحد دون امر من الشعب : *ne quis iniussu populi Romani capite damnetur*

وكانت تبرئته بمثابة تصديق قانونى على مقتل جايوس ، وتبرير لمدور القرار النهائى ذاته . غير أن هذا القرار لم يحسب صفة الشرعية المطلقة .

= الشقاق بين افراد او جماعات فى الدولة ، وترمز إلى انتهاء اضطرابات أو قضاء على تمرد أو اخماد فتنة .

سلكاه . ولقد أنجزا كثيرا من المشروعات التي كافت في نظرها وسيلة الى غاية ، ولكنهما عجزا عن بلوغ هذه الغاية . وترتبت على اصلاحاتهما بعض نتائج مباشرة ، فعلى الرغم من أن كثيرا من المشكلات الاقتصادية ظلت قائمة ، فقد ساعدا على الأقل في تخفيف حدة هذه المشكلات ، اذ ازداد عدد صغار ملاك الأراضي ، وعدد المهاجرين الى المستعمرات . وإلى هذا الحد يكون الأخوان قد خففا من ضراوة الاقطاع ومن أزمة البطالة . (١) ولعل مشروع الغلال ، وإن اختلفت فيه الآراء ، قد هذا من نائرة عامة العاصمة المتعطلين وحال دون قيامهم بثورة هوجاء .

(١) في الحق إن انتصار السناتو لم يكن تاما كاملا لأنه باستثناء قانون روبوريوس الذي ألفى ، ظلت قوانين الأخوين جراكوس نافذة ، بل إن المهاجرين الى مستعمرة يونونيا ظلوا محتفظين بحيازة حصصهم الزراعية هناك .

لكن صدرت بعد ذلك ثلاثة قوانين حسمت نهائيا مشكلة الأراضي العامة التي كانت مثار نزاع طويل :

(أ) واول هذه القوانين صدر في عام ١٢١ أو ١٢٠ (ولعله أحد تشريعات ليفيرس جروسوس) ، وقد اجاز لصغار ملاك الأراضي بيع انصبتهم الزراعية التي حصلوا عليها بمقتضى قانون الاصلاح الزراعي . وعلى ذلك بدأ كبار الملاك مرة أخرى في شراء هذه الانصبة أو الضبط على صغار الفلاحين لأراضيهم على التخلي عنها .

(ب) وثاني هذه القوانين هو قانون ثوريوس (lex Thoria) الذي صدر في ١١٩ قبل الميلاد . يقول عنه أبيانوس إنه قد ألفى لجنة الاصلاح الزراعي ، وحرّم توزيع الأراضي العامة بعد هذا التاريخ ، أي أنه ألغى نظام الخصخصة (ولهذا يبدو في نظر كثير من الباحثين أنه ضربة فاصمة لمحاولة ثيريوس خلق طبقة من صغار الملاك) ، وكفل لحائزي الأراضي العامة (possessores) حق ملكيتها ، مع اشراط دفع ايجار عنها ، على أن تستخدم حصيلته في الإنفاق على انفراد (ربما باستيراد كميات كبيرة من الفصح وبيعه لهم بشمن زهيد) .

(ج) وأما القانون الثالث الذي لم يصل إلينا كاملا فقد صدر في عام ١١١ ، وكان ينص على أن جميع الأراضي التي وزعتها لجنة الاصلاح الزراعي ، وجميع حيازات الأراضي العامة السابقة على الأخوين جراكوس تصبح ملكيات خاصة ومعفاة من الإيجار بجميع صورته وصار من المحظور وضع اليد على الأراضي العامة . ونظم استخدام هذه الأراضي تنظيما دقيقا .

ومن المفسر أن نقيس النتائج النهائية لتشريع الزراعي في هذه الفترة فياسا صحيحا ، غير أنه في تقدير الباحثين أن مساحة الأراضي التي صودرت من كبار الملاك بلغت حوالي مليون وستمئة ألف فدان روماني (أي حوالي ٩٦٠.٠٠٠ فدان مصري) ، وإن ذلك بالإضافة الى القيود التي وضعت على حجم قطعان الماشية والافنام التي يجوز تسريعها في أراضي

بيد أن النتائج غير المباشرة لأعمال الأخوين كانت هي الأكثر أهمية. لقد حاول جايوس حل مشكلة اللاتين والايطالين بمنحهم الجنسية الرومانية أو اللاتينية. وأخفق المشروع وطرح جانبا. غير أن ذلك أثار تدمرا شديدا بين هؤلاء الحلفاء، مما سيؤدي الى إثارة المشكلة من جديد واتخاذها مظهرا عنيفا بعد حين. وزادت تشريعات جايوس الفرسان احساسا بقوتهم السياسية، ولكنها مهدت الطريق الى مزيد من التعسف والابتزاز في الولايات، وبالتالي الى بذر بذور الكراهية نحو روما بين أهالي تلك الولايات التي كان من حظها التعس أن توليها حكام من رجال السناتو أكثر انحرافا وجشعا من الفرسان. وكشف الأخوان عن مظهر جديد لنقابة العامة، وإن اتضح أنها سلاح ذو حدين. وتنبه العامة الى قوتهم وعرفوا شيئا عن سلطتهم، وإن لم يثبتوا على حال واحد بدافع من أنانيتهم. وأهم من ذلك أن السناتو وإن كان قد خرج من المعركة ظافرا إلا أن ضعفه انكشف وأغرى خصومه به.

غير أن كلا الأخوين سلك أثناء محاولته التغلب على المعارضة التي واجهته مسلكا عنيفا هز الدستور من أساسه، ووقف من السناتو موقف التحدي المباشر لسيطرته على أداة الحكم. ولا نستطيع أن

الراعى العامة، أصاب نفوذ طبقة السناتو بغربة شديدة. ولا سبيل الى معرفة عدد صغار الفلاحين الذين بقوا في مزارعهم بعد أن أجبر لهم بيعها. ومن ثم فنحن لا نعرف مدى الزيادة المحتملة في قوة روما العسكرية.

وعن هذه العوائق وبخاصة القانون الثالث الذي وجد مدونا على ظهر اللوحة البرونزية التي يحمل وجهها « قانون اكيلوس »، وإن كنا لا نعرف على وجه اليقين من هو صاحبه (أهو ثوريوس نفسه Sp. Thorius أم بايبيوس C. Baebius؟ لاحظ أن الأول يسمى بالتطورات *Gracchi*) راجع الى جانب الورق ايلينوس (الحرب الأهلية، ٤٦ - ٤٧)، والأديب شيردون (بروتوس ٤٦، ١٤٦).
Riccobono, FIRA I, No. 8 (102-121); Warmington, ROL IV. 370-437; Lewis-Reinhold, Roman Civilization I, 257-264.

وكتابتها: « مصادر التاريخ الروماني » ص ١٢٠، حاشية ٢. وعن تفسيرات أخرى انظر: E. Badian, HISTORIA, (1963), 211 ff.

تتبعهما بتجاهل السناتو عن نية ميثة ايثارا منها للجمعية القبلية التي
يتزعمها قبيب شعبي يعاد انتخابه لهذا المنصب . غير أن ذلك كان على
الأقل هو الأثر المؤقت لتصرفاتهما . وهنا يتعرض الأخوان للوم . لقد
حاولا تمكين الجمعية المتقلبة الأهواء من توجيه دفعة الحكم . ولم تكن
هذه الخطوة موفقة من الناحية السياسية لأن الجمعية كانت أشد عجزا
من السناتو وأكثر منه قابلية للرشوة ، بل انه لم يعد في وسعها الادعاء
بأنها تمثل كل هيئة المواطنين الرومان . ولما كانت الجمعية بهذا الوضع
لا تستطيع أن تكون أداة للديمقراطية الصحيحة ، فان تقويض السناتو
دون ايجاد بديل له أكثر منه صلاحية كان معناه حدوث فراغ قد يفضي
الى كارثة . لقد ترقب على حركة الأخوين جراكوس أن اشتد نبض
الحياة السياسية وازداد على مر الأيام حدة وعنف . ولا جدال في أن
عصرهما كان نقطة التحول الخطيرة في تاريخ الجمهورية الرومانية لأنها
فتحا باب الثورة الاجتماعية على مصراعيه . وسواء اعتبرناهما زعيمين
ثوريين أم لم نعتبرهما كذلك ، فما لا ريب فيه أنهما عجلا بقيام الثورة
التي لم تنته الا بسقوط الجمهورية . (١)

لقد استرد السناتو — على نحو ما ذكرنا — مركزه وسيطرته ،
وإن فقد كثيرا من نفوذه وهيبته . لكنه لم يحرز النصر بالوسائل
الدستورية بل أحرزه بسلاح العنف . وبذلك استن السناتو سنة سيئة

(١) يجد القارئ كل المصادر اليونانية واللاتينية عن الأخوين جراكوس مجموعة في

كتاب :

A. H. J. Greenidge & A. M. Clay, *Sources For Roman History*
(133-70 B.C.) 2nd ed. rev. by E. W. Gray. (Oxford, 1960), 1-51.
F. R. Cowell, *The Revolutions of Ancient Rome* (London 1962),
77-105.

D. C. Earl, *Tiberius Gracchus : A Study in Politics* (Collection
Latomus, vol. 66). Brussels. 1963; ~~A. W. G. Little~~ ,

VIOLENCE IN A REPUBLICAN ROMAN, 1968.

سيقتدى بها خصومه عند منوح الفرصة فيردون الى نحره نفس السلاح لينالوا بغيتهم . وقد أثبت تحالف الفرسان والعامة أنه أقوى من السناتو طالما كان هذا التحالف قائما . ولم يغب ذلك عن بال السياسة في الأجيال اللاحقة . وقد أضعف السناتو الذي ضاعت منه بعض امتيازاته اندماج الفرسان في تنظيم سياسى نشط كان يقف منه موقف المعارضة في أغلب الأحيان . ولم يكن الفرسان - وهم رجال الأعمال الذين يمثلون الرأسمالية الرومانية - قد اشتركوا من قبل اشتراكا مباشرا في الحكم ، ولم يحدث قط أن كانت لهم مثل أخلاقية كالتى كانت للأسر الرومانية العريقة حسبا أو جاها . وعندما اكتسبوا سلطة سياسية لأول مرة كان ذلك في الوقت الذى بدأ النبلاء يتخلون فيه عن المثل الأخلاقية . ومن ثم فقد طبق الفرسان نفس قواعد السلوك الخلقى المنبئة في المعاملات التجارية ، طبقوها على مسرح السياسة . واذ كانوا لم يشتركوا في الحكم اشتراكا مباشرا فقد كانوا على جهل بمشكلات الامبراطورية ، بل ان هذه المشكلات كانت لا تعنيهم الا بالقدر الذى فيه مساس بمصالحهم التجارية أو المالية . ولما كان الدافع وراء تصرفاتهم هو تنمية هذه المصالح فقد وجهوا ضرباتهم ، بعد ازدياد نفوذهم الى رجال السناتو الذين كانوا أول من قاوم أطماعهم وروح الجشع فيهم . لقد منح الفرسان سلطة سياسية بدون تحمل للمسئولية ولم تكن طبقتهم قد تشبعت بمثل المجتمع العليا . وعندما كانت مصالحهم تصطدم بهذه المثل ، فانهم كانوا يضربون بها عرض الحائط . لقد استغلوا سلطتهم الجديدة فيما يعود بالضرر على الدولة . وكان من سوء حظ روما أن المصالح التجارية والمالية أصبحت هامة في وقت أزمته الأخلاقية .

لكن أدهى الأخطار بالنسبة للمستقبل كان يتمثل في تركة الكراهية

الكلمة مستعملة هنا (وفى مواضع اخرى) لا بمعنى =

لا هم لها إلا احراز السلطة أو المجد الشخصى . وكثيرا ما كانوا يستغلون لتحقيق مآرب الشخصيات الكبيرة والطوائف الأخرى التى كانت تقيم وزنا لهم وتتودد اليهم رغبة فى استرضائهم عن طريق الرشا أو التشريعات التى تحسن من احوالهم وتشبع رغباتهم . كان هذا الحزب اذاً يضم أخطر العناصر التى كانت مستعدة لتكون أداة لنشر العنف والقوضى . واما الحزب الارستقراطى (بمعنى حزب الأخيار حسبما سموا أنفسهم) (١) فهو حزب السناتو ومن يدور فى فلكه من الأشراف نسباً . . . (patricii) والنبلاء منصبا (nobiles) وغيرهم من المحافظين الذين كانوا يعارضون الاصلاح الا فى أضيق الحدود ويتشبثون بالأوضاع القائمة حرصا على سلطتهم وامتيازاتهم ويرفضون تعديل الدستور الجمهورى القديم . ومن المؤسف ان أفق هذا الحزب كان يزداد ضيقا يوما بعد يوم ، وكان رجاله يزدادون انانية ضارين صفحا عن القيم الخلقية الموروثة . واذ كان السناتو قد تعرض أثناء حركة الأخوين للهجوم وتزعزع مركزه فقد بدأ يستنفد كل طاقته فى الدفاع عن سلطته واسترداد امتيازاته ، وهو ما صرفه عن الاهتمام بمشكلات الامبراطورية .

هكذا انقسمت الدولة الى شيع وأحزاب ، وحل الانقسام فى المجتمع الرومانى محل الوئام القديم . ووسط ضجيج التطاحن الحزبى لم يسمع أحد الا نادرا صوت المقدرين للمسئولية وأصحاب الشعور بالواجب نحو الدولة . وفى مثل هذا المجتمع الذى أصابه التصدع ، حل الحزب محل الدولة . وتحول الولاء - ان كان هناك ولاء - عن الدولة

(١) كلمة Optimates هى ترجمة لكلمة aristoi اليونانية بمعنى الارستقراطيين أى الاخيار . وقد درجوا على وصف انفسهم بصفات مثل : boni, integri, sani, graves.

ومن حزبي الديمقراطيين والارستقراطيين ، انظر :

C. Wirszubski, *Libertas as a Political Idea at Rome* (1950), ch. 2.

الى الحزب الذى صار أكثر أهمية من الدولة ، كما أصبح الفرد فى حالة احتدام النزاع أكثر أهمية من الحزب . لقد اختفت المثل العليا أو كادت تختفى ، وفشت الخصومة والأثرة والفردية وعدم الاكتراث . وجذب الصراع الحزبى كل الجهود الى مسرحه الداخلى . ولم تنبه الطبقة الحاكمة أو أغضت طرفها عن مشكلات الامبراطورية . ولم تلبث أن طبقت نفس المبادئ الحزبية من رشوة وعدم امانة واثانية فى مسرح السياسة الخارجية . لقد تمكن الأخوان جراكوس فى حياتهما وبعد مماتهما من اضعاف نفوذ السناتو . غير أن هذه الهيئة لم تمسسها يد الاصلاح ولم تستبدل بها أخرى أصلح منها . ولهذا لم يعد هناك منذ ذلك الحين دستور يستأهل الاحترام من جانب المواطنين المخلصين . وأخذت فكرة الواجب نحو الدولة تتلاشى رويدا رويدا فى الأذهان مما أدى الى هبوط مستوى الكفاية فى مختلف فروع الادارة ، والى تقشى الفساد فى مختلف الطوائف وبخاصة فى الطبقة الحاكمة ، والى سريان روح التمرد فى الجيش . وحدث ذلك كله فى وقت تعرضت فيه روما والعالم المتمدين لأشد الاخطار من جانب الأعداء .

الفصل الثاني :

ماريوس وشلاً

(١٠٧ - ٧٩)

بينما كانت روما منهمكة في الصراع الحزبي الذي احتدم بين السناتو وجايوس جراكوس ، كانت الجيوش الرومانية مشتبكة على الحدود في سلسلة من الحروب دفاعا عن سلامة أراضي الجمهورية (١) ولم تمض بضع سنوات على موت جايوس حتى اتضح الفساد وعدم الكفاءة واشتعلت من جديد نار التطاحن الحزبي أثناء ذلك القتال الذي خاضته روما في شمال أفريقيا ضد الزعيم النوميدي يوجورثا (Jugurtha) . فقد استطاع هذا الرجل أن يخدع سفراء السناتو ويتحدى الجيوش الرومانية ، مستغلا نزوع هؤلاء للتمرد ، واستعداد أولئك للرشوة . لكن هذا الصراع الذي بدأ في عام ١١١ أنجب — لحسن حظ روما — جنديا عظيما يدعى ماريوس وهو رجل عصامي إيطالي المولد ، وجنديا عظيما آخر يدعى شلاً ، وهو سليل أسرة شريفة . ويفضل هذين الرجلين اللذين قدر — لسوء حظ روما — أن

(١) فعلى تخوم مقدونيا واللوربكوم انتشبت الجيوش الرومانية مع القبائل الكلبيية في جنوب البانوب ، وقامت بعد غارات الشعوب الالبية في شمال إيطاليا . واضطر الرومان إزاء أعمال السلب والنهب على يد القراصنة في غرب البحر المتوسط إلى احتلال جزر البليار (١٢٢ - ١٢١) مما أتاح لهم السيطرة التامة على الطريق البحري المؤدى إلى إسبانيا .

وأسس الرومان في مايوركا (Majorca) وهي أكبر هذه الجزر ، مستعمرتين للمواطنين الرومان مع إشراك عدد من الإيطاليين المستوطنين في إسبانيا .

وأهم من ذلك كان الزحف الروماني في ثالة عبر الألب (أو البعينة) بعد عام ١٢٥ حيث استنجدت ماسيليا (وهي مرسيليا الحالية) ، وحليفة روما ، بالرومان فقاموا بحملة ضد السالوئين (Saluvii) الغالين ، وهم شعب كانت أراضيهم تقع إلى الشمال من ماسيليا . وتمكن الرومان بفضل إخضاع هذا الشعب والشعوب الليجورية المجاورة له في عام ١٢٢ من السيطرة على الطريق الذي يجرى من إيطاليا إلى وادي نهو لاليو عبر جبال

يصبحا ألد عدوين ، انتهت الحرب ضد يوجورتا في مصلحة الرومان
في عام ١٠٥ (١) .

ماريوس

الحرب ضد يوجورتا :

وكان مسرح هذه الحرب هو شمال أفريقيا حيث نشأت مملكة
نوميديا (الجزائر تقريبا) بعد الحرب البونية الثانية مباشرة . وكان

الالب البحرية . وقد امنوا سيطرتهم باحتلال اكواى سكسنياء Aquae Sextiae راس
آر بروفانس الحالية) وهي مركز حصين يقع على ذلك النهر .
وقد اثار انتصار الرومان للعر بين القبائل الغالية اللوية وبخاصة بين الالوبروجيس
(Allobroges) العاطنين بشرفى نهر الرون ، وبين الارفنى (Arverni)
القاطنين غربى النهر . وقد تحالف هذان الشعبان لمقاومة الزحف الرومانى ، بينما انحاز
شعب منابلس لهما وهم الايدوى (Aedui) الذين كانوا يسكنون فى شمالى منطقة
الارفنى ، الى جانب الرومان . وقد بدأت المناوشات عندما طالب الرومان الالوبروجيس
بتسليم الهاربين من السالوفين . وفى عام ١٢١ انهزم الالوبروجيس والارفنى فى معركة
كبيرة على مقربة من التلاء الرون بالاسير ، على يد القنصل فاييوس ماكسيهوس ، والجرم-
فتصل جنابوس دومييتيوس اينيوياريوس . واناك الانتصار للرومان السيطرة على جنوب
غالة من الالب حتى البرانس ، باستثناء منطقة ماسيليا . ونظم الرومان الاراضى التى
كسبوها حينئذ كولاية باسم غالة الناربونية (Gallia Narbonensis) . وبرغم معارضة
السلطان استست مستعمرة للمواطنين المهاجرين من ايطاليا عند ناربو (Narbo) ، وذلك
تحت ضغط رجال الاعمال فى روما علىهما يرجع . وبفض النظر عن محاولة جايوس جراكوس
الفاشلة لىاسس مستعمرة يونونيا ، فان ناربو كانت اول مستعمرة من نوعها تنشأ خارج
حدود ايطاليا (١٢٨ م) . ~~و اما تاريخ (نشا كولاية رسميا من ١٠١ م~~
(١) مصدرنا الرئيسى عن هذه الحرب هو كتاب المؤرخ سللوستيوس (Sallustius C.)
بمعنون الحرب اليوجورتية (Bellum Iugurthinum) وهو كتاب نشر فى عام ٤١ ،
ويحتوى على مقدمة فلسفية ثم عرض لسيرة الامر النوميدي يوجورتا واسنيلاته على
السلطة فى بلاده . وقد جمع المؤرخ المعلومات فى الفرقبا عندما ولاء يولبوس قيصر حاكما
على ولاية الفرقبا الجديدة عام ٥٠ ، وتوافرت لديه مصادر ادبية قيمة من بينها ترجمات
عن اللغة البونية . ويعتبر فريدا بين المؤرخين الرومان (الذين وصلتنا مؤلفاتهم) فعزوفه
عن طريقة الحوليات واقباله على كتابة بحث مطول فى موضوع واحد . لكن يعاب عليه
عدم مراعاته التسلسل الزمنى للحوادث . وعدم دقة معلوماته الجغرافية والعسكرية .
واهم من ذلك انه لا يقوم فى هذا الكتاب (او فى كتابه الاخر بمعنوان « حرب كبلينا »)
بدور المؤرخ فقط ، بل يدور الكاتب السياسى الذى يحاول الدفاع عن سياسة وزعماء

أميرها قد انحاز الى القرطاجنيين في موقعة زاما (٢٠٢) ، فلما اقتصر الرومان تصبوا عليها بدلا منه غريبا له وحليفا لهم يدعى ماسينسا (Masinissa) . وحكم ماسينسا مدة طويلة ومات في سنة ١٤٩ . وخلفه على العرش ابنه ميكيسا (Micipsa) الذي أوصى بملكته قبل وفاته في سنة ١١٨ لابنيه وابن أخيه يوجورتا الذي كان قد تبناه . وكان يوجورتا رجلا قديرا جم النشاط ذا أطماع واسعة ، وكان في الوقت ذاته مخادعا ملتويا لا ضمير له . وقد اكتسب خبرة عسكرية واسعة وعرف أخلاق النبلاء الرومان لأنه خدم في جيش اسكيبو ، قاهر نوماتيا ، في عام ١٣٤/١٣٣ . وقد دفعته أطماعه الى تدبير مؤامرة تخلص بها من أحد ابني عمه ، وأما الآخر وهو أدهربال (Adherbal) فقد أرغم على الفرار ، فالتجأ الى روما وطلب مساعدتها بمقتضى معاهدة قديمة معها . وعلى أى حال فلم يكن في وسع الحكومة الرومانية أن تقف مكتوفة اليدين ازاء الأحداث الجارية في ملكة تحت حمايتها واقعة على حدود ولاية أفريقيا الغنية (قرطاجنة) . لكن يوجورتا أوفد الى روما وكلاء مزودين بالأموال ليدافعوا عن قضيته أمام السناتو . وأفلح هؤلاء في مهمتهم وأمر السناتو بتشكيل لجنة برئاسة أوبيميوس وجاءت الى نوميديا في عام ١١٦ للتحكيم وتقسيم المملكة بين المتنافسين وأعطت يوجورتا المنطقة الغربية وهي أقل خصوبة من المنطقة الشرقية المتاخمة لقرطاجنة . ولكن يوجورتا كان يطمح في الاستيلاء على كل المملكة ، فتحرش بأدهربال واستغزه للقتال وألحق به الهزيمة في عام ١١٣ . ثم حاصره في عاصمته كيرتا (Cirta) (قسنطينة أو الكف ؟) حيث كانت تقيم جالية كبيرة من التجار ورجال الأعمال

الحزب ١ للديمقراطى والكشف عن فساد رجال الحزب الاسترطاني ، وارتشالهم ، وعدم كفاءتهم ، والتدبير باخلاصهم ، لكن بلا حظ انه مع اعجابه بماريوس الذي يعتبره بطلا ، غمغه يبرز دور سلا ، ولعل ذلك يرجع الى استخدامه مذكرات الدكتور عند كتابة الجزء الاخير من بحثه . وكان متأثرا بالاحوال السياسية السائدة في ايامه ، وجعلها تنسحب على احوال العصر السابق (عصر ماريوس وسلا) . لذلك يرى بعض الباحثين انه عرض نفسه لـ « حزب مديونتا » ، اذ حدة من عرضه لوضع « مؤامرة كتيلىنا » .

الايطاليين . وعندئذ استنجد أدهربال بروما فأرسلت لجنتين للتحقيق ودراسة الموقف ، ولكن يوجورتا احتال عليهما بلباقة الدبلوماسية أو بالرشوة ، فسلمتا بمطالبه . وأخيرا سقطت كيرتا في يده عام ١١٢ فقتل منافسه وقضى على الجالية الايطالية التي كانت تسانده .

وقد أثار مقتل الايطاليين موجة من الاستياء في روما واضطر السناتو تحت ضغط طبقتي الفرسان والعامّة الى الموافقة على اعلان الحرب على يوجورتا مع أن كثيرين من أعضائه كانوا مستعدين للتغاضي عن أعماله . وفي عام ١١١ غزا جيش روماني بقيادة القنصل بستيّا (L. Calpurnius Bestia) مملكة نوميديا . وسرعان ما حصل يوجورتا بالرشوة على اتفاقية بوقف القتال وعقد الصلح بعد أن تظاهر بالاستسلام غير أن خصوم حزب السناتو لم تجز عليهم هذه الحيلة وأصرّوا على اجراء التحقيق اللازم . وبناء على اقتراح مبيوس (C. Memmius) أحد ثقباء العامة في سنة ١١١ ، استلعى يوجورتا الى روما بعد أن أعطى الأمان لكى يدلى بما لديه من معلومات عن الحكام والقواد الرومان الذين اتصلوا به في نوميديا . وفي روما استطاع أن يشتري ذمة اثنين من ثقباء العامة ليتدخلوا في صفه ويحولوا بما لهما من حق الاعتراض دون ادلائه بالشهادة المطلوبة . وبلغ من جرأته أنه دبر في روما نفسها مؤامرة اغتيال فيها غريم له كان يطالب بعرش نوميديا . ولما افترض أمر الجريمة أسقط في يد أصدقائه الرومان ولم يجدوا في أنفسهم الجرأة على حمايته او الدفاع عنه ، فألغت الحكومة الاتفاقية معه وأمرته بمغادرة العاصمة والعودة الى بلاده . وبينما كان يوجورتا يغادر روما تلفت وراءه قائلاً في سخرية لاذعة عبارته التي صارت مثلاً « مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة ان تجد من يشتريها » :

Urberem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit.

وتجدد القتال ، غير أنه انتهى في أوائل عام ١٠٩ بهزيمة الجيش الروماني واستسلامه ليوجورتا الذي أمعن في اذلاله ، وطالب بالاعتراف بمركزه في نوميديا دون انتقاص كشرط لاطلاق سراح الجيش الروماني. وقبل ألبينوس (A. Postumius Albinus) ، وهو قائمقام (legatus) القائد العام للحملة ، بمرتبة الپريتور البديل (pro praetore) ^(١) هذا الشرط المهين لكسرى نقذ جيشه . وقد لعبت الرشوة والخيانة دورا كبيرا في هذا الانكسار المخزى . ورفضت روما شروط يوجورتا ، واقترح أحد قهباة العامة وهو ماميايوس (C. Mamilius Limetanus) تأليف محكمة خاصة من الفرسان (Equites) لمحاكمة المرتشين والمسئولين عن هذه الهزائم المشينة والمتواطئين مع يوجورتا . فأقرت الجمعية القبلية الاقتراح وتم تنفيذه . وأدين أربعة من ذوى المرتبة القنصلية وحكم عليهم بالنفى خارج البلاد .

وفي العام نفسه (١٠٩) أسندت قيادة الجيش الروماني في أفريقيا الى القنصل ميتيللوس (Q. Caecilius Metellus) ، وهو قائد من الأشراف كانت أسرته تتمتع بنفوذ كبير في ذلك الوقت . وقد استطاع أن يغزو نوميديا ^(٢) ويهاجم زاما ولكنه فشل في انهاء الحملة لأن يوجورتا التجأ الى حرب العصابات ، وهى حرب تتفق وطبيعة تلك المنطقة الجبلية . ولم يعد هناك مناص من أسر يوجورتا نفسه أو قتله لكى تنتهى الحرب . وكان بين ضباط ميتيللوس رجل يدعى جايوس ماريوس (C. Marius) ، وهو من أسرة ايطالية الأصل تنتمى الى طبقة الفرسان نشأت في أرينوم (Arpinum) وهى بلدة من بلاد القولسكى في حوض نهر ليريس (Liris) تقع على بعد حوالى ٦٠ ميلا

(١) كان قائد عام الحملة الافريقية في عام ١١٠ هو القنصل سبوريوس ألبينوس (سقيق أولوس ألبينوس المذكور في المتن) . وكان قد بء بالفشل في حربه ضد يوجورتا ثم عاد الى روما لكى يشرف على الانتخابات في اواخر عام ١٠٩ .
(٢) ولذلك اشتهر بلقب (Numidicus) أى « النوميدي » أو « قاهر نوميديا » .

جنوب شرق روما . وكاذماريوس (١٥٧ - ٨٦) قد تولى الكويستورية عام ١٢١ (?) ، وترييونية العامة سنة ١١٩ وأظهر أثناءها استقلالاً في الرأي ، والبريتورية في ١١٥ . وقمع بوصفه بريتوراً بديلاً ثورة بعض القبائل الإسبانية في عام ١١٤ ، ثم اختير في عام ١٠٩ قائداً مساعداً أو قائماً مقام (legatus) لميتيلوس قائد الحملة في أفريقيا ، والذي كانت لأسرته أفضال عليه . وقد بدأ يحقد على رجال الحزب الارستقراطي لأنهم كانوا ينظرون اليه شزراً بوصفه رجلاً عصامياً أو رجلاً جديداً في المجتمع (novus homo) (١) . لكنه أحس بضعف مركزهم بعد الهزائم التي منى بها قوادهم فقرر ترشيح نفسه للقنصلية ، وطلب من ميتيلوس أن يسمح له بالعودة الى روما لكي يقوم بالدعاية الانتخابية . ولكنه رفض مطلبه ساخراً منه . وقد أوغر ذلك صدر ماريوس عليه فأخذ يكيد له ويؤلب الجنود عليه . وعندئذ اضطر ميتيلوس أن يجيبه الى طلبه ، فعاد ماريوس الى روما حيث فاز بفضل مساندة العامة والفرسان في انتخابات القنصلية لعام ١٠٧ وتقدم أحد ثقباء العامة وهو مانليوس مانكينوس (T. Manlius Mancinus) باقتراح الى الجمعية لاسناد قيادة الحملة الافريقية الى ماريوس ، فأقرت الجمعية الاقتراح وأذن السناتو لمشيشة الشعب ، مستنكراً هذا الافتئات على حقه في اطالة مدة قيادة ميتيلوس (prorogatio imperii) وفي توزيع القيادات على القناصل .

(٢) معنى « رجل جديد » انه لم يسبق لاحد من افراد أسرته ان تولى منصبا رفيعا يتمتع صاحبه « بالاميريوم » كالقنصلية بحيث يضمن على الأسرة صفة النبالة ، أي انه لم يكن من أسرة نبيلة (nobilis) بمعنى مرموقة أو شهيرة . وكان من العسير على أي شخص مفطور ليس لأسرته ماض عريق في خدمة الدولة ان يعوز بمنصب كبير كالقنصلية . وكان الشعب الروماني بوجه عام لا يعطى أصواته في انتخابات القنصلية إلا لاشخاص ينتمون إلى أسرة شريفة حسباً أو نبيلة منصبا . لقد كانت الجمهورية الرومانية جمهورياً أرستقراطياً الطابع . وليس أدل على ذلك من أنه إذا استعرضنا أسماء القناصل خلال القرن السابق على الأخوين جراكوس نجد أنه من بين ٢٠٠ قنصل كان هناك ١٩٥ فنصلاً ينتمون إلى ٢٥ أسرة فقط ، وحوالي ٩٩ ينتمون إلى ١٠ أسر . بل إن أسرة واحدة ، وهي أسرة سكيبو من عشيرة كورنيليوس Cornelius Scipio أخرجت لروما ٢٢ قنصلاً في تلك الفترة التي كانت هذه الأسرة تتمتع أثناءها بأكبر نفوذ وجاه .

وفتح ماريوس باب التجنيد على مصراعيه للمتطوعين ، ورحل الى أفريقيا في عام ١٠٧ ، حيث تولى قيادة الحرب ضد يوجورتا . وكان من بين مساعديه كويستور يدعى لوكيوس كورنيليوس سُلا (I.. Cornelius Sulla) ، وهو جندي كفاء ينتمى - كما ذكرنا - الى احدى الأسر الشريفة . ومع أن يوجورتا دعم مركزه بالتحالف مع حمية بوكوس (Bocchus) ملك مَوريتانيا Mauretania (مراكش على وجه التقريب) ، الا أن ماريوس اقتصر عليه وعلى حليفه في معركتين عام ١٠٥ . وأخيرا جازف سلا وشق طريقه الى موريتانيا حيث استطاع أن يقنع ملكها بالتخلي عن يوجورتا والغدر به وتسليمه كأسير للرومان . وقد أرسل الأمير الافريقي الى روما حيث سيق في موكب انتصار ماريوس في أول يناير من عام ١٠٤ . ثم زج به في السجن (Tullianum) وقتل شر قتلة . ووجد ماريوس أنه قد انتخب أثناء غيابه قنصلا لعام ١٠٤ - وهو أمر مناقض للدستور - ولكن الشعب أصر على انتخابه لأنه تخوف من خطر البرابرة الجرمان الذين كانوا يطرقون أبواب ايطاليا الشمالية ، ولأنه كان يثق به وبكفائته العسكرية على أثر انتصاراته في أفريقيا (١) .

وقد أحدثت الحرب ضد يوجورتا آثارا بعيدة المدى في روما نفسها ، إذ فقد السناتو جانبا كبيرا من هيئته ، تلك الهيئة التي زعزعتها الأخواز جراكوس من قبل ، ولاسيما بعد أن اتضح ارتشاء أعضائه وعجزهم الناضح وانعدام روح المسئولية بينهم ، حتى أن هذه المفاصل ألقت ظلالا قاتما على انتصارات القواد الاشراف . كما أثبتت هذه الحرب مرة أخرى أن في امكان العامة والفرسان - بتكوين جبهة منحددة -

(١) أعطت روما الجزء الشرقي من نومبديا لآخ غير شقيق ليوجورتا يدعى « جاودا » ، وأعطت الجزء الغربي منها لبوكوس . ملك مورتانيا مكافأة له على خدماته . ولم يستفد من هذه الحرب سوى « الفرسان » الذين استأنفوا أعمالهم التجارية في امان بشمال افريقيا .

أن يسيطروا على السياسة الخارجية . وبقي على ماريوس أن يدمج هذين الحزبين تحت لوائه حتى يستطيع الوقوف في وجه حزب السناتو .

الحرب ضد الكمبرى والثيوتون

لكن سرعان ما احدث بايطاليا خطر أشد من سابقه . فلو نظرنا الى خريطة لايطاليا أو سنحت لنا فرصة مشاهدة ذلك السور الهائل ، سور جبال الالب الشاهقة ، من سهل الپو فقد يحملنا مظهره على الاعتقاد بأنه سد منيع لا يمكن اختراقه ، غير أن سلاسل الجبال ليست دائما خطوطا دفاعية قوية . وفي التاريخ القديم والحديث ما يؤيد أن ايطاليا كانت عرضة للغزو من الشمال . فقد اجتاز هنيال وأخوه الطرف الغربي من سلسلة الالب ، حيث شقت فيما بعد طرق منتظمة واسعة بين روما ولاياتها الغربية . وأما في الطرف الشرقي ، حيث ينخفض ارتفاع المرات انخفاضاً تدريجياً ، فكان الدخول الى ايطاليا ميسوراً من الشمال الشرقي . وقد ساد الاضطراب وقتئذ في تلك المنطقة الواقعة وراء ذلك الحاجز الجبلي ، وذلك عندما تحركت جموع غفيرة جائعة من السكان ، تدفعها شعوب أخرى جائعة مثلها ، للبحث عن أراض خصبة تستقر فيها . ففي عام ١١٣ تدفقت قبائل متنقلة جرمانية الأصل من منطقة چيتلاند ونهر الباي ، وانضمت اليها قبائل أخرى أثناء تقدمها ، تدفقت جميعها على هذه المنطقة الضعيفة من جبال الالب الشرقية وأوشكت أن تقتحمها .

وحاول القنصل كاربو (Cn. Papirius Carbo) الذي كان مرابطاً في نوريكوم (Noricum)^(١) على رأس جيش روماني أن يقف زحف الكمبرى

(١) منطقة من مناطق الالب ، جنوبي الدانوب (شرقي هلفيتيا = سويسرا) كان سكانها خليطاً من الاليرمين والكليتيين (الغال) عاصمتها القديمة نوريا (= نويماركي الحالية) .

في الاقليم المعروف الآن باسم كارينثيا ، ولكنه منى بهزيمة فاحشة على مقربة من نوريّا (Noreia) (١) عام ١١٣ . ولو كان على رأس هذه القبائل قائد فابغ لاقتحم إيطاليا لأنه لم يكن هناك وقتئذ - كما حدث مرة أخرى بعد قرن تقريبا - ما يعوق زحفها من الألب الى روما . ولكنها تابعت - لسبب مجهول - مسيرها عبر سويسرا نحو الغرب . وفي عام ١٠٨/١٠٩ ظهرت هذه القبائل فجأة وراء جبال الالب الغربية في الولاية المعروفة باسم غالة الناربونية (Gallia Narbonensis) على مقربة من تولوسا (Tolosa) - وهي تولوز الحديثة - حيث مزقت شمل جيش روماني آخر كان يقوده القنصل ميلانوس (M. Iunius Silanus) كما أباد التيجوريني (Tigurini) الغاليون في وادي الجارون جيشا قنصليا ثالثا في معركة هلك فيها قائده كاسيوس لونجينوس (L. Cassius Longinus) قنصل سنة ١٠٧ . وفي ٦ أكتوبر عام ١٠٥ بينما كانت القنصل الرومانية تشق طريقها الى مرسلية تحت قيادة القنصل ماليوس (Cn. Mallius Maximus) والبروقنصل كاييو (Q. Servilius Caepio) متجهة نحو إيطاليا ، منيت عند أراوسيو (Arausio) - وهي أورانج الحديثة - الواقعة في الولاية الرومانية ، بهزيمة على يد الكمبري والتوتون وحلفائهم لا تقل في فداحتها عن هزيمة كئاي ، وأوشك نصف الامبراطورية أن يقع في يد الغزاة الظافرين ، غير أنهم

(١) بالقرب من لوبليانا في يوغسلافيا الحديثة .
(٢) كان كاييو قنصلا في ١٠٦ وماليوس قنصلا في ١٠٥ . وقد رفض الاول ان يتعاون مع الثاني بوصفه رجلا جديدا مما ادى الى الهزيمة النكرة . ولكنه استطاع ان يسترد تولوز من يد الاعداء ، وعاقب المدينة بان نهب كنوز معبدها الفخيم وهو معبد الربة مينرفا (Minerva) وقد حوكم كاييو فيما بعد عام ١٠٤ ولعله ادين باختلاس هذه الفخائم التي اختفت في ظروف غامضة واصبحت عبارة « ذهب تولوز (aurum Tolosanum) » . يغرب بها التل فيما يختفى فجأة . وصدر بايعاز من نقيب العامة نوريانوس في ١٠٢ قرار شعبي (من الجمعية) بتجريد من « الامبريوم » وطرده من السناتو وسجنه ثم نفيه باعتباره مستولا مع ماليوس عن ضياع الجيش وكارثة أراوسيو . وكذلك حكم على ماليوس بالنفي بتهمة الخيانة وذلك بايعاز من نقيب العامة سانورينيوس .
والقرار المذكور هو قرار عامتي Plebis Cito Amدرتسنه الجمعية القبلية المنعقدة بدعوة من نقيب للعامة ولا يحضرها الا العامة ، ومن ثم تعرف هذه الحالة باسم "جمعية العامة القبلية"

تركوا فريستهم للمرة الثانية ، متابعين سيرهم غربا سعيا وراء فتوحات
أيسر منالا .

اصلاحات ماريوس العسكرية

وأتيحت لروما فترة ثلاث سنوات تقريبا تنفست فيها الصعداء ،
ووجدت خلالها أيضا الرجل القادر على اتقاها . فقد أعاد ماريوس
تنظيم الجيش وغير طريقة تسليحه وتدريبه وأسلوب قتاله ونظامه
التأديبي تغيرا جوهريا . (١) وأهم من ذلك أنه غير نظام التجنيد حتى
يستطيع أن يعيى القوات اللازمة ، وكانت الحكومة الرومانية تجد
صعوبات في تجنيد العدد الكافي من الرجال بمقتضى النظام القديم ،
وذلك لنقص عدد من يملكون النصاب المالى المطلوب ، وضعف الروح
العسكرية بين القادرين ، واقامة كثير من المواطنين خارج ايطاليا . ففتح
ماريوس باب التجنيد على مصراعيه للمواطنين الفقراء (proletarii)

(١) ما تزال معلوماتنا طفيفة عن التغيرات التى طرأت على نظام الجيش الرومانى
قبل عصر ماريوس . ومع هذا ففى وسعنا أن نقول - استنادا الى المؤرخ بوليبيوس -
أن الجيش الرومانى كان يتألف قرب نهاية القرن الثالث من أربع فرق . وكانت كل فرقة
(legio) تشتمل - بغض النظر عن الآلى الفرسان (ala) الملحق بها والذى كان
يتألف من ٢٠٠ رجل متقسمين الى ١٠ فصائل صغيرة (turma) - على ٤٢٠٠ جندي
من المشاة منظمين فى ثلاثة صفوف أو طبقات (وعدا للثروة والسن) . وكان الصف الاول
يتألف ممن يعرفون باسم الـ hastati (وعددهم ١٢٠٠) ، والثانى من الـ principes
(وعددهم ١٢٠٠) والثالث من الـ triarii (وعددهم ٦٠٠) . وهذه الصفوف
الثلاثة تتألف من المشاة ثقيلى العدة . ثم يأتى بعدها الـ velites وهم المشاة خفيفو
العدة المؤلفون من فقراء المواطنين وكانوا يوضعون فى الجناحين للقيام بالمناوشات .
وكانت الفرقة (legio) تنقسم الى ٢٠ جماعة موزعة بالتساوى بين الصفوف
الثلاثة . وقد اشتملت كل جماعة (manipulus) على سريتين ، يضم كل سربة (centuria)
منها ٦٠ جنديا فى الصف الاول والثانى و٣٠ جنديا فى الصف الثالث . وكان بلحق بكل
سربة ٢٠ جنديا من المشاة خفيفى العدة . وكان القنصل هو الذى ينزلى قيادة الفرقة
ويعاونه فيها سنة ضباط ملقبون بترابنة الجنود (tribuni militum a populo)
وكانوا فى منزلة الحكام (magistratus) لأن الجمعية القبلية هى التى كانت تنتخبهم .

= وهى ما كانت تعرف من قبل " بمجلس العامة " واكتسبت
قراراتها صفة الشرعية وصار لها قوة القوانين الملزمة لكل
الشعب بعد عام ٢٨٧ .

في جميع أنحاء الامبراطورية والذين كان عدم استيفائهم النصاب (capite censi) لا يؤهلهم في الماضي للخدمة في الفرق الرومانية ، على الرغم من أن هذا النصاب كان قد هبط الى حد كبير . واعتمد على التطوع أكثر منه على التجنيد الاجباري لعدد معين من الحملات . وقد ترتب على هذه الخطوة نتائج خطيرة بعيدة المدى اذ تحولت الخدمة العسكرية من التزام نحو الدولة الى شبه حرفة تعيش منها أعداد غفيرة من المواطنين المعدمين أو المتعطلين عن العمل . ولم يعد المجندون على هذا الأساس يتوقون — فيما يبدو — الى تسريحهم بعد انتهاء الحملات بل أصبحوا يفضلون البقاء في الخدمة العسكرية سنوات عديدة تحت إمرة قائدهم المظفر . ووجد ماريوس متسعا من الوقت لتدريبهم تدريبا حسنا ، واضعا بذلك أسس الدفاع المتينة عن حضارة البحر المتوسط .

وأفضت إصلاحاته العسكرية الى انتصار رائع أحرزه ضد قبائل التيوتون (Teutoni = Teutones) في أكواي سكستياي (Aquae Sextiae) — وهي اكس آن بروقانس الحالية — على مقربة من مرسلينا في عام ١٠٢ ، ولانتصار آخر في عام ١٠١ بالتعاون مع لوقاتيوس كاتولوس (Lutatius Catulus) زميله السابق في قنصلية عام ١٠٢ على قبائل

== فلما جاء ماريوس ألغى نظام تشكيل الجيش القائم على أساس الثروة فتساوت الجنود ونسلحت كلها بعين السلاح وهو السيف والخربة الطويلة (pilum) . وأصبحت الفرقة (legio) تتألف نظريا من ٦٠٠٠ جندي (الكان العدد يهبط أحيانا الى أقل من ذلك بكثير) . وانقسمت الفرقة الى ١٠ كتائب وأصبحت الكتيبة (cohors) هي وحدة العنل الرئيسية أي حلت محل الجماعة (manipulus) . وجعل لكل فرقة ملما أو شعارا في شكل نسر (aquila) مزخرفا بالكليل من النعب أو اللفة (corona) وكان ضباعه من الفرقة قد ينسب في سرعها ، على أن كل كتيبة ظلت تتألف من ٢ جماعات و ٦ سرايا ، وألغى الاى الفرسان وكذلك النساء ذوو السلاح الخفيف . ولم يحدث تغير في القيادات ، إلى أن جاء يوليوس قيصر الذي قلل من أهمية ترابنة الجنود وبدأ بسند قيادة الفرقة الى قائد يجعل لقب legatus (legionis) انظر :

R. E. Smith, Service in the Post-Marian Army, 1958

الكيمبري (Cimbri) في ثركلاي (Vercellae) في حوض الپو عند الطرف
الغربي من شمال إيطاليا ، الذي كان هؤلاء البرابرة قد تسللوا منه
أخيرا . وهكذا نجت إيطاليا من الخطر مرة أخرى (١) .

ولننظر الآن كيف أدى ذلك الخطر أو بالأحرى الجهود التي بذلت
لدفعه الى تغييرات بالغة الأهمية في السلطة الحكومية ونظام الدولة
الرومانية . لقد أهدت إيطاليا لا بفضل الجيوش الرومانية أو الحكومة
الرومانية ، بل على يد ماريوس والجيش الذي أنشأه . وتولى ماريوس
التنصليّة خمس سنوات متوالية (١٠٤ - ١٠٠) ، وهو أمر يناقض
جميع السوابق . وكان الجيش الذي أنشأه يتطلع اليه لا الى روما
للحصول على راتبه أو ترقّيته أو تسريحه . وفي وسعنا أن نعتبر الجمع
الفير الذي انضوى تحت لوائه جيشا من جيوش البحر المتوسط تحت
قيادة رجل ايطالي الأصل ، أشبه بجيش هنيبال . منه بالجيوش الرومانية
القديمة المؤلفة من المواطنين والتي أحرزت روما بها السيادة على إيطاليا .
وكان جيشا شبه محترف يدين بالولاء لقائده ، وليس لديه سوى فكرة
غامضة عن الدولة التي كان من المفروض أنه خادمها . ومنذ ذلك الحين
ظلت الجيوش الرومانية تتألف من أتباع لماريوس وسلا وبومبي
وقيصر ، مما جعلها مصدرا من مصادر القلق والخطر المستمر على

(١) بينما كان الكيمبري والتيونون يطردون ابواب إيطاليا الشمالية ، انشغلت روما
ايضا باخماد عدة اضطرابات وقعت في مناطق أخرى من الامبراطورية :

(أ) ففي سنة ١٠٤ نشبت نورة خطيرة تعرف بحرب العبيد الثانية في صقلية . وقد
أوقع العبيد الهزيمة بالقوايا الرومانية وسيطروا على المناطق الداخلية بالجزيرة وعرضوا
الدين الصقلية لخطر المجاعة . وقد تزعم هذه الثورة رجلا ن أحدهما سالفيوس الذي لقب
نفسه « الملك نروفون » في جنوب الجزيرة ، والآخر في غربها ، واسمه اثينبون (وهو من
كيليكيا) . ولم تقمع ثورتها الا بعد جهود شاقة في عام ١٠١/١٠٠ على يد القنصل مانيوس
أكويليوس . وأماتورة العبيد الأولى في صقلية (١٣٥ - ١٣٢) فقد أخمدتها القنصل
روبيليوس عام ١٣٢ ونظم بعدها شؤون الولاية ووضع لها دستورا .

(ب) وقبل نهاية حرب العبيد في صقلية واجهت روما خطرا آخر وهو خطر القرصنة
التي استلحل أمرها في البحر المتوسط منذ انهيار قوة رودس البحرية عقب الحروب
القتونية الثانية ، إذ أن روما لم تهتم بالاحتفاظ بأسطول كاف للقيام بأعمال الحراسة

اندولة ، وان كانت في الوقت نفسه أجهزة رائعة للقتال كهيئة بتأمين حدود الامبراطورية . واستمر الأمر كذلك الى أن أحيا أغسطس في قوس الرومان من جديد الشعور بالواجب نحو الدولة .

تريونية جلاوكيا وساتورنينوس

وقد أساءت الحرب مع يوجورثا الى سمعة حزب السناتو الذي عرف باسم الحزب الارستقراطي (Opimates) وقللت من هيئته . وزاد من تزعزع مركزه الهزائم التي منى بها قواد هذا الحزب في أثناء غزوات الكبرى والتيونون . وقد شجع ذلك زعماء الحزب الشعبي أو الديمقراطي (Populares) على شن سلسلة من الهجمات على حزب السناتو مستندين الى تأييد ماريوس والتفاف الشعب حوله والفرسان . فاستصدر جلاوكيا (C. Servilius Glaucia) — وهو أحد قهواء العامة المتطرفين في سنة ١٠٤ (أو ١٠١ ؟) قانونا يعرف بقانون سرفيليوس (lex Servilia de repetundis) يقضى بالغاء قانون آخر كان قد صدر بإيعاز من القنصل كاييو وتحت ضغط السناتو باحلال محلين من طبقة السناتو محل المحلفين من طبقة الفرسان في المحاكم المختصة بقضايا الابتزاز . واستصدر تقيب آخر في نفس السنة (١٠٤) قانونا يعرف بقانون دوميتيوس (lex Domitia de sacerdotiis) يهدف الى اضعاف

في البحر بعد ان قضت على أعدائها وكان القراصنة في الوقت نفسه يجار رقيق يشتاقون باختطاف الناس من شواطئ البحر وبخاصة في الشرق ويسترقونهم وزودون بهم سوى النخاسة العالي بجزيرة ديلوس . وكان كبار الرومان يفضون اعينهم عن هذه التجارة لاحتياجهم الى الرقيق في ضياعهم الواسعة . غير ان أعمال السلب والنهب الجريئة التي قام بها القراصنة اخيرا بلغت من الخطورة حبا لم يكن من المستطاع تجاهله او السكوب عليه . ولذلك منح البربود ماركوس انطونيوس (M. Antonius) في ١٠٢ - ١٠٠ سلطة حربية بروفنصلية للنفساء على معاقل القراصنة واوكلهم وبخاصة في قرب كيليكيا وبامفوليا . ومع هذا فان الخطر لم يتقشع مائما وظل كما عنة سنوات . (ج) واضطرب روما الى مواجهة أخطار ثورات نشبت في اسبانيا في فترات متقطعة . حتى ٩٥ ، واخطار غارات البرابرة المستمرة من طاريا على ولايتي مغلونيا واللوريكوم .

سيطرة الاشراف على المجالس الكهنوتية وذلك بجعل انتخاب الكهنة ينم عن طريق القبائل لا عن طريق المجالس الدينية . وفي ١٠٣ استطاع قتيب ثالث وهو ساتورنينوس (L. Appuleius Saturninus) اداة كاييو وماليوس - وهما من أنصار السناتو - المسئولين عن هزيمة أراوسيو وذلك بمقتضى قانون استصدره بتأليف محكمة لمحاكمة الاشخاص المتهمين بالخيانة (١) . ويعرف بقانون أبوليوس (lex Appuleia de maiestate) واحتضن في نفس العام أو في تريونته الثانية عام ١٠٠ قانونا يقضى بالعودة الى بيع الغلال بسعر أقل من سعر السوق ، وهو قانون كان قد توقف العمل به بعد موت جايوس جراكوس . ولاسترضاء ماريوس تبنى ساتورنينوس - برغم اعتراض بعض النقباء - قانونا آخر بمنح حصص زراعية في ولايه أفريقيا لجنوده القداماء بمعدل ١٠٠ فدان روماني لكل واحد منهم .

وترقب على هذه التشريعات أن تألفت جبهة شعبية من ماريوس وجلاوكيا وساتورنينوس كان الغرض منها تأييد ترشيح ماريوس للقنصلية السادسة في عام ١٠٠ ، وترشيح جلاوكيا للبريتورية وساتورنيوس للتريونية الثانية ، ونجح الثلاثة في الانتخابات ، ولكنهم لم يضعوا برنامجا سياسيا محددًا سوى السيطرة على الجمعية القبلية لإصدار مشروعات متطرفة تشبع نزوات الفوغاء . غير أن أحد هذه المشروعات وهو الخاص بانشاء مستعمرات للمحاربين القداماء تتمتع بالحقوق اللاتينية في صقلية وبلاد الاغريق ومقدونيا (وافريقيا ؟) لقي معارضة لا من جانب السناتو فحسب بل من جانب جمهور الناخبين الرومان في المدينة ، لانه يسمح للحلفاء الايطاليين بالاشتراك فيها ويخول ماريوس سلطة منح الجنسية الرومانية لبعض الافراد المشتركين في المستعمرات المقترحة . وتقدم ساتورنينوس بمشروع قانون آخر بتوزيع أراضي الكري في بلاد الغال على فقراء الرومان ، وكان يتضمن بتدًا بالزام أعضاء السناتو بحلف اليمين على اطاعته خلال خمسة أيام

(١) كلمة maiestas معناها الحرفى هيبة او جلال أو سلطات أو سلطة والخيانة عند الرومان هي الانتقاص من هيبة أو سلطة

بعد صدوره والا فقدوا مقاعدهم في المجلس ودفعوا غرامة قدرها ٢٠ تالنتا . هذا المشروع الذي تم التصديق عليه وسط جو مشحون بالعنف وفي قلب الطوالح الحسنة ، حمل ميتيلوس « قاهر نوميديا » على الرحيل عن روما . وأعقبه اقتراح لساتورنينوس بمطالبة ماريوس « بحصرمان ميتيلوس » التوميدى من الماء والنار (aqua et ignis interdictio) أى قفيه مع تجريد من حق المواطنة ومصادرة أملاكه ، وتعرضه في حالة عودته الى روما دون اذن لحرمانه من حماية القانون واستباحة دمه . ذلك لأنه حاول كرقب في عام ١٠٢ حذف اسم جلاوكيا وساتورنينوس من قائمة أعضاء السناتو . كما أن هذا النقيب التجأ الى العنف في أثناء الانتخابات الخاصة بالتريونية واستغل محاربى جيش ماريوس القدماء للقضاء على المعارضة . والواقع أن ماريوس نفسه لم ينظر بعين الارتياح الى سلوك زميله المشوب بالعنف . وعندما لم يستمع الى نصحه توترت علاقته معها فتصدعت الجبهة الشعبية . على أن هذه الاعتبارات لم تكن الزعيمين ساتورنينوس وجلاوكيا عن ترشيح نفسيهما في الانتخابات لعام ٩٩ . وقد أعيد انتخاب الأول للتريونية للمرة الثالثة واما الثانى وهو جلاوكيا فانه الى جانب عدم شرعية ترشيحه ، لم يستطع التغلب على ميوس ، وهو منافسه في القنصلية ، الا باغتباله مما أثار سخط الرأى العام عليه . واشتدت مخاوف طبقة الفرسان فتخلت عن مناصرة الحزب الديمقراطي وتألست عليه . وعندئذ أصدر السناتو قراره النهائى (Senatus consultum ultimum) ودعا ماريوس وزميله القنصل الآخر لافرار النظام وحماية سلامة الدولة ، فحاصر الزعيمين وأنصارهما المنعصين فوق الكايتول حتى استسلموا وتحفظ ماريوس عليهما في قاعة مجلس الشيوخ (Curia Hostilia) بالسوق العامة توطئة لمحاكمتها ولكن الجماهير هاجمت مكان اعتقالهما وقتلتها في العاشر من ديسمبر عام ١٠٠ (وهو اليوم الأول لتسلم مقاليد منصب التريونية لعام ٩٩) .

= أو كرامة وشرف الشعب الرومانى
 وهو مصطلح مبهم ويشمل أى نشاط معاد للدولة .
maiestas minuta

وقد دمرت منازلها وصودرت ممتلكاتها وألغى من تشريعاتها ماصدر
عن طريق العنف (per vim)
وقد أضعفت هذه الحوادث مركز ماريوس وأدت الى أفول نجمه
السياسى فترة من الزمن . فقد عجز عن السيطرة على أنصاره وعن
حمايتهم من غضب الشعب عندما وضعهم تحت الحراسة . وأخفق القائد
العسكرى القدير كزعيم سياسى . ولم يعد السناتو يخشاه ولم تعد
العامه تحترمه . هكذا خرج السناتو من المعصية ظافرا وانشق الحزب
الديمقراطى على نفسه وساءت سمعته . واحتفل حزب السناتو باقتصاره
فيبدأ سلسلة من المحاكمات انتهت بادانة بعض أنصار الحزب الديمقراطى .
وصدر قانون يقضى ببطلان ادماج مسائل غير مرتبطة في مشروع واحد
وضرورة اقضاء مدة لا تقل عن ١٧ يوما (trinum nundinum) (١) بين
الاعلان الرسمى عن مشروع معين وبين الاقتراع عليه ، بهذا القانون
الذى عرف بقانون كايكيكليوس وديديوس (Lex Caecilia Didia) نسبة الي
عشيرتى القنصلين فى عام ٩٨ . كان القصد منه الحيلولة دون احتمال
تضافر الفرسان والعامه وتخويل السناتو مهلة يختاط فيها فلا يفاجأ
بمشروعات لا تتفق ورغبته .

سُلاً

الحرب الايطالية

هذا الجيش - جيش ماريوس (٢) - الذى كان الجنود يخدبون
فيه فترات طويلة ، خلق لروما مشكلة ثانية وعرضها بطريق غير مباشر
لخطر جسيم آخر . كانت المشكلة تتمثل فى الجنود المسرحين وموقف

(١) هذه العبارة معناها كل سوق ثالث اى حتى يوم السوق الثالث . ويوم السوق
(nundinae = nundinum) عند الرومان هو اليوم التاسع لانه يحل بعد مرور
الاسبوع الاكبر من بداية ايام . وقد تمتد المدة المشار اليها فى المن الى ٢٤ يوما .
(٢) جعل ماريوس من جيشه اداة مرنة سريعة الحركة والتنقل ، ومعتمدة على نفسها
لانه جعل الجنود يمدون كل ثيابهم وادواتهم على ظهورهم ، ومن ثم فقد أطلق عليهم على
سبيل الفكاهة « بدال ماريوس muli Mariani » .

الحكومة منهم وما ينبغي أن نصنع لهم عندما يعودون الى الوطن بعد سنوات من الخدمة في جهات نائية . فكثير منهم ، وربما معظمهم ، لم يكن لديهم بيوت يأوون اليها . وكان من البديهي أن يطالب المحاربون القدماء (veterani) بمستعمرات يقيمون فيها بصفة دائمة . لكن السناتو لم يحرك ساكنا ، ولم يكن في مقدور القائد بدون تعاون السناتو أن يفعل شيئا حيال هذه المشكلة . وترتب على ذلك أن نزح كثير منهم الى العاصمة المكتظة بالسكان سعيا وراء الرزق بشتى السبل ، معتمدين على القمح الذي كانت السلطات توزعه بأسعار زهيدة . وكان بين هؤلاء الجنود بلا ريب نفر من غير المواضين لا يسمح لهم القانون بالتصويت في الانتخابات أو الاقتراع على المشروعات في الجمعيات التشريعية ، ولا يكفل لاشخاصهم أو ممتلكاتهم الحماية الكافية ، وذلك على الرغم من خدمتهم الطويلة في الجيش . وقد بدأ هؤلاء الناس يقحمون أنفسهم كناخبين ، ويزاولون حقوق الجنسية بالباطل . ولم يكن ثمة سبيل الى اكتشاف أمرهم نظرا لما كان يسود السجلات من فوضى واضطراب . وأخيرا اتضح بجلاء أن مجموعة المواطنين أصبحت تضم عناصر غريبة ، فأصدر القنصلان اللذان توليا الحكم في سنة ٩٥ قانونا (lex Licinia-Mucia) للتمييز والفصل بين المواطنين وغير المواطنين وطردها الايطاليين المستوطنين يروما من العاصمة واعادتهم الى مواطنهم الأصلية .

لكن الأوان كان قد فات لاتخاذ مثل هذه الخطوة التي ذاع نباها في جميع أنحاء ايطاليا حيث فسرت بأنها محاولة مفسودة لمنع الايطاليين من الحصول على الجنسية الرومانية (civitas) . لكن سرعان ما وجد الايطاليون نصيرا لهم بين الرومان ، فقد حدث أن كان بين الفائزين بتقابة العامة لسنة ٩١ رجل يدعى ليقيوس دروسوس (M. Livius Drusus) وهو ابن قبيب العامة خصم جايوس جراكوس وحليف السناتو الذي يحمل نفس الاسم ^(١) . وبدا الابن في أول الأمر كأنه سيقبض بآية ويكون

(١) راجع ص ٢٢ فيما تقدم ، وجدير بالذكر أن الابن هو جد ليفيا (دوسيللا) التي تزوجها اكنافيانوس (اغسطس) في عام ٣٩ .

أداة في السناتو . غير أن ليشيوس دروسوس كان - رغم أرسقراطيته وثرائه وعجرفته - على قهض أيه رجلا واسع الأفق ، ذا نزعة واضحة الى الإصلاح (١) . لذلك وضع برنامجا هادفا به الى التوفيق بين مصالح الطبقات وكسب تأييدها له ، فاقترح مشروعا لتوزيع الأراضي على العامة واضعا نفسه عضوا في لجنة التوزيع ، ومشروعا آخر ببيع القمح لهم بتمن رخص . ولعله - اقتداء بجايوس جراكوس - اقترح إضافة ٣٠٠ عضو من طبقة الفرسان الى مجلس الشيوخ الروماني ، واختيار هيئة المحلفين لمحاكم الابتزاز من المجلس بعد توسيع دائرته على أن تشتمل الهيئة على عدد من أعضاء السناتو مساو لعدد الفرسان . وأضاف الى ذلك بندا يقضى بمرافعة قانون رفع دعوى الرشوة على المحلفين من الفرسان لكن هذه المشروعات التقديمية لم يتحقق منها الا القليل ، وحنى هذا القليل طعن في شرعيته لمخالفته لقانون كايكيلوس وديديوس .

غير أن كل الطبقات خذلته وباء بالفشل المذريع مشروعه **الجنسية** الرومانية للإيطاليين الذين توارثت الشائعات بأنه متواطئ معهم ضد الرومان (٢) . وفي ذات يوم اغتالته يد عميل مجهول . وهكذا انتهت آخر محاولة يقوم بها رجل سياسي لإصلاح أداة الحكم بالوسائل السلمية (٣) . وأعقب اغتياله مباشرة نشوب الثورة الإيطالية التي لم يـ

(١) من الواضح ان دروسوس لم يكن يهدف الى تحويل نفوذ السناتو بفقد ماكان يريد تنبيه السناتو الى ضرورة الإصلاح بغايا للخطر قبل وقوعه . فقد لقي مساندة كبيرة من بعض رجال السناتو المحافظين من امثال ليكيينيوس كراسوس ، الخطيب الشهير ، وايميليو سكاوروس ، رئيس السناتو . ولكنه لقي معارضة شديدة من جانب لوكيوس ماركوس فيليبوس ، فنصل عام ٩١ ، ومن الفرسان * وبعض الإيطاليين ، **ماركيوس** (٢) الامر غامض : فقد افشى دروسوس للقنصلين سر مؤامرة إيطالية لاغتيالهما مما يدل على عدم استعدادهم ليعود الإيطاليين في ثورة ضد بلده ، ولكنه يدل على مدى اتصاله الوثيق بهم وإطلاعهم على خططهم . وفي الحق انه كان بمنزلة بعض زعمائهم بدتزل في روما .

(٣) لم يترك اصدقاء دروسوس « الاصفر » وشأنهم من بعده ، اذ استصدرت شجب للعامة بدعى قاربوس هوبريدا في آخر السنة (٩١) قانونا (Lex Varia de maiestate) بتشكيل محكمة من الفرسان لمحاكمة كل من نشور حوله شبهة التواطؤ مع الإيطاليين . وأسفر التحقيق عن إدانة عدد من اطباء الرومان . ومن سخريه القدر ان معزج القانون نفسه وقع في شركه وادب بقتضاهم بـ **الخيانة** *maiestas* وحكم عليه بالنزاع عام ٨٩ ، ربما بعد صدور قانون بلاوتيوس بتعديل تشكيل هيئة محلفي المحكمة .

هناك محيص عنها ، والتي لا يستبعد أن التفكير فيها استغرق مدة طويلة . كانت الحرب الاجتماعية (١) (٩٠ - ٨٨) - كما تسمى أحيانا (وهي في الواقع حرب أهلية) - أزمة في تاريخ تطور الحضارة الأوروبية . وما ان وضعت أوزارها حتى كانت دولة المدينة الاغريقية والرومانية قد زالت من ايطاليا ، وحل مكانها نظام جديد للدولة لم يكن له اسم وقتئذ .

وقد أوجس السناتو الروماني خيفة من انتشار التذمر في ايطاليا فأوفد مندوبين الى مختلف أنحائها لمراقبة تطورات الموقف . وحدث في مدينة أسكولوم Asculum (باقليم بيكينوم) ان ظن الشعب أن خطله قد انكشفت فتوترت أعصابه فهاجم برتورا رومانيا زائرا ارعن التصرف ، وقتله هو وجميع الرومان الموجودين بالمدينة . وحضر الى روما وفد يمثل الحلفاء الايطالين ليحتج على سوء معاملة روما لهم في الماضي . غير أن السناتو رفض الاستماع الى الوفد ما لم يُقدّم تعويض كاف عن أرواح حادثة أسكولوم . وتلبد الجو بالغيوم والتهبت المشاعر وتعذر التفاهم . لقد استقر عزم سكان جبال بيكينوم وسينيوم على القتال للظفر بالاستقلال ، وأتفق كل من الطرفين شتاء عام ٩١/٩٠ في الاستعداد للحرب .

ولقد ذكرت أن الصراع الذي نشب يعرف أحيانا باسم الحرب الاجتماعية (بمعنى حرب الحلفاء socii) . غير أن هذه التسمية مضللة لأنها تحجب حقيقة بالغة الأهمية : وهي أن الحلفاء اللاتين لم ينضموا الى الثورة ، بل بقوا جميعا - باستثناء مستعمرة فينومسيا -

(١) ترفعه هذه الحرب خطأ باسم « الحرب الاجتماعية » (Social War) . لكنها كانت حربا بين الحلفاء السمنون في اللاتينية socii ، ولذلك يكون من الأصوب تسميتها « بحرب الحلفاء » ، ولو أنها منسوبة عادة الى شعب ايطالي واحد وهم المارسيون (Marsi) فاشتهرت أيضا باسم « الحرب المارسية » .

موازين للرومان (١) . وإذا كان اللاتين لمجرد حصولهم على امتيازات أكثر من سواهم قد امتنعوا عن مقاتلة الرومان ، فما الذي دفع بسائر الحلفاء الإيطاليين إلى التطرف والعنف والثورة (٢) . ولا يجادل أحد في أنه كانت للإيطاليين شكاوى ومظالم . لكن لماذا استبدت بهم الرغبة في الحصول على الجنسية الرومانية ؟ ما الذي كانوا يفيدونه من ورائها ؟ ان عددا قليلا منهم هو الذي كان يوسع ان يتكبد مشاق السفر وتعباته الى روما بصفة منتظمة ليمارس حقه السياسي في الاقتراع على القوانين والتصويت في الانتخابات ، وعددا أقل هو الذي كان يمكنه أن يشق طريقه الى الطبقة الارستقراطية الرومانية التي كانت شبه مغلقة ومقصورة على الحكام . كان الإيطاليون في أول الأمر - على أيام الأخوين جراكوس - يطعمون - على ما يبدو - في الحماية القانونية التي تسبغها عليهم الجنسية الرومانية من ظلم الحكام الرومان واستغلالهم . وربما كان يرضيهم مجرد الحصول على حق التظلم من أحكامهم (المسعى *ius provocacionis*) . لكن اصرار الرومان على رفض مطالبهم باستمرار

(١) يمكن تفسير ولاء المدن اللاتينية لروما نفسها جزئيا بان حكامها المحليين كانوا يتمتعون الجنسية ربما منذ عام ١٢٤ . ولما كانوا يتغيرون سنويا ، فقد أصبحت نواة الطبقة الحاكمة في كل من هذه المدن رومانية على مر الزمن ، وبالتالي كانت قد أصبحت موازية للرومان ساعة قيام الحرب في عام ٩١ .

(٢) لا يوجد دليل كاف على وجود انقسام في الولاء للثورة داخل المدن الإيطالية لأسباب اجتماعية واقتصادية . لكن ربما يوجد ما يبرر الرأي القائل بان الارستقراطيين المحليين في هذه المدن كانت أكثر ولاء لروما ، وأن الطبقات الوسطى والريف الإيطالية كانت هي نواة الثورة . وفي رأي باحث حديث ان طبقات التجار في المدن الإيطالية كانت أكثر من غيرها تدمرا لعدم تكافؤ فرصها مع المواطنين الرومان أثناء ممارستهم أعمالهم التجارية في الخارج . ومن المسلم به ان التجار الإيطاليين كانوا يساعدون في استغلال الولايات الرومانية ؛ غير ان هؤلاء التجار كانوا من سكان كمبانيا والاقليم الجنوبية لا من سكان منطقة الابنين الوسطى (الوسكية) التي كانت بمثابة القلب النابض للثورة . ومن هذا الموضوع راجع :

F. Gabba, *Athenaeum* (1954), 3-129.

E. Badian, *Foreign Clientelae* (1958), 220 ff.

واخفاق محاولات المصلحين من أنصارهم ، بدد آمانيهم وزادهم احساسا بالتفاوت بين وضعهم السياسى والاجتماعى ووضع الرومان . ان روما ما كانت لتبلغ أبدا ما بلغت من مركز مرموق دون مساعدتهم . فلماذا لا يعامل الايطاليون معاملة الرومان ويتساوون بهم ؟ لقد حطمت روما باهمالها شكواهم المشروعة (المترتبة مثلا على قوانين كقوانين اصلاح الزراعى وغيرها) روحهم المعنوية وجرح كبرياءهم أكثر مما أضرت بمصالحهم المادية . لقد أحسوا بخيبة مساعيهم وانخداعهم فنملكهم اليأس ونقد صبرهم فجأة . وازاء انكار حقهم فى المساواة فقد وطدوا العزم على المقاتلة من أجل الاستقلال . ويتبين من العنف الذى اتسمت به المعارك مدى عمق شعورهم باليأس والكراهية .

كان سكان جبال الأبين فى وسط ايطاليا هم عصب الثورة . وكانوا يشتملون على جماعتين أو شعبين رئيسيين وهما شعب المارسيين (Marsi) فى الشمال (ومن هنا تأتي تسمية هذه الحرب بالحرب المارسية) وشعب السمنين (Samnites) فى الجنوب . ولدينا عملة مرسوم عليها صورة ثمانية محاربين يؤدون القسم ، ولعلمهم يشتملون الجماعات أو الشعوب الايطالية الأخرى التى اشتركت فى الثورة . وجدير بالذكر أن اللاتين لم ينحازوا الى الثوار باستثناء مستعمرة فينوسيا . وبقيت لاتيوم وشمال كمبانيا على ولائها للرومان . ولم يتلق الثوار أى مساعدة من اتروريا أو أومبريا فى مستهل الحرب . كما ظلت كلابريا وبروتيوم فى البداية بمنأى عن الحرب . لكن لم يلبث الثوار أن وجدوا أنصارا لهم فى جنوب كمبانيا ، ولوكانيا ، وأپوليا . وأقدمت هذه الشعوب الايطالية (Italici) على خطوة جريئة تجاوزت بها الأغراض العسكرية وكشفت عن أهدافها السياسية ، فأقامت حكومة مناوئة لروما ، وهى خطوة كانت كفيفة ، لو حالها النجاح ، أن تشل جهود روما سواء لخير العالم أو شره . وسرعان ما تبين أنهم ليسوا مجرد عصابة من الثوار المتضافرين على تدمير روما ، بل اتحاد قوى هدفه

يلاحظ ان بعض الايطاليين لم يكونوا مستعدين للتنازل عن الاراضى العامة التى احتازوها بوضع اليد كثمن لحصولهم على الجنسية الرومانية .

تأسيس دولة مستقلة . واختار الايطاليون مدينة كورفينيوم (Corfinium) التي تقع في قلب الابنين (بأراضى شعب اليايلجنى) على بعد حوالى مائة ميل الى الشرق من روما ، وأطلقوا عليها اسما جديدا له دلالة ، وهو « ايطاليا » (Italia) ، وجعلوها ، كمدينة واشنطن اليوم ، عاصمة لاتحاد فيدرالى حيث كان يجتمع مندوبو مدن الاتحاد في شكل مجلس للشيوخ (سناتو) برئاسة قنصلين يعاونهما ثمانية حكام قضائيين (بريطورس) أى على نسق النظام الرومانى (١) . ولم يلبث الاتحاد الايطالى أن حشد للمعركة مالا يقل عن ١٠٠٠٠٠٠ جندى متأهين لخوض المعركة ضد الرومان . وتولى سيلو (Silo) قيادة المارسين في الشمال . وتولى پاپيوس (Papius) قيادة السمنين في الجنوب . ووضع تحت امرة كل منهما ستة ضباط يقود كل منهم قسما من القوات .

ونفسا للاتحاد فئات خاصة من العملة لدفع رواتب الجند ، وهو ما ساعد أيضا على توحيد الصفوف ودعم القضية والدعاية لها . ورسمت على النقود صور لجماعات من المحاربين وهم يؤدون بين الولاء ، وصورة رمزية تمثل « ايطاليا » ، وأخرى « للثور الايطالى » وهو ينطح « الذئب الرومانى » بقرنيه ، ودونت عليها أسماء القواد باللاتينية . أو الأوسكية . لقد كان الايطاليون قوما شديدي المراس . وكان كثير منهم قد خدموا في الجيوش الرومانية من قبل واكتسبوا خبرة . وثمت بعض قرائن تشير الى أنهم تلقوا وعدا بالمساعدة من مشراداتيس السادس ملك پنطوس . هكذا تلبنت سماء ايطاليا بالغيوم . وأدركت روما وقتئذ - بعد فوات الأوان - ان سياستها المنطوية على الأثرة والجحود قد أثارت عليها زوبعة قد تعصف بها . ولولا موقعها الممتاز ، وكفاءتها

(١) في الحق ان معلوماتنا شحيحة ولذلك نختلف الآراء في صورة هذا "نموذج" . يعبر انه كان اتحادا كونفدراليا . لعله كان نموذجا من النظام الرومانى ، او في شكل حكومة نيابية لم حلف ثنائى محوره المارسيون والسمنون ، او حلف عسكري في المحل الاول .

قوادها ، وتلويحها بالجنسية للثوار ، لدمرتها الثورة الايطالية تدميرا .
لقد ظهرت عندئذ ميزة موقع روما الاستراتيجية فاستطاعت أن تضرب
خصومها في أى اتجاه من خطوطها الداخلية وهى آمنة من أى هجوم
أو حصار من ناحية البحر . ولم يكن لمدينة كورفينيوم مثل هذه الميزة
الطبيعية ، ولا كان لديها السلطة للتحكم في قوات مدن الاتحاد . ومع
هذا فقد اتصر الايطاليون فترة من الزمن في الميدان . وظلت روما مهددة
بأشد الأخطار عاما كاملا .

كان القنصلان الرومانيان لعام ٩٠ قد توليا القيادة في مسرحي
الحرب الرئيسيين ، الشمالى والجنوبى . غير أن القيادة في الشمال
آلت الى ماريوس بعد الهزائم الأولية ومصرع القنصل ، واستطاع
اقتاد الموقف بضرب المارسيين . وأما في الجنوب حيث كان سلا ضمن
أركان حرب القائد العام فقد منى الرومان ، الى جاقب ، وقوع آيسرنيا
(Aesernia) القلعة الحصينة في يد الثوار ، بهزائم في مناطق كثيرة مثل
كمبانيا وأبوليا ولوكانيا . وفي مستهل العام التالى (٨٩) آلت قيادة
الجهة الشمالية الى بومبيوس سترابون ، كما آلت القيادة في الجهة
الجنوبية الى سلا نفسه . وشدد سترابون الحصار على مدينة أسكولوم
(Asculum) في إقليم بيكينوم ، وهو حصار كان قد بدأه في العام
السابق ، وأنزل الهزيمة بالجيش الايطالى البالغ عدده حوالى ٦٠.٠٠٠
والذى جاء لنجدة المدينة على أمل التدفق بعد اقتادها الى أومبريا
واتروريا . ولم تلبث أسكولوم أن سقطت في يده قرب نهاية عام ٨٩ ،
وبدأت الثورة تخمد في الشمال ، وفر قائدها « سيلو » الى الجنوب ،
وهجرت « ايطاليا » عاصمة الاتحاد الفيدرالى . وفي ذلك الوقت كان
سلا قد اقلب من الدفاع الى الهجوم ودحر جيشا للسمنيين كان يحاول
نجدة مدينة بومبيي (Pompeii) ، واسترد بعض مدن كمبانيا الأخرى ،
وأرغم « پاپيوس » ، القائد الايطالى في الجنوب على الالتجاء الى

آيسرنيا . وزحف سلا الى جنوب سمنيوم حيث استولى على مركز القيادة العامة في بوفيانوم القديمة (Bovianum vetus) التي لا تبعد كثيرا عن بنيفنتوم . وتركزت مقاومة الايطاليين في اقليم سمنيوم وحده حيث اتخذوا من آيسرنيا مركزا جديدا للقيادة العامة ، وحاول «سيلو» تعبئة قوات جديدة ، وأوشك أن يسترد بوفيانوم ، كما استنجد من يأسه بمشراداتيس ملك پنطوس . غير أنه سرعان ما دمر الرومان جيشه ، وحطموا مراكز المقاومة الأخرى في أبوليا وجنوب إيطاليا . ولم يستمر في المقاومة حتى الرمح الأخير سوى مدينة نولا (Nola) باقليم كمبانيا .

غير أن الحرب لم تكن لتضع أوزارها بسرعة في الميدان العسكري لولا أن روما سلمت في الميدان السياسي بال مطلب الذي حمل الايطاليون السلاح من أجله . لقد ظهرت في نهاية عام ٨٩ بواحد تدل على أن الاثوريين والأومبريين القاطنين في شمال روما وشرقها قد ينحازون الى جانب الثوار . ولو حدث ذلك لأرغمت روما على أن تقف لأول مرة موقف الدفاع بعد أن يطبق عليها الأعداء من ثلاث جهات . غير أن تسليم روما بمطلب الايطاليين حال دون انتشار الثورة ، وأدى الى تصدع جبهة الحلفاء وانسحاب فريق كبير منهم من ميدان القتال . ولقد أصدرت الحكومة من فورها قانونا بمنح الجنسية الرومانية الثمينة لجميع من لم ينهروا في وجهها السلاح ، متخذة بذلك أول خطوة في الطريق الذي انتهى خلال سنوات قليلة بأن صارت جميع ايطاليا رومانية في نظر القانون ، بل لانجانب الصواب كثيرا اذا قلنا أنه انتهى بأن صارت روما ايطالية . وينبغي أن نعتبر شبه الجزيرة بأسرها منذ ذلك الحين بمثابة الدعامة التي ارتكزت عليها حضارة البحر المتوسط .

ففي أواخر عام ٩٠ صدر « قانون يوليوس » (lex Iulia de civitate)

وهو يقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع الحلفاء اللاتين المتمتعين بما يعرف بالحقوق اللاتينية (ius Latii) ، لأنهم وقفوا الى جانب روما ، ومنح الجنسية لجميع الحلفاء الايطاليين الذين لم يشهروا السلاح في وجهها (١) .

وفي ٨٩ صدر قانون تكميلي يعرف بقانون "بلاوتوس-بايريوس" (lex Plautia-Papiria) نسبة الى قهيين من قباء العامة وهو يقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع الايطاليين الذين يتقدمون بطلباتهم الى بريطور الأجانب في روما خلال ستين يوما من تاريخ صدور القانون (٢) .

وفي نفس السنة (٨٩) صدر "قانون بومبيوس" (lex Pompeia) (نسبة الى القنصل بومبيوس سترابون) وهو يقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع قبائل ولاية غالة القرية (Gallia Cisalpina) القاطنة بجنوب نهر البو ، ومنح « الحقوق اللاتينية » للقبائل القاطنة بشمال ذلك النهر (٣) .

(١) كما حوّل القواد الرومان منح الجنسية الرومانية للأفراد غير الرومانيين مكافأة لهم على الخدمة الممتازة في المعارك الى جانب الرومان (راجع النقص الهام ILs, 8888 حيث يكافئ بومبيوس سترابون بعض الخياله الاسبانيين الذين خدموا تحت قيادته بالجنسية الرومانية) وكان مجلس سترابون العسكري يضم حينئذ ليديوس ، فنصل سنة ٧٨ ق.م بعد ، وكنيلينا ، صاحب المؤامرة المشهورة عام ٦٤ ، وابنه بومبي الذي سيلقب بالكبير أو العظيم (Pompeius Magnus) .

(٢) لعل المقصود بذلك هم الافراد الايطاليون الذين لم تقبل حكوماتهم العرض الروماني وفقا لقانون يوليوس ، والافراد الذين كانت حكوماتهم لا تزال في حالة حرب ضد روما . او لعل لم بات بعدا جديد بل كان مجرد قانون تكميلي القصد منه اياحة فرصة الحصول على الجنسية لمن كانوا غير مقيمين في مدنهم عندما منحت الجنسية لها بمقتضى قانون يوليوس .

(٣) في رأى حديث أن قانون بومبيوس كان يسرى على كل غالة القرية ، ومنح الجنسية الرومانية لكل المستعمرات اللاتينية ، والحقوق اللاتينية للمدن الرعايية (oppida) . ومن ثم فإن بعض الباحثين يرجعون الآن الى رأى سبق أن قال به

وبذلك حصل الحلفاء بعد خسائر جسيمة في الأرواح ، وخسائر اقتصادية فادحة (١) على الجنسية الرومانية وهي حق كان ينبغي أن يمنح لهم منذ أمد طويل ، ولكن النُزعة القومية والعصبية الحزبية كانتا تحولان دون ذلك . وقد بقي أثر هذه الانانية في طريقة تسجيل المواطنين الجدد بين القدامى ، إذ سجلت أسماؤهم في ٨ أو ١٠ قبائل فقط من الـ ٣٥ قبيلة ، وذلك للحد من تأثيرهم في الجمعيات التشريعية . وكان من الطبيعي أن يتذمر المواطنون الجدد من هذا الوضع حتى غلت مشكلة توزيع أسمائهم بين جميع القبائل الرومانية مشكلة هامة في السياسة الرومانية ، ولكنها حلت فيما بعد . ومع هذا فإن جميع الإيطاليين تقريباً أصبحوا مواطنين روماناً ، وبمرور الزمن اقدمجت العناصر المهرقية المتباينة في أمة واحدة . ولما كان من المستحيل على حكومة روما أن تهيمن على الإدارة المحلية في جميع البلاد الإيطالية ، فقد نظمت المدن الإيطالية على غرار « بلديات » (municipia) أي بلاد ننت بالحكم الذاتي ، يتولى الإدارة المحلية فيها مجلس يعرف بمجلس الاربعة (quattuorviri) يقوم مواطنو البلدة بانتخاب أعضائه . وبفضل العمل بالقانون الروماني العام والخاص انتشرت اللغة اللاتينية في هذه البلاد وانمحت اللهجات المحلية بالتدريج ونشأت حضارة متجانسة تقوم على أساس جنسية مشتركة . لقد أصبحت روما في نظر جميع

الاستاذ هاردى (JRS, 16, p. 66) وهو ان قاله القريية نظمت كولاية (provincia)

في سنة ٨٩ تحت ظل هذا القانون ، وليس على يد سلا في عام ٨١ .

وجدير بالذكر ان الثوار الإيطاليين وبخاصة السمنيين اعداء روما الالاء واللوكانيين الذين لم يقبلوا العرض الروماني الخاص بالجنسية في سنتي ٩٠ ، ٨٩ أصبحوا بمثابة (dediticii) أي « مستسلمين » عندما استسلموا للرومان في النهاية دون قيد أو شرط . ومن المرجح ان السناتو منحهم الجنسية الرومانية بعد ذلك بقليل أثناء فترة الصراع الحزبي بامبار من رجا (Cinna) عام ٨٧ .

(١) ترتبت على الحرب آثار اقتصادية خطيرة ، إذ تدهورت احوال كثير من الناس وتهديم الخراب والغلسوا واضطروا الى الاستئانة من الرايين الذين اخلوا بطاردونهم . وانقص وزن للعملة ، واصبح الاس يزن نصف لوفية فقط .

الايطاليين على اختلاف أجناسهم (Italici) (١) واللاتينيين ووطنا
مشتركا (communis patria) (٢) .

وكان من المتوقع بعد حدوث هذا التغير الكبير أن يعود السلام
والوئام الى ايطاليا . غير أن ايطاليا ، على النقيض من ذلك ، أقبلت على
عصر من أحلك عصورها حتى أن خصوماتها المريرة التي حدثت في
اواخر العصور الوسطى لم تبلغ في فظاعتها ما بلغته على أيام ماريوس
وسلا . وانه لمن العسير علينا تفسير ذلك ، بيد أننا قد نستطيع أن نتصور
المسألة تصورا فرييا من الحق اذا استعرضنا ما سبق أن ذكرناه عن
أسباب الانحلال الخلقى . لتتصور دولة شاسعة قوامها العبيد ، أنهكت
قواها في مجابهة الاخطار الداخلية والخارجية ، وأوهنها القتال المستمر،
قد سلمت مقاليدها في آخر الأمر لقادة عسكريين أقوياء ، رهن اشارتهم
جموع غفيرة من المحاربين القدماء . وكأن الدولة قد فقدت حقها في
مناوبة المواطنين بالولاء أو حتى بالاحترام ، وحل مكانها قادة متنافسون
كانوا في الوقت نفسه زعماء أحزاب سياسية ، أو بالأحرى حل مكانها
فؤ؛ تلك السنوات زعيمان يستهدف كل منهما مصالحه الشخصية ،
أحدهما ماريوس زعيم الايطاليين والعامة الرومان ، وثانيهما سلا زعيم
الحزب الارستقراطي القديم . وقد ضرب بجميع المبادئ الاخلاقية
عرض الحائط في غمرة الاحقاد المستعرة بين الحزبين والخصومة
الشخصية بين الزعيمين . وحدث اذ ذاك أن أطل من ناحية الشرق شبح
حرب جديدة . وحول قيادة هذه الحرب - وهي أسمى ما كان يطمح

(١) من غاليين واروريين واومبريين وسابليين والمريق.

(٢) انظر شينرون ، كتاب القوانين (٢ - ٢ - ٥) :

omnibus municipalibus duas esse censeo patrias, unam naturae,
alteram civitatis.

اليه الطامحون وقتئذ - احتدم نزاع شديد بين الزعيمين لم تراع فيه مصلحة الدولة .

لكن ينبغي قبل المضي في سرد قصة هذا النزاع المرير أن نلم بطرف من سيرة سلا لعلنا نضع أيدينا على جذور هذا النزاع . كان لوكيوس كورنيليوس سُلا Lucius Cornelius Sulla (١٣٨ - ٧٨) سليل أسرة تنتمي الى احدى العشائر الشريفة (patricii) التي لم تعد بمرور الزمن مشهورة أو ثرية . وقد خدم بوصفه كويستورا (quaestor) ثم نائبا عسكريا (legatus) ثم نائبا عسكريا مزودا بسلطة **البريتور الجديد** (leg. pro praetore) تحت امرة ماريوس في الحرب ضد بوجورتا (١٠٧ - ١٠٥) . واليه عزى الفضل في الايقاع بالأمير النوميدي الذي استسلم له بعد انكساره . ولعل ذلك قد أوغر صدر ماريوس عليه ، وكان بداية المنافسة بينهما . لكنه استمر يخدم تحت قيادة ماريوس ثم كاتولوس في حرب الكمبري والتيوتون (١٠٤ - ١٠٢) . وتولى سلا البريتورية عام ٩٣ ، وعهد اليه السناتو ، بوصفه **برو بريتورا** في عام ٩٢ أن يعيد أريوبارزافيس الى عرش كبادوكيا في شرق آسيا الصغرى ، وكان قد طرده منه متراداتيس ملك پنطوس . وأنجز سلا المهمة بنجاح ثم استقبل سفارة من پارثيا ترغب في عقد محالفة مع الجمهورية . وعاد الى روما في عام ٩١ . ونظرا لكفاءته وسمعته العسكرية بدأ الحزب الأرستقراطي يتطلع اليه كزعيم له . وبذلك جد عامل الخصومة الحزبية الى جانب الغيرة المهنية لكي يلهب نار العداوة الشخصية بينه وبين ماريوس . غير أن نشوب الحرب الايطالية في عام ٩٠ حدا بهما الى تناسي الخصومة الشخصية أو كبتها مؤقتا . وقد قام الاثنان - على نحو ما رأينا - بدور فعال في مقاتلة العدو المشترك . لكن بينما كان ماريوس قد بدأ يطعن في السن (حتى أنه أغفل أو نحي في السنة الثانية من الحرب الايطالية) ، كان سلا في أوج نشاطه قادرا على احراز انتصارات كبيرة وبخاصة

ذلك الانتصار الرائع على السمنين في الجنوب ، واستيلائه على مدينتهم الرئيسية بوقيانوم . لذلك فاز بالقتالية لعام ٨٨ (١) . واستطاع أن ينهى الحرب الإيطالية بالاستيلاء على « نولا » ، آخر معاقل الثوار في العام ذاته .

الحرب الأولى ضد ميثراداتيس

نشأ هذا الخطر من جانب مملكة بنطوس (Pontus) التي تقع على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود . وكان يترجع على عرشها ميثراداتيس السادس (Mithradates VI) الملقب بميوپاتور (١٢٠ - ٦٣) وكان هذا الملك رجلا قديرا طموحا وان أعوزته الكفاية العسكرية والحصافة السياسية ، فسعى الى بسط سيطرته على آسيا الصغرى ، وبخاصة المنطقة المعروفة باسم كبادوكيا الكبرى (Cappadocia maior) وأدى ذلك الى اصطدامه بروما التي كانت سياستها ترمى الى الحيلولة دون قيام أى مملكة قوية مجاورة لاملاكها في آسيا الصغرى ، ولا سيما ولاية آسيا (برجامون) التي نظمت كولاية في سنة ١٢٩ وكيلىكيا (Cilicia) التي نظمت كولاية في سنة ١٠٣ .

وفي عام ٩٠ احتل ميثراداتيس مملكة بثونيا (Bithynia) الواقعة بين مملكته وولاية آسيا الرومانية ، ولكن سرعان ما انسحب منها في عام ٨٩ ازاء تهديد الرومان الذين شرعوا يثيرون عليه نيقوميديس

(١) تزوج سلا للمرة الرابعة كايكليا مينيللا (Caecilia Metella) امرأة سكاوروس (Aemilius Scaurus)، إحدى الشخصيات الرومانية الكبيرة . وكانت هذه الصاعدة ذات أهمية من الناحية السياسية ، نظرا للتفوذ الكبير الذى كانت تتمتع به أسرة كايكيليوس ميتيلوس في ذلك الوقت .

الثانى ملك بثونيا ويحرضونه على الاغارة على بنطوس . وعندئذ لم يجد مثراداتيس مفرا من أن يتحدى الرومان مستغلا فرصة انهماكهم حينئذ فى الحرب الايطالية فغزا كبادوكيا مرة أخرى . وكان لديه جيش حسن التدريب وأسطول ضخم ، فهزم نيقوميديس وتغلب على القوات التى عبأتها ضده السلطات الرومانية المحلية وأسر قائدها وقتله ، ثم اجتاحت ولاية آسيا^١ الرومانية، واكتسح أسطوله البحر الايجى ولم تقاومه سوى رودس . وقد انضوت تحت لوائه كثير من المدن الاغريقية فى آسيا الصغرى بوصفه منقذا لها من ظلم جباة الضرائب والمرايين الرومان . ولم يكد مثراداتيس يعلن بدء القتال حتى انقض أنصاره استجابة لأوامره على الرومان والايطالين المقيمين فى ولاية آسيا وقتلوا منهم فى يوم واحد - فيما يروى - حوالى ٨٠.٠٠٠ كان معظمهم من وكلاء ملتزمى جباية الضرائب والسيارة والتجار ورجال الأعمال ، كما كان من بينهم كثير من النساء والأطفال . واذ كانت آسيا الصغرى قد دانت له فقد بدأ يولى وجهه شطر أوروبا .

وحدث فى نفس الوقت (٨٨) أن ثار الحزب الديمقراطي فى أثينا ضد الحكومة الأولجركية التى كانت تستند الى تأييد الرومان ، واستولى على زمام الحكم وادعى فى أحضان مثراداتيس طالبا منه النجدة . فأرسل الملك الآسيوى قائده أرخيلوس (Archelaus) الى أثينا على رأس قوات كبيرة قضت فى طريقها على المستعمرة الايطالية الموجودة بجزيرة ديلوس ، مركز النشاط التجارى والمصرفى فى الشرق ، فكانت هذه ضربة قاصمة لم تنهض منها الجزيرة فيما بعد . ونزل أرخيلوس ببلاد الاغريق ، فانحازت الى جانبه معظم الأقاليم الجنوبية . وأرسل سيده فى نفس الوقت جيشا كبيرا الى بلاد الاغريق عن الطريق الشمالى عبر طراقيا ومقدونيا .

وعبر سلا - الذى آلت اليه قيادة الحرب ضد مثراداتيس فى عام

٨٨ - البحر الادرياتيكي ونزل بايبيروس وزحف جنوبا على رأس قوة تعددها خمس فرق رومانية وغزا أتيكا وأرغم أرخيلوس وحلفاءه الأثينيين على التقهقر وضرب الحصار على أثينا في خريف عام ٨٧ . وقاومت المدينة مقاومة عنيفة لكن سلا عزلها عن مينائها بيرايوس - بيريه الحديثة - التي كانت تمدّها بالمؤونة ثم اخترق إحدى النقط الضعيفة في أسوار المدينة فدخلها جنوده (أوائل عام ٨٦) ونهبوها وقتلوا كثيرا من سكانها ، ولكن سلا أبقى على منشأتها العامة ، اجلالا لماضيها الثقافي المجيد . ولم تلبث بيرايوس أن استسلمت هي الأخرى بعد أن كبدت سلا خسائر جسيمة ، ولكن قلعتها ظلت تقاومه حتى انسحب منها أرخيلوس . ومن أثينا زحف سلا شمالا للملاقاة جيش مثراداتيس الذي اقتحم بلاد الاغريق من الشمال وتدفق نحو الجنوب حتى بلغ اقليم بويوتيا . وعند خيرونيا أحرز سلا على العدو انتصارا ساحقا في مارس ٨٦ على الرغم من قلة قواته بالقياس الى قوات عدوه وذلك بفضل خطته العسكرية البارعة ، وسرعة تحركاته ، واختياره ميدانا أكثر ملائمة لتنظيمات الفرقة الرومانية (legin) منه للفيلق الاغريقي (phalanx) .

وفي تلك الآونة وصل الى بلاد الاغريق القنصل فاليريوس فلاكوس (L. Valerius Flaccus) ليتولى القيادة بدلا من سلا (١) . غير أن سلا اتجه شمالا الى ثساليا لمنازلته رافضا التخلي عن القيادة ، فاضطر فلاكوس - نجبا للاحتكاك وخوفا من انحياز جنوده الى سلا -

(١) فاز ماريوس مع كينا (Cinna) بالقتلية للمرة الاخيرة لعام ٨٦ ولكنه تولى في ١٢ يناير من العام نفسه ، فاجريت انتخابات عاجلة فاز فيها فاليريوس فلاكوس الذي ولى منصب القنصلية قبل ٥ فبراير عام ٨٦ ليكمل السنة بولذلك يسمى بالقنصل المكمل (consul suffectus) . واستندت اليه بالتالي قيادة الحرب ضد مثراداتيس بدلا من سلا (انظر ص ٧٩ فيما يلي)

اضطر أن يرحل الى الدردنيل عن طريق مقدونيا وطراقيا لكي يقطع على مثراداتيس طريق الاتصال بأوروبا . وخلا الجو لسلا فالتقى بالجيش الجديد الذي أرسله مثراداتيس عبر البحر الايجي ، ودحره في عام ٨٥ عند بلدة أورخومينوس بأقليم بويوتيا . ولما كان مثراداتيس لا يزال مسيطرا على البحر الايجي ، فقد اضطر سلا الى أن يقضى الشتاء في بلاد الاغريق لمعجزه عن عبور البحر الى آسيا .

وفي عام ٨٥ ظهر في البحر الايجي الكويستور لوكللوس (L. Licinius Lucullus) على رأس أسطول كان سلا قد عهد اليه بجمعه من المدن الشرقية الموالية للرومان . وأوقع لوكللوس الهزيمة بأسطول مثراداتيس ، ممهدا بذلك الطريق أمام سلا لعبور البحر الى آسيا . وكان القنصل فلاكوس قد عبر البسفور الى مملكة بثونيا ، وبذلك تخرج مركز مثراداتيس «المحرر» ولاسيما بعد أن تخلت عنه كثير من المدن الاغريقية التي تدمرت منه لتعسفه معها وأكراهها على مده بالمساعدات . واستطاع القائد فيمبريا (C. Flavius Fimbria) الذي خلف فاليريوس فلاكوس بعد مصرعه على يد جنوده المتمردين (١) - أن يهزم العدو ويستولي على برجامون التي كان الملك الآسيوي قد اتخذها عاصمة له عندما غزا الولاية الرومانية . وفر مثراداتيس وأبدى استعداداه للتفاوض مع سلا الذي كان يقترب من سواحل آسيا الصغرى . ولما كان سلا يتوق الى الانتهاء من هذه الحرب ليعود الى ايطاليا لمواجهة خصومه ، فقد تم في أغسطس عام ٨٥ ببلدة دردانوس (Dardanus) قرب طروادة عقد « صلح دردانوس » الذي قضت شروطه أن يتنازل مثراداتيس عن جميع فتوحاته الأخيرة في آسيا الصغرى ، وأن يدفع غرامة حرية قدرها ٢٠٠٠ تالنت على سبيل التعويض ، وأن يسلم حائبا

(١) حدث ذلك التمرد بتحريض من فيمبريا نفسه الذي انتحر بعد ذلك في برجامون عندما نكلى عنه جيشه وانصوى تحت لواء سلا .

من أسطوله للرومان ، على أن يحتفظ بملكته بنطوس بحدودها الأصلية .

وعاقب سلا ولاية آسيا الرومانية عقابا شديدا ، واعتبرت كأنها بلاد مغلوبة على أمرها ومفتوحة . وحتى المدن الحرة التي تعاهدت من قبل الرومان فقدت بسبب تأييدها لمراداتيس حقوقها السابقة واستقلالها . وكوفئت المدن التي بقيت على ولائها للرومان مثل رودس وأما المدن التي رحبت بالعدو كبرجامون وافسوس وميليتوس فقد سلبت منها حررتها وأخضعت للضرائب العادية التي يجيها الملتزمون الرومان . ونهبت كثير من هذه المدن ودمرت أسوارها . وفرض سلا على الولاية غرامة فادحة مقدارها ٢٠,٠٠٠ تالنت (متأخر الضرائب عن خمس سنوات وتكاليف الحرب)^(١) وألزم أهاليها التعساء بإهيواء جنوده **والتكفل** برواتبهم واطعامهم وكسوتهم خلال شتاء عام ٨٤/٨٥ . وهكذا اضطرت الولاية الى الاقتراض من المرايين الرومان لتحصيل هذا المبلغ الضخم ، وهو ما جعلها تنوء تحت عبء ديون باهظة مدة طويلة . وقد أثار انقوضى والمتاعب عامل آخر هو ازدياد غارات القراصنة الذين أصبحوا كسوط العذاب المسلط على سواحل شرق البحر المتوسط . وقد اجترأوا على نهب ما قيمته ١٠٠٠ تالنت ، والأنسلا بـ من ساموطرقيا أثناء اقامة سلا نفسه بالجزيرة . وترك سلا آسيا الصغرى وهى غارقة فى بحر من الديون تتلاطمها لجج من اليأس الشديد . ثم عبر البحر الايجي الى بلاد الاغريق فى عام ٨٤ حيث استعد للعودة الى ايطاليا . وقد عانت مدن بلاد الاغريق هى الأخرى كثيرا من الأهوال ، وأصبحت بأضرار جسيمة بسبب العمليات الحربية الأخيرة ، كما نهبت كنوز معابد أوليمبيا ودلفى وإبيدوروس ، وخربت أتيكا وبويوتيا ، وتناقص عدد سكانهما ، ولم تسلم سواحل بلاد الاغريق عامة من الاغارات التخريبية على يد الأساطيل المتحاربة .

(١) التالنت *Falentum* معيار وزن ، ووحدة نقدية ، واصلها يونانى (*talentum*) ومتفاوتة القيمة (ففى اثينيا) =

التطاحن الحزبي والصراع العسكري :

كان سلا قد انتخب قنصلا لسنة ٨٨ وأسندت اليه قيادة الحرب ضد مثراداتيس في الشرق ، ولكنه لم يتمكن من مغادرة ايطاليا حينئذ لانشغاله بانهاء الحرب الايطالية ومحاصرة مدينة نولا (Nola) في كمبانيا. وكان ماريوس ، برغم بلوغه سن الثامنة والستين ، يطمع في الحصول على قيادة الحرب في الشرق . وقد أيدته طبقة الفرسان لادراكها أن سلا يناسبها العداء لانه من أقوى أعوان السناتو . ولذلك انحاز ماريوس الى جانب قتيب العامة سولبيكيوس روفوس (P. Sulpicius Rufus) الذي نشر الارهاب وتقدم في عام ٨٨ بأربه مشروعات الأول منها يقضى باستدعاء المنفيين ، والثاني بعدم تجاوز ديون أعضاء السناتو مبلغ ٢٠٠٠ دينار ، والثالث بادراج المواطنين الجدد والمعتقين في جميع القبائل الرومانية ، والرابع (عن طريق الجمعية القبلية) باسناد القيادة في الشرق الى ماريوس . غمر ان سلا رفض الاعتراف بشرعية القانون الأخير . وزحف مع ست فرق إلى روما وأخذها عنوة واستباح دم ماريوس وسولبيكيوس ، فلاذ الأول ، بالتمار الى أفريقيا وقتل الثاني . وقد أدلى سلا عدة تعديلات على الدستور لتوطيد مركز السناتو . وكان من أهمها قانون يقضى بضرورة عرض المشروعات على الجمعية المئوية (Comitia Centuriata) المعروفة بتحفظها (لأن قباء العامة لم يكن في استطاعتهم التقدم بالمشروعات الا للجمعية القبلية ، وبذلك يكون سلا قد حد من نشاطهم بهارة) ؛ وقانون آخر ينص على ضرورة موافقة السناتو على أى مشروع قبل عرضه على الجمعية القبلية أو غيرها من الهيئات . وبعدئذ أبحر سلا عقب انتهاء مدة قنصليته مع جيشه الى بلاد الاغريق في أوائل عام ٨٧ لمواجهة القوات التى بعث بها مثراداتيس الى هذه البلاد لتأييد أثينا بعد ثورتها ضد روما .

وما كاد سلا يغادر ايطاليا حتى أعاد كئنا (L. Cornelius Cinna)

= ٦٠ رايلا اما عند الرومان فهو = ١٠٠ رطل رومانى ، *as*

قنصل عام ٨٧ - قوانين سوليبيكيوس ولكن القنصل الآخر استطاع أن يطرده من المدينة بالقوة . وفي تلك الأثناء عاد ماريوس الى ايطاليا من منفاه وحشد جيشا في اتروريا وزحف على روما من الشمال بينما زحف كنا عليها من الجنوب . واقتحم الاثنان المدينة عنوة وأعيد كنا الى منصب القنصلية ، وألغيت قوانين سلا وصودرت أملاكه وحرم من حماية القانون . وبدأ ماريوس حركة ارهاية قتل فيها عدد كبير من خصومه أعضاء حزب السناتو . وفي أول يناير من عام ٨٦ تولى ماريوس القنصلية للمرة السابعة ولكنه توفي بعد أيام قلائل . وقد انتخب فالبريوس فلاكوس قنصلا ليشتغل مكانه الشاغر (consul suffectus) في المدة الباقية من العام ، فاستصدر مع كنا قانونا بتخفيض القيمة الأصلية للديون الباهظة على الأفراد الى الربع ، وبعدئذ رحل الى بلاد الاغريق ليتولى القيادة بدلا من سلا الذي نحى من القيادة بوصفه طريق العدالة .

وفي الانتخابات لعام ٨٥ فاز كنا بالقنصلية للمرة الثالثة فشرع مع زميله كاربو (Cn. Papirius Carbo) في حشد القوات اللازمة لملاقاة سلا عند عودته من آسيا الصغرى . وقد أطلال هذان القنصلان مدة خدمتهما للعام التالي (٨٤) . وهو أمر يتنافى والدستور . ثم استعدا لعبور الادرياتيكي لمواجهة سلا في مقدونيا غير أن الجيش الذي حشد لهذا الغرض تمرد ولقي كنا حتفه في بلدة انكونا ولم يجر كاربو انتخابات لاختيار زميل له في القنصلية محتفظا بحده بالمنصب بحجة ظهور طالع سيء ، وهذا أيضا تصرف يتعارض والقانون . وقد رغب السناتو في حقن الدماء ووضع حد للحرب الأهلية وتحقيق جميع مطالب سلا ولكن كاربو حال دون ذلك .

وعاد سلا في ربيع عام ٨٣ ونزل بميناء برنديزي على رأس قوة تتراوح بين ٣٠ ، ٤٠ ألف جندي من المحاربين القداماء الذين أقسموا

أن لا يخدموا أبداً في جيش روما (١٢٠٠ أوقية كعملة نقدية) (فضية) = حوالي ٧٩٣ جنيه
مصري (في عام ١٩٨٨) .

له بين الولاء . ولكى يحول دون انحياز الايطاليين الى جانب خصومه أعلن أنه ينوى إقرار جميع الامتيازات التى منحت لهم بما فى ذلك حق ادراج أسمائهم فى جميع القبائل وفقا للقرار الذى أصدره السناتو للرقيين بتسجيل أسماء المواطنين الجدد فى تعداد عام ٨٦ ، ولم ينجزاه على ما يبدو الا فى عام ٨٤ . ومع هذا فقد انضم كثير من المواطنين الجدد وبخاصة فى سنيوم و اتروريا وغالة القريية ، الى قوات الحزب الديمقراطى . بيد أن سلا استطاع أن يكسب الى صفه كلا من كراسوس (M. Licinius Crassus) وهو شاب قدير عاد من أسبانيا وكان أبوه قد تولى القنصلية عام ٩٧ ولقى حتفه أيام الارهاب على يد أنصار ماريوس ، وميتيلوس پيوس (Metellus Pius) بن ميتيلوس « قاهر نويدا » ، الذى وصل أخيرا من أفريقيا ، وجنايوس بوميوس (Cn. Pompeius) المشهور باسم پومبى - وهو ابن بوميوس سترابون قنصل ٨٩ - والذى جمع قوة قوامها ثلاث فرق فى پيكنوم بمجهود الشخصى ولحسابه الخاص ، وكان ذلك كالاستعانة بقوات من الولايات نذير سوء لمستقبل الجمهورية . وكان أعداء سلا يفتقرون الى الخبرة العسكرية والمقدرة على توحيد جهودهم . فتوغل سلا فى قلب كمپانيا حيث ألحق الهزيمة بأحد قنصلى عام ٨٣ قرب كابوا . وانضوت تحت لوائه قوات القنصل الآخر . وفى العام التالى (٨٢) تابع سلا سيره شمالا نحو لاتيوم حيث اقتصر على ماريوس الاصغر (ابن ماريوس) ، أحد قنصلى ذلك العام ، فى معركة كبيرة عند ساكريبورتوس (Sacriportus) وسقطت روما فى يده ، ففر ماريوس الاصغر الى لاتيوم حيث اعتصم بمدينة پرينستى (Praeneste) . وبعدئذ اتجه سلا الى اتروريا لملاقاة كاربو ، القنصل الآخر ، وهزمه وأرغمه على الفرار الى صقلية . وقام أنصار ماريوس بمحاولة أخيرة لفك الحصار عن برينستى ولكنهم باءوا بالفشل . ثم شنوا مع السنين هجوما خاطفا على روما بقوة تعدادها ٧٠.٠٠٠ رجل . لكن سلا ظهر

في الوقت المناسب واهذ المدينة ، ودحروهم في معركة رهيبة دامية عند باب كولينا (Porta Collina) الذي يقع في أقصى الطرف الشمالي الشرقي من تل الكويرينال في أول نوفمبر عام ٨٢ . وقد منى الطرفان في هذه الحرب الأهلية بخسائر فادحة . وأما السمنيون الذين لم يهلكوا في القتال فقد أمر سلا بذبحهم بعد المعركة . وسقطت برينستي بعد ذلك مباشرة في يده ، وانتحر ماريوس الأصغر وقتل معظم الأحياء من رجاله . وخمدت المقاومة في جميع أنحاء إيطاليا باستثناء مدن قليلة استسلمت بعد وقت غير طويل .

أصبح سلا بعد نوفمبر عام ٨٢ سيد الموقف ولا منازع له فشرع في معاقبة خصومه ومكافأة أنصاره ، وحصر أسماء أعدائه الذين يرغب في الانتقام منهم واستئصال شأفتهم ، فدونت أسماءهم في قائمة نشرت في السوق العامة ، إشارة الى تجريدهم من حماية القانون ومصادرة أملاكهم دون اجراء محاكمات قانونية (Proscriptio) . وتقرر منح مكافأة للوشاة (delatores) الذين يرشدون عن المختفين . وقد بيعت أملاك الضحايا بالزاد العلني تحت اشراف سلا نفسه ، وحرم على أبنائهم وحفدتهم ترشيح أنفسهم للوظائف العامة . وكانت فكة طبقة الفرسان أكبر من فكة غيرهم ، وان كان قد هلك أيضا بعض أعضاء من طبقة السناتو . ولم تسلم كثير من مدن سمنيوم واثورريا من انتقام سلا الرهيب ، فصادر أراضيها وحولها الى مستعمرات (١) ومنحها كقطاع لحوالي ١٢٠٠٠٠ رجل من جنوده المسرحين (veterani) كما أعتق سلا ١٠٠٠٠٠ عبد من عبيد أعدائه الذين قتلوا ، فاتخذوا كلهم اسم كورنيليوس (Cornelius) . وهو اسم عشيرة سلا ، سيدهم

(١) كانت اثينيوم ، وكوسيوم ، وفيولاي ، وانتراميا ، ونولا ، وبومبيي ، وبرينستي من بين هذه المستعمرات حيث عاش المستعمرون منفصلين عن السكان الأصليين مما كان في بومبيي .

الجديد . وقد اكتسبت جميع هذه الاجراءات صفة شرعية بقرارات أصدرها السناتو .

والخلاصة أن سلا فاز بالقيادة كما رأينا . لكن ما أن أدار ظهره وغادر إيطاليا حتى انقض حزب ماريوس على خصومه السياسيين محاولا قطع دابرهم بالاغتيال والتقتيل . واختنقت روح التسامح وانطلقت وحشية الطبيعة البشرية من عقالها . فلما عاد سلا من الشرق في ربيع عام ٨٣ اتقم لنفسه وحزبه بمذابيح أشد هولاً من مذابيح ماريوس . وخسرت إيطاليا بذلك آلافاً عديدة من خيرة بنينا ، من بينهم نفر كان من المحتمل أن يقوموا بأعمال نافعة للإنسانية . ولم تعوض إيطاليا قط هذه الخسارة الجسيمة . فأين ذهبت السجايا الرومانية القديمة من الاتزان والاحساس بالمسئولية (gravitas) والشعور بالواجب (pietas) التي أحرز الرومان بها الامبراطورية ؟ وكأنهم فقدوا تماماً ملكة الطاعة والنظام ما عدا في الجيش حيث أصبح الجنود يخدمون فترات طويلة . واستمرارها في الجيش حقيقة ينبغي عدم اغفالها أو التهوين منها على الرغم من أنها لم تستغل لخدمة مصلحة الدولة بقدر ما استغلت لخدمة مصلحة القائد . ولو أن جنديا سياسيا استطاع أن يوحد بين مصلحته ومصلحة الدولة الحقيقية ، فحاول أن يفرس من جديد في ذهن الشعب لا الجيش وحده فكرة صحيحة عن مكانة روما ورسالتها في العالم ، لأنك أن تنجو الامبراطورية والحضارة من الخطر ، اذ لم يكن من المستطاع حماية الامبراطورية والحضارة بدون الجيش الذي لم ينقصه سوى أن يكون مواليا للدولة . وكان القائد وحده هو الذي يستطيع تحقيق هذا الولاء بأن يجعل نفسه خادما مخلصا للدولة .

دكتاتورية سلا وتشريعاته :

كان القنصلان في عام ٨٢ قد لقيا حتفهما أثناء مدة خدمتهما فلما اختار السناتو بمقتضى الدستور حاكما مؤقتا (interrex) ثم أوعز

سلا الى هذا الحاكم فتعيين دكتاتور فافعلت الجمعية المثوية برئاسة هذا الحاكم ونصبت سلا في نوفمبر من نفس العام دكتاتورا لمدة غير محدودة ليصدر التشريعات اللازمة وينظم شئون الدولة (*dictator legibus scribendis et reipublicae constituendae*) وأقرت جميع أعماله السابقة وخولته سلطة كاملة لاتخاذ ما يراه من الاجراءات الضرورية (١) . والواقع أن السلطات الاستثنائية التي منحت لسلا لمدة غير محدودة جعلته في مركز الحاكم المطلق (٢) . وقد تولى سلا الدكتاتورية من أواخر عام ٨٢ حتى أوائل عام ٧٩ ، وجمع في عام ٨٠ بين الدكتاتورية والقنصلية ، وهو ازدواج نادر وان كان على ما يبدو مشروعاً .

ولم يستطع الرجل الذي آلت اليه مقاليد الحكم في روما وقتئذ أن يوحد بين مصالحه ومصالح الدولة العليا لانه كان بالفطرة مجرداً من روح العطف مما سلبه القدرة على تبين حقيقة تلك المصالح . وقد قورن سلا بنابليون ، والمقارنة صحيحة من وجهة أو وجهتين ، ولكنهما يختلفان كل الاختلاف في نقطة جوهرية ، وهي القدرة على الادراك المشرب بروح العطف . فنابليون على قسوته والتوائه في معظم الاحيان قد أظهر بوضوح عند تنظيمه شئون فرنسا أو سويسرا أو مصر أنه يدرك حاجات تلك الأمم ، فابتكر لها من النظم ما يعينها على الخروج من حالة الركود الى حياة سياسية واجتماعية أفضل . وقد أدرك سلا أن الظروف تتطلب اقرار النظام بأى ثمن ، وحفظ السلام وتدعيم الحكومة والقيام بالاصلاح ، ولكنه أقبل على عمله بروح تنم عن عدم

(١) فيما عدا الاسم ليست هناك سوى صلة طفيفة بين دكتاتورية سلا ومنصب الدكتاتور العديم (الذي صرف النظر عنه منذ انتهاء الحرب الهنيئالية) والذي كان يختار في الأزمات طبقاً للدسبور لمدة القصا ستة أشهر .

(٢) وبخاصة ان حق الاعتراض وحتى اعتراض نقباء العامة (intercessio) كان لا يبرى على امبريوم الدكتاتور ، ولا كان التظلم الى الشعب (provocatio ad populum) من أحكامه ، جازماً او مجدداً جازماً سلطته العليا .

اغتباطه به أو اكترائه بالشعب الذى يشرع له . وقد حقق فعلا ما تطلبت الظروف ، ولكنه تفذه بالقوة المسترة تحت قناع دستورى ، ولذلك لم يتهج أحد من المتزين بعمله ولم يشعر الشعب الرومانى عامة بأى ولاء نحوه . لقد أمد كثيرا من مرافق الدولة بجهاز ادارى رائع ، ولكنه لم يمدّها بالقوة الدافعة لتسييرها .

وليس فى التاريخ مثال أوضح من سلا للتدليل على أن الاصلاحات الدستورية تتوقف على الروح التى تصدر عنها . فقد رأى سلا أن السناتو ذلك المجلس العظيم ، ينبغى أن يكون محور الحكومة وعمودها الفقرى ، هذا اذا لم يوجد زعيم قوى مثله يضطلع بأعباء الحكم ، وأن الجمعيات الشعبية التى لا خبرة لها بدراسة المسائل وتصريف الشئون العامة ، لا تستطيع أن تنهض بالأعباء الادارية . ومع أن النظرية الدستورية كانت تقول دائما بأن الشعب هو صاحب السيادة فإن سلا رأى أن السناتو ، تلك الهيئة التى تركزت فى يديها مقاليد الحكم من الناحية العملية منذ القدم بمقتضى دستور غير مكتوب ، يجب أن تحكم حينئذ دون حائل أو عائق بمقتضى قانون مدون . وهكذا نجد الدستور غير المكتوب ينقلب الى دستور مكتوب . وقد أصدر قانونا هاما خاصا بالخيانة العظمى (maiestas) ، وهو الأول فى كتاب الشرائع الرومانية ، ليجعل من المستحيل تقريبا على أى شخص أن يتحدى السناتو دون أن يتعرض للسقوط السياسى .

وقد يوصف هذا الاتجاد بأنه رجعى ، ولكنه لم يكن ازاء الظروف القائمة اتجاها رجعيا يدعو الى التذمر . وانما المؤلم حقا أن هذا المشرع الكبير لم يجد من يعترف بفضل له أو يخلص له سوى جيشه وآتباعه . فما أن قضى نحبه حتى اندثرت معظم تشريعاته الدستورية ، ولم يتحسر عليها أحد . على أن تشريعات سلا ، من ناحية أخرى ، لم تكن كلها سياسية بحتة ، ولا سيما ما يتصل منها باعادة تنظيم « سلك

الوظائف المدنية » ، والقانون الجنائي ، واجراءات الدعوى الجنائية ، اذ كانت جميعها أعمالا قيمة تقدمية ، ولذلك لم يحاول أحد إلغاءها ، فظل بعضها قائما طوال فترة التاريخ الرومانى .

لقد قصد سلا بتشريعاته أن يعيد السناتو الى مركزه القديم الذى تمتع به قبل ظهور تييريوس جراكوس ، وأن يوطد هيمنة ذلك المجلس (Patrum auctoritas) ويضمن استمراره فى ذلك المركز بوصفه الهيئة الوحيدة القادرة على حفظ الأمن واستقرار النظام . بيد أن تشريعات سلا أو اصلاحاته الادارية والدستورية لم تهدف كلها الى تحقيق هذا الغرض وحده . وفى وسعنا أن نقول انها تنقسم الى طائفتين ، طائفة لم يقدر لها البقاء طويلا ، وهى التى استلهمت تركيز السلطة فى يد السناتو ، وطائفة لا تشوبها روح التعصب الحزبى ، وقدر لها البقاء ، وهى التى استهدفت اصلاح الاداة الحكومية وجعلها أكثر كفاءة وانضباطا .

الطائفة الأولى : (١) حرمان ثقباء العامة من حق اقتراح المشروعات (rogatio) فى الجمعية القبلية^(١) ، وتجريدهم من سلطتهم القضائية^(٢) وقصر حقهم فى المنقضى (intercessio) على التدخل للحد من سلطة الحاكم المتمتع « بالامپريوم » . ولم يشأ سلا أن يحرمهم حرمانا تاما من حق المنقضى^(٣) ، لأنه سلاح قد يستفيد منه السناتو نفسه . كما جعل رقابة العامة حائلا دون تولى أى مناصب أخرى أرقى منها ، وذلك لتزهد ذوى المقدرة والطموح فى ترشيح أنفسهم لذلك المنصب .

(١) ربما باستثناء المشروعات التى يقرها السناتو أولا .
(٢) القصد هنا سلطتهم فى توجيه الاتهام أو إقامة الدعوى على الكولفين الصوميين المتهمين بجرائم سياسية امام الجمعية الشعبية . انظر ص ٩٢ فيما يلى .
(٣) لعله حرّمهم فقط من حق المنقضى فى القضايا الجنائية .

(ب) تأهيل أعضاء السناتو ثانية للتعين كمحلفين في جميع محاكم الجنايات ، وسلب هذا الحق من طبقة الفرسان (١) .

(ح) إلغاء قانون دوميتيوس (lex Domitia de sacerdotiis) الصادر في عام ١٠٤ (٢) ، وإعادة النظام القديم الذي يخول للمجالس والجماعات الكهنوتية حق اختيار أعضائها عن طريق الانتخاب المقصور عليها ، وزيادة عدد الكهنة (pontifices) وكذلك العرافين (augures) الى خمسة عشر (٣) .

الطائفة الثانية : (١) أعيد العمل — مع تعديلات طفيفة — بقانون فيليوم (lex Villia annalis) الصادر في عام ١٨٠ ، والذي

(١) راجع ما تقدم في صفحات ٢٦ - ٢٩ ، ٥٧ .

ولو ان مسألة المحلفين ستظل مثار نزاع السناتو والفرسان خلال السنوات التالية .

(٢) راجع ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) كانت الديانة الرومانية الرسمية تعبر فرعا من فروع الإدارة ، مهمته تنظيم العلاقات بين مجموعة المواطنين والآلهة الراعية . وقد اسند هذا الفرع الى مجلس من الكهنة (pontifices) ، برئاسة الكاهن الأعظم (pontifex maximus) ، ووضعت مهمة استطلاع مشيئة الآلهة (قبل القيام بأعمال رسمية) في يد مجلس العرافين (augures) . وكانت توجد أيضا جماعات كهنوتية أخرى تختص بالقيام بمراسم دينية معينة . واما شعائر العبادة التي كان يقوم بها الملك في عصر الملكية ، فقد اسندت في عصر الجمهورية الى كاهن يحمل لقب ملك القرابين (rex sacrorum) ، وكان يقتل المكانة الأولى بين الكهنة ، ولو أن الكاهن الأعظم هو الذي كان يقوم بتعيينه . وباستثناء منصب الكاهن الأعظم الذي كان يشغل عن طريق الانتخاب السعبي بين ١٧ قبيلة فقط ، فإن سائر الوظائف الدينية الأخرى كانت تشغل لدى الجباة بالتعيين أو بالانتخاب المقصور على مجالسها أو جماعاتها المختلفة . وينبغي ألا ننسى أن الهيئة الكهنوتية الرومانية لم تؤلف طبقة منفصلة في المجتمع . ولا كانت المناصب الكهنوتية تسند الى حكام (magistratus) أو أعضاء من مجلس الشيوخ ، فقد أصبحت الديانة الرومانية مجرد أداة لخدمة مصالح الدولة مما أكسبها بالتدريج طابعا رسميا شكليا بحتا .

وفي أول عصر الجمهورية كان الكهنة يزاولون نفوذًا كبيرًا في الشؤون العامة ، لأنهم كانوا بمثابة حراس القانون الديني ، الذي طبق في حالة كثير من الجرائم الدينية . وكانوا يعلمون وحدهم بالصيغ الصحيحة التي ينبغي استعمالها في العقود القانونية الهامة . وقد أُنيط التعميم بالكاهن الأعظم فكان هو الذي يحدد تواريخ الأعياد الرسمية ، ويعلم في كل

ينص على تقلد المناصب العامة (cursus honorum) وفقا لترتيب معين (الكويستورية فالپريتورية فالقنصلية) ، وضرورة اقضاء سنتين بين وظيفة وأخرى أعلى منها ، وتقييد الترشيح لكل وظيفة بسن معينة (٣٠ للكويستور ، ٣٩ للپريتور ، ٤٢ للقنصل) ، ووجوب مضي مدة عشر سنوات بين تولي منصب معين وتولييه هو نفسه مرة أخرى (وهو في الأصل قانون قديم صدر في عام ٣٤٢ وأهمل العمل به) .

(ب) زيد عدد الپريتوريين الى ثمانية والكويستوريين الى عشرين . وكان اثنان من الپريتوريين وهما الپريتور المدني (praetor urbanus) وپريتور الأجانب (praetor peregrinus) يعلان كحاكمين قضائيين في الدعاوى المدنية (١) ، بينما كان الستة الآخرون يرأسون المحاكم

شهر الأيام التي يجسوز فيها (fas) أو لايجوز فيها (nefas) القيام بأعمال رسمية . وكان في دسع مجلس العرافين أن يؤجل أى اجتماع دسسى بإعلان ظهور طالع سوء . لهذا كله حصرى الأشراف على احتكار المناصب الدينية لا لتوطيد نفوذهم فحسب بل لتحقيق مآربهم الشخصية أيضا .

ثم إن العامة استطاعوا أثناء كفاحهم ضد الأشراف للحصول على المساواة أن يفتحوا هذا الحرم العصور على الأشراف ، فحصلوا على حق تولي وظائف في جماعة الكهنة المختصة بالراسم الدينية والكتب المقدسة ، والتي زيد عددها في عام ٣٦٨ من ٢ الى ١٠ على أن يكون نصفهم من العامة وعرفت باسم (decemviri sacris faciundis) لكن في عام ٢٠٠ صدر قانون اجولنيوس (lex Ogulnia) التي حصل العامة بمقتضاها على حق شغل المناصب الدينية العليا ، وزاد عدد مجلس الكهنة (pontifices) من ٤ الى ٨ ، ومجلس العرافين (augures) من ٤ الى ٩ ، على أن تلا المفاعد الجديدة بأعضاء من طبقة العامة . ومنذ ذلك الحين أصبح من العسر على الأشراف استغلال القانون الدينى واجراماته لمرحلة نشاط العامة السياسى .

(١) وبلا حظ أن الپريتور لم يكن يفصل في النزاع بنفسه ، بل كان عمله منصورا على الاستماع لأدعاء الطرفين ، ثم يختار الطرفان القاضي أى الحكم الذى يفصل في النزاع أو يختاره لهما الپريتور ثم يحيلهما عليه . ذلك أن الدعوى في القانون الرومانى كانت تمر بمرحلتين : امام الپريتور (in iure) ثم امام القاضي أو الحكم الذى يفصل في النزاع (apud iudicem) . وكان كل پريتور يملك عند تقلده منصبه يقوم سنويا بإعلان منشور (edictum) لكل الناس يبين فيه الطريقة التى سيسير عليها في تنظيم العدالة . وكان لهذا المنشور أثر كبير في تطور القانون الرومانى (انظر كتاب « مبادئ القانون الرومانى » للدكتور محمد عبد المنعم ببر والدكتور عبد المنعم البعراوى ، طبعة ١٩٥٤ ص ٢٥ - ٢٦) . وكتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » (١٩٧٠) ، ص ٧٤ - ٧٥ .

الجنائية الجديدة . وأما الكويستوريون العشرون فكان اثنان منهم يعملان كأمناء للخزانة بلقب $quaestores\ urbani = aerarii$ ^(١) ، واثنان يلحقان بالقنصلين ، وأحد عشر (أو اثنا عشر ؟) بحكام الولايات الرومانية التي بلغ عددها عشرة ، فكان يلحق بكل حاكم كويستور واحد ما عدا حاكم صقلية الذي كان يلحق به كويستوران . وكانت اختصاصاتهم في الأصل مالية ، ولكنها تنوعت فصارت ادارية وعسكرية وقضائية أيضا . وكان الباقي موزعين في ثلاث أو أربع مناطق بإيطاليا ويعرفون باسم $quaestores\ Italici = classici$ ^(٢) وأسمهم من كان مقره في ميناء أوستيا للإشراف على الأسطول وتموين روما بالغلال ويعرف باسم $quaestor\ Ostiensis$.

(ج) نظمت تبعا لذلك طريقة تعيين حكام الولايات ، التي ارتفع عددها - كما ذكرنا - الى عشر بتنظيم « غالة القرية » كولاية نظرا للحاجة الى مرابطة قوة دفاعية مستديمة في المنطقة الواقعة جنوبي الألب ^(٣) . وهذه الولايات هي : ١ - صقلية ، ٢ - سردينيا وكورسيكا ٣ - أسبانيا القريبة ، ٤ - أسبانيا البعيدة ، ٥ - مقدونيا ، ٦ - أفريقيا ، ٧ - آسيا (برجامون) ، ٨ - غالة عبر الألب أي البعيدة أو المسماة غالة الناربونية ($Gallia\ Narbonensis = Transalpina$) ، ٩ - كيليكيا ، ١٠ - غاله التي على الجانب القريب من الألب أو غالة القرية ، ($Gallia\ Cisalpina$) وتمتد من شمالي نهر رنوس ($Arno$) ^(٤) حتى نهر روبيكون ($Rubico$) على مقربة من بلدة

(١) كلمة $urbani$ بمعنى المنين (نسبة الى مدينة روما) ، وكلمة $aerarium$ معناها الخزنة العامة .

(٢) $Italici$ بمعنى ارتباط عملهم بإيطاليا ، $classici$ بمعنى ارتباط عملهم بالأسطول ($classis$)

(٣) تاريخ إنشاء هذه الولاية غير معروف على وجه الدقة . والى لم تكن قد انشئت في عام ٨٩ ، فربما تكون قد انشئت بعد ذلك في عام ٨١ على يد سلا . راجع ما تقدم في ص ٦٩ ، حاشية ٢ .

(٤) في شمالي اتروريا ويسمى الآن " أرنو " وتقع عليه بيـــــزا وفلورنسه وأما " روبيكون " فهو في شمال شرقي اقليم اومبريا . ويعتبر الحد الفاصل بين " غالة القرية " وإيطاليا .

أريمنوم على الأديراتيكي . وقد تقرر أن يعين القنصلان والبريتوريون
الثمانية بعد انتهاء خدمتهم السنوية حكاما على هذه الولايات بوصف
الأولين قنصلين بديلين (pro consulibus) وبوصف الآخرين بريتوريين
بدلاء (pro praetoribus) ^(١) لمدة عام واحد . وهكذا
فقدت الوظائف البديلة صفتها الأصلية الاستثنائية ^(٢) . وكان هذا
التغيير هو أول خطوة في طريق انشاء سلك وظائف مدنية خاصة بإدارة
ولايات الجمهورية .

وكان حاكم الولاية هو الذى يتولى قيادة الجيش المرابط بها ،
على أن يحدد السناتو قوة الجيش في كل ولاية ومقدار ما يلزم الحاكم
من أموال لدفع رواتب الجند والوفاء بوفقات الإدارة . وقد حرم عليه
الشروع في حرب من تلقاء نفسه أو تسير قواته عبر حدود ولايته أو
مغادرة ولايته إلا بأذن من السناتو أو الجمعية فإن فعل ذلك تعرض
لتهمة الخيانة العظمى بمقتضى القانون الذى شرعه سلا والمسمى
(lex de maiestate) . وفي الواقع أن الخطر لم ينشأ عن هذه الجيوش التى
رابطت في الولايات المختلفة لأنها كانت في الغالب جيوشا صغيرة ،

^(١) صارت كلمة من الكلمتين تكتب كأنها كلمة واحدة، proconsul، حرف جر هنا بمعنى بدلا من أو محل كذا.

(٢) كان الرومان قد ابتكروا في عام ٢٢٧ علاجا لميب تعديد مدة الوظيفة العامة لسنة
واحدة وما قد يتوجب على ذلك من فلسفة واضطراب بانتقال القيادة من يد فنصل الى
يد فنصل جديد قبل انتهاء الحرب ضد عدو من الأعداء . وهذا العلاج ينلخص في ابقاء
القنصل الذى تنتهى مدة خدمته السنوية وهو في ميدان الحرب ومنحه لقب برو فنصل
(pro console = proconsul) أى قنصل بديل يستمر حتى اختتام الحرب في الواقع
بسلطة الفنصل العسكرية في الخارج مع الامبريوم البروقنصلي ^(٣) ، دون أن يكون هو نفسه
قنصلا من الناحية الرسمية . وقد طبق هذا المبدأ على وظائف كبرى أخرى ، فنسمع
عن بروريتور أى بريتود مفوض أو بريتور بديل . كان هذا النظام اذا في الاصل استثنائيا مؤقتا
حتمته ظروف حروب توسع روما في ايطاليا . لكنه سرعان ما استقر حتى صار على أيام سلا
نظاما مستديما عاديا . وفي الحق ان كلمة برو قنصل أصبحت بمعنى « حاكم ولاية » أو
على الأقل « قائد جيش » يقال في ايطاليا او خارجها حيث ان كلا من البروقنصسل
والبروقنصل كان يتمتع بالامبريوم الذى يخوله حق قيادة أى جيش أو اختياره حاكما
لولاية رومانية لمدة سنة في الغالب كما نسمع أحيانا عن
كويستور بديل pro quaestore

وأنما نشأ عن هؤلاء القواد الذين كان السناتو يضطر في وقت الأزمات أن يخولهم سلطات استثنائية ويمنحهم سلطات حرية ضخمة . وجدير بالذكر أن السناتو احتفظ بحقه في تعيين أسماء الولايات قبل ظهور نتيجة انتخابات القنصلية طبقا لقانون سمبرونيوس الخاص بالولايات القنصلية ، وتحديد ما يرى اسنادها للقنصلين ، وما يرى اسنادها للپريتورين ، بعد انتهاء خدمتهم السنوية ، ثم توزيعها بينهم بالقرعة^(١)

(د) احتفظ القنصلان بحق تولى قيادة الجيش وإدارة العمليات الحربية في إيطاليا، وظلت سلطة « الامپريوم » القنصلية أعلى من سلطة « الامپريوم » التي يتمتع بها حكام الولايات ، مع جواز مزاولتها خارج حدود إيطاليا . لكن القنصلين في الواقع صارا لايتوليان عادة^٢ القيادة في الحملات الخارجية ، لأن السناتو ائتمن نفسه الحق الذي كان في يد الجمعية القبلية من قبل ، وهو حق اختيار أى شخص يشاء ، ليتولى سلطة « الامپريوم » العسكرية في أى منطقة يحددها له .

(هـ) زيد عدد أعضاء السناتو من ٣٠٠ الى ٦٠٠ بادماج أعضاء من طبقة الفرسان (بعضهم من أصل إيطالي) ، ممن كانوا يؤيدون سلا ، وبذلك كسبهم هم وأتباعهم الى صفه ، وضمن في الوقت نفسه توافر العدد من الأعضاء للمؤهلين للعمل كحلفين في محاكم الجنايات الجديدة^(٣) . ولضمان الاحتفاظ بهذه الزيادة أصبح يدرج سنوبا في قائمة السناتو العشرون كويستورا بعد انتهاء خدمتهم السنوية .

(١) راجع قانون جايوس جراكوس في هذا الصدد (ص ٢١) .

(٢) تناقص عدد أعضاء السناتو بسبب حركات الإرهاب والاضطرابات التي حدثت في السنوات الأخيرة ، حتى صار عددهم حوالي ١٥٠ عضوا فقط .

وكان أعضاء السناتو الجديد يشتمون بداية أعوان سلا اللاتين الذين كان بعضهم ينتمون الى أسر لومنفراطية ، وبعضهم الآخرون من الرجال أو الجنود الماديين (gregari milites) الذين اسدوا له خدمات جليلة أثناء الحرب الأهلية . ولكنه أضاف إليهم - على نحو ما ذكرنا في المن - ٢٠٠ عضو من الفرسان . وقد ينبر ذلك بعض المعتمدين على

ترتكب ضد الدولة كالاخيانة العظمى *maiestas* (١) والرشوة في الانتخابات (*ambitus*) (٢). واختلاس الأموال الأميرية (*peculatus*) وابتزاز أموال سكان الولايات (*repetundae*) (٣). بل شملت أيضا جرائم ضد الأفراد فيها خطورة على المجتمع كالقتل والتسميم (*de sicariis et veneficis*) (٤) ، والاعتداء على الشخص (*iniuria*) (٥) ، والتزوير في المحررات والوصايا وتزييف النقود (*falsum*) . وقد نظمت هذه المحاكم على غرار محكمة التعويض عن الأموال المبتزّة التي أنشئت في عام ١٤٩ (٦) ، فكانت كل

(١) معنى كلمة *maiestas* الهيبة أو العظمة ، والمقصود هيبة الشعب الروماني ، والخيانة هي محاولة الانتعاص (*minuere*) من هيبة بالتواطؤ مع العدو أو التآمر عليه . وأصبحت هذه الجريمة تجبّ جريمة الخيانة ضد الدولة التي كانت تعرف من قبل باسم *perduellio* والتي كلف عقوبتها الإعدام .

(٢) كلمة *ambitus* مشتقة من الفعل *ambire* بمعنى الطواف أى طواف الرشح بين الناخبين للقيام بالدعاية كي يفوز بمنصب من المناصب العامة . وكان من بين القوانين القديمة التي صدرت لوقف بيار الرشوة في الانتخابات قانون بايبوس (*lex Baebia*) بتاريخ ١٨١ . وقد تكرر بعد ذلك إصدار قوانين لمكافحة الرشوة بفرض عقوبات شديدة كالوت والنفي لدى الحياة أو لعشر سنوات ، وصدر قانون توليوس (*lex Tullia*) في عام ٦٣ أى في قنصلية شيشرون ، وقانون بومبي (*lex Pompeia*) في عام ٥٢ ، وقانون يوليوس (*lex Iulia*) في عام ٤٩ على أيام يوليوس قيصر .

(٣) كلمة *repetundae* تعنى الابتزاز وإنما تعني استرداد الأموال (*pecuniae*) أو الأشياء (*res*) المبتزّة .

(٤) المقصود بالقتل هو قتل الإنسان الحر أو القتل العمد (الغتيال) . وكانت هذه الجريمة تشمل بداهة قتل ذوى الأرحام (*darricidium*) وهم، الجريمة الوحيدة التي كانت عقوبتها الإعدام ، إذ أنه في حالة الجرائم الأخرى كان المذنب يعطى فرصة مقابلة البلاد إلى النفي . وقد شملت أيضا الحرق العمد و الرشوة القضاة في جرائم القتل والشهادة الزور في هذه الجرائم .

(٥) وكانت تشمل القرب والجرح وانتهاك حرمة المنازل والسب والتشهير

(*calumnia*) .

(٦) وذلك بمقتضى قانون هام هو قانون كلپورنيوس (*lex Calpurnia*) - نسبة إلى لوكيوس كلپورنيوس ييسو فروجى ، أحد نقباء العامة في سنة ١٢٩ ثم أحد قنصلى سنة ١٢٣ - وكان ينص على تأليف محكمة دائمة من خمسين معلّفا من أعضاء السناتو للنظر في دعاوى الابتزاز المرفوعة على حكام الولايات بعد انتهاء خدمتهم لالتزامهم في حالة الإدانة برد

منها تتألف من عدد معين أو دائرة (decuria) من المحلفين (iudices) يختارون من بين أعضاء السناتو (١) ، ويتولى رئاستها پريتور من بين الپريتورين الستة الذين أسندت اليهم رئاسة هذه المحاكم الجنائية (٢). ولم تعد العقوبة هي مجرد الالتزام بدفع تعويض عن الضرر أو غرامة تدفع للمجنى عليه (poena) مقابل نزوله عن حقه في القصاص — كما كان الحال في محكمة الابتزاز القديمة التي كانت في حقيقة الأمر محكمة مدنية — بل أصبحت العقوبة بدنية كالاعدام والنفي (٣) أو عقوبة مالية تؤدي للدولة (multa) أو عقوبة تمثل في الحاق الوصمة (infamia) ولما يترتب عليها من الحرمان من حق تولي الوظائف العامة ، الخ . وكانت الأحكام نهائية لا يجوز الطعن فيها بالاستئناف (provocatio) أمام الجمعيات التشريعية بوصفها محاكم شعبية (iudicia populi) (٤) ، وبذلك حلت هذه المحاكم

الاموال التي ابتزوها أو دفع تعويضات مناسبة وقد عرفت هذه المحكمة التي كانت الاولى من نوعها باسم

Quaestio de Repetundis أو Quaestio Rerum Repetundarum .

(١) كان اختيار المحلفين في قضية معينة يتم عن طريق القرعة (sortitio) بين انفساء مجلس السناتو . وكان من حق الاطراف المتنازعة ان يردوا بعض المحلفين (reiectione) . ولما افترع المحلفين فكان سريا . وكان الحكم يصدر بالاذنية المطلقة ، وهو إما بالبراءة (absolvo) أو الإدانة (condemno) أو بعدم الوصول الى قرار (non liquet) .

(٢) وقد يرأسها عند الضرورة ايديل يعرف باسم iudex quaestionis . وقد يطلق على الپريتور أو الايديل الذي يرأس المحكمة اسم quaestor . ونضيف هنا ان العاتون اجاز للمدعى ان يحضر شهوده والمدعى عليه (reus) ان يستصحب مساعدا قانونيا أو محاميا عنه (patronus) وان كان من الخطور اعطاء المحامين أعباءا أو هدايا أو متاعا عن قدر معين وفقا لقانون كنيوس lex Cincia de donis et muneribus الذي صدر في عام ٢٠٤ ودرج الناس على افعاله) .

(٣) ويعرف بعبارة aquae et ignis interdictio (ومعناها الحرمان من الماء والنار أي من ضرورات الحياة داخل نطاق الأراضي الرومانية) والقصود به النفي مع التجريد من حق المواطن والاعدام دون محاكمة اذا عاد المئنب الى ايطاليا .

(٤) راجع ما تقدم في ص ٢١ حاشية ١ .

الجنائية الدائمة محل الجمعيتين المثوية والقبلية اللتين فقدتا من الناحية العملية سلطتهما القضائية . ولم يعد من الضروري أن يقيم الدعى (actio) حاكم معين بل أصبح يقيمها أى مواطن يقوم بدور المدعى العام (accusator) وقيد أو ألقى حق قبالة العامة فى إقامة الدعى على الجناة أمام الجمعية القبلية فى الجرائم السياسية .

وقد ظل القانون الجنائى مستند الى هذه الأسس التى وضعها سلا بتنظيم هذه المحاكم الجنائية الدائمة (١) .

(١) لما كان لتشريعات سلا القضائية أهمية خاصة فيما يتصل بالقانون الجنائى ، فقد رأينا أن نورد فيما يلى عرضا سريعا لتطور فكره عند الرومان حتى أيام سلا : كانت القضايا ذات الطابع الجنائى ، مما يستوجب العقوبة البدنية أو المالية وليس مجرد التعويض عن الضرر ، من اختصاص الحكام المنتمين « بالامبريوم » . وكان بجوهر للمواطن الحر (لا العبد أو المرأة لأن كلا منهما كان يخضع لسلطة القسر أو التعزير coercitio التى يتمتع بها الحاكم) أن يستأنف أحكامهم فى حالة الإعدام أمام الجمعية المثوية ، وفى حالة الغرامة الكبيرة أمام الجمعية القبلية بوصف كل منهما محكمة شعبية (iudicium populi) . فكان الفصلان يفصلان - على الأقل من الناحية النظرية - بمعاونة الكويستوريين فى الجرائم الخطيرة ، بل إن البريتوريين - برقم أن سلطتهم امتدت على النظر فى القضايا المدنية - كانوا ينظرون أحيانا فى بعض القضايا الجنائية . كما أنزع نفيه العامة لأنفسهم فيما بعد حق رفع الدعى أمام الجمعية القبلية ضد الجناة الذين يرتكبون جرائم ذات طابع سياسى .

لكن لم يأت القرن الثانى حتى أصبح هؤلاء الحكام جميعا مجرد مدعين هوميين لأنهم - وإن لم يمس حقهم فى إصدار الأحكام - إلا أن سلطتهم فى تنفيذ هذه الأحكام أصبحت مقيدة إزاء قوانين الاستئناف التى صدرت فى ذلك القرن ، مؤيدة فى نفس الوقت قوانين الاستئناف القديمة ، وجعلت من غير المستطاع نوليع عقوبة الموت أو الجلد أو حتى غرامة مالية كبيرة على أى مواطن حر قبل أن تنظر الجمعية الشعبية (المثوية أو القبلية) فى الحكم المستأنف . وترتب على ذلك أن أخذ الحكام يحيلون من بادى الأمر القضائى التى يجوز فيها الاستئناف على كل من الجمعيتين المثوية أو القبلية وفقا لجسامة الجريمة . لكن سرعان ما تبين أن هذا النظام غير عملى نظرا لبطء إجراءاته ، وإمكان عرقلتها بواسطة حق النقض ، وافتقار أعضاء الجمعيتين الى الخبرة القانونية ، واتعدام الكفاءة اللازمة للفصل فى القضايا الشائكة غير العادية . ولهذا جرى البحث عن وسائل أخرى ، فكان لتسبب بإيعاز من السناتو أولا ، وبمسند السناتو وحده ، وأخيرا الشعب متحدى السناتو نفسه (ابتداء من عام ١١٢) ، كان هذا أو ذاك يلغى حاكما - أو أكثر - متمتا بالامبريوم بتأليف محكمة غير عادية أو استثنائية (quaestio extraordinaria) محكمة

وفي أوائل عام ٧٩ اعتزل سلا الحكم فجأة وتنحى عن الدكتاتورية بمحض ارادته وهجر الحياة السياسية مسرحا حرسه المكون من ٢٤ ضابطا (lictors) . واعتكف في بيته كمواطن عادى . ولم يلبث أن رحل الى ضيعته في ريف كمپانيا حيث أقام في قصره الذى شيده عند ضاحية مدينة پوتيولى (Puteoli) في مكان غير بعيد عن ساحل كمپانيا الدقى . وقضى بقية حياته في رفقة قائليريا ، وهى مطلقة شابة عقد قرانه عليها . وكان يزجى فراغه في الصيد والقنص والملاذات . لكنه عكف أيضا على قراءة الأدب وكتابة مذكراته أو قصة حياته ،

المتهمين بالتراف جرائم خطيرة تسمى الصالح العام . فكان الحاكم يؤلف مجلسا قضائيا (consilium) من بعض الرجال البارزين الذين يجتمعون في شكل محكمة تصدر أحكاما نهائية لايجوز فيها الاستئناف . ولكن السناتواستقل هذا النوع من المحاكم الاستثنائية لخدمة مصالحه والتخلص من خصومه مما آثار غضب المصلحين من أمثال جايوس جراكوس الذى احتج على تأليف هذه المحاكم التى تقضى بأعدام المواطنين دون أن تعطيهام فرصة التظلم الى الجمعية . ولذلك استصدر قانونا بأكيدحق الاستئناف مرة أخرى حتى لا يعدم أحد دون موافقة الشعب (lex ne quis iniussu populi capite damnetur) (راجع ص ٢٧ حاشية ١) .

وبازدياد توسع الدولة المستمر ، ازدادت المسائل وكثرت شكاوى سكان الولايات من نصف الحكام الرومان . وقد أثار ذلك بعض الصعوبات لأن اصحاب هذه الشكاوى كانوا من غير المواطنين ، فكان پريتور الأجانب - اقداء بالنسبة التبعة في القضايا ذات الطابع الدولى - يعين هيئة قضائية مدنية من ثلاثة محكمين (recuperatores) للفصل في النزاع . وقد ابع هذا الاجراء في واقعة مشهورة حدثت في عام ١٧١ عندما تظلم سكان ولاية اسبانيا من المختص بالحاكم لاموالهم (Livius, XLIII, 2) في مثل هذه الظروف كانت القضية قضية مدنية تدخل في نطاق القانون الخاص ، وهو امر غريب سليم متبر للاعتراض لسببين : أولا ان القضية كانت - كما هو واضح - تمس الصالح العام ، ثانيا : حيث أن سلطة پريتور هى في جوهرها سلطة مدنية ، فقد كان من العسير دمج الابتزاز على يد الحكام بأنه جريمة عامة تستوجب العقوبة البنية أو المالية بدلا من مجرد التعويض ، الا اذا تشنت محكمة او هيئة قضائية خاصة

وكانت اول خطوة الخلت في هذا السبيل هى المحكمة الدائمة (quaestio perpetua) التى انشئت بمقتضى قانون كلپورنيوس في عام ١٢٩ لحاكمة حكام الولايات المتهمين بالابتزاز (انظر ص ٩٢ هامش ٦) ، وهى محكمة تتميز بأنها لم تقم على سند من « الامبريوم » بل على سند من التشريع القانونى ومع ان عنصر الجزاء الجنائى لم يكن قد اكتمل بعد ، فظلت العقوبة مقصورة على التعويض او استرداد الأحوال المقتضية

وهي تلك الترجمة الذاتية التي وردت منها شذرات في كتاب « تراجم العظماء » لبلوتارخوس . ولم يعد يبالى بما يجري في العاصمة حتى أنه لم يحرك ساكنا عندما انتخب آيميليوس ليدوس قنصلا لعام ٧٨ ضد مشيئته . ومات سلا عام ٧٨ وهو في سن الستين . وأقيمت له في روما جنازة رسمية فخمة مهية . ودفن في ساحة الاله مارس

(repetundae)، إلا ان الابتزاز لم يعد جريمة خاصة (delictum) بل أصبح جريمة عامة (crimen) . وقد اقتصرت بتشام هذه المحكمة الدائمة ثلاثة أمور وهي : (١) الصراع حول حق الجلوس فيها كمخلفين بين طبقتي السناو والفرسان ، هذا الحق الذي اقتصر أولا على أعضاء السناو (١٤٩ - ١٢٣) ، وبعدئذ الفرسان (١٢٣ - ٨١) ثم على أعضاء السناو مرة أخرى (٨١ - ٧٠) وأخيرا اقتسم بالتساوي بين طبقات ثلاث وهي أعضاء السناو والفرسان وتربانة الخزائن (tribuni aerarii) الذين يرجع أنهم كانوا يلون في الثروة طبقة الفرسان (من ٧٠ - ٤٦) ، (ب) ان عنصر الجزاء الجنائي اخذ في حالة صدور حكم بالانابة ضد المتهم بزيادة بالسويج بروزا واكتيالا ، (ج) انشئت على غرار محكمة الابتزاز الدائمة محاكم جديدة للنظر في جرائم أخرى تدخل في نطاق القانون الجنائي .

ومع هذا فلا يزال معلوماتنا طفيفة عن عهد الحاكم الدائمة قبل أيام سلا ، ولو أننا نعلم ان محكمة خاصة بمحاكمة جريمة القتل العمد والتسميم (quaestio de sicariis et veneficis) انشئت قبل عام ٩٥ (ولوان بعض الشراح مثل مومسن Mommsen يرى انها انشئت قبل ١٤٢) ، وأخرى لمحاكمة جريمة استعمال القوة لقلب نظام الحكم (quaestio de vi publica) بعد عام ٩٥ مباشرة (وان كان البعض يعتقد أنها لم تنشأ الا بعد عمر سلا بمقتضى قانون پلاوتوس (lex Plautia de vi) الذي صدر بين سنتي ٧٧ و ٧٠ وربما أيضا محكمة ثالثة خاصة بجريمة الاختلاس (quaestio de peculatu) في عام ٨٦ .

هكذا كان الوضع عندما انشأ سسلا بمقتضى قوانين كورنيليوس سبع محاكم جنائية دائمة Quaestiones Perpetuae بخص بالنظر في جرائم معينة ، واضعاً بذلك أسس نظام القانون الجنائي واجراماته . والحق أنه لم يصنع نظاما شاملا للقانون الجنائي ، وإنما عني بالجرائم الخطيرة التي تستوجب عقوبة لم تكن توقع من قبل الا بعد موافقة الجمعية الشعبية (المنوية او القبلية) وإما الجرائم غير الخطيرة فقد ترك أمر الفصل فيها للبريتورين ، وعن هذا الموضوع انظر الان :

W. Kunkel, Untersuchungen zur Entwicklung des Römischen Kriminalverfahrens in vorsullanischer Zeit (Bayer. Akad. d. Wiss., Phil.-Hist. Kl., Abhandlungen N.F. 56). Muenchen, 1962.

(Campus Martius) - ودونت على قبره - بأمر منه - عبارة فحواها : لا صديق ييزه في اثابة المحسن ، ولا عدو ييزه في عقاب المسىء .

وقد أثار اعتزاله الحكم فجأة حيرة القدامى وما يزال يثير حيرة المحدثين . وسيقت في تفسيره آراء عديدة منها أنه قد طمع في الملكية (Sullanum Regnum) . ولكنه يئس عندما لم يلق تأييدا للفكرة من بومبي وآل ميتيللوس وبقية النبلاء الذين ائتملوا ضده . وإذا كان غير راغب في خوض معركة مسلحة فقد أثر الاعتزال . غير أن الرأي لا يصادف قبولا لدى أكثر الباحثين . لعله رأى أن مهمته الجسيمة قد انجزت ، وأنه وضع من التنظيمات المحكمة ما يكفل سير أداة الحكم سيرا حسنا . فاذا حدث وتخطت طبقة النبلاء السناشورية عن واجبها نحو روما ، فعليها تقع المسؤولية . أو لعله - وقد بدأ يعزف عن رتبة الحكم والادارة ويتلهف على حياة الفراغ والمتعة والاثارة - قد هز كنفه في سخرية ، وقرر في يروود وعدم اكتراث (وهما صفتان لم يتخل عنهما في السلم أو الحرب) أن يستمتع في هناء بذلك القدر الباقي من العمر الذي كتبه له القدر . أم أن ضميره صحا فجأة مثيرا تقززه وامتعاضه من رائحة الدماء التي سفكت ؟ أم أن شبح ضحاياه الكثيرين أفزعته وأقض مضجعه ؟ أم أنه أحس هو ذاته بديب ذلك المرض الخبيث الذي يقال أنه أودى بحياته ؟ في الحق أن أحدا لا يدري كيف مات . أمات منتحرا يقطع أحد شرايينه ، أم متأثرا باقترجار أحد أوعية دمه ؟ لعل انغماسه في الملذات والفجور جعله ضحية للمرض المعروف اليوم باسم « التقليل » .

وأيا كان السبب فإن سلا شخصية تجمع بين المتناقضات : كان محبا يسليقته للنظام والكفالة في الحياة العامة ، ولكنه كان مستهترا

منحلا في حياته الخاصة . وكان ساخرا بالناس لا يكثر لهم ، ومع هذا فقد كان مؤمنا بالخرافات . وكان على انغماسه في الشهوات جم النشاط ذاهمة كبيرة . وكان صارما في الحق أحيانا ، وقاسيا بلا قلب رهيب الانتقام أحيانا أخرى . لقد جمع في شخصه بين صفات الثعلب والأسد واضطر ان يقطع الشوط حتى نهايته لكي يؤمن سلامته . وقاده الطريق الوحيد الذي رآه عبر الحرب الأهلية الى السلطة المطلقة . وتلقى احدى الفقرات الواردة عن ترجمته في كتاب پلوتارخوس - وهي ترجمة تستحق القراءة حتى في غير الأصل اليوناني - ضوءا باهرا على طباع هذا الرجل الغريب وقصور عمله ، فهو يقول فيها « ان جميع قراراتي الموفقة صدرت لا عن تفكير بل عن الهام طارىء » . وبعبارة أخرى كان سلا كاي روماني صميم لا يؤمن بالتفكير في حل المشاكل بل كان يثق في سلامة قراراته المرتجلة ، ولهذا لم يستطع أحد أن يتكهن أبدا بما سيفعله أو أن يثق فيه أو يؤمن به . وكان كغيره من رجال ذلك العصر والعصور التالية يؤمن بالحظ أو التوفيق (Fortuna-Felicitas = Tychê) ايمانا شديدا حتى أنه لقب نفسه بسلا سعيد الحظ أو الموفق (Felix) ^(١) وكان قد أطلق على ابنه وابنته التوأمين في عام ٨٦ لقباً يحمل معنى مشابها (Faustus & Fausta)

(١) لا ندري هل منح له هذا اللقب او الكنية بصفة رسمية ام غير رسمية ، لكن يلاحظ ان السنانو امر في نهاية عام ٨٢ بان يقام تمثال « لكونيلىوس سلا الفائز الاعلى الموفق » في مواجهة منصة الخطابة (Rostra) في السوق العامة . ويقابله في اليونانية Epaphroditos (نسبة الى افروديتي Aphrodite وهي فينوس Venus عند الرومان ، دبة الحظ السعيد) ، وهو لقب حرص سلا على ان يقرن باسمه في الشرق الهلينستي كناية ضد خصومه ، راجع :

Wissowa, Religion und Kultus der Römer (zweite Auflage, 1912), p. 291.

L. Berlinger, Beiträge zur inoffiziellen Titulatur der römischen Kaiser (Diss. Breslau 1935), 5-9.

J.P.V.D. Balsdon, "Sulla Felix", J.R.S. 41 (1951), 1-10.

ونحن لا ندري على وجه اللقطة ماذا فهم من كلمة « الحظ » أو « التوفيق » ، غير أننا نستبعد أن يكون سلا قد فهم الكلمة بمعنى قوة عليا مهيمنة على العالم من شأنها أن تسدد خطى رجل السياسة فتبعده عن طريق السعى وراء المصلحة الشخصية وترشده إلى الأهداف القومية السامية .

الثورة : الدور الثاني

النضال بين السنااتو والقواد العظام

(٧٨ - ٦٢)

ظهور بومبي الكبير

وبموت سلا ينتهى الدور الأول من اثورة الرومانية . ونحن الآن فى منتصف ثورة ذات جوانب متعددة ، فالدستور ونظام الحكم كل منهما يتغير ببطء تغيرا حقيقيا ، ويزول فى الوقت نفسه عصر المدينة اليونانية - الرومانية الحرة . ولم تكن هناك مندوحة عن حدوث هذين التغيرين ، فبدونهما لم يكن من المستطاع حماية العالم المتمددين من غزو المتبربرين ، أو توحيد ايطاليا كأمة متكلفة يتمتع جميع سكانها بالجنسية الرومانية . وقد رأينا فى الدور الأول من الثورة كيف أبعدت روما خطر الغزو المباشر سواء من الشمال أو الشرق ، وكيف أصبحت ايطاليا رومانية يتمتع أهلها بالمساواة التامة مع مواطنى روما فى ظل القانون الرومانى الذى أخذ يرتقى حينئذ ارتقاء سريعا .

يد أن عملية التغير هذه لم يكن قد تم منها سوى النصف . اذ سرعان ما تبين أنه لا بد من اقامة نظام ثابت للدفاع عن الحدود الشمالية والشرقية ، حتى لا تتعرض الامبراطورية لخطر الغزو المستمر . كما تبين أن دستور سلا غير صالح كأداة للحكم ، وأنه لابد للدفاع عن الحدود والحضارة دفاعا مجديا من قيام حكومة قومية ، أيا كان الشكل الذى تتخذه . فهناك اذن فى الدور الثانى من الثورة هطتان رئيسيتان ينبغى أن نتنبه لهما ، احدهما تأمين الحدود من خطر ملوك الشرق وقبائل الجرمان المتنقلة ، والأخرى استيلاء جندى سياسى عظيم

وهو يوليوس قيصر على السلطة ، والتخلى عن نظام الحكم القديم القائم على أساس توزيع السلطة بين السناتو والشعب .

رأينا كيف كان سلا قائدا قديرا وحاكما قويا ومنظما اداريا من الطراز الأول ، ولكنه كان ضيق الأفق يفتقر الى المقدرة الانشائية في الميدان السياسى ، فكان أقصى ما هداه اليه تفكيره في هذا الصدد هو توطيد نفوذ السناتو واعادته الى المركز الذى لم يكن فى وسعه أن يحتفظ به ما لم يسانده قائد قوى موال له . ولم يستطع سلا باضطهاده الشديد لخصومه السياسيين أن يقضى على حركة المعارضة ضد السناتو بل خلف وراءه تركة مثقلة بالكراهية أودت فى النهاية بمعظم اصلاحاته كما لم يفهم سلا ماهية مشكلات عصره الاجتماعية والاقتصادية ولم يفعل شيئا لتجنيب الدولة خطر الجيوش المحترفة وقوادها المتبرمين .

بالسلطة المدنية . وقد أظهرت أحداث الحقبة ما بين تريونية تيريريوس جراكوس وموت سلا عجز كل من السناتو والجمعية الشعبية عن اقامة حكومة مدنية مستقرة . ولكن سيرة سلا أثارت الطريق أمام كل من قيصر وأغسطس لحل المشكلة حلا نهائيا .

ويدور تاريخ هذه الفترة حول طائفة من القواد البارزين الذين كان لأطماعهم وخصوماتهم أكبر الأثر فى حياة الدولة السياسية . ويعزى ذلك الى عجز السناتو والجمعية عن السيطرة على هؤلاء القواد الذين كانوا يمنحون تحت ضغط الظروف سلطات حرية واسعة ، استغلوها فى تحقيق أطماعهم السياسية وفرض أنفسهم على الدولة . ولما كانت الانتصارات العسكرية حينئذ هى الدعامة الوحيدة التى يقوم عليها المجد السياسى ، فقد حرص الرجال الطموحون على أن يتولوا قيادة الجيوش فى الحروب الهامة . وقد اضطر السناتو ازاء الأخطار التى نجمت عن الحروب الأهلية والخارجية الى أن يمنح السلطة العسكرية لبعض القواد المشهود لهم بالكفاءة حتى فى الأحوال التى لم يكن يطمئن

فيها الى نواياهم الحقيقية . لكن الجمعية الشعبية أصبحت فيما بعد هي التي تمنح هذه السلطة ، وذلك عندما كان يتحالف القائد مع قبلاء العامة . ومن ذلك نشأ ما يعرف « بالقيادة غير العادية » ، وهي التي كانت تمنح بمقتضى تشريع خاص من السناتو أو الجمعية ، وتبضمن سلطة عسكرية عليا (امپريوم) أوسع من بعض الوجوه (maius) من سلطة « الامپريوم » الممنوحة للقواد العاديين بالطرق الدستورية المألوفة . وكان پومپى هو أول من أدرك قيمة القيادة غير العادية كأداة للحصول على السلطة .

وپومپى هو جنايوس پومپيوس Cnaeus Pompeius (١٠٦ - ٤٨) ابن پومپيوس استرابون قنصل عام ٨٩ الذى التقينا به في الحرب الايطالية . وكان قد اشترك مع أبيه أثناء تلك الحرب في حصار أسكولوم باقليم بيكينوم عام ٨٩ . وبعد سنوات جمع جيشا في نفس الاقليم لحسابه الخاص وأحرز به عدة انتصارات على خصوم سلا في عامى ٨٣ ، ٨٢ . وحمل السناتو على أن يسند اليه في أواخر عام ٨٢ قيادة ضد أنصار ماريوس وركناً في صقلية وافريقيا (نوميديا) مع تخويله سلطة الامپريوم التي يتبعت بها البريتور البديل (propraetore) مع أنه لم يكن قد تقلد أى منصب عام قبل ذلك . وقد ناداه الجنود عقب انتصاره السريع الباهر بلقب امبراطور (imperator) وهي تحية كان الجنود يحيون بها قائدهم عند الانتصار الكبير في معركة وكان معناها وقتئذ لا يعدو معنى « المظهر » . ولكنها كانت لقباً شرفياً كبيراً يعطى صاحبه الحق في دخول روما في موكب نصر بعد استئذان السناتو (١) . ويقال انه رفض تسريح جنوده ، وطالب عند عودته الى

(١) كان أول من تلقى هذه التحية المسماة « بالتحية الامبراطورية » (salutatio imperatoria) من جنوده - وان كانت الرواية مثار شك كبير - هو لوكيوس أيميليوس باولوس (L. Aemilius Paullus) لانتصاره في اسبانيا البعيدة عام ١٨٩ .

روما في عام ٨٠ بتنظيم موكب رسمي احتفالا بانتصاره (triumphus) وهو شرف وان كان يستحقه لتحية الجنود اياه بلقب الامبراطور أى المظفر (imperator) الا انه كان لا يمنح الا لمن شغل منصبا عاما كالقنصل أو البريتور . وقد عارض سلا هذه الرغبة في أول الأمر ، ولكنه رضخ في النهاية ازاء الحاح يومبي . لعله خشى قيام يومبي بحركة تمرد أو نشوب فتنة تفضي الى حرب أهلية جديدة . لقد كانت هناك عدة عوامل تجعل من احتمال تهديد يومبي لسلا أمرا له خطورته وفي مقدمتها : ظفره بلقب « امبراطور » مع وجود ست فرق رومانية في شمال افريقيا تحت قيادته ، وأسطول رهن اشارته ، واحتمال تأييد توميديا وموريتانيا له ، وصلاته مع « غالة القرية » ، وولاء بيكينوم له في وقت لم تكن فيه أحوال ايطاليا قد هدأت تماما . لعل كل ذلك مع ظهور خطر سرتوريوس في الغرب قد حمل سلا على عدم الاصرار على معارضة رغبة يومبي الذي احتفل بانتصاره ودخل روما في موكب نصر يوم ١٢ مارس من عام ٨٠ (أو ٧٩ ؟) . وذهب سلا الى أبعد من ذلك فسمح له أن يحمل لقب Magnus (بمعنى العظيم أو الكبير أو الأكبر) ، وان كان يومبي لم يتخذ من اللقب إسما (cognomen) الا بعد فترة . في الحق أن يومبي كان أقدر القواد الأربعة (هو وميتيلوس ولوكيلوس وكراسوس) الذين خدموا تحت إمرة سلا .

الحرب ضد سرتوريوس :

بعد اعتزال سلا الحكم انتخب كاتولوس ^(١) (Q. Lutatius Catulus)

= وكان باولوس وهومن الاشراف يرتودا الى عام ١٩١ ولكنهم منعوا وتنازلوا عن امتيازات القنصلية (insignia) وبالتالي الامبريوم القنصلي بصفة استثنائية ولم يتول القنصلية بالفعل الا في عام ١٨٢ ، ومرة أخرى في عام ١٦٨ الذي ظهر فيه بربسيوس ملك مقدونيا في معركة بوندا (Pydna) الشهيرة .

(١) وهو ابن الرجل الذي يحمل نفس الاسم وتولى القنصلية عام ١٠٢ وخدم مع هاريوس ضد الكمبري والتوتون .

وليبيدوس (M. Aemilius Lepidus) قنصلين لعام ٧٨ . وكان الأخير ينتمي الى أسرة شريفة ولكن السناتو لم يطمئن اليه لارتياحه في نواياه وتخوفه من طموحه الشديد . فلما توفي سلا تهيأت الفرصة لليبيدوس فشرع في القيام بحركة انقلاب للقضاء على دستور سلا ، واستمال الى جانبه العناصر المتذمرة في ايطاليا باقتراح مشروعات ترمى الى ارجاع المنفيين من حزب ماريوس الى أرض الوطن ، واعادة السلطة كاملة الى نقيب العامة ، واحياء قانون الغلال الذي أبطله سلا ، ورد الأراضي التي صادرها الدكتاتور الى أصحابها الايطاليين . ولم يجرؤ السناتو على معارضة مشروع الغلال (١) ، ولكنه أحبط المشروعين الآخرين مما أثار سخط الايطاليين في شمال اتروريا فطردوا جنود سلا القداماء من الأراضي التي استعمروها في بلادهم . وكانت حركة الايطاليين بمثابة ثورة مسلحة اضطرت السناتو ازاءها أن يعهد الى القنصلين باتخاذ التدابير اللازمة لقمعها . فاتخذ ليبيدوس من ذلك ذريعة ليجمع جيشا في شمال ايطاليا - حيث رشح حاكما على ولاية غاله القريبة للعام التالي - وتزعم حركة الثوار وناشد جميع من أصابهم سوء على يد حكومة سلا أن ينضموا اليه فانضوت تحت لوائه قوات ضخمة زحف بها على روما ليعيد ترشيح نفسه للقنصلية ويرد لنقيب العامة حقوقهم القديمة . وتخرج الموقف حتى لم يعد للسناتو أى أمل في تجنب حكم الارهاب الا بالقضاء على ليبيدوس دون ابطاء ، واجتمع وأصدر « قراره الأخير » وأعلن أن ليبيدوس « عدو للوطن » . ومع أن كاتولوس ، القنصل الآخر ، استطاع أن يصد قوات ليبيدوس عن روما ، فبان السناتو لم يجد مفرًا من قبول المساعدة التي عرضها عليه يومئذ .

(١) ومع هذا فلا يبدو ان القانون صدر في ذلك الوقت ، وإنما صدر فيما بعد عام ٧٢ باسم قانون ترنتيوس وكاسيوس (lex Terentia-Cassia) ، قنصلين ذلك العام . وينص على أن تباع الحكومة الغلال للفقراء بسعر يقل عن سعر السوق .

وكانت الثورة لا تزال تبدو خطيرة ، ولو أنها كانت في الحقيقة على وشك الانهيار . ذلك أن اسم يومبي كان كافيا للقضاء على أى خطر جسيم . وقد حال خبر انضمامه الى جانب الحكومة دون انتشار حركة التمرد . ولم يجد القائد المخنك ، الذى أسندت اليه في عام ٧٧ قيادة ثانوية في الشمال (١) ، عناء في حشد القوات اللازمة ، والسير بها الى غالة القريبة حيث حاصر أحد أعوان لبيدوس في بلدة موتينا (Mutina) وأرغمه على الاستسلام ثم تخلص منه . وبعدئذ عاد أدراجه الى اتروريا حيث هزم لبيدوس الذى قتل قواته الى سردينيا وحاول الاستيلاء عليها دون جدوى . وقد لقي حتفه بعد ذلك بقليل تاركا قيادة ما تبقى من جيشه لضابط يدعى بيرنا (M. Perperna Vento) . ولم يلبث بيرنا ان التجأ في عام ٧٧ الى أسبانيا ، حيث انضم الى سرتوريوس ، الذى تزعم هناك ثورة خطيرة ضد حزب السناتو .

لقد نجح السناتو في اخماد الثورة قبل اندلاع لهيبتها ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك الا بعد أن نصب يومبي قائدا على جانب من قوات الحكومة . وقد رفض يومبي أن يسرح هذه القوات ، وطالب بإيفاده الى أسبانيا لتعزيز جيش ميتيلوس الذى كان يعمل على اخماد ثورة سرتوريوس . واستجاب السناتو - لمطلبه فرحل الى أسبانيا حيث واجهته مهمة أشق مما كان يتصوره .

كان سرتوريوس (٢) (Q. Sertorius) قطبا من أقطاب الحزب الديمقراطي . وكان قد خدم تحت امره ماريوس في الحرب ضد التوتون

(١) لعلمها سلطة الامبريوم المخولة « لبريتور البديل » .

(٢) راجع « مسيرة سرتوريوس » في كتاب ترجمه العلامة ليلوتارخوس .

(١٠٢) ثم ولى منصب الكويستور في سنة ٩١ ، وخدم بعدها في أسبانيا ضد قبائل الكلتيين الايبيرية ثم في الحرب الايطالية حيث فقد إحدى عينيه . وقد أثارت مواهبه العسكرية الفزة في الحرب الايطالية حقد سلا عليه فمنعه من ترشيح نفسه قريبا لسنة ٨٨ . ولما آلت مقاليد الأمور الى حزب ماريوس في عام ٨٧ لم يشترك في حركة الارهاب واعترض على سياسة التطرف . وقد انتخب بريتورا في عام ٨٣ ورشح حاكما على ولاية « أسبانيا القريبة » للعام التالي . لكن لم يلبث سلا بعد انتصاره في الحرب الأهلية في آخر عام ٨٢ أن أرسل الى أسبانيا حاكما جديدا استطاع أن يهزم أنصار الحزب الديمقراطي هناك ، فاضطر سرتوريوس الى الالتجاء الى تينجيس (تانجير) في مورتانيا (المغرب) عام ٨١ ولكنه عاد بعد مخاطر عديدة الى أسبانيا ليتزعم ثورة قامت بها قبائل اللوميتاني (Lusitani) في المنطقة التي تقابل البرتغال الحديثة عام ٨٠ . وقد أثار النصر في روما بكفاءته كفائد خير بحرب العصابات ، ومهارته في اجتذاب الأسبان الى صفه بشتى الوسائل (كاستغلال ايمانهم بالخرافات) ، والانتصارات الأولية التي أحرزها ، اذ استطاع أن يهزم أولا حاكم ولاية « أسبانيا البعيدة » في عام ٨٠ وأن يهزم بعد ذلك ميتيللوس پيوس (Q. Caecilius Metellus Pius)(١) زميل سلا في القنصلية عام ٨٠ ، وحاكم « أسبانيا البعيدة » في عام ٧٩ والذي أرسل الى أسبانيا لقمع حركته . كما ألحق هيرتوليوس (Hirtuleius) نائب سرتوريوس الهزيمة في نفس العام بحاكم ولاية « أسبانيا القريبة » ، وحاكم ولاية « غاله الناربونية » الذي حضر لنجدة ميتيللوس پيوس في العام التالي وزحف سرتوريوس عبر وسط

(١) وهو ابن ميتيللوس (Q. Caecilius Metellus) قنصل عام ١٠٩ ، الذي التحق به في الحرب ضد يوجورتا واللقبة « بالنوميدى » (Numidicus) أي « قاهر نوميديا » انظر ص ١٩ ، ٥٩ .

اسبانيا الى منتصف نهر الابر وحيث انضم اليه « پيرتا » الذي أحضر معه من سردينيا فلول جيش لبيدوس وحشد قوة يبلغ عددها حوالي ٢٠٠٠٠ جندي . وعند مكان قريب من أوسكا (Oscá) أنشأ سرتوريوس مدرسة لأبناء زعماء القبائل الكلتيّة - الأيبيرية الذين أبدوا حماسا شديدا لقضيته ، واضعين أبناءهم - عن غير قصد - كرهائن تحت يديه . ولم ينته عام ٧٧ حتى كان سرتوريوس قد سيطر على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد اعتبر نفسه الحاكم الشرعي لولاية «اسبانيا القرية» زاعما أنه لم يحمل السلاح ليناويء روما بل ليناويء الحزب الارستقراطي المستولي بطريق غير شرعي على مقاليد الحكم في العاصمة . واستعان سرتوريوس بأعضاء من الحزب الديمقراطي لتصرف الشؤون المدنية والعسكرية ، وأنشأ مجلسا على غرار السناتو الروماني مؤلفا من أنصاره الذين فروا من روما لاجئين اليه وربطوا مصيرهم بمصيره وعلقوا أمل العودة الى ايطاليا على انتصاره .

ولما كان السناتو لا يرغب في مهادة سرتوريوس فلم يعد هناك مناص من ارسال قائد جديد الى اسبانيا على رأس قوات جديدة لاختاد الثورة . وعندما تردد القنصلان في قيادة الحملة ضد الزعيم الثائر ، سعى پومبي - كما رأينا - للحصول على قيادة الحرب الأسبانية . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بلغ السن التي تؤهله لذلك ، ولم يتدرج في سلك الوظائف العامة ، فإن السناتو ازاء افتقاره الى القواد الأكفاء ، وافق على منحه سلطة « الامپريوم » البروقنصلية ليتولى بمقتضاه حكم ولاية «اسبانيا القرية» وقيادة الجيش فيها (١) ولكن وصول پومبي الى هذه البلاد على رأس قوات كبيرة لم يضعف

(١) ليس من المعروف كيف تم ذلك . ولا نذكر لنا المصادر القديمة سوى ان السناتو أرسله الى اسبانيا . ولم يكن من المستطاع منح پومبي سلطة « الامپريوم » البروقنصلية الا بجفتى قانون خاص تصدره الجمعية الشعبية . وكانت موافقة السناتو على المشروع ضرورية قبل الاقتراع عليه في الجمعية الشعبية . وأمل ذلك هو ما حسدت بالفعل =

مركز سرتوريوس الذي صمد طوال عام ٧٦ ، وعقد في نهايته ، بفضل وساطة القراصنة ، معاهدة مع شرادايوس ملك بنطوس الذي كان يتأهب لاستئناف القتال ضد الرومان . وقد وعد الملك بمده بالمال والسفن في مقابل أن يعترف له سرتوريوس بحقوقه في بثونيا وكبادوكيا . ومع أن ميتيللوس بيوس أزل هزيمة ساحقة بنائب سرتوريوس في معركة سيجوفيا Segovia (وسط أسبانيا) عام ٧٥ مما ألجأه الى حرب العصابات مرة أخرى الا أن سرتوريوس كان لا يزال قويا بينما تخرج مركز الرومان لقلة العتاد والمؤونة . فقد استطاع أن يصمد قرب ساجونتوم (Saguntum) لقوات الرومان المشتركة . ولم يجد يومى مفرا من طلب امدادات جديدة من روما مناشدا السناتو أن يرسلها على وجه الاستعجال حتى لا يضطر الى التخلي عن الحملة أو تعرض ايطاليا نفسها لغزو كالذي تعرضت له من قبل أيام هنيبال .

وبوصول الامدادات استطاع يومى بعد معارك كثيرة تخطتها بعض الهزائم أن يزعم مركز العدو خلال عامى ٧٤ ، ٧٣ حتى أصبح النصر قريبا ، ولا سيما بعد أن دب النزاع بين أنصار سرتوريوس من الرومان الذين بدأوا يتخلون عنه بعد أن تضاعل أملهم في غزو ايطاليا . وزاد موقفه حرجا تعمف ضباطه . للأسبان ، مما أدى الى قنور حماسهم لحركته ، وفرار جنودهم من جيشه . وقد أرغمه ذلك على

= ولا ندرى ما الذى جعل السناتو يرضخ له ويخوله سلطة الاميريوم البروفنصلى . imperium proconsulare (مع ان يومى كان لا يزال شابا ولم يتول منصباً عاماً ولا كان حتى عضواً في مجلس الشيوخ) ويوفده الى اسبانيا (ربما ليتخلص منه ؟) لا ليكون نائباً (legatus) لميتيللوس ، بل ذمىلا على قدم المساواة . ولقد قيل ان السناتو لم يجد قائداً من طبقة النبلاء يرغب في قيادة الحملة الاسبانية ، وان فنصلى عام ٧٧ (وهما من النبلاء) ترددا ايضاً اما للافغارهما الى الخبرة العسكرية أو لاعتبارات سياسية (كعدم الرقبة في انضاب ميتيللوس أو حرصاً على مبادئ سلا) وإيا كان الامر ، فان تفويض يومى مثل هذه السلطة يعتبر ضربة قاصمة لاهداف سلا ، وعملاً بنظوى على خطر شديد للسناتو نفسه .

اتخاذ تدابير صارمة تفرقت منه قلوب الكثيرين . واشتدت روح التذمر بين أعوانه فدبروا ضده مؤامرة تزعمها پيرفا الذي حقد عليه فاغتاله وتولى القيادة مكانه عام ٧٢ . لكن پيرفا نفسه لم يلبث أن منى بالهزيمة على يد پومبي ووقع في الأسر وقد سلم پومبي أوراق سرتوريوس التي تدين كثيرا من رجال الحزب الارستقراطي بالاتصال بالزعيم الثائر والعطف على حركته . لكن پومبي أحرقها دون أن يقرأها وأمر بقتله . وبذلك أخمدت الثورة وعاد السلام الى ربوع أسبانيا وقد اتسم تنظيمه لشئون أسبانيا بطابع تقدمي انساني ، اذ منح بمقتضى قانون جليوس وكورنيليوس (lex Gellia-Cornelia) الصادر في عام ٧٢ ، الجنسية الرومانية لكثير من الأسبان ، وكان من بينهم بالبوس (Balbus) أحد أهالي مدينة غادييز (Gades) الذي عاون الرومان معاونة صادقة . ولم يقتل پومبي من قاموه باصرار وعناد ، بل رحلهم الى مستعمرة جديدة في شمال البرانس (Lugdunum) . ورجع الى ايطاليا عام ٧١ حيث عزا الناس اليه الفضل في انتهاء الحرب الأسبانية ، تلك الحرب التي قام فيها ميتيلوس پيوس بدور يضارع دوره بل يفوقه من وجوه كثيرة .

الحرب الثانية ضد مثراداتيس : (١)

روينا في الفصل السابق كيف نشبت الحرب في آسيا الصغرى حيث ظهر عدو خطير هدد الجانب الشرقي أو الجانب الهلينيستي من الامبراطورية الرومانية (٢) . كان هذا العدو هو مثراداتيس ملك بنطوس الملقب بالأكبر (٣) . وكان رجلا فذا طموحا يحلم ببناء امبراطورية في

(١) تسمى هذه الحرب في بعض الكتب بالحرب الثالثة ضد مثراداتيس .

(٢) راجع ما تقدم في ص ٧٢ وما بعدها

(٣) وقد يكتب اسمه وبخاصة في اللاتينية Mithridates (مثريداتيس) .

الأناضول كتلك التى بناها حول البحر الأسود ، ولا يعد متبريرا بأى حال ، اذ كانت اللغة الاغريقية هى اللغة الرسمية فى بلاده . ومن الغريب أنه استهل حياته المجيدة بالذود عن حياض المدن الاغريقية ضد أعدائها مما يحملنا على التساؤل : أو لم يكن من الجائز أن يقوم هذا العاهل بالدور الذى قامت به روما بوصفها نصيرة للعالم الهللىنى ومسيدة عليه ، بيد أنه ينبغى أن ننظر الى الأشياء بأعين الرومان اذا أردنا أن نفهم أعمال روما فى ذلك العالم . ينبغى أن تتصور مثراداتيس كما تصوروه عدوا لدودا لحرية الاغريق ومصالح الرومان

ولم يكن سلا قد قضى على مثراداتيس قضاء تاما لأن خصومه فى روما انتهزوا فرصة غيابه وأثاروا فى وجهه العراقيل مما أرغمه على أن يعجل بانتهاء الحرب وعقد الصلح المعروف « بصلح دردانوس » مع الملك الآسيوى فى سنة ٨٥ على النحو الذى شرحناه (١) . ولما كان هذا الصلح قد نص على احتفاظ مثراداتيس بمملكته فقد أصبح قيام الحرب مرة أخرى أمرا محتملا . وقد عكف مثراداتيس على تدعيم مملكته وتنظيم قواته لأنه توقع استئناف القتال ضد الرومان الذين أثاروا مخاوفه بارجائهم التصديق على شروط الصلح الذى أبرمه مع سلا . لذلك تابع نشاطه الحربى فى آسيا الصغرى حتى تخرج مركز روما بوصفها حامية لخمى الحضارة اليونانية فى تلك المنطقة ، وبدأ كأنها عاجزة عن استرداد ذلك المركز . فقد عج البحر بقراصنة كيليكيا الذين دأبوا على مهاجمة السفن الرومانية ، وبلغ من جرأتهم أنهم شرعوا يغيرون على سواحل ايطاليا ذاتها ، ويختطفون الأهالى ويبيعونهم فى سوق الرقيق العالمية بديلوس أو يطالبون بفدية كبيرة لاطلاق سراح البارزين منهم . واضطر السناتو أن يبعث بحملة تحت قيادة القنصل السابق

(١) راجع ما تقدم فى ص ٧٦ - ٧٧ .

مرقيليوس (P. Servilius Vatia) ، الملقب بالاساوري (Isauricus) (١) للقضاء على معاقلم في أقاليم آسيا الصغرى الجنوبية مثل لوكيا (Lycia) وبامفوليا (Pamphylia) وكيليكيا (Cilicia) ، مما زاد من مخاوف مثراداتيس . لكن هذه الحملة لم تحقق الغرض المنشود منها لأن قائدها استدعى قبل أن يتجز مهمته على الوجه الأكمل (٧٧ - ٧٥) . ووراء مثراداتيس وهؤلاء القراصنة كان يكمن عدو لا يقل عنهم خطورا . فقد أخذ تجرانيس الأول (Tigranes) ملك أرمينيا ، وصهر مثراداتيس ، أخذ هو الآخر يوسع رقعة أملاكه فاجتاح كبادوكيا الكبرى واتزع من البارثيين (Parthi) الركن الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، ثم زحف جنوبا واستولى في سنة ٨٣ على معظم سوريا ، قاضيا على حكم آل سليوكوس . فلو تحالف الملكان عسكريا وسياسيا ، لاستحال على روما أن تبقى مهيمنة على شرق البحر المتوسط والعالم الهليني . ولكن الحظ ابتسم لها مرة أخرى فلم يتم هذا التحالف بصورة جدية الا بعد فوات الفرصة .

وفي آخر عام ٧٥ أو أول ٧٤ مات نيقوميديس الرابع (Nicomedes) ملك بثونيا ، بعد أن أوصى بمملكته للشعب الروماني مقتديا بما فعله أنطالوس الثالث ملك برجامون في سنة ١٣٣ ، وما فعله بطلميوس أيبون ملك برقة (Cyrenaica) في سنة ٩٦ . وقبل السناتو التركية وحول بثونيا الى ولاية رومانية . واتزعج مثراداتيس لأن هذا الاجراء كان معناه تغيير الأوضاع القائمة في آسيا الصغرى واختلال ميزان القوى فيها . لذلك عقد عزمه على أن يحول دون وقوعها في يد الرومان حتى لا يسيطروا على مدخل البحر الأسود (Euxinus) ويسدوا في

(١) اي قاهر Isauria وهي منطقة بآسيا الصغرى متاخمة لجبال طوروس (Taurus) .

وجهه الدردنيل (Hellespontus) والبسفور (Bosporus) . وبأدر
الى مناصرة ابن ملك پثونيا الراحل الذى كان يطالب بعرش أبيه ،
وحشد جيشا مدربا وأسطولا كبيرا ، واتفق مع القراصنة ، وتحالف مع
سرتوريوس الذى أمده بالضباط والسفن واعترف بحقوقه فى پثونيا
وكبادوكيا . ووجدت روما نفسها مهددة بنشوب حرب خطيرة أخرى ،
ولذا أصدر السناقر قرارا باسناد حكم ولايتى كيليكيا وآسيا وقيادة
الحملة ضد مشراداتيس الى لوكللوس (L. Licinius Lucullus)
أحد ضباط سلا فى الحرب الأولى (١) ، وقنصل عام ٧٤ ، وقرارا آخر
باسناد حكم ولاية پثونيا وقيادة الأسطول لحراسة الدردنيل الى زميله
القنصل كُتَا (M. Aurelius Cotta) . وصدر فى نفس الوقت قانون
خاص باسناد قيادة استثنائية للبريتور أنطونيوس (M. Antonius)
الملقب بالكريتى (Creticus) (٢) مع تخويله سلطة حرية مطلقة
(imprerium infinitum) فى البحر المتوسط وسواحه للقضاء على القراصنة
وقد بدأ بتطهير الحوض الغربى من البحر ويبدو أنه استطاع أن يمنع
عن سرتوريوس وصول الامدادات عن طريق البحر . وبعدئذ اتجه الى
الحوض الشرقى ولكنه فشل فى مهمته فشلا ذريعا وهزم أثناء مهاجمته
معادل القراصنة فى كريت ، وقضى نفيه هناك بعد قليل (٣) .

(١) راجع ما تقدم فى ص ٧٦ .

(٢) وهو ابن البريتور الذى يحمل نفس الاسم والذى استندت اليه مهمة القضاء على
القراصنة فى كيليكيا عام ١٠٢ (انظر ص ٥٧ هامش) وجسدير بالذكر انه والد ماركوس
أنطونيوس ، عشيق كليوباترة .

(٣) ترتب على مطالب الحرب ونشاط القراصنة المتزايد (الذى أصبح يعول دون
وصول السفن المحملة بالقمح الى موانئ إيطاليا) أن شج القمح فى السوق وارتفع سعره
لذلك صدر فى عام ٧٢ قانون ترنتيوس وكاسيوس فنصلى ذلك العام (راجع ص ١٠٤ هامش
١) مستهدفا التمتعيل بتسليم (أو تشهيل مناوله) القمح الثقلى ، وتوزيع خمسة
موديات شهريا لحوالى ٤٠٠٠٠ مواطن بالسعر المحدد منذ جايوس جراكوس ، وهو ١/٣ أس
المودىوس الواحد (راجع ما تقدم فى ص ٢٢ حاشية ١) .

وفي أوائل عام ٧٤ غزا مثراداتيس ولاية بثنونيا حيث التقى بالقتل
 كذا ودحره ثم حاصره في خلقدونية (Chalcedon) . وبعدئذ غزا
 ولاية آسيا وضرب الحصار على ميناء كوزيكوس (Cyzicus) ، منفذ
 الولاية الذي يقع على بحر مرمرة (Propontis) . ولكن لوكللوس
 الذي وصل الى آسيا الصغرى قطع عليه طريق مواصلاته ، فاضطر
 مثراداتيس أن يرفع الحصار عن الميناء في الشتاء وينسحب الى بثنونيا
 متكبدا خسائر جسيمة . وفي عام ٧٣ أصيب أسطوله بهزيمة في البحر
 الايجي ، فتمكن الرومان من استرداد بثنونيا . وفي العام التالي ٧٢ غزا
 الرومان بطنوس نفسها بمعاونة أمير من اقليم جلاتيا (Galatia) يدعى
 ديوتاروس (Deiotarus) وحاصروا أميسوس (Amisus)
 (٧٣ - ٧٢) واستولوا على يوباتوريا ، وأوقعوا الهزيمة بمثراداتيس في
 موقعة كايبرا (Cabeira) . وطارد لوكللوس الملك الآسيوي وأرغمه
 على الالتجاء الى أرمينيا (٧٢) . وأتم في العام التالي (٧١) اخضاع
 بطنوس بالاستيلاء على مدنها الحصينة الواحدة تلو الأخرى ، وكذلك
 أرمينيا الصغرى ، وبعدئذ عاد لوكللوس في عام ٧٠/٧١ الى ولاية آسيا
 حيث انهك في تنظيم شئونها المالية . وكانت مدن هذه الولاية تزرع
 تحت وطأة الديون الفادحة التي اقترضتها من المرايين وجباة الضرائب
 انرومان ، وهي في الأصل أموال كان سلاقد آكرهه . على تقديمها له .
 وتدخل لوكللوس لانصاف الأهالي فبخفض قيمة الفائدة على الديون
 المستحقة الى ١٢ ٪ حتى يعينهم على الوفاء بها على أقساط سنوية
 معتدلة . وأبقى باقي المستحق (المتأخر) من الفوائد الذي يتجاوز
 القيمة الأصلية للدين ، وحرم على الدائن الجز على ما يزيد عن ربع
 الدخل السنوي للمدين . وأمر بتخصيص ٢٥ ٪ من ثروة الولاية ،
 وجباة بعض ضرائب لاستيفاء تعويضات الحرب . وقد خلصت هذه
 الاجراءات الولاية من الديون خلال أربع سنوات حتى أن كثيرا من المدن
 أنشأت له أعبادا باسمه (Luenitea) اغترافا بفضلها . لكن هذه

(١) يوباتوريا مدينة اسمها مثراداتيس السادس ، نسبة الى لقب
 يوباتور (Eupator) اي المنحدر من اصل نبيل كريم المعتمد
 وتقع قرب الساحل الجنوبي للبحر الاسود ، شماليتراليا .

الاجراءات أثارت عليه من ناحية أخرى سخط الفرسان ، وهم رجال الأعمال في روما ، فسعوا الى غزله من القيادة متذرعين بحجة أنه يطيل الحرب دون ميرر أو جدوى لاحراز مجد شخصي . كما جرضت دهباء المخيفة على التنديد بأطماع رجل ينتمى الى الطبقة الأرستقراطية . غير أن لوكللوس في الحقيقة حمى آسيا الصغرى من غزو شراداتيس ، وحماها كذلك من ابتزاز الفرسان .

ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد لأن شراداتيس كان لا يزال طليقا . لذلك طالب لوكللوس ملك أرمينيا بتسليمه ، فلما رفض مطلبه غادر بنطوس وعبر أعالي القرات ، دون إذن من السناتو ، وغزا مملكته واستولى على عاصمته الجديدة تيجرانوكرتا (Tigranocerta) في عام ٦٩ . وفي العام التالي تابع لوكللوس زحفه ليتم اخضاع البلاد ، ولكن الجنود تمردوا عليه ورفضوا التوغل في مجاهل أرمينيا الموحشة بعد أن بلغوا أقصى منطقة وعرة بلغها جيش روماني حتى ذلك الحين . وأما التمرد فيعزى الى أنه فرض على الجنود نظاما صارما وكبح جماحهم وحوى الأهالي من عبثهم . ولم يكن لوكللوس من سوء الحظ يتمتع بموهبة القائد الفذ ، تلك الموهبة التي أتاحت ليوليوس قيصر من بعده أن يقود رجاله الى أى مكان وفي أى وقت يشاء . لذلك لم يجد مناصا من الانسحاب والعودة الى ما بين النهرين (Mesopotamia) حيث عسكر في نصيبين (Nisibis) . ولم يطل فيها المقام فعاد الى بنطوس ليجد أن نائبه العسكرى ترياريوس قد تورط واشتبك و شراداتيس في معركة ولقى الهزيمة عند زيلا (ربيع عام ٦٧) ، وأن الجنود متذمرون يطالبون بالتسريح الذى حان ميعاده ، وأن الامدادات التى أرسل فيه طلبها من روما لم تصله . وبالأجمال وجد نفسه عاجزا عن أن يفعل شيئا . وترامت الى مسامعه أنباء تجريده من سلطاته تباعا ، ورفض جلايريو الذى استبدل به أن يخلى له يثونيا ، وسحبت منه قواته . ومن

مخزية القدر أن تصل آتئذ لجنة العشرة السناتورية (ومن بينها أخوه نفسه) للمساعدة في تنظيم پنطوس كولاية. لكن پنطوس كانت قد أفلتت من السيطرة الرومانية واستردها مثراداتيس ، كما استرد صهره تجرانيس (ملك الملوك) أرمينيا وشرع يهاجم كبادوكيا . وهكذا انتهت مؤامرات خصومه في روما بإغفائه أولامن حكم آسيا (١) (٦٩) ثم من كيليكيا (٢) (٦٨) ، وبعدئذ من پثونيا وپنطوس (٦٧) واسناد الأخيرتين الى غيره (جلاپريو قنصل ٦٧) فترة قصيرة ، وذلك توطئة لاسناد حكم هذه الولايات والقيادة العسكرية ضد مثراداتيس الى پومپى في آخر الأمر (٦٦) . لكن من الانصاف أن تؤكد بأن لوكللوس وإن لم يقض على مثراداتيس وتجرانيس قضاء تاما لظروف بعضها خارج عن ارادته ، الا أنه قد انهك بحملاته الموفقة قوة الملكين وبدد مواردهما العسكرية مما جعلهما يعجزان عن الصمود طويلا أمام پومپى بعد ذلك .

ثورة اسپرتاكوس والعبيد المجالدين :

وبينما كان پومپى يقاتل سرتوريوس في أسبانيا ، وكان لوكللوس يطارد مثراداتيس في پثونيا ، نشبت ثورة خطيرة بين العبيد في ايطاليا (٣) وقد بدأت الثورة بحركة تمرد قام بها فريق منهم عام ٧٣ في إحدى مدارس المجالدين (gladiatores) بمدينة كابوا (Capua) بإقليم كامبانيا حيث كان العبيد يدربون على المبارزة لتسليحة الجماهير في حلبات المصارعة (arenae) . وتزعم الحركة عبد طراقي يدعى اسپرتاكوس

(١) لا نعرف الى من اسند حكم هذه الولاية حينئذ لكن يرجح أنه يوليوس كورنيليوس دولابلا .

(٢) اسند حكم هذه الولاية الى كوينتوس ماركوس ركنس أحد قنصلى ٦٨ .

(٣) الحرب والقرصنة هما سبب تفشخ عدد العبيد في ايطاليا ، فأسرى الحروب كانوا يسترقون ويصرون عبيدا . وكان القراصنة يغيرون على السواحل ويخطفون الإحرار ثم يبيعونهم في أسواق النخاسة ومنها كان أثرياء الرومان يشترونهم باسمعار بخسة لمختلف الأغراض ، وبخاصة للعمل في ضياعهم الفسيحة (latifundia) .

«Spartacus» ، وآخر كلتي يدعى كريكسوس (Crixus) . واعتصم الثوار بمنحدرات جبل فيزوف ، وانحاز إلى جانبهم جمع غفير من العبيد الآبقين من الضياع المسيحة ، وتغلبوا على جيشين رومانيين تحت قيادة برتورين ، واكتسحوا كمپانيا ولوكانيا ومعظم أقاليم جنوب إيطاليا . ولم ينته عام ٧٣ حتى كان عدد الثائرين قد بلغ حوالي ٩٠,٠٠٠ عبد ، فوزعوا قواتهم لملاقاة القنصلين اللذين توليا القيادة ضدّهما في عام ٧٢ ومنى كريكسوس الكلتي بالهزيمة في أبوليا ، فزحف أسيرتاكوس نحو الشمال بقصد عبور الألب والالتجاء إلى طراشيا ، أو لتشتيت زملائه فيهرب كل منهم إلى موطنه الأصلي . وتبعه القنصلان ولكنه دحرهما الواحد بعد الآخر . ثم دحرهما مجتمعين . واقتحم ولاية غالة القرينة بعد أن هزم حاكمها ، غير أن أتباع أسيرتاكوس من الغال والجرمان رفضوا مغادرة إيطاليا حيث استمروا أعمال السلب والنهب ، وعادوا إلى الجنوب مخربين في طريقهم الأراضي التي مروا بها . ولما كان أسيرتاكوس لا يجرؤ على مهاجمة روما ، فقد عاد هو الآخر إلى جنوب إيطاليا . ولعله قد ساورته فكرة أخرى وهي عبور البحر إلى صقلية .

وازاء الفشل الذي منى به قنصلا عام ٧٢ لم ير السناتو بدا من أن يعين البريتور كراسوس (١) (M. Licinius Crassus) ، وهو أحد ضباط سلا القدماء ، قائدا على ست فرق ويمنحه بصفة استثنائية سلطة بروقنصلية لقمع ثورة العبيد . هكذا اقتضت الظروف وجود قنصل بديل يتولى قيادة جيش في إيطاليا نفسها ، وهو ما كان سلا يسعى لتلافيه بأي ثمن . واستطاع كراسوس أن يضيق الخناق على أسيرتاكوس بأقليم بروتيوم (Bruttium) في أقصى الجنوب الغربي حتى اضطر أن يستأجر بض سفن المرتزقة من كيليكيا لتقله إلى صقلية . ولكن المرتزقة غدروا

(١) وهو الملقب بالثري (Dives)

به بعد أن قاضوا أجرهم وأبحروا تاركينه لمصيره . وكان فارو حاكم مقدونيا قد وصل إلى برنديزي عائداً من طراقيا لمساعدة كراسوس فهاجم الثوار ودفع بهم إلى الوراء . وعندئذ وجد أسپرتاكوس أن لا مناص من أن يشق طريقه ثانية نحو الشمال ، فحاول أن يخترق صفوف جيش كراسوس ، ولكنه انهزم في ثلاثة اشتباكات بسبب انقسام قواته وسقط قتيلاً في لوكانيا ، ووقع ستة آلاف من أتباعه في الأسر وصلبوا وعلقت جثثهم في طريق أفيوس ، وفر الباقون إلى الشمال حيث اعترض سيلهم پوميي الذي اتفق أن عاد وقتئذ من أسبانيا (عام ٧١) ، ورحب بقرار تكليفه بالانضمام إلى كراسوس لسحق بقية قوات الثوار . وبعث پوميي إلى السناتو - بعد إبادته فلولهم - برسالة يفتخر فيها بإنهائه حرب العبيد !

وتبدو ثورة أسپرتاكوس كمأساة مفاجئة لأن كفة الرومان كانت أرجح بكثير من كفته . وكان بالقياس إلى معاصريه رجلاً شفوفاً مرهف الإحساس ، كما كان رجلاً قديراً بارعاً . لقد أنشأ جيشاً ودربه وسلحه من العدم ، وهزم به جيشين تحت إمرة قنصلين . وهذا عمل عظيم قريب من المعجزة . غير أنه لم يستطع أن يفرض سيطرته دائماً على جنوده ، إذ كانوا أحياناً يتحولون عنه إلى السلب والنهب والانتقام الهمجى ، وأحياناً أخرى كانت الخلافات تنور بين مختلف قوادهم . لقد عجز عن تركيز القيادة الكاملة في يده . ويرسم له المؤرخون الماركسيون صورة مثالية تبطل من أبطال الجماهير الثورية أو الثورات الاجتماعية . لكن الأقرب إلى الصواب هو أنه كان وليد أوضاع محلية ومساعدات مبشرة عفوية فهو لم يحاول الاستعانة بعييد المدن ، واستمد كل قوته من العناصر انهاربة من الذل والهائمة على وجوهها في الريف . ولم يكن أسپرتاكوس صاحب نظرية سياسية يخوض معركة لنشرها ، بل كان رجلاً شجاعاً يقاتل من أجل حرمة الشخصية التي حرمتها منها الظروف الرهيبة التي

أحاطت بزمانه ومكانه . وتسببت الثورة في خسائر فادحة وخراب شامل . لكن لعلها قد علمت بعض كبار ملاك الأراضي الرومان معاملة عبيدهم بشيء من الرأفة والرحمة . ولقد شرع بعضهم في استخدام الأجراء الأحرار (coloni) في ضياعهم بدلا من العبيد . لكن الى جانب هذا المظهر الاجتماعي - الاقتصادي للثورة ، كانت الآثار السياسية غير المباشرة بالغة الخطورة .

قنصلية پومپى وكراسوس :

عاد پومپى وكراسوس الى العاصمة وكلاهما مزهو بالانتصار الذى أحرزه أحدهما فى اسبانيا وأحرزه الآخر فى إيطاليا ، فطالبا بترشيح نفسيهما قنصلين لعام ٧٠ . وكان كراسوس مستوفيا معظم شروط الترشيح . لكن ترشيح پومپى كان يتعارض والدستور لأنه لم يكن قد بلغ السن القانونية ، ولم يتقلد منصبى الكويستورية والپريتورية اللذين يؤهلانه للقنصلية . ولذلك اعترض السناتو على ترشيحه ، واعترض أيضا على ترشيح كراسوس لارتيابه فى نواياه هو الآخر . بيد أن السناتو رضى فى النهاية على أمل أن تحول الخصومة الشخصية بين القائدين دون اتفاقهما عليه . وطالب كل من القائدين بإقامة موكب له احتفالا بانتصاره (١) ، متخذا من ذلك ذريعة للاحتفاظ بقواته على مقربة من روما . وأدرك السناتو أن ذلك المطلب ينطوى على تهديد مستر باستعمال القوة عند الضرورة لينفذ كل منهما أغراضه .

(١) طالب پومپى بموكب كبير (triumphus) وهو الذى يدخل القائد فيسبه العاصمة وهو راكب عجلة حربية وثخين هامته الكليل من الفسار . وأما كراسوس فطالب بموكب صغير (ovans) وهو موكب أقل فخامة من سابقه يدخل فيه روما وهو سائر على حنبذ أو ممتد صهوة جواده ، ويزين هامته الكليل من الرمحان .

وفي نفس الوقت سعى القائدان الى استمالة الحزب الديمقراطي الى جانبهما بعد أن وعداه برد الحقوق القديمة لانتقاء العامة ، ولم يدخرا وسعا للظفر بتأييد طبقة الفرسان بالتلويح لهم بإعادة تعيينهم كمحلفين في محاكم الجنايات . وتناسى الزعيمان ما كان بينهما من تنافس ونفور ، وعقدا صداقة سياسية (amicitia) وأيد كل منهما الآخر تأييدا تاما ، فأسفرت الانتخابات عن فوزهما بالقتضية لعام ٧٠ . فلما تقلدا المنصب أتما هدم دستور سلا . وكان قد صدر في عام ٧٥ قانون يعرف بقانون أوريليوس (lex Aurelia) نسبة الى أحد قنصلي ذلك العام ويبيح لانتقاء العامة ثانية أن يرشحوا أنفسهم للمناصب العليا ، فصدر حينئذ قانون جديد يعرف بقانون ليكنيوس وبومبي (lex Licinia-Pompeia) ^(١) ويقضى برد السلطة التريبونية (tribunicia potestas) كاملة للانتقاء في التشريع وهزأولة حقهم كاملا في القضاء ^(٢) . وصدر قانون آخر يحمل أيضا اسم أوريليوس ^(٣) (lex Aurelia iudiciaria) ويقضى بإعادة

(١) ليكنيوس نسبة الى اسم عشيرة كراسوس .

(٢) سبقت ذلك محاولات قام بها كل من كوينتيوس (L. Quinctius) ، أحد نواب العامة في ٧٤ ، وماكر (L. Licinius Macer) أحد نواب العامة في ٧٣ ، وكاتب الحوالات المعروف ، لكي يعاد السلطة التريبونية كاملة الى نواب العامة .

(٣) وهو لوكيوس أوريليوس كتا أحد البرينوربين في عام ٧٠ . وشقيق جايوس أوريليوس كتا القنصل الذي تبنى قانون عام ٧٥ المذكور أعلاه ، وكلاهما شقيق مايركوس أوريليوس كتا قنصل عام ٧٤ الذي التقينا به في الحرب الثانية ضد متراداتيس وجدير بالذكر ان نقيب العامة كوينتيوس (Oppianicus) الذي اتهم بفس السم لابن زوجته كلوينيوس (A. Cluentius) . وقد رشا التهم هيئة المحلفين واقتضج أمر الرشوة وساعت سمعة المحلفين (وهم حينئذ من طبقة السنانو) ، وادين التهم [الذي مات عام ٧٢ ثم وجه ابنه بعد ذلك في عام ٦٦ تهمة القتل لكلوينتيوس ودافع عنه شيشرون في خطبته القضائية الشهيرة باسم الدفاع عن كلوينتيوس Pro Cluentio ويرجح انه ظفر له بحكم البراءة] . واستطاع هذا النقيب بعد ذلك ان يحصل على حكم بإدانة رئيس المحكمة نفسه (iudex quaestionis) واحد المحلفين . وكان شاب آخر من أسرة شريفة وهو جايوس يوليوس فيسر الذي عاد حديثا من الشرق قد لف الانتظار اليه عندما أقام في

تكوين هيئات المحلفين في محاكم الجنايات واختيارهم بالتساوي من بين طبقات ثلاث وهي السناتو والفرسان وترابنة الخزائنة (tribuni aerarii). ويبدو أن الأخيرين كانوا - كما أسلفنا - أصحاب نصاب مالي يلي مباشرة نصاب الفرسان ، وإن كنا لم نتيقن بعد حقيقة أمرهم (١) . وأعيد

عام ٧٧ دعوى الابتزاز على دولابلا (Cn. Cornelius Dolabella) - حاكم مقدونيا - ولكنها لم تسفر عن اذنته . ثم اقام دعوى اخسرى على ماركوس أنطونيوس هوبريدا (M. Antonius Hybrida) احد اموان سلا في عام ٧٦ (وفيما بعد زميل شيشرون في الفئصلية عام ٦٣) متهما اياه بنهب بعض الافريق . ولكن القضية انتهت ببرائة التهم . وحوالي نفس الوقت (٧٥ - ٧٤) اتهم فسابل يدعى فارو (A. Terentius Varro) مرتين بابتزاز اموال في ولاية اسيا . ولكنه برىء من التهمة في المرتين بفضل دفاع الخطيب الكبير هورتنسيوس عنه - وهو نقيب المحامين في عصره - وبفضل التلاعب في بطاقات التصويت السري . وقد اضاف ذلك فضيحة اخرى الى سلسلة الفضائح التي كشفت عن انحراف بعض الحكام السناتوريين في الولايات وارتشاء المحلفين السناتوريين في العاصمة .

(١) هذه الطبقة التي يكتنفها الغموض كانت تتألف قديما من العرافين في الجيش . لكن في الوقت الذي نحن بصددده أصبحت تضم من يمتلكون ثروة تتراوح بين ٢٠٠.٠٠٠ و ٤٠٠.٠٠٠ سيستينيوس أي نصابا يلي مباشرة النصاب المشترك لعضوية طبقة الفرسان (Ordo Equester) . وإيا كان الامر فان مصالحهم كانت أكثر توافقا مع مصالح الفرسان منه مع مصالح السناتو .

وجدير بالذكر انه في عام ٧٠ ، وقبل صعود قانون أورطوريوس باعادة تشكيل محاكم الجنايات جرت محاكمة قريس (C. Verres) حاكم صقلية الذي كان يحمل دية بروتو برينور (pro praetore) . وقد اشتهرت هذه القضية لأن شيشرون (Cicero) هو الذي اقام الدعوى فيها باسم اهالي صقلية على هذا الحاكم بعد انتهاء مدة خدمته . وكان قريس قد حكم ولاية صقلية مدة ثلاث سنوات (٧٣ - ٧١) ، فابتز اموال سكانها ونهب تحف اثرياتها وسرق نفائس معابدها . وكان يتباهى علنا بأنه يخصص غنائم السنة الاولى لنفسه ، وغنائم السنة الثانية لاصطفائه ، وغنائم السنة الثالثة للمحلفين (الذين كانوا حينئذ من رجال السناتو) . وكان شيشرون حينئذ في السادسة والثلاثين من عمره ، وقتئذ تولى منصب الكويستورية في غرب صقلية عام ٧٥ ، فاحرز بنزاهته لقة الاهالي ، وبمراقباته شهرت واسعة . واما قريس فقد وكله بنفسه هورتنسيوس (Q. Hortensius Hortalus) اقدر الخطباء والباحين الرومان في ذلك الوقت . وحاول قريس عبثا تأجيل نظر القضية او حمل شيشرون على التنحي عن اقامة الدعوى باسم اهالي صقلية . وسافر شيشرون الى الجزيرة لجمع الادلة وعاد الى روما حيث انتخب محتسبا (aedilis) للعام التالي على الرغم من محاولة خصومه اسقاطه لاضعاف مركزه . ونحدد اليوم الخامس من شهر أغسطس عام ٧٠ لإجراء المحاكمة . وحاول هورتنسيوس ، الذي انتخب هو الآخر لمنزلة

منصب الرقباء (censores) الذى عطله سلا وظل شاغرا مدة طويلة (٨٥ - ٧١) ، فروجعت قائمة أعضاء السناتو وحذف منها ٦٤ اسما ، وتم تسجيل أسماء المواطنين الجدد فى جميع القبائل بصورة نهائية ،

للعام التالى ٦٩ (consul designatus) إن يستغل العطلات الرسمية الكثيرة فى تلك الفترة الأخيرة من السنة لتأجيل القضية الى ما بعد أول يناير من عام ٦٩ حتى يتولى رئاسة محكمة الإبتزاز (quaestio de repetundis) بريتور من اصداغاء فريس. لكن شيشرون فوت على خصمه الفرصة فتجنب الادلاء بمراجعة مطولة حول موضوع الإنهام واكتفى بعرض موجز للدعوى ضد فريس . وبمقتضى شهوده ، فاسقط فى يد هورتسيوس ولم يجد ما يدفع به التهمة عن موكله اودحض أدلة الادانة الدامغة . واثّر فريس حتى قبل الانتهاء من سماع الشهود أن يقادر ايطاليا الى المنفى حيث فلى بقية حياته فى مسيليا (مرسيليا) . وقد أدانته المحكمة فىايبيا ، وتلقى اسم شيشرون الذى أصبح بمثابة نقيب المحامين فى عصره . لكن ينبغي ألا يفوتنا أن أدانة فريس على يد معلفين من رجال السطانو قد تمزى أيضا الى جزعهم من الإصلاح الذى كان حينئذ قيد البحث وكان يتذر بحرماتهم من الجلوس فى محاكم الجنابات . ولقد استخدم شيشرون الأدلة التى جمعها ضد فريس فى كتابة خطبته المعروفة باسم الدعوى الثانية ضد فريس (Actio Secunda in Verrem) والتى لم تنتج له بهاءة فرصة القاها ، ولكنه نشرها على سبيل الدعاية السياسية . ومن هذه الخطبة نحاط علما بالأساليب التى اتبعها ذلك الحاكم لابتزاز الاموال من لعالى الولاية والقتاء ثروة طائلة . وكان من بينها تدبير الاتهامات الباطلة واصدار الاحكام فى العاملة او ارباب القضاء ليصدروا احكاما طائلة تؤدى الى مصادرة املاك التهمين والاستحواظ عليها ، والاحتياط على جبهة الضرائب للتهرب من دفع المكوس المستحقة على ما يصدره من نفاس خارج صقلية ، وبيع الوظائف المدنية والدينية ، والتواطؤ مع جبهة ضريبة العشور (decumani) ، والزام الزراغ بدفع ما يطلبه هؤلاء الجبهة منهم على أن يتظلموا عند وقوع حيف عليهم امام المحكمة التى يرأسها هو والسى لم تكن تنصفهم قط ، وافتراس الاموال الامرية بفوائد فاحشة ربوية، وعدم تسديد ثمن القمح المسترى من مدن صقلية باسم الحكومة الرومانية ، واقتنساء الثمن كاملا من الحكومة ، وارغام المدن على ان تدفع بدلا من القمح المخصص للانفاق على الحاكم وحاشيته مبالغ تزيد كثيرا على سعر القمح السائد فى السوق ، ومطالبة الزراغ بما يزيد احيانا عن كل محصولهم السنوى مما يدفعهم الى الفرار من اراضيهم ، واغتصاب التحف الثمينة من الافراد ونهب الآثار الفنية من المدن وسرقة التماثيل البديعة من المعابد. وكان من يقف فى وجه فريس لويندد به ، يزج به فى غياهب السجن او يسام سوء العذاب او يقتل بغير ذنب حتى ولو كان مواطنا رومانيا . وكانت جميع هذه الاجراءات التصفية انتهاكا صارخا لميثاق او دستور الولاية (lex provinciae) التى لم تكن بها سلطة اخرى توفى عنه حده . ولما السناتو الذى كان يتمتع عليه ان يكبح جماح ذلك الحاكم فلم يكثر بالشكاوى التى اتهمت على العاصمة ضده . على ان فريس - وتلك هى الحقيقة المرة - لم يكن سوى واحد من حكام كثيرين على شاكلته وان كان يزههم فسادا وجشما وجراة .

وكذلك في الوحدات المئوية بالطبقات المختلفة (classés) بالجمعية المئوية (Comitia Centuriata) فاكسبوا بذلك حق الاقتراع على القوانين وحق انتخاب الحكام (١) .

(١) كانت مسألة تسجيل الحلفاء اللاتين والإيطاليين مثار خلاف شديد بين الأحزاب الرومانية ، وما تزال موضع جدل بين المؤرخين المحدثين . فقد كان هناك فريق (وبخاصة السناتو وجانب من الدهماء) ينادى بفصل تسجيلهم في عدد محدود من القبائل ، بينما كان فريق آخر يطالب بتوزيعهم بين جميع القبائل الخمس والثلاثين . ويقول المؤرخ أبيانوس (Appianus, Bell. Civ. I, 49) أن الفريق الأول اقترح إنشاء عشر قبائل جديدة تسجل فيها أسماء المواطنين الجدد ، بينما يفصل المؤرخ فيليبوس باتركولوس (Velleius Paterculus, II, 20) أنه اشترط إدراجهم في ثمانى قبائل فقط . يرجع أنها من القبائل القديمة . وقد بذلت محاولات للتوفيق بين هاتين الروايتين ، ولكنها لم تصل إلى شيء مما دعا البعض إلى أن يقول أن كلا الروايتين قد تكون صحيحة . ذلك أن أبيانوس إنما يشير إلى القبائل الجديدة التي اصرح بكونها بمناسبة صدر قلون بولبوس في عام ٩٠ (راجع ص ٦٨ - ٦٩) ، بينما يشير فيليبوس إلى تسوية كانت قائمه في أثناء فئصلية كنسا عام ٨٧ . وقد وقع . خلال تلك السنوات الثلاث أحداث كثيرة مما جعلنا نرجح أن المشروع الذى اقترح لى عام ٩٠ عدل فيما بعد .

عندما صدر قانون بولبوس فى عام ٩٠ أبعد أنصار تقييد حق الإيطاليين مشروع تكوين عشر قبائل جديدة حتى لا يطقوا على المواطنين القدماء . ولا كان قانون بولبوس يهدف أولا إلى وقف انتشار الثورة ، فلهذا أغفل أو لم يتمسك بهذه النقطة على الرغم من استعماله على بند بتنظيم قبائل جديدة . ويحدثنا أبيانوس أن الإيطاليين رحبوا بالجنسية الرومانية ، ولكنهم نفروا فيما بعد من الفيد المنروى عليهم (انظر ص ٧٠) ، ومن المحتمل أن هذه التمر أدى إلى عدم المضى فى مشروع إنشاء القبائل الجديدة فى عام ٨٩ . وظلت المشكلة بغير حل حاسم حتى عام ٨٨ ، ولذلك استصدر سولبيكيوس روفوس احداثقبااء ذلك العام (راجع ص ٧٨) قانونا بتسجيل المواطنين الجدد (والمعقبين) فى جميع القبائل الرومانية . لكن سلا لم يلبث أن احتل روما فى نفس السنة فأعدم ذلك النقيب وألقى قوانينه ، مما أثار المشكلة من جديد . وقبل أن يرحل سلا إلى الشرق استصدر هو وزميله بومبيوس روفوس عدة قوانين خاصة بتعديل الدستور ، ومعلوماتنا عنها كلها مستقاة من أبيانوس (Bell. Civ. I, 55 ، 59) لا يذكر شيئا من قانون استصدره سلا حينئذ بشأن الإيطاليين . ومع هذا فلا يستبعد أن سلا حاول أن يحسم المشكلة على أساس قصر حق الإيطاليين فى الانتخاب على ثمانى قبائل فقط . وعلى أى حال فقد غير الحزب المناوىء للإيطاليين سياسته وتغلى من فكرة إنشاء عشر قبائل جديدة واخذ بفكرة تسجيل المواطنين الجدد فى ثمانى قبائل من القبائل القديمة .

وكانت أسرع الطرق وإسرها لتنفيذ الفكرة هى تحويل المواطنين الجدد حق التصويت فى ثمانى قبائل تختار بالقرعة فى كل مناسبة تستلحق الاقتراع على مشروع معين =

الحرب ضد القراصنة والحملة في الشرق

بقى يوميى وكراسوس في روما بعد انتهاء مدة القنصلية يتربح كلاهما فرصة لاحتراز مجد عسكري جديد بتولى القيادة في حرب خارجية هامة . وقد سنحت هذه الفرصة ليوميى عندما اشتد خطر قراصنة البحر المتوسط ولا سيما قراصنة كيليكيا . وقد رأينا كيف حاولت الحكومة الرومانية القضاء على أوكارهم في جنوب آسيا الصغرى وكريت فشلت عليهم حملة سنة ١٠٢ وأخرى في ٧٧ ، وثالثة في ٧٤ . لكن هذه الحملات لم تقض تماما على خطر القراصنة الذين نهبوا ميناء ديلوس وخربوه في عام ٦٩ . (١) ثم قتلوا مركز نشاطهم الى سواحل إيطاليا

= غير ان ذلك كان امرا مثيرا للاعراض لان الإيطاليين لم يحصلوا على مكان ثابت في أى قبيلة من القبائل ولم يكن في استطاعتهم تسجيل اسمائهم في الوحدات المتوبة التى نظمت داخل القبائل . فاذا كان سلا فجعل التشريع والانتخاب في يد الجمعية المتوبة كما يفهم من ابيانوس (Bell. Civ. I, 59) فان تسجيل الإيطاليين في لمانى قبائل كان عديم القيمة . غير اننا نستبعد ذلك ونرجح ان الانتخاب وضع في يد الجمعية المتوبة وان التشريع ظل على الأقل من الناحية النظرية في يد الجمعية القبلية ، وإن كان سلا لسد أوقف نشاطها تقريبا بتقليد نظام تقسيم العامة . ومعنى هذا أن معظم المواطنين الجدد لم يكن لهم صوت في اختيار الحكام ، ولكنهم اكتسبوا بعض النفوذ في التشريع . في الحق أن معلوماتنا عن هذا الموضوع ناقصة ولا ندرى ماذا حسنت على وجه التحقيق . ولعل سلا وضع المواطنين الجدد في القبائل الريفية القريبة من روما بوطنة لتسجيل اسمائهم في وحداتها المتوبة بعد الانتهاء من احصاء لرواتهم . وقد رأينا كيف انادركنا - بعد رحيل سلا عن روما - قوانين سوليبيكيوس في عام ٨٧ (انظر ص ٧٨ - ٧٩) ومن بينها تسجيل المواطنين الجدد في جميع القبائل ، واختير رقيبان (censores) لاحصاء المواطنين تحقيقا لهذا الغرض في عام ٨٦ ولكن عملية التعداد لم تتم إلا في عام ٨٤ . وبلغ عدد المواطنين ٦٢٠.٠٠٠ أى بزيادة حوالى ٦٩.٠٠٠ عما كان عليه في عام ١١٤ . وهذه زيادة ضئيلة تثير الشك وتدل على ان تسجيل المواطنين الجدد لم يكن كاملا بأي حال . وعلى العموم فقد انتهت المشكلة فيما يبدو بعد عودة سلا من الشرق وتصريحه باحترام الحقوق التى اكتسبها الإيطاليون . على ان تسجيل هؤلاء لم يتم بصفة نهائية الا في أثناء قنصلية يوميى وكراسوس في سنة ٧٠ عندما أجرى التعداد ، وبين ان عدد المواطنين قد بلغ ٩١٠.٠٠٠ مواطن .

(١) عن هذه الحملات ضد القراصنة ، راجع صفحات ٩٦ هامش ١ (ب) ، ١١٠ -

نفسها وأغاروا على الموانى الممتدة ما بين برنديزي وأوستيا وقطعوا الطريق على السفن التى تحمل الغلال الى روما مما دفع السلطات الرومانية الى شىء. حملة رابعة على وكرهم بجزيرة كريت فى عام ٦٨ - لكن هذه الحملة التى خرجت بقيادة ميتلوس الذى لقب بالكريتى (Q. Caecilius Metellus Creticus) وانتهت بتحويل كريت نفسها الى ولاية رومانية ، لم تستأصل شأفة القراصنة . وعندما أوشكت أعمالهم أن تؤدى الى حدوث مجاعة فى العاصمة أصبح من المحتم اتخاذ تدابير حاسمة لتطهير البحر منهم تطهيرا تاما .

كان السبيل الوحيد لمواجهة مشكلة القراصنة هو اختيار رجل مخنك ليتولى الحملة ضدهم مع تخويله سلطة القيام بالعمليات الحربية اللازمة على أوسع نطاق . وكان من الواضح أن يومى هو أليق الأشخاص ، بيد أن السناتو لم يطمئن اليه وخشى عواقب انشاء مثل هذه القيادة غير العادية ذات السلطات الواسعة . ولما كان يومى قد وقف الى جانب الحزب الديمقراطى منذ عام ٧١ فقد وجد حينئذ بين قباء العامة - مثلما وجد ماريوس من قبله - حليفا فى وسعه أن يعينه على تحقيق غرضه . ففى عام ٦٧ اقترح قهيب العامة جاينيوس (A. Gabinus) قانونا بتعيين قنصل سابق قائدا وتخويله وحده سلطة مطلقة (imperium infinitum) على سواحل البحر المتوسط ، فى مساحة من الأرض تمتد مسافة خمسين ميلا فى الداخل بحيث تكون معادلة لسلطة الحكام فى هذه المناطق (١) ، وتستمر ثلاث سنوات ، ويمنح صاحبها حق ترشيح ١٥ (أو ٣٤ ؟) نائبا عسكريا (legati) مزودين بسلطة الپروپريتور ، وحشد أسطول من ٣٠٠ (أو ٥٠٠ ؟) سفينة ،

(١) imperium aequum in omnibus provinciis cum proconsulibus usque ad quinquagesimum miliarium a mari.

وتعبئة أى عدد من الجنود والملاحين بالوسائل التى يراها ، ورصد المال اللازم للحملة من الخزانة العامة . (١) . كانت هذه القيادة اذن من طراز القيادة التى أسندت الى البريتور أنطونيوس فى عام ٧٤ (٢) . ولكنها تضمنت سلطة أوسع وموارد أضخم . وقد أيد العامة وطبقة الفرسان هذا الاقتراح ولكنه لقى معارضة شديدة من جانب الحزب الأرستقراطى ، وحاول أحد قهواء العامة احباطه بما له من حق الاعتراض ولكن جابينيوس تقدم الى الجمعية باقتراح لعزله فسحب اعتراضه وقبض المشروع فى جلسة سادها الشعب والصخب . ومع أن قانون بجابينيوس (lex Gabinia) لم ينص على شخص معين ليتولى القيادة ، فإن الرغبة التى أبدتها الجمهور فى الاجتماع الشعبى (contio) الذى سبق الاقتراع على المشروع كانت من الواضح بحيث لم يجد السناتو بدا من اخفاء رأسه للعاصفة وامناد القيادة الى يومى (٣) .

وخرج يومى على رأس هذه الحملة التى حشد لها حوالى ١٢٠.٠٠٠ مقاتل . وبدأ عمله بهمة ونشاط بعد أن وزع قواته فى انحاء البحر المتوسط تحت قيادة الضباط من فوايه توزيعاً ملائماً . واستطاع أن يظهر حوضه الغربى من القراصنة فى خلال أربعين يوماً . وبعدئذ انتقل الى حوضه الشرقى مقتنيا أثرهم . وفى غضون تسعة وأربعين يوماً أخرى هزم أسطولهم فى معركة كبيرة عند كوراكيسيوم (Coracesium) على ساحل پامفوليا وضيق عليهم الخناق فى أوكارهم بكيليكييا وأرغم معاقلم على الاستسلام . وقد أعاقته على الانتصار بسرعة سياسة اللين التى استعملها مع من استسلموا له ، اذ عفا عنهم ومنحهم حريتهم

(١) بلغ حوالى ٦.٠٠٠ نالت .

(٢) انظر ص ١١٢ .

(٣) بلغ من ثقة الجماهير به ان هبط سعر الفصح فى السوق بمجرد اسناد القيادة اليه ضد القراصنة بمقتضى هذا القانون .

وأسكنهم في مدن قليلة السكان بكيليكيا وغيرها من المناطق حيث توافرت لهم سبل العيش الشريف . وهكذا أنهى الحرب ضد القراصنة نهاية موقعة في بحر ثلاثة أشهر بفضل براعته في التنظيم ومهارته في التركيز . ولما كانت سلطته لا تنتهي الا بعد ثلاث سنوات ، فقد تآقت نفسه الى احراز نصر عسكري جديد .

وقد ساحت له الفرصة عندما توقفت الجيوش الرومانية عن الزحف في آسيا الصغرى بسبب تمرد الجنود على لوكللوس في الميدان ، وتأمر الخصوم عليه في روما (١) . عندئذ سعى پومپى الى الحصول على قيادة الجيوش الرومانية في آسيا الصغرى بدلا من لوكللوس ، وأيدته في ذلك طبقة الفرسان . وفي أوائل عام ٦٦ اقترح مانيليوس (C. Manilius) أحد قباء العامة ، قانونا (lex Manilia) بإسناد حكم ولايات پشونيا وكيليكيا وپنطوس (٢) ، وقيادة الحرب ضد مثراداتيس وتجرائيس الى پومپى . وأيد شيشرون الذى انتخب پريتورا في ذلك العام المشروع في خطبته المشهورة باسم الدفاع عن قانون مانيليوس (Pro Lege Manilia) (٣) ولعل ما حفز شيشرون على ذلك هو أنه كان رجلا لا يستند الى عصبية أسرية ومن ثم كان محتاجا الى صداقة شخصية بارزة تعينه على تحقيق أطماعه السياسية . وقد عارض السناتو توميسع سلطة پومپى العسكرية (٤) لكن الجمعية أقرت المشروع فأصبح قانونا ، تركزت بمقتضاه في يديه سلطة عسكرية لم يكن لها نظير في التاريخ الرومانى حتى ذلك الحين .

(١) راجع ما تقدم في ص ١١٤ .

(٢) اعتبرت پنطوس ولاية لان لوكللوس كان قد استولى عليها تماما في عام ٧١ . ومع

أن الملك استردها في عام ٦٧ الا ان پومپى سرعان ما طرده منها .

(٣) وتعرف أيضا باسم (De Imperio Cn. Pompei) وقد القاه

شيشرون على المواطنين الرومان (Quirites) في اجتماع شعبي عام (contio) .

(٤) ذلك لانه قل محتفظا بالقوات والعيادة التى حولت له بمقتضى قانون جابينيوس .

وقد تركت قيادة يومي في الشرق أثرا كبيرا في نفوس معاصريه . وتعتبر بشابة نقطة التحول من الدستور الجمهوري الى الدستور الامبراطوري

وكان يومي في جنوب آسيا الصغرى عندما بلغه نيا تعيينه قائدا عاما للأسطول الروماني والجيوش الرومانية في آسيا الصغرى ، فنقل مركز قيادته من كيليكيا الى أعالي نهر هالوس (Halys)^(١) والتقى بلوكلوس في شرق اقليم جلاتيا حيث تمت اجراءات اعفاء الأخير من القيادة في اجتماع سادس التوتز وتبادل السباب . فقد حز في صدر لوكلوس أن يأتي يومي ليتزع منه أمجاده ، ويلغى تنظيماته ، ويحصده ثمرة انتصاراته . والحق أنه لم يكن متجنبا في هذا الادعاء .

وقبل أن يغزو يومي بطوس ثانية عقد محالفة مع فراتيس (Phraates) ملك بارثيا (Parthia) الذي احتدم النزاع بينه وبين تجرانيس ملك أرمينيا. وقد نجح في اقناعه بمهاجمة مملكته . كان يقصد من ذلك أن يغل يد تجرانيس لكي يتفرغ هو للقضاء على مثراداتيس . وفي صيف عام ٦٦ عهد يومي الى أسطوله بحراسة سواحل آسيا الصغرى وزحف مع جيشه من جلاتيا الى بنطوس مقتفيا أثر مثراداتيس الذي تهقر أمامه والتجأ الى حرب العصابات . كانت قوات يومي تزيد على قوات مثراداتيس بحوالي ٢٠.٠٠٠ رجل ، وذلك وضع أفضل بكثير من وضع لوكلوس الذي واجه العدو بجيش يبلغ حوالي الخمس من جيشه . ودارت رحى عدة معارك انتهت بهزيمة فادحة لمثراداتيس عند بلدة داستيرا (Dasteira) على مقربة من المكان الذي اتشت فيه نقوبوليس (Nicomopolis) فيما بعد . وعندئذ فر الملك الآسيوي الى أرمينيا الكبرى طالبا النجدة من صهره تجرانيس الذي استقبله بفتور شديد . وكان تجرانيس يدافع حيثذ عن كيان مملكته التي غزاها البارثيون وضربوا الحصار على عاصمتها القديمة

(١) "النهر الملح" اطول انهار آسيا الصغرى (حوالي ٦٥٠ ميلا) ينبع من جبال غربى ارمينيا ويمير جنوبا ثم ينحرف =

أرتكساتا (Artaxata) . وأثارت تصرفات مثراداتيس شكوك صهره
فهم بالقبض عليه ولكنه لا بالفرار الى كولخيس (Colchis) الواقعة
في شرق البحر الأسود . واستجاب يوميى لدعوة ابن ملك أرمينيا الذى
انحاز الى البارثيين ، فعبر الفرات وتقدم نحو عاصمة أرمينيا . وعندئذ
خاض تجرائيس وانهار فالتقى بسلاحه مستسلما فى ذلة وخنوع . ورابط
يوميى فى الشتاء عند أسفل جبال القوقاز . وقد أثار احتلاله أطراف
أرمينيا مخاوف الألبانيين ، وهم شعب بدوى يعيش على الرعى فى
السهول الواقعة بين وادى نهر قورش (Cyrus) وجبال القوقاز والبحر
الأسود . ولذلك قاموا بهجوم مفاجئ على بعض وحدات الجيش
الرومانى . لكن يقظة يوميى وضباطه أحبطت هجومهم فردوهم على
أعقابهم وقتلوا منهم أعدادا غفيرة .

وفى ربيع العام التالى (٦٥) استأنف يوميى مطاردة مثراداتيس .
لكنه وجد نفسه مضطرا الى أن يقضى أولا على مقاومة الأيريين وهم
شعب زراعى مستقر تحكمه أسرة ايرانية ، كان يقطن فى المنطقة المعروفة
الآن باسم جورجيا . وعبر ممرات الحدود ودحر ملكهم وأرغمه على أن
يفسح له الطريق ، وتابع سيره الى الساحل الشرقى للبحر الأسود ،
حيث التقى باحدى وحدات أسطوله . وللمرة الثانية ترك يوميى لقواته
البحرية أمر ملاحقة مثراداتيس وأتفق بقية عام ٦٥ فى إخضاع الألبانيين
حول بحر قزوين (Caspium mare) . ولعل ما دعاه الى القيام بمثل
هذه الحملة فى تلك المنطقة النائية هو رغبته فى البحث عن حدود مائية
جديدة للامبراطورية أو رغبته فى الانتصار على شعوب لم يسمع الرومان
عنها من قبل . وبعدئذ عاد الى وادى نهر قورش عن طريق أرمينيا وعبر
هذا النهر وغيره من الأنهار دون أن يلقى مقاومة . واستدرج الألبانيين
الى القتال وطوقهم بفرسانه وقضى عليهم . وسار متجها صوب بحر
قزوين حتى أصبح على مسيرة ثلاثة أيام منه ، ولكنه لم يلبث أن عاد
= جنوبا ويصعد فى شنية كبيرة الى الشمال ليصب فى البحر
الأسود ، كان الحد الفاصل بين مملكة ليديا والامبراطورية =

أدراجه حتى لا يثير تدمير جنوده الذين أرهقهم السير والعطش والمرض.
واجتاز أرمينيا للمرة الأخيرة خاتما حملاته في تلك السنة بالاستيلاء على
حصون مثراداتيس في أرمينيا الصغرى .

وبعد استسلام تجرانيس طرأ تغير فجائي على العلاقات بين يومبي
والبارثيين ، اذ حاول فراتيس ملك بارثيا ، أن ينتزع من تجرانيس في
عام ٦٥ منطقة جورديوني (Gordyene) المتاخمة لحدود بلاده (في
أعلى الدجلة) . غير أن يومبي أفسد عليه المحاولة وأرسل نائبه
جايينيوس ، قبيب العامة السابق ، ليحتل المنطقة المتنازع عليها . وعندئذ
سحب فراتيس قواته وطالب يومبي بعقد محالفة جديدة . لكن القائد
الروماني ارتاب في نواياه ، وربما ساورته ، كما ساورت لوكللوس من
قبله ، فكرة غزو بلاد بابل نفسها ، ولذلك رفض مطلبه وعامله بجفاء بلغ
حد الاحتقار . وأعاد جايينيوس منطقة جورديوني الى تجرانيس ، ملك
أرمينيا . وبعدئذ اتجه الى سوريا ، واستولى على دمشق (Damascus)
حيث لحق به نائب عسكري آخر ، وهو : مسكاوروس (M. Aemilius)
(Scaurus) ، على رأس امدادات كبيرة .

وبعد أن أمضى يومبي الشتاء في أرمينيا الصغرى ، غادرها في ربيع
عام ٦٤ الى بلدة أميسوس (Amisus) في بنطوس على البحر الأسود
حيث مثل بين يديه الأمراء التابعون ، وشرع في تنظيم شئون آسيا
الصغرى ، فجعل من پثونيا وبنطوس ولاية رومانية واحدة باسم «ولاية
پثونيا وبنطوس»

وبعدئذ زحف يومبي جنوبا الى سوريا حيث كانت الفوضى قد
سادت ثابئة منذ أن طرد نيركللوس تجرانيس منها ، فاجتاحت العصابات
المسلحة أرجاءها وعكرت سنى الأمن فيها . وأما في فلسطين فقد
نزع في أسرة المكابيين (Maccabaei) اليهودية بين رهر
= الفارسية (في القرن السادس ق م) يسمى الآن في
Kyzyr - irnak اي النهر الاحمر .

(Hyrchanus) وأرسطوبولوس (Aristobulus) ، ابني الاسكندر يانايوس ، وهو نزاع حاول أن يستفيد منه الحارث الثالث (Aretas) ملك النبط (Nabataei) العربي الطموح الذي نصر هركانوس على أخيه وحاصر الأخير في أورشليم (Hierosolyma) في عام ٦٥ . غير أن جابينيوس وسكاوروس استطاعا أن يحسما النزاع مؤقتا بين الأخوين اليهوديين اللذين استعان كل منهما بالرشوة لتعزيز قضيته . وحكم جابينيوس لصالح أرسطوبولوس ، الأخ الأصغر ، واضطر الحارث أن يرفع الحصار عن أورشليم عندما بلغه نبأ زحف سكاوروس من دمشق جنوبا لملاقاته .

وقضى يومى بقية عام ٦٤ وجانبا من عام ٦٣ في إعادة النظام الى ربوع سوريا ، فأرسل بعض كتائب من جيشه الى جميع الأرجاء لاستئصال شأفة قطاع الطرق ، وتدمير حصون القراصنة على الساحل ، واخضاع الأمراء المتمردين . ولما أقبل الربيع انتقل من أنطاكية (Antiochia) (١) الى دمشق حيث استقبل كلا من هركانوس وأرسطوبولوس . وقد تبين له أن الأكبر ، وهو هركانوس ، أحق من أخيه بعرش أرض يهوذا أو يهودية (Iudaea) . وقد راعى يومى ، عند اختياره مصلحة روما قبل أى شىء آخر لأن أرسطوبولوس كان يبدو كأسلافه المكابيين رجلا طموحا مشاغبا ، على حين أن هركانوس لم تساوره أطماع سياسية سوى الظفر بالتاج الملكى . وعلى أى حال فانه لم يفصح عما استقر عليه عزمه ولم يتخذ أى اجراء ضد الأخ الأصغر . وانهماك في الاستعداد للحملة التى اعتزم القيام بها على البتراء (Petra) ، عاصمة النبط (في جنوب غزف الأردن حتى خليج

(١) وقد تكتب ايها Antiochea او Antiocheia .

العقبة (١) . ولعل ما حفزه إلى القيام بالحملة هو أن البتراء كانت مركزا هاما من مراكز تجارة العطور والتوابل . غير أنه كان يستهدف منها احرار شهرة عسكرية بعد تفوذ روما حتى البحر الأحمر . ولم يكد يقطع شوطا بعيدا في قلب الصحراء في طريقه الى البتراء حتى تحققت مخاوفه . فقد ظهر أرسطوبولوس على حقيقته بعد ان تظاهر بالاستسلام وعاد الى اورشليم حيث أخذ يتأهب للقتال . فلما وصل يومى الى أريحا (Jericho) (٢) استدعى أرسطوبولوس وأرغمه على أن يتعهد بقبول مرابطة حامية رومانية في اورشليم ودفع غرامة حرية . لكن الأمير اليهودى لم يتمكن من الوفاء بتعهداته لأن قواده منعوا جابينيوس من دخول المدينة . وعندئذ تحول يومى الى اورشليم واستولى على البلدة السفلى ومنطقة القصور الملكية دون عناء كبير ، ولكنه اضطر أن يضرب الحصار على منطقة المعبد الكبير ، وهى هضبة منيعة زاد من مناعتها استماتة اليهود في الذود عنها ، ولذلك لم تسقط في يده الا بعد ثلاثة أشهر . ودخل قدس الاقداس ولكنه لم يمس ما فيه من كنوز . واذا كان الاستيلاء على اورشليم قرب نهاية عام ٦٣ هو آخر اقتصار أحرزه يومى في منطقة الشرق الأوسط فقد كان هذا الحدث من ناحية أخرى هو فاتحة الصراع الطويل المرير بين روما ويهود فلسطين (٣) . وعاد يومى الى پنطوس حيث قضى العام التالى (٦٢) في تنظيم شئون آسيا الصغرى .

وينما كان يومى يفكر وهو على مقربة من اورشليم في حملة

(١) النبط أو الانباط - وعاصمتهم « سلع » التى سماها اليونان Petra إلى بطرة - البتراء (أى الصخرة) أو المرت الصغرى .
(٢) بلدة قديمة بفلسطين في نجان البحر الميت على الضفة الغربية لنهر الاردن .
(٣) تولى يومى القيادة هناك لاسكائوروس الذى كان كويستورا سابقا ملوفا بسلطة البريتور البديل . وكانت تحت امرته فرقتان رومانيتان :

البراء (١) ، جاء رسول روماني حاملا حربة معصوبة بالغار وأعلن له نبأ موت مثراداتيس . وكان القائد الروماني — كما أسلفنا — قد ترك لأسطوله أمر تطويق ذلك العدو العنيد الذي حشد أسطولا جديداً وجيشا كبيرا وعبأ قوات مساعدة من بين الشعوب البلقانية وشرع في القيام بحملة عبر الدانوب والألب لغزو إيطاليا نفسها متشبهاً بهنريال . ولم يذخر مثراداتيس وسعاً لاجتياح هذه المحاولة ، غير أن مطالبه الكبيرة أرهقت رعاياه وكلفتهم ما هو فوق طاقتهم فضايقوا به ذرعا وتزعزع ولاؤهم نحوه وتآلبوا عليه حتى أنهم قاموا في عام ٦٣ بشورة ضده تحت زعامة ابنه فرناكيس (Pharnaces) وامتد لهيها الى منطقة القرم (Crimea) . وقمع الملك الفتنة بقسوة متناهية ، وعفا عن ابنه . غير أن فرناكيس كان يحقد على أبيه ولا يطمئن اليه . فدير ضده مؤامرة أخرى وتولى قيادة القوات المتمردة واقتحم مدينة پنتيكپايوم (Panticapaeum) عاصمة ممتلكات بنطوس الجديدة على الساحل الشمالى للبحر الأسود وحاصر القلعة التى اعتصم فيها أبوه . وحاول مثراداتيس أن يفتح باب المفاوضات مع الثوار . لكن ابنه العاق رفض مطلبه وسمم بعضاً عن توسلاته . عندئذ لم يجد مثراداتيس مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار .

ولم يحدث أن واجهت الجمهورية الرومانية في الشرق خصماً أقوى عزيمته أو أشد مراساً من مثراداتيس . وتذكرنا قوته البدنية الهائلة ، وجيوشه الدافقة وعزيمته الصلبة وقواه الذهنية التى لم يتأهبها شيء

(١) لم يتخذ يومئذ مشروع الحملة على البراء ، وأرسل اليها نائبه الكويستور فيبليوس سكاوروس الذى انسحب منها عندما رشاه الحارث ملك النبط . ولدينا عملة رومانية سكها سكاوروس فيما بعد تمثل الملك في صورة التوسل اليه وقد جثا على ركبتيه بجوار جعل !!

من الوهن عند بلوغه قرابة السبعين من عمره بمعاونة عصر الاسكندر الأكبر . وقد استطاع بمقدرته الادارية الفائقة أن يجعل من مملكته الشرقية دولة جديرة بأن تخلف الممالك الهلينستية المتداعية (١) . وشجع التجارة وانشاء المدن في بنطوس ، وبنى بفضل الموارد المستدة منها جيشا دربه وفقا لأساليب الحرب اليونانية ، ثم أعاد تدريبه وفقا . لتنظم العسكرية الرومانية (٢) . كان واسع الأطماع يحلم ببناء امبراطورية أفاضولية الى جانب مملكته في بنطوس (٣) . وعندما شرع في الفتح والتوسع استعان بكافة الحيل الدبلوماسية (٤) . وكسب

(١) كانت مملكته التي تقع في قلب آسيا الصغرى جنوبى البحر الاسود فنية بالموارد الطبيعية وبخاصة المادن . وفقد ظلت في جوهرها فطرا ريفيا مليئا بالقرى ، وتنتشر في أرجائها القصور الملكية ، ويطلب عليها طابع النظام الإقطاعي .

(٢) تراوح عدد جيشه بين ١٠٠.٠٠٠ ، ١٥٠.٠٠٠ جندي ، وبلغت قوة أسطوله ٤٠٠ سفينة . واستعان ببعض ضباط سرتوريوس في تدريبه .

(٣) دفعته طمعه الواسعة الى المبادرة الى تجسدة المدن الاغريقية التي تقع على البسفور وفي شبه جزيرة القرم (جنوب روسيا) والتي استفادت بهلمد عدوان فياتل الاسكوثيين والسارماتيين . وتقمص متراديس دور نصيب الاغريق ضد البرابرة وارسل نجذات الى هذه المدن الاغريقية . وكانت النتيجة انه أصبح مسيطرا على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، واتخذ من مدينة بنتيكيا يوم عاصمة لهذه المملكة البنطية الجديدة . هذا الفوز الذى اقرن بزحفه شرقا من مملكته الاصلية نحو كولخيس والقوقاز ، امد به موارد هائلة من الفصح والمال والرجال مكنته من بناء جيش ضخم واسطول والاتفاق عليهما . هكذا فدا في غضون سنوات قليلة واحدا من القوى الحكام في آسيا . بيد ان طمعه لم تقف عند هذا الحد . كان متراديس يطمح في امبراطورية افاضولية بجانب مملكته في بنطوس . ومع أن التوسع كان حريا بان يجعله يصطدم بجيرانه من الحكام اصدقاء الرومان ، الا ان هذا الخاطر لم يثبط عن عزمه ، ولا سيما ان روما كانت منهمكة في الحرب ضد يوجورتا ، ومهددة بخطر الجرمان من الشمال ، واخيرا بالحرب الإيطالية . وتجسدت احلامه فاصطنع دور حامي حمى افريق آسيا وحامى لواء الجهاد ضد الرومان المفتشين والنادى بطردهم كحتمين اجانب من شبه الجزيرة . وذهب الى ابعد من ذلك فارسل جيشه واسطوله لشد أزد افريق في أوروبا . بل لعله فكر في فزوايطاليا نفسها مثلما فعل هنيبال . وسواء اكانت كل هذه الامال قد راودته أم لم تراوده فانه لم يحجم عن الاحتكاك بروما ، وان كان قد سار في ميده الامر بخطى وثيرة ، ولم يدور به خطر ينم عن فطنة ودهاء .

(٤) دعم موارده الاقتصادية ، واسترد سيطرته على القرم ، وتآمر مع الطرايين ، وتفاوض مع سرتوريوس ، وسع القراصنة ، وانشأ علاقات ودية مع مصر البطلمية وسعى

عطف السكان الاغريق بتشجيع الفن ورعاية الأدب الهليني (١) . وأما سُجاعته ومراوغته وقدرته على استعادة قوته بعد المنحن والنهوض من الكبوات فهي صفات لم يتصف بها أحد سواه بين خصوم روما في الشرق . وقد أظهر في فضاله الأخير اليأس مع يومئى روح العناد والاصرار فكان مثله كالوحش الجريح يسقط ويقوم ليعاود الهجوم .

غير أن الانتصار على روما كان يتطلب منه أن يكون قائدا عبقريا أو مجاهدا دينيا . ولم يكن مثراداتيس أهلا لأز. يتزعم جهادا دينيا لاقتحاره الى الشخصية القوية الجذابة . ومع أنه عرف كيف يشتري الأتباع بالمال ، فإنه لم يستطع أن يكسب الأصدقاء . ولم يكن أبا أو زوجا مثاليا . وكان الاغتيال وسيلته في التخلص من خصومه السياسيين . وفضلا على ذلك فإن مثراداتيس لم يكن تقى السلالة ، وكان مختلط الثقافة ، فلم يكن شرقيا صميما أو غربيا صميما . ومع تقديره الصادق للثقافة اليونانية والفن اليوناني ، إلا أنه ظل محتفظا في أعماقه ببعض خصال الحاكم الطاغى . ولم يربطه بالاغريق الذين حالفوه سوى رباط واه هو الاتفاق على كراهية الرومان . واعتبرته طبقة النبلاء الايرانيين في مملكته حاكما مستبدا . ومن الجائز أنه كان يصلح لأن يكون وزيرا قديرا للحريية ، لأن يكون قائدا عظيما . وإذا كان خيرا بحرب العصابات فقد كسب المناوشات ولكنه خسر المعارك . وكان أقصى ما استطاعه مثراداتيس في صراعه مع الجيش الروماني

٢٠ قبرص ، وحالف صهره تجرانيس ملك ارمينيا الذى اقتطع اجزاء من كبادوكيا وسوريا . وتوود مثراداتيس الى المدن الافريقية في آسيا الصغرى .

(١) كان الطابع العام لسكان بنطوس شرقيا ، ولو أن البيت المال الذى كان ينحدر من نسل النبلاء الايرانيين قد اكتسب صبغة هيلينية واضحة ، بل أن اللغة اليونانية كانت هي اللغة الرسمية . ولقد كانت هناك بضع مدن افريقية على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، غير أن تأثيرها الثقافى لم يتوغل بعيدا فى الداخل ، وفي الواقع أنه لم يحدث امتزاج حقيقى بين العناصر اليونانية والعناصر الايرانية في حضارة بنطوس .

«المخترف» الذي تولى قيادته ثلاثة من أندر قواد الجمهورية ، هو أنه
أطال أمد الصراع وآخر الهزيمة التي لم يكن هناك مفر منها (١) .

عاد پومپى - كما أسلفنا - الى آسيا الصغرى حيث أتم في عام
٦٢ تنظيم شئون شرق آسيا الصغرى وشمالها بمقتضى قانون مانيليوس
وبدون معاونة من لجنة العشرة التي اعتاد السناتو ارسالها في مثل
تلك الأحوال . وعمل پومپى على حماية النفوذ الرومانى وتوطيد الأمن
في البر والبحر . كانت خطته تهدف الى تطويق ساحل آسيا الصغرى
بحلقة متصلة من الولايات الرومانية تمتد من بنطوس في الشمال الى

(١) من بين مصادرنا عن مثراداتيس وحروبه ضد الرومان « تراجم العظماء »
لبلوتارخوس وبخاصة سرتا « لوكلوس » و« پومپى » وكذلك المؤرخ اليونانى ايبانيوس
(Appianus) الذى ولد بالاسكندرية وعاش في النصف الاول من القرن الثانى الميلادى
(حوالى ٩٥ م - ١٦٥ م) . استغل بالعمالة ، وشهد ثورة اليهود الكبرى التي
نسبت في مصر في عهد نرجان (١١٦ م) . وقد رحل الى روما حيث تقلد منصباً في
ديوان الخزانة اللحقه بالامبراطور (advocatus fisci) . ولا بد من انماكتسب
الجنسية الرومانية ، واقتنى ثروة مؤهله ليكون عضواً في طبقة (Ordo Equester)
لانه قلد في مصر في زمن الامبراطور انطونيوس پيوس منصب procurator (اى مدير
ادارة مالية وبخاصة المالية) ، وهو منصب من مناصب سلك الفرسان في عصر الامبراطورية
وقد شغل بالتاريخ فاضطلع بكتابة تاريخ رومانيا في ذلك منهاجاً جديداً قائماً على أساس
جغرافى . ويقع « التاريخ الرومانى » الذى كتبه في ٢٤ كتاباً لم يصلنا منها سوى ٩ تتحدث
عن الحروب التى خاضتها روما في الخارج ضد الشعوب المختلفة والمنازعات الإهلية في
الداخل ، كالحرب الاسبانية ، والحرب الهنوبالية ، والحرب اليونانية الثالثة ، والحرب
السورية والاليرية ، والحرب ضد مثراداتيس (Mithridatica) ، والمنازعات والحروب
الإهلية في إيطاليا منذ عام ١٢٣ ق.م. حتى عام ٢٥ ق.م. ولما كان ايبانيوس لم يعاصر هذه
الاحداث فقد اعتمد بداهة على غسره من المؤرخين من أمثال پولوبىوس وسلستىوس
ولبقىوس ، وغيرهم من كتاب الحوليات في عصر أغسطس او تيبريوس . وايبانيوس مؤرخ
سطحي يفتقر الى الدقة في التفاصيل ولا يعمق او يتفلسف وتعمزه ملكة النقد التاريخى فهو
راوية أكثر منه مؤرخ بالمعنى الصحيح ، وتطلب على كتاباته العيبه العسكرية . وأقيم مؤلفاته
هو الكتاب الاول من الحروب الإهلية وهو يتناول الاحداث التى وقعت بين تريبونيه
نيبريوس جراكوس في ١٢٣ حتى ثورة العبيد المجالدين في ٧٢ ، ولذلك فهو مصدر لاغته
عنه لدراسة تاريخ القرن الاخير من عصر الجمهورية ، لانه يملأ الفراغ الواقع بين
بولوبىوس وشيشرون ، (١٤٤ - ٤٢) . وعن هذا المؤرخ وغيره من الكتاب ، راجع كتابنا
« مصادر التاريخ الرومانى » (بيروت ١٩٧٠) ص ٦٢ - ٦٥ .

سوزيا في الجنوب (بغض النظر عن شرط ساحلى ضيق تشغله لوكيا)
فوسع رقعة ولايتين قديمتين وهما يثونيا (التى ضمت اليها ينطوس)
وكيليكيا وبينهما كانت تقع آسيا أقدم هذه الولايات . وأنشأ ولايتين
جديدتين وهما سوريا التى أدمجت فى الامبراطورية لاعتبارات عسكرية
خاصة بالدفاع عن الحدود وحماية سكانها من اغارات المغيرين (وهو
ما أخفق آل سليوكوس الأواخر فى القيام به) ، ثم كريت التى
استخدمت كنقطة حراسة أمامية (هى وقبرص التى أدمجت بعد ذلك
كولاية سنة ٥٨) .

وأما الحدود الشرقية لهذه الولايات (وهى مناطق لم تحتم
الاعتبارات العسكرية ادماجها فى الامبراطورية) فقد قام على حراستها
عدد كبير من الملوك أو الأمراء التابع أى الحكام المحليين الذين اتجهج
يوميى معهم السياسة الرومانية التقليدية فترك فى أيديهم بوصفهم
أصدقاء أو حلفاء لروما السيطرة فى ممالكهم أو اماراتهم (أو فى يد
المجالس فى حالة المدن الحرة) بشرط ان تهيمن روما على كل ما يتصل
بسياساتهم الخارجية وان تكفل لهم فى مقابل ذلك السلم وقدرا كبيرا
من الاستقلال الداخلى . وكانت أهم هذه الممالك والامارات التابعة
هى جلاتيا تحت حكم الأمير ديوطاروس (الذى خلع عليه لقب الملك
وأعطى النصف الشرقى من منطقة ينطوس (شرق نهر هالوس) وربما
أبضا « أرمينيا الصغرى » (فى الركن الجنوبي الشرقى من البحر
الأسود) . ويلاحظ أن يوميى لم يقتد بسياسة آل سليوكوس الأوائل
فى نقل ادارة أراضي معايد آسيا الصغرى من يد الهيئات الدينية الى
السلطات المدنية ، فعين أرخيلالوس (١) كاهنا أعلى لمعبد الربة « ما »

(١) وهو ابن أرخيلالوس القائد الذى أرسله مثراداتيس الى بلاد الافريق فى مستهل
الحرب الاولى (راجع ص ٧٤) ، وكان قد هادن الرومان فمنعوه لقب صديق رومة
وحليفها .

(وهي بللونا Bellona ربة الحرب عند الرومان) ومتصرفا في أراضي كوماننا (Comana) (١) حيث يرجد المعبود (في شرق بنطوس) .
وأما شرق جلاتيا فقد نصب عليه أمير آخر وهو بروجيتاروس ،
وأمنند حكم باقلاجونيا (بين بنطوس وپثونيا) الى أقالوس
ويولايمنيس . واعترف پومپي بأريوبرزانيس ملكا على كبادوكيا ،
وبأفطيوخوس ملكا على كوماجيني Commagene (الى الجنوب
الشرقي من كبادوكيا) ، مانحا كلا منهما بعض أراض جديدة في بلاد
ما بين النهرين ، وبالأمر تاركونديموتوس حاكما على جزء من كيليكيا
الشرقية . ونصب فرناكيس الذي خان أباه ملكا على فتوحات مثراداتيس
في شمال البحر الأسود ، والتي عرفت بمملكة البسفور . وترك إقليم
كولخيس (في شرق البحر الأسود) لأمير يدعى أرسطارخوس ، وأقر
حقوق كل من ملك أيريا (جورجيا الحديثة) وملك الألبانيين (الى
الغرب من بحر قزوين) اللذين اعترفا بالسيادة الرومانية الاسمية .

وأما الأراضي الواقعة في شمال أرض الجزيرة بين الفرات وشرقي
الدجلة والتي كانت مشار تراع بين ملوك المنطقة ، فقد قسمها پومپي
بينهم متجاهلا المعاهدة التي عقدها مع ملك پارثيا . ولم ينتزع فراتيس
سوى أديابيني Adiabênê (حول نينوى) ، بينما احتفظ تجراتيس
بجوردويني Gordyênê (حول نصيبين) ، وأما أسرهيني Osrhoêne
(حول الرها) (١) ، فأعطيت لأمير عربي يدعى أبجر الثاني (Abgarus)

(١) داخل تبة الفرات العليا بين نهري الفرات وخابور ، ويحدها شمالا جبل عاسيوس .
والاسم الأصلي كما ورد في السريانية هو Orhai (أثرها وحاليا أره) . ولهذا
الكان لاسي سايوكوس الاول نيكاتور ، أحد خلفاء الاسكندر الأكبر ، سببتمرة في أوائل
القرن الثالث ق.م . وسماها باسم إديسا Edessa (وهي Aëgae) إحدى مدن
مقدونيا ، موطنه الأصلي . وعندما استقلت منطقة أسرهيني حوالي عام ١٢٢ ق.م. أصبحت
إديسا هي العاصمة ، وفامت بدور هام في الحروب التي نشبت بين روما وپارثيا . كان
أهلها أراميين مع خليط من البارثين والافريق وقد سقطت أسرهيني في يد الرومان وحولوها

إلى هدياب - منطقة نهري الزاب (الكبير والصغير) شمالي العراق
في الأصل أرض الكرد (=الأكراد) Kardouchoi في شرق منابع
نهر دجلة على تخوم أرمينيا ثم انضمت .

وعلى حدود سوريا التي تحولت الى ولاية رومانية أرجع يوميى بعض الأمراء الى سابق مراكزهم ، مثل سامپسيجراموس أمير حمص (Emesa) ، وبظلميوس أمير خالكيس (تسرين الذى جعله حاكما وكلهنا أعلى فى ايتوريا Ituraea (حول هليوبوليس وهى بعلبك) حيث كان يقطن قوم من أصل عربى ، وأعاد دمشق الى التبطل . كما اعترف بهركانوس كاهنا أعلى وحاكما (ethnarchês) على شعب يهودية (Iudaea) (١) ، دون أن يخلع عليه لقب الملك . واتزع من يهودية كل المنطقة الساحلية الممتدة من غزة حتى جبل الكرمل واقليم السامرة (Samaria) بشمال فلسطين وبضعة عشر مدن (Decapolis) تمتد بمحاذاة نهر الأردن حتى البحر الميت . وبذلك خسر الحشمونيون (١) كل ما كسبوه من أراض ما عدا ادوم (Idumaea) بجنوب فلسطين والجليل (Galilaea) بالشمال وپيريا (Peraea) بشرق الأردن .

وعلى كل هذه الممالك والامارات التابعة كان يطل من الورا شبح الامبراطورية البارثية . لقد وجدت روما نفسها مضطرة الى مد حدودها الاستراتيجية الى نهر الفرات والصحراء السورية ، وان لم يستتبع ذلك توسيع نطاق حكمها المباشر . وطالما كانت أرمينيا الكبرى صديقة لروما وعدوة لپارثيا ، وكانت كوماجينى تحرس معابر أعالي الفرات من أجل روما ، فقد حق ليوميى أن يشعر بل أن يفخر بأن

الى ولاية حوالى عام ١٩٥ م ثم حولوا إديسا الى مستعمرة حوالى عام ٢١٤ م . وانتشرت فيها المسيحية بوقت مبكر . وأصبحت الرها مركزا لاسقفية من أهم أسقفيات الشرق الأوسط . وتعرضت المدينة للحصار أكثر من مرة وولعت الى يد الساسانيين ثم استردها الامبراطور هرقل فى اوائل القرن السابع الميلادى ، وأخيرا استولى عليها العرب فى عام ٦٣٩ م .
(١) يهودية او ارض يهوذا هى المنطقة الجنوبية من فلسطين التى تسمى لادشليم القيس الحالية) والممتدة من شمال البحر الميت حتى البحر المتوسط .

(١) نسبة الى حشمون (Hasmion) اسم الاسرة اليهودية التى يبدأ تاريخ

القسم الشرقى من الامبراطورية قد أصبح محميا بدرع متين من الولايات الرومانية تساندها من الخلف امارات ودويلات حاجزة .

تنظيمات يومية وأثرها في الشرق :

ونظم يومية الشئون الادارية في الولايات الجديدة التى وسع رقعتها بمقتضى دساتير خاصة وضعت لها . وقد ظلت هذه الدساتير التى تحمل اسمه سارية في پثونيا حتى أيام الكاتب بلينيوس (Plinius) الأصغر في أوائل القرن الثانى الميلادى . وكان من الضرورى أن تجعل روما كل هذه المنطقة تولى وجهها شطر الغرب بعيدا عن پارثيا الشرقية . وساعد يومية على تحقيق ذلك بتسمية مركز اشعاع الثقافة الهلنستية التى وحدت كل هذه المنطقة ، ونعنى بذلك دولة المدينة (polis) . كانت إذن أبرز سمات تميزت بها تنظيماته الادارية هى التسدين أى تشجيعه الحياة المدنية في الشرق الأوسط ، اذ أسس كالاسكندر الأكبر وملوك العصر الهلنستى أو أحيا من جديد حوالى تسع وثلاثين مدينة في آسيا الصغرى وسوريا ، وحوالى احدى عشرة مدينة في پثونيا وبنطوس . ولعل الملائمة الادارية كانت أحد بواعثه الرئيسية ، وبخاصة في پثونيا وبنطوس حيث بلغت البيروقراطيات المركزية من التعقيد مبلغا يتعذر ادارتها معه بالأساليب الرومانية القائمة ، ومن ثم فقد تحتم القاء عبء الادارة على الحكومات المحلية . وعلى ذلك فقد أنشئت هذه الحكومات . غير أن هذا لا يعنى أن يومية كان غافلا عن الفوائد

حكما منذ حوالى عام ١٤١ عندما نصب سيمون Simon (وهو سمعان في العربية وشمعون في العبرية) ابن متاتيا كاهنا اعلى وحاكما على يهودية . وشمعون هو شقيق يوناثان (Jonathan) ويهوذا (Judas) الشهير بالكلمى Maccabaeus (١٦٦ - ١٦١) .

الكبيرة التي قد تنجم عن مثل هذا النظام حتى مع افتراض ان هدفه الأساسي لم ينصب على نشر الثقافة أو المدنية . لقد كان هناك باعث آخر ، الا وهو الفائدة الاقتصادية المترتبة على جباية الضرائب من أغلب هذه المدن على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتي . وكانت طريقتها في انشاء المراكز المدنية الجديدة هي تجبيع السكان من القرى المجاورة . وقد اكتفى في بعض الأحيان باعادة تنظيم المدن القديمة التي كانت قد أقرت من السكان بسبب اغارات القراصنة أو الحروب الطويلة أو ترحيل سكانها الى أماكن أخرى .

واتبع يومي في المدن التي أسسها والتي أعاد تنظيمها المبدأ الروماني . القائل بضرورة توافر نصاب عقارى أو دخل معين فيمن يريدون تقلد المناصب السياسية في بلادهم . لكنه منحها فيما عدا ذلك قسطا كاملا من الحكم الذاتي ، واحترم استقلال المدن القديمة كأنطاكية (Antiocheia) وسلوقية (Seleuccia) على نهر العاصي (Orontes) ، وأيد حقوق الحكم الذاتي التي منحها لوكللوس لمدينتي سينوبى (Sinope) وأميسوس في بنطوس على الساحل الجنوبي للبحر الأسود . كما منح هذه الحقوق لمدن أخرى واقعة خارج نطاق الحكم الروماني المباشر . لكن اذا كانت معظم مدن آسيا الصغرى قد أصبحت مدنا حرة (liberae) فان قليلا منها هي التي تبعت بالاعفاء التام من الجزية (immunes) . لقد فرض يومي على معظمها أن تدفع من الضريبة ما يعادل عشر محصول الأرض (decuma) وهي نفس القيمة التي كانت تدفعها في عهد حكامها السابقين . وطالب كل الملوك والأمراء وكبار الكهنة في البلاد التابعة التي تقع على الجانب الغربى من الفرات أن يدفعوا جزية سنوية معينة (stipendium) . وترك أمر جباية الضرائب في الولايات — كما جرت العادة في عصر الجمهورية — في يد ملتزمى جباية الضرائب (publicani) . لكنه ترك تحصيل الرسوم من الأفراد في الأراضى التابعة للمدن المستقلة

في يد السلطات البلدية التي كانت تفقد لجبايتها صفقات اجمالية مع
الملتزمين الرومان .

وتعتبر قيادة يوميى في الشرق نقطة التحول من الدستور الجمهورى
الى الدستور الامبراطورى ، كما تعتبر حملته هناك بداية تطور جديد
في تاريخ روما والشرق الاوسط . فقد ترتبت عليها زيادة في الثروة لم
تنجم عن أى حرب أجنبية خاضتها الجمهورية الرومانية من قبل . فبعد
أن وزع على جنوده ما يعادل بضعة ملايين من الجنيهات ، تبقى ما يزيد
على حوالى ٤٨٠ مليون سسترتيوس أودعها في الخزنة العامة . وتضاعف
تفريبا الدخل السنوى من الجزية فارتفع من ٢٠٠ مليون الى ١٠
سسترتيوس . وفي مقابل الضرائب التي فرضها يوميى على بلد
الشرق الاوسط ، تمتعت شعوب هذه المنطقة بسلام وأمن لم تتمتع به
منذ سقوط الامبراطورية الفارسية ، وتطهرت البحار من القرصنة
وتخلصت سوريا من الفوضى ، وظلت آسيا الصغرى بمنأى عن الحروب
مدة طويلة فيما عدا الاضطرابات القليلة التي كانت تثيرها أطماع الملك
ديوطاروس من حين لآخر . ولئن كان يوميى بمسلكه ازاء فرائيس قد
غرس بذور النزاع الذى نشب بين بارثيا وروما فيما بعد ، فان سوريا
ومعابر الفرات كانت كفيلة وهى في يد الرومان أو في يد حلفائهم أن
تدرا خطر البارثيين وتمهد الطريق لغزو أراضيهم نفسها . فالى يوميى
اذن يرجع الفضل في استقرار نظام الدفاع عن الحدود في الشرق ، ذلك
النظام الذى ظل قائما حتى نهاية التاريخ الرومانى . وقد يكون من
العسير علينا أن نفهم كنه هذا النظام . لكن اذا تتبعنا على الخريطة نهر
الفرات من منابعه في أرمينيا الغربية الى الصحراء العربية ، وأدركنا أن
كل لأراضى الواقعة داخل هذا الخط كانت في يد لرومان أو تحت
سيطرتهم ، ففى وسعنا أن نبني فكرة عن أهميته في التاريخ . وقد رأينا
كيف أنشأ الرومان ثلاث ولايات جديدة وهى « بنطوس - پشونيا »

في شمال آسيا الصغرى ، و « كيليكيا » على ساحلها الجنوبي الشرقي ، و « سوريا » التي شملت المنطقة الساحلية الممتدة من كيليكيا شمالا حتى حدود مصر جنوبا . وكانت توجد بين هذه الولايات ونهر الفرات مملكتان هما كبادوكيا وجلاتيا ، وممالك أخرى أصغر منهما ، وتؤلف جميعها « منطقة نفوذ رومانية » حيث لم تكن روما قد استطاعت بعد أن تضع قوات عسكرية دائمة . وعلى الرغم مما يعتور هذا النظام من قصور ، فقد كان كفيلا بتدعيم هيبة روما في أصقاع الشرق الأوسط والقاء النعز في قلب عاهل مملكة بارثيا الواقعة وراء الفرات . وأخيرا فإن يومبي بتشجيعه قيام المدن في آسيا الصغرى وسوريا قد يسر انتشار الحضارة الهلينية ومهد للاقتصادى بالشرق (١) في فجر عصر الامبراطورية . واذا كانت فتوحاته لا تبهر أبصارنا بقدر ما تبهرها فتوحات قيصر في بلاد الغال ، فهي لا تقل عنها أهمية بل تضارعها أثرا في مجرى التاريخ القديم .

(١) انحاز الشرق الى يومبي عندما نشبت الحرب الاهلية بينه وبين قيصر اعترافا منها بفضله ونعمه عليه .

الثورة : الدور الثاني

النضال بين السناتو والقواد العظام

(٦٥ - ٥٩)

ظهور يوليوس قيصر

وبينما كان پومپى يعمل على توطيد سمعته العسكرية ودعم نفوذ
بيلاده فى الشرق كان أعضاء السناتو وكذلك منافسوه فى زعامة الحزب
الديمقراطى يراقبون نشاطه بعين القلق والحسد .
العاصمة فى غياب پومپى :

موقف السناتو :

وأما عن موقف السناتو أو بالأحرى موقف الحزب الأرستقراطى
منه وبخاصة الأقطاب من أمثال كاتولوس وأمرتى ميتيللوس ولوكللوس
وهورتسيوس فيتين من الاتهامات التى وجهت الى قباء العامة من
أنصاره . كان أحدهم هو كورنيليوس (C. Cornelius) ، أحد قباء
عام ٦٧ . الذى استصدر قانونا يقضى بالزام البريتورين بأن يحكموا
وفقا للمنشورات الدائمة (edicta perpetua) التى يصدرونها فى أول كل
عام وألا يصدرها بعد ذلك أى منشورات طارئة (edicta repentina)
كما استصدر قانونا آخر يقضى بفرض عقوبة مزدوجة على المتهمين
بالرشوة فى الانتخابات ، وهى الغرامة المالية الكبيرة والحرمان من تولى
الوظائف العامة (٢) واحتضن قانونا ثالثا مؤداه الحد من الاستثناءات

(١) عن هذه المنشورات ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ص ٧٢ ، ٧٣

حاشية ١ .

(٢) وقد عرف هذا القانون الذى ووفق عليه بعد تصديقه باسم قانون كلپورنيوس
لكافة الرشوة فى الانتخابات (lex Calpurnia de ambitu) نسبة الى أحد قضاة

سنة ٦٧ وهو جايوس كلپورنيوس بيسو .

من القوانين (privilegia) وذلك بعدم منحها الا اذا حضر جلسة السناتو عدد لا يقل عن ٢٠٠ عضو . هذا النقيب قدم للمحاكمة في عام ٦٦ بتهمة الخيانة ولكن برىء من التهمة بفضل دفاع شيشرون عنه في سنة ٦٥ .

وأما زميله النقيب جابينيوس (A. Gabinius) ، صاحب القانون الخاص باسناد القيادة العليا غير العادية ضد القراصنة الى يومى ، فقد تقدم بمشروعين آخرين نافعين ، أحدهما يقضى بمنع اعطاء قروض لسفراء الدولة الأجنبية أثناء اقامتهم بروما ، والآخر يجعل استقبال الوفود الأجنبية أول بند في جدول أعمال السناتو عند انعقاده في شهر فبراير وعدم ارجاء ذلك الأمر حتى لا تتسرب الرشا . الى جيوب أعضاء المجلس بعد الاتصال بالوفود . هذا النقيب تجنب المحاكمة بالرحيل عن ايطاليا والالتجاء الى معسكر يومى في الشرق . وأما مانيليوس (C. Manilius) صاحب القانون الذى قضى بنقل القيادة ضد مشراداتيس من يد لوكلولوس الى يومى عام ٦٦ ، فقد وجهت اليه تهمتان منفصلتان احدهما ابتزاز أموال أميرية والأخرى الخيانة العظمى التى أدين بها في سنة ٦٥ .

دسائس كراسوس

ويتبين موقف الحزب الديمقراطي ازاء يومى مما فعله كراسوس الذى أصبح بعد رحيل يومى أبرز أنصار ذلك الحزب . وقد ساوره القلق من انتصارات زميله ودبت الغيرة في صدره وخشى أن يفعل ما فعله سلا بعد عودته من الشرق . لذلك بذل كراسوس قصارى جهده ليجمع حوله الأنصار من جميع الطبقات بشتى السبل مستعينا قارة بثروته الطائلة التى جمعها أثناء حركة الاغتيالات والمصادرات على أيام

سلا (١) ، وتارة بعرض خدماته كمحام لاجح على كل من كانوا في حاجة الى مساعدات قانونية . غير أنه أدرك أن ثروته الطائلة ليست قدما لمجد يومى العسكرى ، ولذا تآقت نفسه الى أن يتولى قيادة جيش كبير فى حرب خارجية يساوم به فى المستقبل أو أن يضع يده على قاعدة عسكرية يناوىء منها يومى . فاذا لم يحالفه التوفيق فى هذا أو ذاك ، فلا أقل من أن يعمل على توطيد مركزه السياسى .

وكانت أول خطوة أو بالأحرى أول حلقة فى سلسلة الدسائس التى دبرها كراسوس لتوطيد مركزه هى محاولته تعيين أحد صنائعه حاكما على « أسبانيا القرية » . ففى عام ٦٥ الذى انتخب فيه كراسوس رقبيا . (censor) ، خلا فجأة منصب حاكم أسبانيا القرية ، فانتهر الفرصة وألح على السناتو بأن يعين كلپورنيوس پيسو (Cn. Calpurnius Piso) ، حاكما على تلك الولاية . وكان پيسو هذا شابا غرا قليل الخبرة مردول الخلق ولا يليق لشغل المنصب . لكن كراسوس استخدم نفوذه بوصفه رقبيا للتأثير على بعض أعضاء مجلس السناتو واستخدم أمواله فى شراء ذمة البعض الآخر من المفلسين أو المدينين له حتى وافقوا على ارسال پيسو الى أسبانيا كحاكم بمرتبة الكويستور المتمتع بسلطة البريتور البديل (quaestor pro praetore) وهناك تملكه الغرور فعامل الأهالى بجفاء شديد حتى قهقوا عليه . ولم تطل اقامته بالولاية لأن أحد الأسبان لحقته منه اهانة بالغة فطعنه بخنجر طعنة قاتلة . ولم يقم كراسوس بأى محاولة لايجاد بديل له فى المنصب .

ولم يلبث كراسوس أن تقدم فى نفس العام (٦٥) بشروع يقضى بفرض الجزية على مصر . ولما كانت مصر بوصفها دولة صديقة لروما

(١) بلغ من فرط غناه أنه لقب بكراسوس الثرى (Crassus Dives) ؛ واجع ما تقدم فى ص ١١٦ ، هامش ١ .

لا تدفع الجزية ، فإن المشروع كان معناه المطالبة بضم مصر الى أملاك الجمهورية وتحويلها الى ولاية رومانية . وتذرع كراسوس بحجة أن ملكها وقتئذ - بطليموس الثانى عشر الملقب « بالزمار » - لم يكن وريثا شرعيا لأن سلفه بطليموس الملقب بالاسكندر الثانى كان قد أوصى بها للرومان - وهى وصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة ولا يستبعد أنها كانت زائفة (١) . وتضمن المشروع نصا باسناد تنظيم الولاية الجديدة الى يوليوس قيصر الذى أيد الفكرة وكان يتولى منصب الأيدل (المحتسب) فى ذلك العام . وكانت مصر بلدا غنيا من السهل غزوه بعد أن اتابها الضعف ومزقت أوصالها منازعات الأسرة المالكة ، وارتضى عاهلها بطليموس « الزمار » فى أحضان الرومان وأصبح العوبة فى يد أحزابهم المتطاحنة وأراق ماء وجهه فى كسب رضاء أقطابهم واستجداء اعترافهم به . وكانت مواردها - برغم ما اتابها من تدهور اقتصادى - ما تزال كفيلة بسد رمق العامة الرومان الذين طالما هددتهم المجاعة لانقطاع القمح المستورد ، وكفيلة أيضا بأن تمد رجال الأعمال - من حُبقة الفرسان - بسوق يستثمرون فيها أموالهم أو يعتصرون منها نزوات طائلة . وأهم من ذلك كله أن مصر قد تصبح بعد احتلالها بجيش موال لكراسوس بمثابة شوكة فى جنب پومپى ، اذ كان فى وسع الأول أن يعوقه عن العودة من الشرق الى روما فى اطمئنان مالم يرضخ لسروط معينة ، أو أن يستخدم مصر ، على أسوأ تقدير ، كقاعدة يلتجئ اليها اذا خشى على نفسه من بطش پومپى عند عودته . غير أن هذا المشروع لقي معارضة شديدة من السناتو الذى كان من رأيه حينئذ عدم المساس بمصر . ولذلك استعمل كاتولوس زميل كراسوس فى الكنسورية

(١) راجع كتابنا « مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية » (بيروت ١٩٧٢) ص ١٢٠ وما بعدها .

حقه في الاعتراض لعرقلة المشروع (١) . ولكن الفضل في رفض المشروع يرجع الى شيشرون الذي هاجمه بوصفه قصيرا ليومياً حريصاً على مصالحه في خطبة لم تصلنا منها سوى شذرات (٢) .

مناورات قيصر كحليف لكراسوس

لم يكن جايوس يوليوس قيصر (C. Iulius Caesar) الذي حاول كراسوس أن يستعين به في تحقيق أغراضه قد أصبح بعد منافسا قويا لأي من يومياً أو كراسوس . لكنه كان يشق طريقه بخطى سريعة نحو أبرز مكان على مسرح السياسة الرومانية . ولد قيصر في عام ١٠١ أو ١٠٠ في عشيرة يوليوس (gens Iulia) وهي إحدى عشائر الأشراف (Patricii) العريقة . ولما كان ماريوس قد تزوج عمة يوليا ، كما تزوج هو نفسه كورنيليا ابنة ركناً ، فقد دفعته هذه المصاهرة للانحياز الى جانب الحزب الديمقراطي أو الحزب الشعبي (٣) . ولما أمره سُلْبَانٌ يطلق زوجته رفض ورأى أن من الأسلم له أن يغادر روما . وبعد أن صفح عنه سلا خدم في ولايتي آسيا وكيلىكيا . وبينما كان في الشرق (٨٠ - ٧٨) وقع أسيراً في يد القراصنة الذين أطلقوا سراحه بعد أن دفع لهم فدية كبيرة . لكنه انتقم لنفسه من أسرته

(١) كانولوس (Q. Lutatius Catulus) هو قنصل عام ٧٨ الذي التقينا به أثناء حركة تمرد لبيدوس ، وابن القنصل زميل ماريوس عام ١٠٢ ، والذي يحمل نفس الاسم .

(٢) وتعرف باسم De Rege Alexandrino . ويتبين منها أن كراسوس هو صاحب المشروع وليس يوليوس قيصر كما يذهب المؤرخ سويتونيوس (Suetonius) في ترجمته لحيات قيصر (Divus Iulius, 49) .

(٣) أكد قيصر صلته بالحزب الديمقراطي في خطاب القاء في حفل تأبين عمته (زوجة ماريوس) ، حيث عرضت تماثيل ماريوس (imagines) ، كما أشاد فيه بعراقة نسب عشيرته منبهاً الإلهام الى قصة انحطاطها من سلالة اتكوس ماركوس أحد ملوك روما القبلية ، والزوجة فينوس (الرودیتی) نفسها ام اينياس (الطروادى) ، وهو ابو يولوس (Iulus) . الذي اشتق منه اسم عشيرة يوليوس .

فيما بعد شر انتقام . وبعد موت سلا عاد قيصر الى روما حيث كرس
مواهبه الخطائية للدفاع عن أنصار ماريوس ثم رحل الى رودس
(٧٤/٧٥) حيث درس البلاغة . وقد انتخب كويستورا في عام ٦٩
وخدم بأسبانيا في سنة ٦٨/٦٩ . ولما رجع الى العاصمة انضم الى
كراسوس لتأليف جبهة واحدة وإيجاد نوع من التوازن السياسي
ومناهضة نفوذ بومبي المتزايد . وعندما تولى منصب الأيدل (المحتسب)
في ٦٥ اجتذب اليه العامة ببذخه الشديد في الحفلات والمآدب الفاخرة
التي كان يقيمها في الأعياد الرسمية ، وإعادة بناء النصب التذكارية
لحالات ماريوس ، وتأييد الدعاوى المرفوعة على من اشتركوا في حركة
سلا الارهاية . وقد اضطره اسرافه المفرط الى اقتراض مبالغ ضخمة .
وكان اكبر دائنيه بداهة هو كراسوس الذي وجد فيه اداة نافعة
لتحقيق مآربه . لذلك حرص الاثنان على أن يتولى قيصر منصبا
يتيح له أن يقتنى من الثروة ما يعينه على الوفاء بديونه .

وفي نفس العام الذي تقلد فيه كراسوس منصب « الرقيب » تقدم
باقترح يقضى بتسجيل سكان غاله عبر الپو (Gallia Transpadana)
في جميع القبائل . ولم يكن هؤلاء السكان قد حصلوا في سنة ٨٩
إلا على « الحقوق اللاتينية (١) » ، فكان معنى الاقتراح اعتبارهم
كالمواطنين الرومان المتمتعين بكامل الحقوق ومساواتهم بسكان جنوب
الپو الذين سجلت أسماءهم في القبائل الخمس والثلاثين . ولكن
الرقيب الآخر أحبط المشروع بماله من حق الاعتراض . ولعل كراسوس
الذي توقع بداهة اعتراض زميله على المشروع ، لم يقصد به سوى
الدعاية لنفسه ، ولذلك لم يكشف على اخفاقه لأنه حقق به بعض غرضه ،
إذ أكسبه سمعة طيبة بين سكان تلك المنطقة الغنية التي كانت تعتبر
أكثر مناطق إيطاليا ملاءمة لتعبئة الجند ؛ ولعل كراسوس كان يأمل في

أن يجند من بينهم جيشا يرتكز عليه في المستقبل ، مثلما ارتكز كاربرو على السمنيين في حربه ضد سلا .

ولم يكف كراسوس عن البحث عن أدوات أخرى يحقق بها مخطمعه السياسية ويعلى بها شأنه . وقد سادت العاصمة وقتئذ حالة من التذمر وعدم الاستقرار مبعثها وجود طائفة ممن كان سلا قد صادر أملاكهم لاقترانهم الى حزب ماريوس أو ممن بددوا ثرواتهم التي اقتنوها على حساب ضحايا الدكتاتور ، أو استبعد الرقيان اللذان تقلدا المنصب في عام ٧٠ أسماءهم من قائمة السناتو (١) . وكان أبرز شخص بين هذه الطائفة رجل يدعى كتيлина (L. Sergius Catilina) . وكان ينتمى الى أسرة شريفة قليلة النفوذ . وقد عرف بالشجاعة الفائقة والجرأة البالغة واكتسب سمعة سيئة باشتراكه في حركة الاغتيالات على أيام سلا ، وفساد أخلاقه في حياته الخاصة . ومع ذلك فقد وصل الى منصب البريتور في ٦٨ . وبعدئذ عين بوصفه بريتورا سابقا حاكما على ولاية افريقيا في ٦٧ . ثم رشح نفسه قنصلا لعام ٦٥ ولكن اسمه لم يتبع من قائمة المرشحين لانه بالابتزاز في ولايته ، وهي تهمة لم يبرأ منها الا بعد فوات الفرصة . وامتلات نفسه بالحقد فعقد عزمه على الانتقام . واستعان في ذلك بمرشحين آخرين كانوا قد فازوا فعلا في انتخابات القنصلية ولكنهما أدينا بتهمة الرشوة فبطل انتخابهما . ووضع كتيлина معها خطة لاغتيال القنصلين اللذين اختيرا مكانهما ، والاستيلاء على مقاليد الحكم في اليوم الأول من يناير عام ٦٥ . لكن تصرفات كتيлина وزميليه أثارت رية السناتو الذي اشتهم رائحة الغدر فاتخذ الاحتياطات

اللازمة وأمد القنصلين بحرس شخصي مسلح ، وبذلك أحبطت المؤامرة^(١) ومع أن كراسوس لم يكن ضالعا في هذه المؤامرة فقد استخدم نفوذه بعد فشلها لمنع اجراء التحقيق مع المتآمرين . وفي وسعنا ان نستشف دافعه على ذلك مما فعله فيما بعد عندما سخرهم لتحقيق أغراضه ، ولا ريب في أنه بسط حمايته عليهم ليتخذ منهم مطايا لخدمة مصالحه .

شيشرون « والوفاق بين الطبقتين »

وفي يوليو من عام ٦٤ رشح ثلاثة أشخاص أنفسهم للقنصلية . كان هؤلاء الثلاثة هم كتيлина وأنطونيوس وشيشرون . وقد ألما بطرف من سيرة كتيлина الذي أثار مخاوف الحزب الارستقراطي بالمؤامرة الفاشلة التي دبرها في عام ٦٦ وبتحالفه مع كراسوس وقصر اللذين اعترما تأييده هو وأنطونيوس للاستفادة منهما بعد الفوز بالقنصلية . وكان أنطونيوس (C. Antonius Hybrida) - وهو شقيق البريتور الذي تولى قيادة الحملة ضد القراصنة في كريت^(٢) - رجلا ضعيفا متحلا وان كان ينتمى الى أسرة من أسر النبلاء . وأما شيشرون فهو ماركوس توليوس كيكرو (M. Tullius Cicero)، أخطب خطباء الرومان وألمع كتابهم . وحسبنا أن نتحدث هنا عنه كسياسي مرجئ الحديث عنه كأديب الى فرصة أخرى^(٣) . ولد في عام ١٠٦ بأرپينوم ، وهي نفس البلدة التي أنجبت ماريوس . واشتغل في مهنة حياته بالمحاماة ، وأحرز بمرافعاته في المحاكم شهرة عريضة ، وكسب صداقة عدد كبير من أقطاب عصره . كانت أشهر قضية ترفع فيها هي قضية ثريس حاكم صقلية الذي حمل شيشرون عليه حملة شعواء فأداته المحكمة في

(١) وتعرف أحيانا باسم « مؤامرة كتيлина الاولى » ، وهي غير المؤامرة الشهيرة التي سببنا ذكرها فيما بعد .

(٢) فلان ص ٥٧ ، حاشية وقد يكتب لقبه أحيانا « هيبريدا » Hibrida .

(٣) عن شيشرون ككاتب وخطيب لأهميته البالغة كمصدر لمعلوماتنا عن القرن

الآخر من عصر الجمهورية ، راجع كتابنا «المصادر التاريخية الرومانية» ، ص ١٦ - ٢١ .

عام ٧٠ (١) . واتخذ شيشرون كسائر محامى عصره من الخطابة سلما لارتقاء مسرح السياسة ، وتدرج بسرعة في سلك المناصب العامة الاولى . وقد اتجهت ميوله حيثئذ نحو الحزب الديمقراطي فانبرى - كما رأينا - للدفاع عن قانون مانيليوس ، الذى خول پومپى بمقتضاه سلطات استثنائية واسعة (٢) . وكثيرا ما قيل ان شيشرون تحول عن الحزب الديمقراطي وانحاز الى حزب السناتو عندما رشح نفسه للقنصلية وأيده النبلاء . غير أن هذا القول ينطوى على شيء من الخطأ لأنه يفترض وجود أحزاب منظمة لها برامج محددة تستهدف المصلحة القومية كأحزاب العصر الحديث ، بينما كانت العاصمة اترومانية لم تعرف مثل هذه الأحزاب (٣) . لقد كانت هناك جماعات (تعرف كل منها عند الرومان باسم *partes, factio*) (٤) تربط أعضائها المصالح الشخصية في معظم الأحيان ، فكان هناك فريق الارستقراطيين (*Optimates*) ، الذين التفوا حول السناتو وأيدوا سياسته ونادوا بتدعيم نفوذه . وكانوا يؤلفون جبهة متحدة متماسكة ذات كيان ثابت وزاد من تماسكها الصداقات الشخصية أو السياسية (*amicitiae*) والمصاهرات الأسرية واشترك المصالح الطبقية ، وولاء عدد كبير من

(١) راجع ص ١٢٠ وما بعدها ، حاشية . وبذلك كسب شيشرون ميزة سياسية وظهر بمكانة فريس في السناتو مع أنه كان لا يزال « أيدىلا » أى محتسبا . ولى هذا ما ينوادم و قانون أكليوس الخاص بالابتزاز (*lex Acilia*) الذى استصدره جايوس جراكوس فى عام ١٢٢ (راجع ص ٢٦) وكانت إحدى مواده تكافى غير الرومان الذى ينبجج فى أذانه حاكم روماني لما يمنحه الجنسية الرومانية وإدراج اسمه فى قبيلة المتهم أو بحق النظام الى الشعب من الأحكام مع احتفاظه بوضعه الاصلى اذا كان لاتينيا ، انظر :
Warmington, *Remains of Old Latin* IV, p. 366, ff.

(٢) راجع ص ١٢٦ .

Lily R. Taylor, *Party Politics in the Age of Caesar*. (٧)
(Sather Classical Lectures, XXII). Berkeley, 1949.

(٣) من معنى هذه المصطلحات السياسية راجع الآن :

J. Hellegouarch *Le Vocabulaire latin des relations et des partis politiques sous la République* (Publ. de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de l'Univ. de Lille, XI). Paris, 1963.

الأتباع ، وكان هناك فريق آخر ليس له اسم محدد وان كان خصومه قد أطلقوا عليه اسم الشعبين (Populares) ، بمعنى الديماجرجيين الذين يعملون على ارضاء نزوات الغوغاء بمشروعات متطرفة تهدد كيان الدولة . وقد انف فريق الشعبين أو الديمقراطيين حول قباء العامة في أول الأمر وبعدئذ حول بعض كبار القواد ذوى الأطماع الشخصية ممن أخفقوا في تنفيذ مشروعاتهم عن طريق السناتو فتحولوا الى الجمعية القبلية ليحصلوا منها على الموافقة على هذه المشروعات . وجدير بالذكر أن زعماء فريق الشعبين كانوا كلهم باستثناء واحد أو اثنين ينتمون كالارستقراطيين الى أسر شريفة الأصل أو نبيلة المنصب . وقد انتهجوا سياسة مناوئة للسناتو بصورة تكاد تكون معتردة . وبين هذين الفريقين كان يوجد فريق أو طبقة الفرسان (Ordo Equester) وهم رجال الأعمال ، الذين كانوا ينحازون تارة الى هذا وتارة الى ذلك الفريق ، ولو أن حقد السناتو عليهم كان يدفعهم الى شد أزر « الديمقراطيين » في معظم الأحيان (١) . وكان شيشرون ينتمى بحكم نسأته الى الفرسان الذين كانوا في صدر حياته السياسية متحالفين مع

(١) راجع ص ٤١ وما بعدها . ولعل القارئ يذكر ان جايوس جراكوس استبدل بالحلفين من أعضاء السناتو محطتين من الفرسان في محكمة الابتزاز بمقتضى « قانون اكيلوس » مشيراً بذلك الشقاق بين أعلى طبقتين في المجتمع (راجع ص ٢٦) . لكن بجسدر بنا ان ننبه على ان هذا القانون (انظر ص ٢٦ ، ٤٢) لا يعين الفرسان بالاسم وانما يشير اليهم اشارة ضمنية بتحديد النصاب المالى اللازم لوافره في الحلفين التجدد ؛ والذي يرجع انه sestertii وكان شيشرون هو أول من اسعمل في خطبته ضد فريس عام ٧٠ (in Verr. I, 15) كلمة الفرسان equites في وصف هؤلاء الحلفين . ونجد تأييدا لكلامه فيما ورد عند بلينيوس الأكبر (N. H. XXX, 34) من ان طبقة الفرسان هي طبقة اجتماعية يرجع اصلها الى تربيونية الاخوين جراكوس ، وان اعضاها عرفوا أولا باسم المحلفين iudices فلما سادت سمعة هذه المحكمة حل محله اسم المتزمن publicani ، وأخيرا أطلق عليهم اسم الفرسان equites منذ فصلية شيشرون في عام ٦٢ . على انه ينبغي التمييز بين هيتين من الفرسان ، احدهما صغيرة وهي وحدات الفرسان centuriae quitum والجمعية الثوية التى تتألف من شبان أثرياء كانت الدولة تمدهم بالجياد على تلفتها ويعرفون باسم equites equo publico والاخصرى اوسع نطاقا وتعرف باسم ordo equester وهي طبقة في المجتمع

دهماء المدينة (plebs urbana) لمعارضة دستور سلا وبعدئذ لمنازاة لوكللوس وتأيد پومپى . فلما أخذ كراسوس يحيك الدسائس ضد پومپى فى غيابه ، وجد معظم الفرسان أنفسهم مضطرين الى التضامن مع السناتو لاحتياط هذه الدسائس . وحذا شيشرون حذو زملائه فى طبقة الفرسان . ومع أننا لا نستبعد أن تكون المصلحة الشخصية هى التى أملت عليه هذا المسلك ، فنحن لا نرى فيه أى تناقض . لقد اتخذ لنفسه منذ ذلك الحين شعارا سياسيا مؤداه العمل على إيجاد نوع من الوفاق أو الوثام بين طبقتى السناتو والفرسان (Concordia Ordinum). كان شيشرون قد فكر مليا فى أحوال الجمهورية ، ثم خرج فى شجاعته بفكرة بناء مشرقة وسط هذا الصراع المرير بين الارستقراطيين والديمقراطيين الذين كان أغلبهم يسعون سعيًا خثشا وراء السلطة الشخصية ، وكانوا مجردين من الدوافع النبيلة السامية . وما كانوا يتمسحون أحيانا ببعض مظاهر الحرية (libertas) والمبادئ الدستورية الا لبلوغ حارب شخصية دون اعتبار لمصلحة الجمهورية . على أن شيشرون الذى انطبعت فى نفسه صورة ائتلاف العناصر الطيبة فى المجتمع ووقوفها صفا واحدا امام خطر كتيلينا ، بدأ يحلم برأب الصدد بين السناتو والفرسان وقيام نوع من التآلف أو التحالف بين الطبقتين ، وهو ما تصوره فيما بعد كائتلاف بين جميع الفضلاء

كن ارادها على دوجه من التروة تؤهلهم للانخراط فى وحدات الفرسان ولم يكونوا من انضاء السناتو . وكان هناك ما يبرر وصفهم « بالفرسان » لانهم كانوا منذ القدم معرفين على الأقل من الناحية النظرية لان يستدعوا للخدمة كفرسان على أن يستخدموا جيادهم الخاصة (equites equo privato). ومع أن العادة جرت على أن يندمج الفرسان العاملون بعد بلوغهم سن السادسة والاربعين فى طبقة الفرسان بمعناها الواسع ، فليس هناك شك فى أن الطبقة كانت تضم افراشا كثيرين لم يسبق لهم أن خدموا فى الوحدات المتوبة كفرسان من ذوى الجياد العامة . انظر الآن :

R. J. Rowland, "C. Gracchus and the Equites", Trans. Amer. Philol. Assoc. 96 (1965), 361-373.

(١) عن الطابع الشخصية لزعماء الرومان ، راجع :
C. Wirszubski, *Libertas as a Political Idea at Rome* (1950), 64 f.

(consensus omnium bonorum) . لكنه كان — على حد تعبير الرومان — رجلا جديدا في المجتمع (novus homo) ليس له صلات أسرية واسعة. ولم يكن قائدا لجيش من قبل . ومن ثم فانه كان يفتقر الى بطانة كبيرة من الاتباع (clientela) ، ولا كان في مقدوره أن يؤلف حزبا يشابه كزعيم سياسى . كان يعتمد اعتمادا كبيرا على رضا الارستقراطيين وخصوص نوابيهم نحوه ، وهم من ارتضوا السير وراءه مع شىء من التردد والتأفف . وكان عليه ان يفكر أيضا في يومى فاتجه اليه عاقدا عليه الآمال ، دون ان يدرك مبلغ ضيق يومى ذعابأنه قد سبقه الى احراز شرف ائخاذ روما من يرثن كتيلىنا . وفى رسالة تنم عن شىء من سلامة النية كتب الى يومى يناشده التعاون على احتضان مولد « الوثام الجديد » . ورد يومى عليه ردا مخيبا لبعض آماله ، يل انه لم يوفه حقه من الشناء على ائخاذ العاصمة عام ٦٣ . وعندئذ كتب شيشرون اليه مقترحا عليه عقد ائتلاف بينهما كالذى قام من قبل بين سكيبيو أنميليانوس ولايليوس ، أى بين رجل الحرب ورجل السياسة فيتولى أحدهما حماية الدولة ، ويتولى الآخر توجيه دفتها ، على أن يظل التحالف قائما بين السناتو والفرسان ضد العناصر الشريرة (improbi) ، وبذلك تنصلح أحوال الدولة وتسير أمورها سيرا حسنا . لقد كانت روما فى حاجة ماسة الى فترة من السلام المشرف على «olium cum dignitate» (١) وهو أقل ما تطمع فى تحقيقه أى حكومة محافظة . وكانت هذه السياسة المتسمة بطابع الاتزان والواقعية خليفة بأن تطيل أجل الجمهورية لو أن النبلاء اتضوا له وراءه . غير أنهم لم يتمكنوا قط من التجرد من روح التعصب ضد شيشرون ، ذلك الرجل العصامى الذى شق طريقه بسرعة الى مكانة مرموقة فى المجتمع وأرغمتهم الظروف القريية على قبول زعامته . وعندما رشح

(١) من معنى هذا الشعار وتاريخه ، انظر :

C Wirszubski, JRS (1954), 1 ff.

شيشرون نفسه للقنصلية لم يتوقع - فيما يبدو - أن يتلقى سوى مساعدة ضئيلة من جانب « الارستقراطيين » حتى أنه فكر برهة في التحالف مع كتيлина . لكنه سرعان ما نبذ الفكرة عندما تبين له أن كراسوس وقيصر يؤيدان ترشيح كتيлина وأنطونيوس .

وأسفرت المعركة الانتخابية الحامية عن فوز كل من شيشرون وأنطونيوس بالمنصب السامي . وبدأت النتيجة في ظاهرها كأنها انتصار جزئي لكراسوس ، لكنها كانت في واقع الأمر هزيمة تامة له ، لأنه لم يكن في وسع حليفه أنطونيوس أن ينجز شيئاً دون موافقة شيشرون الذي يتمتع مثله بحق الاعتراض . ولذلك تخلى أنطونيوس عن نصريه وآثر أن يساوم شيشرون الذي فاز بأفضل الولايتين اللتين كانتا تخصصان للقنصلين لكي يتوليا الحكم فيهما عقب انتهاء خدمتهما السنوية في روما (١) . فاتفق القنصلان على تبادل الولايتين والعوض بأن يدع أنطونيوس مقاليد السياسة في يد شيشرون .

مشروع روللوس

وازاء هذا الفشل الذي منى به كل من كراسوس وقيصر فقد بحثا عن وسائل أخرى لاضعاف شوكة پومپي وتقوية مركزهما . فلم يكد النبء العشرة يتقلدون مناصبهم في العاشر من ديسمبر عام ٦٤ ، كشأنهم في كل عام ، حتى أوعز كراسوس الى أحدهم ، ويدعى روللوس (P. Servilius Rullus) في أن يتقدم بمشروع ضخم لتوزيع حصص زراعية على الفقراء الرومان في ايطاليا مع تخويلهم حق توريثها لأبنائهم دون حق بيعها للغير . ولما كانت الحكومة لا تستطيع أن توزع غير الأراضي العامة (ager publicus) ، ولم يكن بايطاليا حينئذ سوى

(١) فاز شيشرون بمقدونيا وأنطونيوس « بقالة القرية » ، ثم تبادل الولايتين . ولكن شيشرون امتلأ عن قبول حكم ولايته بعد انتهاء مدة قنصليته في آخر عام ٦٣ . ومع هذا فالد استند اليه حكم ولاية كيليكيا بآسيا الصغرى فيما بعد (عام ٥١) .

مساحات قليلة منها صالحة للتوزيع ، فقد نص المشروع على ان تشتري الحكومة الأراضي اللازمة لسد الحاجة . ولكي تشتري الحكومة أراضي على نطاق واسع كان لابد أن يتوافر لديها رصيد كبير من المال . لذلك نص المشروع على أن تبيع الحكومة كل ما تبقى في حوزتها من أراض عامة في إيطاليا وجميع الأراضي التي آلت اليها في خارج إيطاليا منذ قنصلية سلا الأولى في عام ٨٨ ، وتخصص الأموال المتحصلة من بيع هذه الأراضي هي والإيرادات المتجمعة من فتوحات يومبي الأخيرة في الشرق ، مع أسلاب الحرب وغنائمها ، تخصص كلها لشراء أراض في إيطاليا صالحة للتوزيع كقطائع على المواطنين المعدمين . واقترح روللوس اختيار لجنة من عشر رجال من المرتبة البريتورية للإشراف على تنفيذ المشروع ، وتخويلها سلطة « الامپريوم » لمدة خمس سنوات وتفويضها سلطة قضائية لا معقب عليها ، وحق مصادرة الأراضي ودفع التعويضات والفصل في منازعات الملكية وتأسيس المستعمرات وتعبئة القوات العسكرية اللازمة لتنفيذ قرارات اللجنة . وتقوم بانتخاب أعضاء اللجنة جمعية مؤلفة من سبع عشرة قبيلة تختار بالقرعة من بين القبائل الخمس والثلاثين على أن يقدم المرشحون اسماءهم بأنفسهم .

والمشروع في ظاهره مشروع جليل يستهدف الإصلاح الاجتماعي ، فهو يخفف وطأة الضائقة الاقتصادية ، ويغري الفقراء بالعودة الى الريف لزراعة أراضيهم ، ويحل مشكلة ازدحام العاصمة بالدهماء المتعطلين . لكن نظرة فاحصة الي موادده تكشف عن صورته الشوهاء وتفضح نوايا صاحبه ومن أوعزوا اليه بإقتراحه . فاللجنة تتمتع بسلطة أضخم مما يتطلبه أى مشروع للإصلاح الزراعى مهما جل قدره ، وفي وسع اللجنة أن تسيء استعمالها . وتنم طريقة انتخاب اللجنة على يد جمعية خاصة عن سوء القصد وفساد السياسة ، بل ان طريقة اختيار القبائل نفسها لا تحول دون التلاعب . ولم يقصد من اشتراط حضور

المرشحين لعضوية اللجنة بأنفسهم سوى استبعاد يومى من اللجنة التى لم يكن هناك شك فى أنها ستقع تحت سيطرة كراسوس وقيصر. وما فائدة استبدال مستأجرى الأراضى العامة ذوى الخبرة بملاك جدد لا خبرة لديهم ؟ وأخطر من هذا كله غموض المشروع فيما يتعلق بملكات روما خارج إيطاليا ، اذ لم يكن هناك ما يمنع اللجنة من أن تحسب مصر جزءا من هذه الملكات متذرة بالوصية المزعومة التى نؤمننا إليها (١) ، مما يتيح لكراسوس وقيصر فرصة حشد جيش لاحتلالها واتخاذها قاعدة لمناهضة نفوذ يومى (٢) - ومعنى ذلك احياء المشروع الذى أخفق كراسوس فى تنفيذه عندما كان رقبيا فى عام ٦٥ . وهل من الانصاف أن ينفذ مشروع ضخم بتوزيع الأراضى فى غياب يومى ، بل وراء ظهره ، بقصد احراج مركزه بحرمان جنوده المرشحين من الاقطاعات أو منحها لهم بشروط باهظة مع أنهم أحق بها من سواهم ؟ ولم تخف نوايا روللوس على شيشرون الذى لم يكذب يتولى مهام القنصلية فى اليوم الأول من يناير عام ٦٣ حتى هاجم المشروع فى أربع خطب وصلتنا منها ثلاث ، الأولى منها غير كاملة (٣) . وأما الخطبة الثانية التى ألقاها فى الجمعية القبلية فكافت أروع انتصار أحرزه فى ميدان الخطابة ، اذ استطاع أن يقنع فيها الجماهير برفض مشروع يستهدف فى ظاهره منفعتهم الشخصية . ولا تخلو هذه الخطب بداهة من التهويل والتحريف والمغالطة كما هو الحال فى كثير من خطبه السياسية . على أن بعض الحجج التى ساقها لهدم المشروع تلقى ضوءا باهرا على نفسية الشعب الذى أصغى اليه . فقد أوضح لهم شيشرون أن الهدف الحقيقى من المشروع يختلف عن الهدف الظاهرى وأن روللوس ما هو الا ألوبة فى يد بعض الساسة المغامرين الذين لا هم

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٤٦ .

(٢) يستبعد بعض المؤرخين هذا الاحتمال .

(٣) وتعرف هذه الخطب باسم In Legem Agrariam وفيها يجنب شيشرون

الى الغالة والتهويل فى تصوير عيوب مشروع روللوس .

لهم سوى مهاجمة يومى وتقويض نفوذه . وأضاف ان المشرع يفسح المجال للمحاباة والرشوة ، ويضع مئات من الناس تحت رحمة قرارات لجنة الأراضى التى تتصرف فى مبالغ ضخمة قد تفرى أعضاؤها بالتلاعب . وليس هناك ما يضمن أن ما تشتريه اللجنة من أراض فى إيطاليا سيرضى به فقراء المواطنين . ولا ريب فى أن أصحاب الضياع التى توجد فى المناطق القحلة أو تتعذر فيها الزراعة بسبب الجفاف والملاiria أو اقتزعت من ضحايا سلا فى ظروف مريبة ، هؤلاء الملاك سيتهزون الفرصة ليتخلصوا من ضياعهم بمساومة الحكومة عليها . فهل من الحكمة ان تباع أراضى الدولة بأسعار بخسة ويضحي بالارادات المضمونة والايجارات الثابتة فتوضع فى يد اللجنة لتشتري بها من المقربين لديها أراضى لا خير فيها بأسعار خيالية ؟ ولماذا يقبل العامة مشروعاً سيحملهم على مغادرة العاصمة الى الريف حيث لا مناص من الكد والكدح ، ويحرمهم كذلك من المهرجانات الفاخرة والقمح المجانى وساعات والاتجار بالأصوات والاستمتاع بماكدب التكريم التى تقام لهم بوصفهم أصحاب الكلمة الأولى فى التشريع والانتخاب ؟ بهذه الحجج وغيرها قضى شيشرون على المشروع قضاء تاماً حتى أن صاحبه سحبته قبل الاقتراع عليه . (١)

كانت هذه الهزيمة هى خاتمة حملة الدسائس التى حاكها كراسوس ضد يومى أثناء غيابه . وكان الوقت ينفى بسرعة ، ومرعان مايفرغ القائدالكبير من حملته فى الشرق ويعود الى إيطاليا ، ومن الحكمة ألا يقدم كراسوس على شئ قد يدفعه الى التعجيل بالعودة للحاسبة خصومه فتتشب حرب أهلية جديدة . وليس معنى هذا أن كراسوس كان راغباً فى الحرب ، بل من المرجح أنه كان يؤثر مساومة يومى على اشهار السيف فى وجهه . لكنه كان يلعب بالنار فى الفترة ما بين ٦٧ ،

E. G. Hardy, *Some Problems of Roman History*, 68 ff. (١)
A. Alfzelius, *Classica et Mediaevalia* (1940), 214, ff.

٦٢ ، وكان من الممكن أن يفلت من يديه الزمام فلا يستطيع أن يتجنب قيام الحرب مثلما لم يستطع خصوم قيصر أن يتجنبوها بعد ذلك في الفترة ما بين ٥٩ ، ٥٢ . غير أن الحظ ابنسم لروما فابتعد شبح الحرب الأهلية وأحبط شيشرون هذه الدسائس ومؤامرة خطيرة أخرى .

مؤامرة كنيلىنا

عندما كف كراسوس عن تدبير المؤامرات ضد پومپى هذا حذوه قىصر وغيّره من رجال الحزب الديمقراطى حتى لا يتخذ القائد المتغيب من أفعالهم تكأة للتبكير بالعودة الى العاصمة على رأس جيشه ، ووجد قيصر بعض العزاء فى اقتصار أحرزه فى ميدان آخر . فقد حدث أن بخلا منصب الكاهن الأعظم (pontifex maximus) بوفاة ميتلوس-پيوس^(١) . وكان هذا المنصب الذى أصبح منذ أيام سلا يشغل عن طريق التعيين وقفا على الساسة المتقدمين فى السن . ولم يكن من المحتمل أن يقع اختيار هيئة الكهنة على سياسى ناشئ مثل يوليوس قيصر . غير أن لابينوس (T. Labienus) ، أحد نقباء العامة فى سنة ٦٣ ، تقدم باقتراح الى مجلس العامة (Concilium Plebis)^(٢) بإعادة العمل بقانون دوميتيوس الذى صدر فى عام ١٠٤ ، وجعل اختيار الكاهن الأعظم فى يد جمعية انتخابية خاصة تتألف من سبع عشرة قبيلة تختار بالقرعة من بين القبائل الخمس والثلاثين^(٣) . ورشح قيصر نفسه للمنصب بعد أن أُنقِى كل ما استدانه فى الدعاية الانتخابية ، وعقد كل أمله على الفوز . وحالفه

(١) راجع ص ١٠٦ .

(٢) وهو الجمعية القبلية (Cornitia Tributa) عندما تتعدد برئاسة أحد نقيب العامة لا برئاسة حاكم متمتع « بالامپريوم » كالمصل أو الپريتور . وچدير بالذكر أن الحكام الآخرين كالايديل والكوسنور والتريبونون وحتى الكنسور لم يتمتعوا إلا بسلطة «البوتسناس» (potestas) .

(٣) راجع ص ٥٧ - ٥٨ ، ٨٦ .

الحظ فاقصر على منافسين قوين من النبلاء سبق لكل منهما أن تولى
القنصلية (١) .

لكن اذا كان قيصر قد هداً باله وقنع بالمنصب الدينى الرفيع حتى
تسبح له فرصة أخرى ، فان كتيلينا لم يهدأ له بال منذ سقوطه فى
انتخابات القنصلية فى أواخر عام ٦٤ . وقد زاد من قلقه تراكم الديون
عليه وتخلي كراسوس عن مؤازرته بعد أن تبين له عدم ثقله أو ببد أن
يلغى نأ موت مثراداتيس واحتمال عودة يومى الى ايطاليا على وجه
السرعة . ومع هذا فقد رشح كتيلينا نفسه قنصلاً لعام ٦٢ . وأعلن أنه

(١) كان احد هذين المنافسين سرفيليوس الاساورى (راجع ص ١١١) قنصل عام
٦٦ ، والاخر كاتولوس ، قنصل عام ٧٨ : واحد الاطباء البارزين فى الحزب الارستقراطى
(راجع ص ١٠٢ - ١٠٤) .

وجدير بالذكر ان قيصر احدث ضجة فى العاصمة عندما اوعز الى صديقه نقيب
العامه لابينوس فى اوائل عام ٦٢ بان يرفع دعوى على عضو من من أعضاء السناتو
بدمى رابيريوس (C. Rabirius) . لانه كان له يد فى اغتيال نقيب العامه ساتورنينوس فى
عام ١٠٠ . اى منذ ٢٧ عاماً مضت (راجع ص ٥٩) . وكان الاتهام له ما يبرره من
الناحية القانونية لان « القرار النهائى » الذى اصدره السناتو ضد ساتورنينوس لم
يكن يخول قتله دون محاكمة . ولكن قيصر لم يجعل القضية تنظر . كما كان ينبغى -
امام محكمة الجنايات المختصة بالقتل العمد (quaestio de sicariis) بل امام محكمة
احياها بعد ان بطل استخدامها من قديم الزمان ، وهى محكمة الخيانة العظمى المؤلفة
من قاضيين (Duoviri Perduellionis) وقد اذنت المحكمة رابيريوس وقضت بصليبه
فوق شجرة جرداء . ولكن السناتو قسرو بطلان هذا الحكم بايعاز من شيشرون الذى
اعترض على اى اجراءات اخرى ضد التهم بمقتضى سلطته القنصلية . ومع هذا فقد
وجه لابينوس الى رابيريوس مرة اخرى مدقاتهامات غير صحيحة امام « مجلس العامه »
كان من بينها تهمة القتل . وبعدئذ اتفق مع البريتور المنى - بمقتضى اجراء غير عادى
كانت له بعض السوابق - على احالة القضية على الجمعية المثوية . وهناك تولى شيشرون
الدفاع عن رابيريوس وندد بوحشية الحكم واستنكر مهاجمة « قرار السناتو الاخير » ،
معرضاً فى ذلك بماربوس ، زوج عمه يوليوس قيصر ، وبقتل عام ١٠٠ الذى كان السناتو
قد عهد اليه امر تنفيذ قراره النهائى . وقبل ان تلمس الجمعية المثوية فى الاقتراح ففس
البريتود الاجتماع بانزال العلم الرفوع على تر يانيكولم ، وهى اشارة كانت تعنى قديماً
ان العدو (الازوريين) على الابواب وفروقة ارجاء الجلسة وانهاء المناقشات والى المبادرة الى
حمل السلاح . وهكذا انتهت هذه المحاكمة بالاجراء هذه المسرحية الهزلية التى يبدو
ان قيصر لم يقصد منها الاحتجاج على اعدام المواطنين بمقتضى قرار السناتو الاخير .
ما قصد منه الظهور والدعاية لنفسه .

يعتزم في حالة فوزه بالمنصب الغاء جميع الديون (novae tabulae) حتى يجتذب اليه الأشراف المفلسين من أمثاله وينضوى الفلاحون الذين رهنوا أراضيهم تحت لوائه . لكن شيشرون ، قنصل عام ٦٣ ، كان له بالمرصاد ، فقام بالدعاية ضده مستغلا خوف الجماهير من تساليب العنف وتقوم رجال الأعمال من سياسة التطرف ، وأيده بعض رجال السناتو الذين كانوا يرون في تشايد كتيлина خطورة على دستور انجهمورية . وأفلح شيشرون في تأليب الرأي العام عليه فسقط في الانتخابات للمرة الثانية . وعندئذ فقد صوابه ودير مؤامرة للاستيلاء على مقاليد الحكم بالقوة . (١)

وإذا كانت خطب شيشرون قد خللت هذه المؤامرة من ناحية ، فقد طمست بعض معالمها من ناحية أخرى ، إذ صور الخطيب المفسود زعيم المؤامرة وأتباعه تصويرا قاتما وهول بشاعة الجريئة حتى ينبه السناتو والشعب على جسامته الخطر المحدق بهم . ومن العسير أن تبين مدى انسياقه وراء بلاغته الخطائية لتشويه الحقائق وتحريف الوقائع وتلفيق التهم . ومع هذا فمن المسلم به أن نقطة شيشرون أجبرت كتيлина على تعديل خطته الأصلية . وفي وسعنا أن نقول ، برغم ما يكتنف تفاصيل المؤامرة من غموض وإبهام ، أن هدف كتيлина الأول كان ينصب على اقتراع القنصلية لنفسه بالتخلص من شيشرون ، ثم الغاء الديون كافة لارضاء أنصاره ، وأن خطته الأولى كانت تنطوي على إثارة الاضطرابات في روما بمعاونة فريق من المجالدين المقيمين بالمدينة ، بينما يقوم مانليوس (L. Manlius) ، أحد أنصاره ، بحشد قوات كافية من جنود ملا القدامى في اتروريا والتسلل بها الى بلدة برينستي ، والتجمع هناك في يوم ٢٧ أكتوبر من عام ٦٣ للزحف على روما في مساء اليوم

(١) من هذه المؤامرة ، راجع :

E. G. Hardy, "The Catilinarian Conspiracy," JRS (1917), 153-228

التالى ، الذى يوافق يوم المهرجان الذى كان يقام سنويا احتفالا
باتتصار سلا (١) .

وكان من الممكن أن تسير الخطة كما رسمها كتيلينا فيؤخذ
شيثرون على غرة وينجح الانقلاب . غير أن أبناء المؤامرة تسربت الى
مسامع القنصل عن طريق سيلة كانت على صلة بواحد من المتآمرين .
وتأيدت أنباؤها بمجموعة من الرسائل ألقي بها مجهول أمام منزل
كراسوس الذى سلمها لشيثرون ، وهى رسائل موجهة الى فريق من
أعضاء مجلس الشيوخ لحثهم على مغادرة العاصمة قبل وقوع الكارثة.
واستادا الى هذه المعلومات دعا شيثرون السناتو الى الاعتقاد ،
واستطاع فى جلسة يوم ٢١ أكتوبر سنة ٦٣ أن يثير مخاوفه ويقنع
بإصدار « قراره الأخير » (senatus consultum ultimum) - وهو كما
أسلفنا كان بمثابة اعلان الأحكام العرفية فى حالة الطوارئ - وتخويله
السلطة لاتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الدولة . وعندئذ
أمر شيثرون بترحيل المجالدين من روما الى كاپوا ، وحشد على عجل
قوات لحراسة المدينة ، وعهد الى أحد الپريتوريين بتعبئة كتائب جديدة
فى ييكينوم وغالة القرية ، وأرسل ضابطا آخر على رأس قوة صغيرة
لإراقبة نشاط الثوار فى انوروريا ومنع وصول الامدادات الإيطالية اليهم .

ولم يجد كتيلينا مناصا من أن يعدل خطته الأولى فقرر أن يشن

(١) حامت الشبهات حول كراسوس وفيصر وشاع اتهامهما كانا ضالعين فى المؤامرة .
لكن من المؤكد ان هذه الشبهات باطلة لأن كلا منهما كان رجلا فطينا من اليسر عليه أن
يسدك أن الأمل فى نجاح المؤامرة كان ضئيلا جدا . فقد يستطيع كتيلينا أن يستولى على
روما ويتعصب نفسه قنصلا بالقوة . غير أن هذا العمل كان كفيلا بحمل يومى على العودة
الى إيطاليا مع جيشه لإقرار النظام ، ولن تجد حكومة الانقلاب متسما من الوقت لى
تعبية القوات الكافية لصدده عن العاصمة . فمؤامرة كتيلينا ان لن يكون لها سوى نتيجة
واحدة وهى التهديد لقيام حكومة دكتاتورية برئاسة يومى ، وهو ما كان كراسوس وفيصر
بشخصانه ومعلان على تجنبه . وعاقبة على ذلك ان كراسوس بوصفه دائما كبيرا وصاحب
أعمال كثيرة معرض للخسارة لو ألقى جميع الديون وشئت الحوائق فى اتجاه المدينة .

هجومه على أكثر من جبهة واحدة ، ويوسع حركة الاغتيالات ، ويربك السلطات باشعال النار في عدة أماكن متفرقة بالمدينة ، ويعرض العبيد على نهبها . وشرع في تنظيم حركة ثورية واسعة النطاق في الريف الايطالى ، وتجنيد المجالدين في مدارس التدريب بكابوكا ، والرعاة المسلحين في ضياع أبوليا ، والمزارعين المتذمرين في غالة القرية وأواسط ايطاليا . كما قرر أن يتولى بنفسه قيادة الجيش المحتشد في شمالى اتروريا ، والزحف به إلى روما مثلما فعل ليدوس من قبله (١) . فاذا ما تم له احتلال العاصمة أقام حكما دكتاتوريا كالذى أقامه كئنا وكاربو (٢) .

ومع أن شيشرون بلغته بعض أبناء الخطة الجديدة وخبر المؤامرة التى دبرت لاغتياله في بيته ، واستطاع أن يحبطها في الوقت المناسب ، فسانه لم يلق القبض على كتيلىنا لعدم توافر الأدلة القاطعة على ادائته . ودعا شيشرون مجلس الشيوخ للاجتماع في ٨ نوفمبر من عام ٦٣ ليطلعه على ما تجمع لديه من معلومات ويتلقى منه التعليمات . وبلغ من جرأة كتيلىنا أنه حضر تلك الجلسة لكى يذرو الرماذ في عيون الناس ويدفع عن نفسه الشبهات ويوهم أعضاء السناتو ببراءته . لكن شيشرون حمل عليه في خطبته - المعروفة الآن باسم « الخطبة الأولى ضد كتيلىنا » - حملة شعواء وندب بسيرته المشينة زاعما أنه قد وضع يديه على خيوط المؤامرة الأخيرة . ثم فاشده بل استجداه أن يرحل عن روما وبريخه ويربح المدينة من شروره . ولعل القنصل كان يبنى أن يثير اعتراض المجلس على تساهله فيأمره بالقبض على كتيلىنا فوراً . ولكن السناتو لم يفعل ذلك . ومع هذا فقد أحس كتيلىنا بخرج مركزه فغادر العاصمة من تلقاء نفسه في اليوم التالى قاصدا اتروريا ليتولى قيادة القوات التى تجمعت هناك . وعندئذ فقط أعلن السناتو أنه عدو

(١) راجع ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) راجع ص ٧٨ - ٨٠ .

الوطن وعهد الى أنطونيوس ، زميل شيشرون في القنصلية ، أن يقود الحملة ضد الثوار .

وليس أدل على أن مؤامرة كتيлина لم تكن نتيجة لحركة تدمير شاملة سواء في روما أو في إيطاليا من أن قوات الحكومة سيطرت بسرعة على زمام الموقف في المناطق التي اعتزم أن يثير فيها الاضطرابات ، فعاد الهدوء الى كمبانيا ومنطقة الأبين وكذلك في أبوليا ، ولم يبق في يده سوى قطاع اتروريا حيث استطاع أن يصمد مدة طويلة بفضل مؤازرة جنود سلا القدماء . لكنه لم يجد العناد الكافي لتسليح جميع رجاله ، فأحجم عن الزحف على روما . وأثار تباطؤه قلق أنصاره بالعاصمة فقرر بايعاز من زعيمهم لتولوس (Cornelius Lentulus Sura) (١) عدم الانتظار . وحددوا يوم ١٧ ديسمبر من عام ٦٣ - وهو أول أيام عيد الاله ساتورنوس (Saturnalia) الذي يتمتع فيه الأرقاء بالحرية المؤقتة - لاثارة الشعب بمعاونة العيد واشعال الحرائق في مختلف الاحياء واغتيال القنصلين وغيرهما من الأقطاب ، وفتح أبواب المدينة لقوات كتيлина الزاحفة من اتروريا .

لكن حدث في نوفمبر من نفس العام أن وفدا من الأللوبيوجيس (Allobroges) - وهم احدى قبائل غالة الناربونية - كان يستعد للعودة الى بلاده بعد أن قدم مظلمة لمجلس الشيوخ ، فخطر لزعيم المتآمرين أن يتصل بأعضاء هذا الوفد الذي لم يسحب السناتو لشكواه ويتفق معهم على أن تمد قبيلتهم قوات كتيлина بفصائل من فرسانها الأشداء ، ووعدهم بتحقيق مطلبهم بعد نجاح الانقلاب . وأطلع عملاء لتولوس أعضاء الوفد على تفاصيل المؤامرة وأسماء المشتركين فيها . ولكن وقد الفال أبلغ شيشرون ما وصله من معلومات ، فطلب اليه شيشرون متابعة الاتصال بالمتآمرين والحصول منهم على رسائل مكتوبة . وما أن وقعت هذه الأدلة المادية في يده حتى أمر بالقبض على لتولوس وزملائه من زعماء المؤامرة . ودعا السناتو للاجتماع وواجه المتهمين

بأعضاء الوفد الغالى والوثائق الممهورة بأختامهم ، فأدانهم للمجلس بالاجماع وأمر بتحديد اقامتهم ريثما يتقرر مصيرهم . ولما أنهى الى كيلييناخير القبض على شركائه تخلى من فوره عن فكرة الزحف على روما ، وشرع يتسلل عبر الأبنين لاجتياز جبال الألب الى بلاد الغال ، ولكن قوات الحكومة احتلت ممرات الأبنين وقطعت عليه سبيل الفرار . وفى يناير عام ٦٢ دارت عند بلدة بستوريا (Pistoria) على مقربة من فلورنسة باقليم اتروريا رحى معركة رهية انتهت بهزيمة كيليينا ومصرعه . وأحرز شيشرون شهرة واسعة بالقضاء على هذه المؤامرة حتى أن كاتولوس اقترح على السناتو تلقيه بأبى الوطن (Pater Patriae) (١) اعترافا بفضله . وتملك شيشرون الزهو فبالغ فى تمجيد الدور الذى قام به وتباهى بأنه ألقذ الدولة من الدمار المحقق (٢) . ولا ينبغي أن ننسى أن حادثة المؤامرة نفسها تنهض دليلا على ضعف الحكومة بوجه عام وعلى الخطورة الناشئة عن عدم وجود قوة بوليسية دائمة فى روما للمحافظة على الأمن العام .

لكن القبض على زعماء المؤامرة أثار مناقشات حادة فى مجلس انسيوخ الذى كان شيشرون قد دعاه الى الانعقاد فى ٥ ديسمبر من عام ٦٣ قبل انتهاء قنصليته بأيام قليلة حتى يستشير فيما ينبغى اتخاذه من اجراءات ضد المتهمين ، ولا سيما بعد أن تردد أن أصدقاءهم يحاولون اطلاق سراحهم بالقوة (٣) . كانت الاجراءات فى الظروف

(١) أو Pater Patriae

(٢) فى رأى مؤرخ من انصار ملعب كارل ماركس ان كيليينا ليس بالرجل الشرير الذى يصوره لنا شيشرون وسكستوس ، بل هو مصلح نادر كان يهدف الى انقاذ الطبقات الدنيا من وهدة الفقر والفاقة .

(٣) عهد شيشرون الى بعض أعضاء السناتو اللعين بالاختزال بتسعين اميال جلستى يوم ٣ ، ٥ ديسمبر عام ٦٢ لتوزيعها بين الناس تجنباً لتعريف الاقوال او اساءة تلويلها . ولعل هذه المحاولة الاولى فى ميدان « الصحافة » هى التى لوتحت الى ليعر لى عام ٩٠ فكرة اصدار نشرة اخبارية او « جريدة رسمية يومية » (acta diurna) تتضمن جميع محاضر وقرارات الجمعيةين الشعبيتين ومجلس انسيوخ حتى يخطب الواخون علما بالأحداث السياسية الجارية .

العادية تقتصر على رفع الدعوى عليهم أمام محكمة الجنايات المختصة بجريمة القتل والاغتيال أو المحكمة المختصة بجريمة استعمال القوة لقلب نظام الحكم . وقد قدم فعلا في العام التالي بعض المتهمين الآخرين لمحاكم الجنايات . غير أن الظروف في عام ٦٣ لم تكن عادية مما جعل شيشرون يعتقد أن من الأوفق التخلّص من المقبوض عليهم ليكونوا عبءا لغيرهم من ثواراتروريا فتشيط عزيمتهم ويأادروا الى الاستسلام . لذلك طالب باعدام المتهمين دون محاكمة بدعوى أنهم قد أصبحوا بارتكاب هذه الجريمة أعداء (hostes) متجربين من حقوق المواطنة ، وأن قرار السناتو الأخير يخولنه هذه السلطة . كانت الدعوى الأولى بمثابة مغالطة منطقية أو قياس باطل ، وأما الثانية فهي دعوى واهية لأن السلطة المخولة للقنصل بمقتضى « قرار السناتو الأخير » كانت مبهمة غير محددة تحديدا واضحا (١) . حقيقة أن الاعدام دون محاكمة لم يكن في عصر شيشرون اجراء غير مشروع في وقت الطوارئ ، لكنه ثم يكن متفقا عليه من الجميع . كما لم يكن من المؤكد أن الضرورة تحتم اتخاذه ضد الجناة بعد أن حدثت اقامتهم وزال خطرهم . لهذا حرص شيشرون على ألا يتخذ أى اجراء تعسفى تترتب عليه عواقب وخيمة دون أن يستخلص من السناتو قرارا ينطوى على تأييد أدبى له . وكان السناتو بداهة لا يملك حق توقيع عقوبة الموت على المواطنين ، فكان أقصى ما يستطيعه هو أن يخول القنصل سلطة توقيع هذه العقوبة في حالة الطوارئ على أن يتحمل القنصل لا المجلس مسؤولية اصدار حكم الاعدام .

وفي الجلسة التى انعقدت لمناقشة مصير المعتقلين أعلن القنصل المسنّى تولي المنصب في العام التالي (consul designatus) أن من رأيه اعدامهم فوراً ، وأيده في ذلك حوالي خمسة عشر عضوا من ذوى المرتبة

(١) عن « قرار السناتو الأخير » ، راجع ما تقدم في ص ٢٥ .

القنصلية . غير أن يوليوس قيصر الذى أقتخب برتورا للعام التالى (٦٢) طعن فى دستورية هذا الاجراء ، واقترح معاقبة الجناة بالسجن المؤبد فى عدة بلاد ايطالية ومصادرة أملاكهم . ومع أن هذه العقوبة سبق تطبيقها فى حالات قليلة ، فإنها كانت انتهاكا صارخا للحرية الشخصية كالاعدام دون محاكمة سواء بسواء . وكاد هذا الرأى يظهر بتأييد أعضاء السناتو لولا أن كاتو (M. Porcius Cato) ، سليل كاتو « الرقيب » (Censor) الشهير (١) ، والذى كان مرشحا للترىبونية ، ألقى خطابا عنيفا هاجم فيه قيصر وندد باقتراحه واتهمه ضمنا بالتواطؤ مع كنيلىنا ، وأيد حجة شيشرون بأن العقاب الرادع كفى دون سواء برقاية الدولة من الخطر . وبذلك قضى على تردد المجلس الذى وافق فى النهاية على قرار القنصل . وحصل شيشرون على التأييد الأدبى فأصدر أمره فى الحال باعدام المعتقلين الخمسة . وبعد أن تم تنفيذ الحكم خرج الى الجماهير المحتشدة فى السوق العامة وأعلنهم فى ابجاز بليغ بأن الجناة قد انقضت حياتهم (vixerunt) .

لقد رأى شيشرون ازاء خطورة الموقف أن يستند الى سابقة معروفة عندما أمر القنصل أوبيمبيوس بقتل أنصار جايوس جراكوس دون محاكمة . ولقى تصرفه مسوغا أو سندا قانونيا عندما برىء من تهمة القتل عام ١٢٠ (٢) واقتضت المصلحة العليا أن يتجاهل شيشرون

(١) شهد « كاتو الأكبر » فى شبابه الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢) ، وانتخب قنصلا فى عام ١٩٥ ، ثم رفيا فى عام ١٨٤ فقام بتطهير مجلس السناتو وهيئة البرلمان من العناصر الفاسدة . وقد أخذ على عاتقه اصلاح الأحوال الاخلاقية والاجتماعية التى بدأت تنحدر فى عصره فحارب البغخ فى المدينة ، والابتزاز فى الولايات ، والمؤثرات اليونانية التى تسربت الى الحياة الرومانية وأنشأت فيها الانحلال والفساد . وزار قرطاجنة عام ١٥٧ (او ١٥٢ ؟) ونادى بتعميرها مخافة أن تنهض ثقية فتتلاوى روما من جديد . وقد تم تعميرها عام ١٢٦ فى الحرب البونية الثالثة بعد وفاته بسنوات قليلة . وكان خطيبا ملوها ، وكابا قديرا فى علوم كثيرة كالناريخ والزراعة والبلاغة ، واشتهر برجميته وصلابته وصراحته ونزاهته . وأما كاتو الأصغر الذى نحن بصدده فهو ابن حفيده وقد ورث عنه كثيرا من صفاته ، وحمل لواء المعارضة ضد قيصر ، واشتهر باسم « كاتو الأوتيكى » .

(٢) راجع ص ٢٧ ، حاشية ١ .

القيود العادية المفروضة على سلطة « الامپريوم » ، ويتصرف طبقا للمبدأ القائل بأن سلامة الشعب هي القانون الأعلى (salus populi suprema lex esto) . ولعله تعجل في قراره أو كان متهورا فيه . غير أن واجبه الأول قد حتم عليه حماية المجتمع . وفي ذلك نجح شيشرون . وكان محقا اذن في شعوره — باسم قضية الوطن الكبرى ، ان لم يكن باسم اتقانون — بأنه قد أدى واجبه على الوجه الأكمل (١) .

وكان أخطر ما تمخضت عنه هذه المناقشات الحادة في مجلس الشيوخ هو تلك الخصومة التي احتدمت بين قيصر وكاتو ، والتي ستصبح بعد قليل عاملا رئيسيا في السياسة الرومانية .

ولم تمض أيام على تلك الجلسة الصاخبة حتى قام نقيب للامة يدعى نيبوس (Q. Caecilius Metellus Nepos) بحملة خطائية بين الجماهير منددا فيها بشيشرون ومسلكه غير القانوني . وتقدم في أوائل عام ٦٢ باقتراح غريب في « مجلس العامة » باستدعاء پومپي لاختتام ثورة كيبينا واخاذ الدستور من استبداد شيشرون ! وقد تظاهر قيصر بتأييد هذا النقيب بينما وقف كاتو الى جانب شيشرون ، واعترض على اقتراح زميله . ولكن نيبوس تجاهل حق كاتو في الاعتراض ، فثار الشعب وعم الاضطراب ، وأعلن السناتو وقفه عن العمل الرسمي (iustitium) ولما تبين عدم جدوى هذا الاجراء ، أصدر مرة أخرى «قراره النهائي» وكاد النقيب الجريء يلقي حتفه مثل جايوس جراكوس وساتورنينوس لولا أنه لاذ بالفرار من روما الى معسكر پومپي في الشرق . وفي الحقيقة أن جملة هذا النقيب على شيشرون كانت ستارا يخفى وراءه هدفا آخر ، اذ كان يرمى الى اسناد مهمة عسكرية جديدة لپومپي تتيح له ، مثلما أناحت له في سنة ٧١ ، أن يتوج فتوحاته في الخارج باخاذ المجتمع

(١) راجع : H. Last, JRS (1943), 93 ff.

الرومانى من أعدائه فى الداخل (١) . فلما فوت شيشرون عليه الفرصة
بضع فتنة كتيلىنا ، تظاهر فجأة بالعطف على المتأمرين ، فالنزاع الحقيقى
اذن لم يكن يدور حول استبداد شيشرون أو عدم استبداده ، بل حول
عودة پومپى بجيشه أو بدون جيشه . ولهذا شهر كاتو سلاح «الاعتراض»
فى وجه نيبوس ليحول دون عودة القائد على رأس جيشه ، بينما بدأ
قيصر يدرك - فيما يبدو - فائدة التحالف مع پومپى ، فتظاهر بالاستياء
من مسلك شيشرون . ومع افتقارنا الى الدليل على أن قيصر شرع حينئذ
يفاوض پومپى أو يتقرب منه بصورة جدية ، الا أن موقفه وموقف كاتو
من اقتراح نيبوس يلتقى نسوءا على سياسة الأحزاب فى روما بعد عودة
پومپى الى أرض الوطن .

الانقلاب التالى :

عودة پومپى

عاد پومپى الى ايطاليا فى نهاية عام ٦٢ . ولم يكذب ينزل بينساء
برنديزى حتى سرح جيشه على عكس ما كان يتوقع معظم الناس . وقد
أثار مسلكه هذا دهشة من كانوا يخشون أنه قد يقتدى بسلا ويفعل
ما فعله (٢) . ولما وصل الى روما أودع فى الخزانة العامة من غنائم الحرب

(١) الإشارة هنا الى ثورة اسبرتاكوس ونفويل پومپى السلطة بعد عودته من اسبانيا
لحق فلول العبيد . وقد نسب پومپى الى نفسه فضل القضاء عليها مع آثار حقسه
كراسوس عليه (راجع ص ١١٧) .

(٢) ولا يزال مسلكه يشير حيرة المؤرخين المحدثين الذين تسببت آراؤهم فى تفسيره .
وفى رأى كثير منهم أن پومپى لم يرغب فى قلب نظام الحكم الجمهورى وإقامة حكم فردى على
الناقص . ولكنه كان يرغب فى العودة الى روما على رأس جيشه كى يتمكن من اقتراع
القطاعات الزراعية لجنوده بعد تسريحهم دون صعوبة أو مقاومة . فلما لم يجد عنرا مقبولا
يبرر به الاحتفال بجيشه ، بادر الى تسريحه . ولم تخطر له فكرة استخدامه لإقامة حكمه
دكتاتورية سافرة ، لأنها كانت تجربة محفوفة بالخطر . وكان القى ما يتمتع هو أن يصبح
« المواطن الاول » فى الدولة (Principes) . . ولعله تصور أنه سيحقق ذلك وينفذ
مطالبه دون الاستعانة بالجيش .

مايربو على ٥٠ مليون دينار روماني (denarius) (١) ، ومنح حوالى نصفها لكبار ضباطه ، ووزع مكافآت سخية على صغار الضباط والجنود . وازداد الدخل السنوى بحوالى ٤٥ مليون دينار من الضرائب الناتجة عن فتوحاته الجديدة (٢) . كان يومى عند تنظيمه الدفاع عن الحدود الشرقية قد بت - كما رأينا - فى مسائل لا حصر لها ، فأنشأ ولايات ونظم أخرى وعقد معاهدات ووضع دساتير ومنح امتيازات لكثير من المدن الجديدة والقديمة والممالك التابعة والمشمولة بالحماية . وقد اضطر بدهة أن يبت فى جميع هذه المسائل بصفته الشخصية . ولكنها كانت تحتاج الى موافقة السناتو الرسمية (أو الجمعية القبلية) لكى تصبح صحيحة ونافذة من الناحية القانونية . لذلك رأى يومى أن ينهى مهمته بهاية موفقة فتقدم الى السناتو بطليين معتدلين وهما التصديق على تنظيماته او بالأحرى قرارانه الادارية (acta) التى أتم بها تنظيماته فى الشرق ، واعطاء اقطاعات زراعية لحوالى ٤٠٠٠٠ من جنوده المسرحين . وقد توقع أن المجلس لن يتأخر عن اقرار أعماله ولا سيما أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بجيشه ويستعين به فى تنفيذ مطالبه . غير أن الشيوخ بلغوا من البله والحمق ما جعل أغلبهم يتبرأون من أعماله القيمة لا لشيء سوى أنهم كانوا فئة قصيرة النظر ضيقة الأفق شديدة التعصب . وكانوا يمتقون ويخشون بأسه فى الوقت نفسه . فلما تجرد من جيشه استخفوا به وتجروا عليه وتملكتهم الرغبة فى اذلاله . ومع أنه أبدى استعدادهم لاسترضائهم والتفاهم معهم ، الا أنهم لم ينسوا أنه هو الذى امتنهم كرامة زعمائهم فغضبوا لفضل كاتولوس فى اخباته فتنه ليده . ففسبه الى نفسه ، وجرد ميتيلوس بيوس من شرف الانتصار على سرتوريوس ، واعتصب القيادة من لوكليوس فى الحرب ضد مثرادائس ، وانتزع

(١) الدينار عملة فضية رومانية . وكان فى الأصل يعادل ١٠ أسات ثم صار (منذ عمر الاخوين جراكوس) يعادل ١٦ آسا ، أى يعادل) مسترتيوس ؛ راجع أيضا ، ص ٢٢ ، هامش ١ ؛ ص ٢٧ ، هامش ١ .
(٢) راجع ص ١٤١ .

بعض أكابيل النصر من جين ميتيلوس « الكريتي » الذي أوشك أن
يقطع دابر القراصنة . ولم ينسوا أنه هو الذي تزعم « الشعبين » وهدم
دستور سلا وقوض نفوذ السناتو وانتقص من هيبتهم في أثناء قنصليته
الأولى . وتصوروا أن الفرصة قد منحت لكي يسووا حسابهم مع ،
وتزعم حركة المعارضة في السناتو كل من لوكيلوس وكاتو وميتيلوس
فأمر المجلس على مناقشة تنظيماته في الشرق وتخصيصه ورفض التصديق
عليها . جملة كما طلب يومئذ . كذلك رفض السناتو مشروعاً بتوزيع
الأراضي العامة في كيبانيا على جنوده القدماء وتخصيص الأيرادات
الناتجة عن فتوحاته الجديدة خلال خمس سنوات لشراء أراض أخرى
لسد الحاجة ، وهو مشروع تقدم به أحد قباء العامة الموالين له في
عام ٦٠ أولاً إلى السناتو وبعدئذ إلى الجمعية القبلية ، ولكنه فشل في
المجلسين . وتعهد السناتو برفضه عدم تمكين يومئذ من التصرف في
أموال عامة طائلة قد يستغلها في كسب الأنصار وتعهد إظهاره في صورة
العاجز عن إرضاء جنوده حتى يتخرج مركزه ويضمحل نفوذه .

هكذا وجد القائد الكبير نفسه مغلول اليدين أمام تعنت الهيئة
الأولجركية ، وأحس بامتهان كرامته ، وساوره الخوف من ألا يجد في
المستقبل جنوداً يتطوعون بالخدمة تحت رايته . فلا غرابة إذن في أنه
أخذ يتلمس أي وسيلة — وإن لم تصادف هوى في نفسه — لتحقيق
مطالبه وإرضاء رجاله . وأضاع السناتو من ناحية أخرى فرصته
لاستمالة يومئذ إلى جانبه ، وأغضب طبقة الفرسان وكراسوس في الوقت
نفسه . ذلك أن ملتزمى الضرائب كانوا قد تعاقدوا مع الحكومة على
تحصيل ضرائب ولاية آسيا ثم تبين لهم أنهم لن يستطيعوا بسبب قلة
المحصول جباية المقدار المتفق على تسليمه للخزاة . فحاولوا تعديل
شروط العقد بتخفيض القيمة المطلوبة وأيدهم كراسوس في ذلك . لكن
السناتو رفض التعديل في مايو عام ٦٠ بإيعاز من كاتو الذي قد دبر رجال
الإعمال واقترح في المجلس نكابة فيهم مشروعاً يقضى باعتبار الرشوة

بين المحلفين من طبقة الفرسان في محاكم الجنايات جريمة عامة ، حتى يتمكنوا في هذا الشأن بالمحلفين من طبقة السناتو (١) . وذهبت جهود شيشرون سدى في التوفيق بين السناتو ويومى وتحطمت آماله في تحقيق الوئام بين طبقتى النبلاء والفرسان (Concordia Ordinum) ذلك الوئام الذى استطاع أن يحققه فترة قصيرة في أيام قنصلية .

قنصلية قيصر

كان هذا النزاع لا يزال قائما عندما عاد يوليوس قيصر الى روما في يونيو من عام ٦٠ . وكان قيصر قد اقتخب پريتورا لعام ٦٢ ، وبعدئذ عين حاكما - بوصفه پريتورا سابقا - على « أسبانيا البعيدة » في عام ٦١ حيث قام ببعض الحملات الموقفة على حدود الولاية ، واستمال الرعايا الى جانب روما ، وحصل على الأموال اللازمة لتأديته ديونه الباهظة . وقد طالب عند عودته بموكب رسمى احتفالا بانتصاره ، وترشيح نفسه قنصلا لعام ٥٩ . وبات في خارج المدينة ينتظر وصول الرد بالموافقة على دخولها في موكب رسمى . وعندما لم يجب السناتو طلبه ، ولم يقبل ترشيحه قنصلا وهو غائب ، تخطى قيصر سياج المدينة متنازلا عن حقه في موكب الانتصار ، ليقدّم اسمه بنفسه قبل اغلاق باب الترشيح للقنصلية . وأجريت الانتخابات بعد منتصف عام ٦٠ ، ففاز قيصر بالقنصلية بفضل تأييد كراسوس وبعض أنصار يومى ، وزامله في المنصب بيولوس (M. Calpurnius Bibulus) زوج

(١) هذه التفرفة في المعاملة بين الطبقتين ترجع الى أيام جايوس جراكوس الذى استصدر قبل اصلاح محكمة الجنايات المختصة بالابتزاز قانونا لمعالجة الرشوة بين المحلفين الذين كانوا وقتئذ من رجال السناتو وخدمهم . فلما حل الفرسان محلهم كمحلفين في هذه المحكمة اغفل جايوس تعديل القانون فلم يسر عليهم . وظل هذا الوضع قائما حتى بعد عودة رجال السناتو الى هذه المحكمة وغيرها من محاكم الجنايات (راجع ص ٢٨) .
وانظر الآن :

R. J. Rowland, "C. Gracchus and the Equites", *Trans. Amer. Philol. Assoc.* 96 (1965), 361-373.

أبنة كاتو ، الذي رشحه الحزب الارستقراطي وأفق عن سعة في سبيل
اللعاية له . والواقع أن قيصر بالرغم من توأطقه مع كراسوس في بعض
المشروعات الضارة بمصالح روميى ، لم يكن في يوم من الأيام عدوا له
حتى أنه تعاون مع أنصاره قبيل عودته (١) . لذلك لم يجد قيصر
صعوبة كبيرة في التوفيق بين هذين الزعيمين اللذين وقف السناتو منهما
موقف العداء ودفعهما الى الارتقاء في أحضان الحزب الديمقراطي .
وأقنعهما بالانضمام اليه لتكوين تحالف سرى حتى يحقق كل منهما
مطالبه في أثناء مدة قنصليته . وقد عرفت هذه الجبهة غير الرسمية
فيما بعد باسم « الائتلاف الثلاثى » أو « الحكومة الثلاثية الأولى »
(Triumviri) ، وإن تكن التسمية الأخيرة غير صحيحة (٢) .

وعندما تولى قيصر القنصلية في أول يناير من عام ٥٩ بدأ من

(١) انظر ص ١٦٨ . توأط قيصر مع كراسوس - كما رأينا - في بعض مشروعاته
كمشروع قسم مصر ومشروع روللوس ومنح الجنسية لسكان شمال اليو وتوزيع كتيلا
لقنصلية في سنة ٦٤ . لكن هذا التقارب العارض بين وجهتى نظريهما السياسية لم يكن
سبب التحالف بينهما . فقد خالفه قيصر في مسألة جوهرية عندما أيد «قانون جابينيوس»
في عام ٦٧ و « قانون مانيليوس » في عام ٦٦ ، وكلاهما كان يطول روميى سلطات واسعة .
وإذا كان قيصر قد اشترك مع كراسوس في دساتنه ، فقد فعل ذلك لأنه كان مهتما له بمبالغ
طائلة . وليس من المستبعد أنه اقتبط - مثل فيشرون - لفشل مؤامراته . ولكن تقيس
أراؤه السياسية في الفترة التى سبقت عام ٦٢ قياسا صحيحا ينبغي أن نتبع نشاطه
في ميدان آخر لا يظهر فيه تأثير كراسوس . فقد أيد قيصر الدعوى التى رفعت على من
كان لهم يد في حركة سلا الارهابية . ونادى برد الحقوق السياسية الى أبناء شعبا ذلك
الدكتاتور ، وأومز بتوجيه الاتهام الى رابينوس حتى لا يساء استغلال « قرار السناتو
الآخر » لاصنام مواطنين دون محاكمة (راجع ص ١٦٠ ، حاشية) . ومع أنه كان في ذلك
متائرا الى حد ما بقرابته لماريوس ، فسادا اعتدال آرائه السياسية ونفوره من التطرف
الحزبى الأسمى هو الذى أملى عليه هذا السلك .

(٢) سميت بالأولى تمييزا لها عن « الحكومة الثلاثية » لاحقية التى تكونت روميا
في آخر عام ٢٢ من اكتاتيتوس واطونيوس وليبيدوس وجسفت في عام ٢٧ . وقد أطلق
الاقطاب الثلاثة على أنفسهم اسم الاصدااء (amici) بمعنى الحلفاء السياسيين (socii)
في اللغة اللاتينية الرومانية القديمة .

على أن الكتاب القدماء يصفون هذا « الائتلاف الثلاثى » بعصبات تتم من التعريض
به فيسمونه شركة السلطة (أي تحالف القوة) أو الإمارة أو السيطرة الاستبدادية (أى
potentiae societas — coniuratio — dominatio .
الظنيان) :

خوره في تنفيذ التزاماته نحو زميليه في الائتلاف ، فقدم الى السناتور في يناير (٢) مشروعا بتوزيع الأراضي الصالحة للزراعة التي تملكها الدولة في خارج كمبرانيا وما قد تحصل عليه بالشراء على جنود يومى القدماء والمواطنين الفقراء في روما . ولما قوبل المشروع بمعارضة شديدة وبخاصة من جانب كاتو ، خصمه اللدود ، طرح قيصر المشروع على الجمعية القبلية . وهناك اعترض عليه بعض ثقباء العامة الموالين لحزب النبلاء ، وكذلك زميله القنصل بيبولوس الذى حضر الى السوق العامة وهاجم المشروع . عندئذ رأى قيصر أن لا مفر من انتهاك الدستور والالتجاء الى القوة للقضاء على المعارضة ، فاستعان بجنود يومى القدماء على طرد خصومه من مكان الاجتماع بالسوق العامة (Forum) وأصبح المشروع قانونا (١) ، وألزم أعضاء السناتور بحلف اليمين على احترامه مثلما حدث أثناء تريونية ساتورنيوس في عام ١٠٠ (٢) . وانكشف النقاب عن وجه «الائتلاف الثلاثى» واقتضح أمره . وعندئذ لجأ بيبولوس - الذى تحطمت شاراته سلطته (fasces) في السوق العامة - الى حيلة أخرى فاعتكف في منزله وأضرب عن الاشتراك في تصريف شئون الدول احتجاجا على مسلك زميله ، وأعلن أنه « يرقب السماء » ليستطلع مشيئة الآلهة (auspiciu). حتى يعطل الأعمال الرسمية ويبطل تشريعات قيصر . واكتفى بإصدار منشورات يومية لاذعة للتشهير به وتشويه سمعته بين الجماهير .

ولما تبين أن الأراضي المنصوص عليها في المشروع غير كافية لسد الحاجة اقترح قيصر في مايو من نفس العام مشروعا تكميليا لتوزيع الأراضي العامة في كمبرانيا على فقراء المواطنين ذوى الأسر (٣) . ومع أن هذه الأراضي كانت مؤجرة لمزارعين بمقتضى عقود طويلة الأجل وتدر على الدولة

lex Iulia agraria. (١)

(٢) راجع ما تقدم في ص ٥٨ - ٥٩ .

lex Campana (٣)

أرباحا طائلة ، فإن المشروع نفذ على الرغم من معارضة كاتو الشديدة . وبمقتضى قانون آخر تمت المصادقة على جميع التنظيمات (acta) التى قام بها يومى فى الشرق (١) . وقد أتبع هذا القانون عدة قوانين أخرى مكملة اقترحها قيب من صنائعه ونقضى بمنح بعض المدن والأمراء والملوك فى الشرق امتيازات معينة ، وكان من بينهم بطلميوس الثانى عشر الملقب « بالزمار Aulètes » الذى حصل على اعتراف رسمى بحقه فى تاج مصر بعد أن سلّم لقيصر ويومى رشوة ضخمة (٢) . وبذلك تحققت جميع مطالب يومى . ثم صدر قانون يعنى ملتزمى الضرائب فى ولاية آسيا من ثلث المبلغ المتفق عليه فى العقد الأسمى (٣) . وهكذا أراضى قيصر كراسوس ورجال الأعمال من طبقة الفرسان . على أن أهم مشروع قبضه قيصر مستهدفا به المصلحة القومية لا الحزبية فى تلك الفترة هو قانونه الجديد لمكافحة الابتزاز (lex Iulia de repetundis) والذى وضع به قيودا للحد من مطالب حكام الولايات غير المشروعة وسد به ثغرات كان ينفذ منها الجشعون منهم . وهو ينهض دليلا سلطعا على سعة أفقه واهتمامه الدائم بسكان الولايات . وقد ظل هذا القانون نافذا طوال المدة التى بقيت فيها محاكم المحلفين .

ولم ينس قيصر نصيبه فى هذه الشركة فقام منذ بداية قنصليته بترتيبات اللازمة لكى تسند اليه قيادة استثنائية بعد انتهاء مدة خدمته . فاقترح قانينيوس (P. Vatinius) - وهو قيب من أعوانه كان قد تبنى بعض المشروعات السالفة الذكر - اقترح قانونا (lex Vatina) أقرته الجمعية القبلية وينص على اسناد حكم ولاية «غالة القريبة» وإللوريا الملحقة بها الى قيصر ، مع تزويده بثلاث فرق عسكرية لمدة خمس سنوات

lex Iulia de actis Pompeii.

(١)

lex Iulia de Ptolemaeo Aulete.

(٢)

lex Iulia de publicanis Asiae.

(٣)

نتهى في أول مارس من عام ٥٤ (١) . وحدث أن خلا منصب حاكم «غالة البعيدة» في نفس العام فوافق السناتو بأيعاز من يومبي على اضافة هذه الولاية الى قيادة قيصر ، وزيادة الفرق الملحقه الى أربع . هكذا أصبح قيصر في الفترة الأخيرة من عام ٥٩ يتمتع بالقيادة البروقنصلية والقنصلية معا ، فأتاح له ذلك أن يحتفظ بالقوات الحربية في أى مكان بإيطاليا خارج سور المدينة وأن يسيطر على الموقف السياسى في روما . سيطرة تامة . أثبتت بذلك أن قيادته البروقنصلية جعلته في مأمن لفتره طويلة من المحاسبة على تصرفاته غير الدستورية أثناء قنصليته ، تلك القنصلية التى تكشف عن حقيقتين احدهما أن « الائتلاف الثلاثى » أصبح أقوى من أى جهاز حكومى قائم ، والأخرى أن الجمهورية الرومانية أصبحت فى قبضة ثلاثة رجال . فى الحق ان قيام « الائتلاف الثلاثى » كان نقطة تحول فى تاريخ « الدولة الحرة » . وكان ، كما ندرك كل من شيشرون وكاتون هو السبب الأساسى فى قيام الحرب الأهلية عام ٤٩ . ولم يكن هذا أو ذاك بعيدا عن الصواب حين قال ان هذا الائتلاف كان بداية نهاية الجمهورية . ومما يؤكد هذه الحقيقة ان المؤرخ أسينيوس پوليو ، وهو أحد أنصار قيصر وأنطونيوس ، بدأ تاريخه عن الحرب الأهلية الكبرى بعام ٦٠ ، عام قنصلية ميتيللوس كيلر ولوكيوس أفرانيوس . لقد فرض يومبي وكراسوس وقيصر مستندين الى قوة السلاح ، ونأييد دهماء المدينة ، وكثير من الفرسان ، فرضوا ارادتهم على الدولة وحطموا قوة السناتو . وقد بدأ شيشرون يحس منذ ذلك الحين بأنه سلب حرية الكلام ، والنفوذ (auctoritas) والكرامة (٢) . لقد أصبحت الدولة والدستور تحت رحمة ثلاثة أغضب أو رؤساء (principes) يكافحون من أجل السلطة (potentia) والكرامة

(١) ويعرف هذا القانون باسمه الكامل lex Vatinia de provincia Caesaris

تميزا له عن بقية القوانين التى تبناها فلاينيوس .

(٢) كتب شيشرون فى عام ٥٩ يقول "tenemur undique neque iam quominus serviamus recusamus"

(dignitas) الميامية وعلى هذه القيم سوف يصطرع الزعماء في الحرب الإهلية المقبلة (١) .

وفي تلك الجبهة الشعبية القائمة على اشتراك المصالح المادية كان يومى هو الشخصية المسيطرة نظرا لسمعته الحربية وتقوذه جنوده القداماء . وكان قيصر يظهر كأداة في يده ، لكنه كان في حقيقة الأمر الرأس المفكرة اذ كان أبرع من زميليه في السياسة وأكثر فطنة ودهاء . لقد استطاع أن يبنى لنفسه مركزا يتيح له أن يقوم بدور مستقل في السنوات التالية .

تريونية كلوديوس

ولم يتصدع « الائتلاف الثلاثي » بانهاء قنصلية قيصر ، بل ظل خائما لأن أعضائه وطلدوا عزمهم على الاحتفاظ بالسيطرة على شئون الدولة . ومع أن الرأي العام بدأ يتحول عنهم في الشطر الأخير من السنة ويناصبهم العداء في بعض الأحيان (٢) فقد نجح بفضل مساعدتهم

(١) من مبلغ خطورة « الائتلاف الثلاثي » وهدى أثره في التاريخ الروماني ، راجع R. Syme, *The Roman Revolution* (Oxford, 1939), Ch. I.

(٢) حدثت في صيف ذلك العام (٥٩) « مؤامرة فتيوس » الزعومة التي أثارت ضجة وإعاصفة ولكنها لم تسفر عن شيء ذي أهمية . كان فتيوس (L. Vettius) يحترف التجسس، فادع شيشرون انشاء قنصليته في عام ٦٢ بمعلومات صحيحة وغير صحيحة عن مؤامرة كنيلىنا . وقد أنهى فتيوس الى شباب من معارضى « الائتلاف الثلاثي » يدعى كوردو C. Curio - سئلنى به مرة أخرى كتقييد في عام ٥٠ - أنهى اليه خبر مؤامرة تدبر لأغتيال يومى . ونقل الشاب النبا الى أبيه الذى نقله بدوره الى يومى . وأجرى التحقيق بإيعاز منه في مجلس السناتو ، فانقلب فتيوس « شاهد ملك » ، واتهم كوردو بتزعم المؤامرة وقج فيها بشخصيات من الحزب الارستقراطى كان من بينهم بروتوس (M. Brutus) وبببولوس وغيرهما . وانتهى التحقيق الى أن البلاغ كاذب وصرف السناتو فتيوس سائرا منه . لكن في اليوم التالي استدعى فيوس لاسنجاوبه ثانية أمام قيصر وقاينبيوس في الجمعية باليعدان العام . وفي هذه المرة نفى الهمة عن بروتوس ولكنه انضاف الى قائمة المتهمين أسماء أخرى مثل لوكلاوس وشيشرون . ولذلك لم تؤخذ أقواله مأخذ الجد ، وبدا من الكفاة التي كان يتوقعها التي به في السجن حيث مات في ظروف مريبة . ومن الواضح أن المؤامرة على حياة رجال الائتلاف الثلاثي كانت مؤامرة وهمية لا وجود لها الا في

مرشحان من أنصارهم في انتخابات القنصلية للعام التالي (٥٨) . وثقوية
للروابط بينهم تزوج يومى جوليا (Iulia) ابنة قيصر ، وتزوج قيصر
بعد ذلك كلپورنيا (Calpurnia) ابنة پيسو (L. Calpurnius Piso
Caesoninus) أحد المرشحين الفائزين بالقنصلية (١) .

وازاء الحملات الشديدة التى وجهت ضدهم (٢) ، شعر رجاله
« الائتلاف الثلاثى » بضرورة التخلص من أقوى خصومهم ، كانوا
وشيشرون . وكان شيشرون قد رفض جميع عروضهم للانحياز الى
جانبهم ، وانتقدهم اقتقادا مرا فى مناسبات رسمية عديدة . ولذلك
حرضوا عليه رجلا يدعى كلوديوس (P. Clodius Pulcher) كان يحقد

خيال قتيوس . لكن هذا لا ينفى انه كان يعمل لحساب رجل آخر . ولا سبيل اليوم
الى التحقق من شخصيته ، وان كان شيشرون زعم فيما بعد ان فايينيوس هو الذى دبر
الحادثة . ومع هذا فمن المرجح ان قتيوس نفسه اخلق المؤامرة طمعا فى مكافأة سخية .
ولا تزال قصته وظروف موته من المشاكل العجزة ؛ راجع :

W. Allen, Jr. "The Vettius Affair Once More" Trans. Amer.
Philol. Assoc. 81 (1950), 153-163.

- (١) كان الفائز الآخر بالقنصلية هو اولوس جابينيوس نقيب عام ٦٧ ، والصابط
المساعد (legatus) فى جيش يومى اثناء حملته فى الشرق الأوسط (راجع صفحات
١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤٤) .

(٢) كان للمنشورات التى اصدرها القنصل بيبولوس (بايعاز من كابو ان لم يكن
بقلمه) ، وهو معتكف فى منزله احتجاجا على مسلك زميله فيسر ، تأثير كبير فى الراى الروماني
العام ، حتى ان الناس تجمعوا حول الأماكن التى كانت تعلق فيها ونسخوها وبعثوا بها الى
الولايات . وكتب شيشرون فى احدى رسائله الى صديقه انيكوس يقول « ليس هناك ما هو
أروع بين الشعب من كراهية الشعبين Populares » . وكتب قارو رسالة عنوانها
«الوحش ذو الرؤوس الثلاث» . ووصف العامة الاقطاب الثلاثة بأنهم ملوك وطفة وأمرء .
وارخ بعض محبى الجون وصاياهم بقنصلية « فيسر ويوليوس » ! . وانتشد ممثل براجمدى
فى احدى المسرحيات بيتا فيه تعريض بيومى « انت ايها الكبير مصدر شقائنا :
(Nostra miseria tu es Magnus) » . وقد استعادته الجماهير اكثر من مرة .
وعندما دخل فيسر المسرح لم يصدق له احد بينما قوبل احد انصار الارستقراطيين بعاصفة
من الهتاف والتصفيق وقام الفرسان من مقاعدهم تحية له . وآثار ذلك غضب قيصر فهتت
بحرمان العامة من اقطاعات الاراضى الجديدة والفرسان من مقاعدهم الممتازة فى المسرح .

عليه لأنه شهد ضده في قضية اتهم فيها باقتحام حرمة الشعائر الدينية^(١) . وكان كلوديوس في الأصل ينتمي الى احدى عشائر الأشراف ، فساعده فيصر ، بوصفه قنصلا وكاهنا أعظم في عام ٥٩ على تغيير وضعه الاجتماعي بنقله عن طريق التبنى الى عشيرة من العامة حتى يتمكن من ترشيح نفسه قهيا للعامة^(٢) . فلما فاز بالترشيحية رأى أن مجرد أولا الحزب الأرستقراطي من السلاح الذي استغله مؤخرا لعرقلة التشريعات الشعبية . فاستصدر في أوائل عام ٥٨ قانونا بتعديل قانوني آيليوس وفوفيوس (leges Aelia et Fufia) - اللذين صدرا حوالي ١٥٠ - وكانا يخولان بعض الحكام الحق في فض جلسات الجمعية القبلية أو المثوية بحجة ظهور طالع نحس (obnuntiatio)^(٣) . وقضى التعديل بقصر هذا الحق على ثقباء العامة والعرافين حتى لا تتكرر مناورة كالتى قام بها ييولوس في سنة ٥٩ لاحباط مشروعات قيصر وفاتينيوس^(٤) .

-
- (١) اوتكب كلوديوس في عام ٦٢ فعلا فاضحا أحدث دوبا كبيرا في العاصمة الرومانية . ففي كل سنة كانت السيدات الرومانيات يحتفلن مع عذارى قستا بشعائر دينية معينة تسمى « الربة الطيبة » (Bona Dea) . وكان محظورا على جميع الرجال حضور هذا الحفل . وفي ديسمبر أقيم الحفل في منزل يوليوس قيصر ، الكاهن الأعظم ، وكان مجاورا لغرفة الرسمي المعروف باسم رجيا (Regia) وفي أثناءه ضبط كلوديوس متخفيا في زي امرأة . وراجت الشائعات بأن كلوديوس التماحضر الحفل بانفاق سابق مع بومبيا (Pompeia) زوجة فيصر الثالثة التى كانت على اتصال به . لكن من الجائز أنه لم يحضر الاحتفال الا بدافع الفضول . ولما لاكت الألسن الحادثة ، طلق فيصر زوجته لا لأنه أوتاب في سلوكها لو شك في اخلاصها بل « لأن زوجة فيصر » على حد قوله « ينبغي أن تكون فوق مستوى الشبهات » . واتهم كلوديوس بتدنيس طقوس « الربة الطيبة » ، فحاول أن يدفع التهمة عن نفسه بحجة تقيبه عن مكان الجريمة في يوم الاحفال . غير أن شيشرون أدلى بشهادة دعت هذه الحجة ، وكانت المحكمة الخاصة بتدين كوديوس لولا أن كراسوس تدخل لانتقاده برشوة المحلفين الذين فضوا ببراءته (مايو ٦١) . ولم يفلر كلوديوس لشيشرون موقفه منه .
- (٢) ويسمى هذا الاجراء في اللاتينية traductio ad plebem ، وكان يتم في جمعية الأحياء القديمة (comitia Curiata) التى اختصت عموميته على ٣٠ مثلا للأحياء
- (٣) كان هذا الاجراء نافلا ما عدا في حالة « مجلس العامة » المنعقد برئاسة ترييون لانتخاب ثقباء العامة والايديليس من طبقتهم .
- (٤) في رأى بعض الباحثين أن قانون كلوديوس الجديد ابطال فيما بعد ، فظل التناصل يستعملون سلاح ال obnuntiatio ضد ثقباء العامة ، وثقباء العامة ضد القناصل .

« بعدئذ تقدم كلوديوس بمشروع يقضى بحرمان كل من أعدم مواطنين رومانيين دون محاكمة من « الماء والنار » أى تفيه مع تجريده من حق المواطن (١) . كان شيشرون بداهة هو المقصود بهذا المشروع لأنه كان صاحب اليد الطولى فى اعدام زعماء مؤامرة كتيلىنا . وقد احتج السناتو باعلان الحداد ، وتوسط له رجال الأعمال ، وحضرت الوفود من أنحاء إيطاليا الى العاصمة لتتوسل من أجله . لكن جميع هذه المحاولات ذهبت سدى . وأحسن شيشرون بالخطر ولا سيما بعد أن تخلى عنه صديقه پومپى ، فغادر العاصمة حزينا الى المنفى فى شهر مارس دون أن ينتظر المحاكمة . وبعدئذ ووفق على اقتراح رسمى بنفيه ومصادرة أملاكه . وأما كاتو الذى انتخب كويستورا فقد أسندت اليه - بعد تخويله سلطة الامبريوم البروپريتورية (٢) - مهمة اقناع بطليموس حاكم قبرص وهو أخو « الزمار » ملك مصر - بالتنازل عن الجزيرة والاشراف على تصفية أملاكه . وكان بطليموس مغضوبا عليه من « الائتلاف الثلاثى » لأنه رفض أن يدفع ثمن الاحتفاظ بعرشه ، فاستصدر تقيب العامة كلوديوس قرارا بادماج الجزيرة فى أملاك الجيههورية بحجة أنها تعادى الرومان وتهاون القراصنة (٣) . لكن كلوديوس كان يرمى الى الاستفادة من مواردها فى تمويل مشروع بتوزيع الغلال على فقراء روما دون مقابل . ومع أن كاتو فطن الى أن الغرض من المهمة هو ابعاده عن العاصمة أطول مدة ممكنة ، فإنه لم يشأ أن يرفضها لاعتقاده أنه أنزه من غيره للاضطلاع بها وأن الواجب يحتم عليه قبولها كما تقضى الفلسفة الرواقية التى كان يعتنق تعاليمها (٤) .

(١) راجع ص ٥٩ ، ٩٢ حاشية ٢ .

(٢) كان كلوديوس يرمى أيضا الى توريث كاتو بجعله يقبل مهمة تتضمن سلطة استثنائية ، وهو ما كان الأخير يعترض عليه دائما لمخالفته الدستور .

(٣) رفض بطليموس حاكم قبرص التنازل عن عرشه وأثر الانتحار . وقد اندمجت قبرص فى ولاية كيليكيا . وبذلك فقد البطالة آخر ممتلكات لهم فى خارج مصر .

(٤) وعن مهمة كاتو فى قبرص ، راجع :

S. I. Oost. *Class. Philol.* (1955), 98 ff.

وقد ظل قيصر ، بعد انتهاء مدة قنصليته ، مرابطا مع جيشه على مقربة من روما حتى غادر شيشرون إيطاليا الى المنفى . وبعدئذ رحل الى مقر حكمه الجديد في « غالة القريبة » . ولم تعد روما تعيش في خوف من بطشه .

فتح بلاد الغال :

رأينا كيف أسندت الى قيصر بمقتضى « قانون قاتينيوس » القيادة في ولايتي « غالة القريبة » و « غالة البعيدة » وفي اللوريا (١) . وكانت غالة القريبة تقع في جنوب الألب وتمتد من حوض الپو الى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة الإيطالية . ولعل قيصر اختارها ليكون على مقربة من مسرح الأحداث السياسية بالعاصمة ، لاصيحا أنها كانت منذ الحرب الإيطالية من أشد المناطق ازدهاما بالسكان وأكثرها ملائمة لتعبئة الجند . ولا يستبعد أنه طالب بوضع اللوريا تحت قيادته البروقنصلية ليتخذها قاعدة لمد الحدود الرومانية نحو الشمال الشرقى عبر جبال الألب . وأما « غالة البعيدة » التي عرفت أيضا باسم « غالة التاربونية » أو « بالولاية » فقط ، فكانت تقع وراء جبال الألب الغربية ، وتشمل المنطقة الساحلية الممتدة حتى جبال البرانس ، والأراضي بين الألب ونهر الرون حتى بحيرة جنيف شمالا . وقد شاء القدر أن تكون الأخيرة هي قطة الارتكاز التي شن منها قيصر حملاته المشهورة على بقية بلاد الغال فيما نعرفه الآن باسم فرنسا .

(أ) الأحوال في غالة كوماتا :

وكانت المنطقة الممتدة من جبال البرانس حتى نهر الراين ومن الرون

(١) في رأى آخر ان اللوريا (Illyricum) لم تكن ملحقة بولاية « غالة القريبة » - راجع ص ١٧٥ - بل بولاية مقدونيا .

حتى المحيط الأطلسي تعرف كلها باسم غالة كوماتا (Gallia Comata) (١) وتسكنها عدة شعوب مستقلة تنقسم عادة الى ثلاثة أقسام :

(١) الأكويناني (Aquitani) ويقطنون بالمنطقة الواقعة بين جبال البرانس ونهر اللوار بجنوب غرب فرنسا ، (ب) الكلتي (Celtae) ، بأضيق مفهوم الكلمة ، ويسكنون الأراضى التى تمتد من اللوار حتى السين والمارن فى وسط فرنسا ، (ج) البلجيكي (Belgae) ويعيشون فى الشمال بالمنطقة التى تقع بين نهري السين والمارن ونهر الراين ، وكانت تسكن معهم شعوب أخرى من أصل جرمانى . كان الغال فى مجموعهم شعبا نصف متحضر ويشغلون بالزراعة والرعى ويتقنون صناعة المعسل ويمارسون التجارة ويستعملون النقود . ولم تنشأ عندهم سوى قليل من المدن الغنية الهامة ، وأما بلدانهم الصغيرة فكانت مراكز حصينة يلجأون اليها فى ساعة الخطر . وعلى الرغم من تقاربهم فى اللغة والجنس والعادات فإن الخلافات التى سادت بين شعوبهم والخصومات التى استحكمت بين زعماء قبائلهم حالت دون قيام وحدة سياسية بينهم (٢) . وكانت الديانة المعروفة باسم « الدرودية » أقوى عوامل الوحدة القومية ، وكان من الممكن أن تقوم الهيئة الدينية المشرفة عليها والتى تغفل نفوذها فى جميع أنحاء بلاد الغال بدور هام فى مقاومة الرومان . لكن يبدو أن الدردود (Druidae) (٣) - كسائر الغال - كانوا منقسمين على أنفسهم عاجزين عن القيام بأى عمل جماعى .

(١) أى غالة « طوبلة الشعر » .

(٢) كانت بلاد الغال منقسمة الى وحدات صغيرة او مقاطعات يطلق عليها فيسر اسم pagi (وتقابل العشائر) . وكانت هذه بدورها مندمجة فى وحدات أكبر يسميها civitates (وهى القبائل) . ويسمى فيسر نبلاهم بالفرسان equites . وكان الفرسان هم أقوى سلاح بين قواتهم الحاربة .

(٣) عيد الغال كالرومان آلهة كثيرة ما تزال معلوماتنا عنها طفيفة مشوهة . لكن الغال لم يعرفوا المعابد بل كانوا يقيمون طقوسهم الدينية فى ادغال مقنعة ، كما لم يحتوا التماثيل لانهم لم يتصوروا الآلهة فى هيئة البشر . وكانت تتولى مراسمهم الدينية هيئة

{ ب } الهلثيتى وأريوشتوس :

وعندما ضم الرومان «غالة البعيدة» وهى «التاربونية» الى أملاكهم فى عام ١٢١ كانت تتنازع السيادة فى غالة كوماتا (وسط فرنسا) قبيلتا الآيدوى (Aedui) والأرثرنى (Arverni) وقد وقف الرومان فى هذا النزاع الى جانب الآيدوى وساعدوهم على احراز النصر . وبعد مضى حوالى أربعين عاما استرد الأرثرنى السيطرة التى فقدوها . ولكن الزعامة لم تلبث أن آلت ثانية الى الآيدوى الذين ظلوا محتفظين بها حتى عام ٦١ . وكان من الطبيعى أن تكره بعض القبائل الأخرى تحكم الآيدوى فى شؤونها ، وبخاصة قبيلة السيكونانى (Sequani) التى طلبت المساعدة من الجرمان القاطنين فيها والرايين لمقاومة عدوانهم ، فجاء لنجدتها

من التينة يعرفون باسم الدروود (Druidae) ، وهى هيئة منظمة فنيما حسنا كانت تجتمع فى كل سنة على شكل مجلس قومى ، ويرأسها زعيم ينتخب لدى الحياة . وكانت المضوية فيها وراثية ، وغالبا ما اقتصرت على النبلاء . وكان الدروود معفيين من الضرائب والخدمة العسكرية ، ويهيمنون على شئون التعليم ، وجانب كبير من القضاء ، ويصدرون قرارات تشبه قرارات الحرمان . وقد افهم فيسر أن الديانة الدروودية وجدت من بريطانيا التى فزاهما الكلت وأنها كانت توجد هناك فى آنى صورها حتى أن كثيرين من الغال كانوا يذهبون الى الجزيرة للتزود بمعلومات توفر من اسرار طقوسها . لكن من المرجح ان الدروودية نشأت قبل مجيء الكلت الذين اعتنقوها بمداسقرارهم بالبلاد . وعلى أى حال فلم يظهر لها أثر فى « غالة القريبة » مما يؤيد قول فيسر بأنها كانت من اصل غير غالى . ولأنه لا يستطيع ان نجزم بنشوء من تعاليم الدروودية سوى أنها تضمنت عقيدة خلود الروح . ويستخلص من كلام فيسر (Bell. Gall. VI, 14) أنهم كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح . ولذا صح ذلك فان تعاليمهم لم تؤثر فى نفوس الجمالير لأن الكلت كانوا يتصورون الحياة الأخرى كالحياة الدنيا وأكثر منها بهجة . وكان التعليم الشفوى هو وسيلة الدروود فى تلقين الناس ملهيمهم اللاهوتى مع أنهم كانوا يعرفون الكتابة ويستخدعون حروفا أبجدية يونانية نقلوها فيما يرجع عن مسيليا (مرسيليا) لاستخدامها فى الأمور العنيوية . وكان من بين طقوسهم التى استهجنها الرومان تقديم البشر قربانا لالهتهم . ومن الدروود ، راجع : T. D. Kendrick, *The Druids*. 1927

وعن بلاد الغال والغالين ، انظر :

A. Grenier, *Les Gaulois* (1945); R. Lantier, *JRS* 36 (1946), 76-90;
O. Brogan, *Roman Gaul* (1953); P-M. Duval, *Historia* V (1956), 238 ff.; T. G. E. Powell, *The Celts* (1958).

الزعيم أريوفستوس (Ariovistus) على رأس قوة كبيرة أعانتها على انزال الهزيمة بالأعداء . وعندئذ استناث الأيدوى بالرومان ، ولكن دون جدوى ، لأن حاكم ولاية « غالة البعيدة » الذى أمره السناتو بتقديم المعونة لهم كان منهمكا وقتئذ فى اخماد ثورة الأللوبروجيس . وسرعان ما أدرك السيكوانى أن اقتصارهم لم يعد عليهم الا بغنم ضئيل لأنهم أرغموا على تسليم أراضيهم فى الألزاس لأريوفستوس الجرمانى الذى أخذت قوته تزداد بسرعة ، عندما انضمت اليه جماعات جديدة من بنى جلده . وفى تلك الأثناء بدأ فريق بين الأيدوى بتلس العون من ناحية أخرى غير الزومان ، فولى وجهه شطر الهلثيتى (Helvetii) وهم شعب غالى كان يستكن فيما نعرفه اليوم باسم سويسرا . كان الهلثيتى يثنون من ضغط الجرمان عليهم ويعبشون فى خوف من أريوفستوس الذى استقر . بالقرب منهم حتى أنهم قرروا الرحيل عن بلادهم والبحث عن موطن جديد فى غرب بلاد الغال (بين اللوار والجارون) . ورأى الأيدوى أن يستفيدوا من هجرة الهلثيتى ويتخذوا منهم حلفاء يشدون أزرهم فى وقت المحنة . وبدأ الهلثيتى يتجمعون فى ربيع عام ٥٨ على بمقربة من مدينة جنيف . ابتعدادا للهجرة . وكانت أخبار هذا التجمع فى تلك النقطة هى التى حثت قيصر على مغادرة إيطاليا على وجه السرعة واجتياز جبال الألب .

وأراد الهلثيتى أن يعبروا الجزء الشمالى من ولاية « غالة البعيدة » لى يصلوا الى غرب بلاد الغال . فأرسلوا سفراءهم الى قيصر لاستئذانه فى اجتياز الولاية الرومانية . لكنه لم يشأ أن يجيب مطلبهم لأنه أدرك أن استقرارهم ببلاد الغال سيؤدى حتما الى اثاره اضطرابات قد تهدد مركز روما فى تلك المنطقة . ولما لم يكن لديه حينئذ سوى فرقة عسكرية واحدة فقد أبلغهم بأنه سيعث بالرد حالما يفرغ من دراسة مطلبهم . وقد قصد بذلك أن يكسب الوقت فى تحصين الضفة الغربية لنهر الرون الواقعة الى جنوب البحيرة . فلما عاد اليه سفراؤهم صارحهم

بالرفق، ولم يَقم الهلتي في محاولة لاختراق الولاية الرومانية عدوة،
ولكنهم استطاعوا أن يفتقروا النيكواني بالسماح لهم باجتياز أراضيهم.
ولم يكن في وسع قيصر أن يحتج على ذلك رسمياً، لأن النيكواني
كانوا شعباً مستقلاً. ومع هذا فقد وطد عزمه على أن يمنع هجرة
الهلتي بالقوة. ولما تبيّر له أن قواته غير كافية لتحقيق غرضه، هرع
إلى حالة القربة ليحشد الفرق اللازمة. وبعد أن أتم استعداداته عاذ
فأجاز الألب لمواجهة الموقف..

كان الهلتي في أثناء غيابه قد اجتازوا أراضي السيكوني في
جنوع ضخمة (١)، وعبروا نهر البايون ودخلوا أراضي الآيدوي
الذين كانت مقاليد أمورهم قد انتقلت إلى يد الفريق الموالي للرومان،
فاستجدوا هيصر لحماية بلادهم. واتخذ قيصر من ذلك ذريعة للتدخل،
فزحف لنجدتهم على رأس أربع فرق رومانية كاملة واشتبك مع الهلتي
في قتال رهيب انتهى بانسحارهم، ولكنه لم يستطع مطاردتهم نظراً لما
أصاب رجاله من تعب وإعياء. ولم يقدم الغال أي معونة لقوات الهلتي
المهاربة خوفاً من بطش قيصر، فاضطروا إلى القاء السلاح بعد قليل.
وقد أعاد قيصر الأحياء منهم إلى موطنهم الأصلي، وباع بعضهم كعبيد
بجدة أنهم اتجهوا شروط التسليم. وقد سمح لفريق منهم بالإقامة
ببلاد الآيدوي.

وقد أحدث انتصاره تأثيراً هائلاً في قبائل بلاد الغال الوسطى حتى
أن معظمها أرسلت إليه وفوداً تهنتته على انتصاره ومناشدته المساعدة
صد أريوستوس. ويبدو أن قيصر لم يكن حتى ذلك الحين قد ساوره
القلق الشديد من جانب الزعيم الجرمانى. لكنه بدأ يدرك أن ازدياد

.. (١) انضمت إليهم قبائل أخرى مثل التولينجي (Tulingi) والبوي (Boii)
وبلغ عددهم حوالي ٢٦٨.٠٠٠ نسمة، كان وبعدهم من الغالين على القتال، انظر:
Caesar, Bellum Gallicum, I, 29.

قوته قد أثار الذعر في بلاد الغال . وكان غزو الكمبري والتوتون ما يزال ماثلاً في أذهان الرومان الذين توجسوا خيفة من أن يعيد أريوستوس الكرة . ولذلك اقتنع قيصر بأنه لابد من معالجة الموقف دون تواتر فشرع يتفاوض معه . ولم يأمل قيصر في أن تنتهي المفاوضات الدبلوماسية إلى نتيجة مرضية ، ولم يكن في وسعه أيضاً أن يهاجم أريوستوس الذي كان اللسناقو بإيعاز منه قد اعترف به في عام ٥٩ « ملكاً » و « صديقاً للشعب الروماني » . ولذلك بحث قيصر عن ذريعة للتحرش به فطالبه بأن يبدع الآيدوى وغيرهم من أصدقاء روما يعيشون في أمن وسلام وأن يقف هجرة الجرمان من وراء الراين . واتخذ قيصر من رفض هذين المظليين تكأةً لأرغامه على القتال . وقضى قيصر أولاً على موجة الذعر التي سرت في صفوف جيشه قبل ملاقاته الجرمان . وبعدئذٍ نشبت معركة في شمال الألزاس منى فيها الأعداء بهزيمة ساحقة ، وطارد الرومان قلوبهم المنهزمة إلى ما وراء الراين (سبتمبر ٥٨) .

وبهذا الانتصار وجد قيصر نفسه عند مفترق الطرق . فلو أنه عمل بالسياسة الرومانية التقليدية لسحب جيشه إلى ولاية «غالة الناربونية» تاركاً الغال يقررون مصيرهم دون أن يتدخل في شئونهم . غير أن ذلك كان قميئاً بأن يثير في بلاد الغال اضطرابات جديدة بعد رحيله . وإذا كان أريوستوس قد قضى نحيبه بعد الهزيمة التي لحقت به ، فإن قبائل غالة الوسطى كانت تسودها الفرقة ويعوزها التنظيم مما يعرضها حتماً لخطر الغزو مرة أخرى من جانب الجرمان . ولذا رأى قيصر أن لا سبيل إلى حمايتهم من هذا المصير سوى إخضاعهم للحكم الروماني ، فجعل فرقه العسكرية ترابط في أراضى السيكوناني وعباً فرقتين جديدتين في «غالة القرية» .

(ح) البلجيكي والثنتيني :

وقد أثار تدخل قيصر في شئون بلاد الغال الوسطى تدمر كبير من

الزعماء الذين خشوا عواقبه ، فصمموا على مقاومته بدافع من وطنيتهم . غير أنه كان من المستحيل عليه ألا يتدخل في شئونهم حتى لو شاء ذلك . وكان من الطبيعي أن يُريد قيصر الفريق الموالي للرومان بين الآيدوى ، ولكن هذه السياسة كان من شأنها اغضاب الفريق الآخر الذى تواطأ مع الهلثيتى . وقد أدت نفس هذه العوامل الى استياء بعض الزعماء فى القبائل الأخرى ، مثل البلجيك الذين شعروا بالخطر من تقدم قيصر فعمدوا عزمهم على الوقوف فى وجهه .

كان قيصر قد أمضى الشتاء فى « غالة القرية » ، ولكنه لحق بجيشه فى ربيع عام ٥٧ بعد أن عززه بفرقتين جديدتين . وقد أدرك من فوره خطورة الموقف فزحف شمالا قبل أن يتم البلجيك استعدادهم . وسرعان ما استسلمت له قبيلة الريمى Remi (حول ريمز) ، وهى إحدى قبائلهم ، وأمدته بالمساعدة ، فأتاح له ذلك أن يوطد أقدامه فى أراضيهم حتى تعذر على البلجيك إجلاؤه عنها . وقد عهد الى حلفائه الآيدوى بتخريب حقول الأعداء فشحت مؤوتهم وتنزقت قواتهم وتعقب قيصر فلولهم التى ولت الادبار . لكن بعض القبائل فى الشمال وفى مقدمتها قبيلة النرفيى (Nervii) أصرت على المقاومة واستماتت فى القتال ، ثم أخذته على غرة وكادت توقع به الهزيمة لولا أنه بادر الى تنظيم جيشه فأحرز فى النهاية انتصارا كاملا وأرغمها على الامتسلام واقتنص منها بأن باع رجالها فى سوق الرقيق . واستسلمت أيضا قبائل نورماندى وبريتانى لكراسوس الأصغر (P. Crassus) ، ابن المليونير عضو « الائتلاف الثلاثى » . وبدا كأن بلاد الغال الشمالية والوسطى قد خضعت للفاتح خضوعا تاما (١) . غير أن ذلك كان وهما لم ينخدع

(١) ابتهلجا بانتصاره وتكريما له قرر السناتو اقامة عيد شكر (supplicatio) تؤدى فيه الصلوات للالهة لمدة خمسة عشر يوما .

به قيصر الذى أدرك أن السيادة الرومانية لم تتركز بعد على أساس وطييد .

وعاد قيصر الى ايطاليا لى يجتمع ييومى وكراسوس فى مؤتمر لوكا (Luca) الذى انعقد فى عام ٥٦ لحسم الخلافات التى تثبتت بين زميليه على نحو ما سنفصله فيما بعد . لكنه ما لبث أن اضطر الى عبور الألب من جديد ليواجه الثورات التى تثبتت فى شمال بلاد الغال وشمالها الغربى اذ قضت قبائل بريتانى و نورماندى محالفتها معه . وتزعمت الحركة الثورية قبيلة الثينيتى (Veneti) التى كانت تعيش على التجارة مع الجزيرة البريطانية ، وأزعجت الأبناء القائلة بأن قيصر يعتزم غزو الجزيرة . وكان الثينيتى قد أذعنوا له بعد هزيمة البجيك ، غير أن خوفهم من ضياع تجارتهم دفعهم الى الثورة والقاء القبض على بعض الضباط الرومان أملا فى مبادلتهم بالرهائن التى أرغموا على تسليمها لكراسوس . وانضمت اليهم بعض القبائل القاطنة فى الساحل ، كما تحفز الجرمان للقيام بغزو جديد من وراء أدنى الراين . ولذلك أرسل قيصر مساعده لابينوس (T. Labienus) ، وهو أكفأ ضباطه ، لحراسة الراين ومراقبة المنطقة الشمالية الشرقية . وعهد الى كراسوس الأصغر باخضاع الأكويتانى فى الجنوب ، والى سابينوس (C. Sabinus) بسحق مقاومة قبائل نورماندى . ولما كان الثينيتى يتحكمون فى المياه المتاخمة لهم ، وكانت طبيعة بلادهم تجعل من المتعذر قهرهم الا عن طريق البحر ، فقد شرع قيصر فى بناء أسطول فى نهر اللوار . ولما فرغ من بنائه اشتبك معهم فى معركة بمياه المحيط الأطلسى حطم فيها بعض سفنهم وأسر البعض الآخر وقضى على مقاومتهم وفرض عليهم شروطه . ولكى يلقن بقية الغال درسا قاسيا فكفوا عن مناورته ، أمر بقتل زعماء الثينيتى وبيع بقية السكان فى سوق الرقيق .

(د) غزو ألمانيا وبريطانيا :

وفي شتاء عام ٥٦ - ٥٥ عبرت بعض القبائل الجرمانية (١) نهر الراين الأدنى على مقربة من أكساتن (Xanten) متجهة نحو الغرب فاضطر قيصر أن يكره العودة من مقر الحكم في « غالة القريبة » الى « غالة كوماتا » مخافة أن تنحاز العناصر المتدمرة فيها الى الجرمان . وعندما تأهب للملاقاتهم جاءه سفراؤهم طالبين اليه أن يسمح لهم بالاقامة ببلاد الغال . ورفض قيصر مطلبهم وعرض عليهم الاقامة بأراض على الضفة الشرقية من نهر الراين . وتم عقد هدنة قصيرة الأمد حتى يبحث الجرمان الاقتراح المعروض عليهم . لكن بعض وحداتهم خرقت الهدنة بهاجمة فرسانه . وفي اليوم التالي اتجه زعمائهم الى معسكره معتذرين عما بدر من رجالهم ، ولكنه لم يطمئن الى وعودهم وصمم على التنكيل بقبائلهم ، فألقى القبض عليهم وزحف بسرعة إلى أراضي القبائل المعتدية وأخذها على غرة وهي بغير زعمائها ففرت أمامه لا تلوى على شيء . وطلب يطاردوها حتى لحق بها وأباد منها في وحشية لا مبرر لها آلاف كثيرة جدا (٢) . وارهبا للجرمان الذين قد تسول لهم أنفسهم غزو بلاد الغال ، قرر قيصر أن يغزوهم في عقر دارهم فبنى فنترة عبر الراين واقتحم أراضيهم . وتقهقر السويبي (Suebi) ، وهم أقوى قبائلهم ، الى داخل بلادهم ، ولم يشأ أن يقتفى أثرهم فعاد الى غالة وحطم الفنترة التي بناها على الراين بعد انسحابه .

(١) وفي مقدمتها فيبيلا الـ Usipetes والـ Tencteri اللتان طردهما السويبي (Suebi) من موطنهما فظلتا منتقلان في أنحاء ألمانيا زهاء ثلاث سنوات .

(٢) عندما بلغت روما أبناء هذه المذبحة ثارت ثورة كاثو وانتهاز الفرصة لهاجمة فيصر فاضرح تسليمه للاعداء لانه انتهك قانونا دوليا بخرق هدنة قائمة والقائد القبض فعدا على سفرائهم . وبذلك تمتحى هذه الوصلة التي لحقت بالشرف الروماني . لكن السناتو قرر اقامة مبد شكر للالهة supplicatio لمدة عشرين يوما ابتهاجا بانتصار قيصر . وقد ارسل الأخير الى المجلس رسالة ندد فيها بكاثو وصب عليه جام غضبه . واصل الاتهام كان فيه شيء من الصحلا لأن فيصر يحاول جاهدا في مذكراته عن الحرب الغالية تبرير مسلكه في هذه الحادثة ، انظر (Bell. Gall. IV, 4-13)

لأن الاسم الروماني القديم لهذه البلدة هو *Castra Vetera* على مسافة الى الشمال من كولونيا .

ومع أن فصل الصيف كان قد أوشك أن ينتهى فقد اعتزم قيصر أن يقوم بحملة استكشافية على الجزيرة البريطانية ، فحشد في أغسطس من عام ٥٥ أسطولا عبر به مضيق دوغر مع فرقتين ونزل بساحل ركنت برغم المقاومة التى لقيها من جانب البريطانيين . وبعد أن جاءه زعماء المنطقة مستسلمين رأى ازاء سوء الأحوال الجوية وضآلة قواته أن يعود أدراجه الى القارة (سبتمبر ٥٥) . وقد أدرك أن الحملة لم تحقق له إلا القليل فشرع يستعد في شتاء عام ٥٥ - ٥٤ لغزو بريطانيا من جديد . ونحن لا نعرف السبب الحقيقى الذى حفزه الى القيام بهذه الحملة ولكننا نرجح أنه أراد - الى جانب الاستفادة من موارد الجزيرة الغنية بالمعادن الثمينة - أن يشعر سكانها بقوة روما ويلقى الذعر في قلوبهم فيكفوا عن مساعدة الغال في القارة الأوروبية ، أو لعله أراد أن يثير بنتحها دهشة الدوائر الرومانية ، ويلهب حماس دهماء العاصمة ويزيد من شهرته العسكرية . وعلى أى حال فقد نزل في يوليو من عام ٥٤ بساحل ركنت مرة ثانية على رأس قوة تتألف من خمس فرق غير الفرسان (حوالى ٣٢ر٠٠٠ جندي) . ولم يجد قيصر أى مقاومة فاتجه غربا والتقى بالقوات التى حشدتها زعماء ركنت وأوقع بها الهزيمة على مقربة من كنتربرى . غير أن تعجله كاد يفسد عليه خطته لأنه لم يتمهل عند بلوغه الساحل حتى يتخذ الاحتياطات اللازمة لحماية سفنه من العواصف . واضطر أن يعود الى الساحل لاقاذا أسطوله الذى دمرت العواصف جانبا منه . وأضاع بذلك وقتا استغله أعداؤه في الاستعداد لملاقاته . وبعدئذ عبر التيمز والتقى بكاسيقللاونوس (Cassivellaunus) ، ملك المنطقة الواقعة في شمالي النهر والذي اختاره البريطانيون ليتولى قيادتهم ضد الغزاة . وقد أدرك أنه لا قبل له بمهاجمة الرومان في معارك مخطأهية فالتجأ الى حرب العصابات . لكن قيصر تمكن من إخضاعه في النهاية وفرض عليه شروطه وهى تسليم بعض الرهائن وتأدية الجزية للرومان . وبعدئذ عاد الى بلاد الغال مع جيشه دون أن يترك

حاميات وراءه لتضمن تنفيذ شروط الصلح . ولعل أبناء تجدد الاضطرابات في بلاد الغال هي التي جعلته يعجل بالرحيل عن بريطانيا . وأيا كان الدافع فمن الواضح أن قيصر لم يقصد بحملته احتلال الجزيرة ، التي جمع معلومات قيمة عن تضاريسها وسكانها .

(هـ) الثورات الأخيرة : فركنجيتوريكس :

عندما كان قيصر يستعد لحملته الثانية على بريطانيا كان يدرك أن بلاد الغال تغلي بالتذمر من الحكم الروماني . ولذلك أرغم زعماء قبائلهم على مرافقته الى الجزيرة . لكن اذا كان هذا الاجراء قد حال دون قيام الغال بالثورة أثناء غيابه ، فانه زاد من ناحية أخرى كراهيتهم له ، وقرهم من الاحتلال الروماني وجنوده وضباطه الذين جثموا فوق سدورهم واغتصبوا أموالهم وشاركوهم أقواتهم ، وكان قيصر في مقدمتهم فجمع ثروة طائلة سدد بها ديونه . غير أن وطأة الاحتلال صرفت الغال عن الخلافات الشخصية وأنستهم المنازعات القبلية فأجمعوا كلمتهم على التخلص من المحتل الغاصب . ولم يفقدوا الأمل في استرداد حريتهم بمعاودة القتال . وقد شجعهم على الثورة اضطرار قيصر الى توزيع قواته في أماكن متفرقة مثل أميان وترير ولييج وأراضي الفلاندرز . وقد حلت لواء الثورة قبيلة الابورونيس (Eburones) في غالة ابلجيكية تحت زعامة أميوريكس (Ambiorix) ونصبت شركا لساينوس ودمرت قواته عند بلدة أتواتوكا (Atuatuca) على مقربة من لييج (١) . وضيق قبيلة النرفي (Nervii) - في أراضي الفلاندرز - الخناق على معسكر روماني تحت قيادة شيشرون (Q. Cicero)

(١) وقد اشتركت في هذه الثورة قبائل أخرى كالسينونيس (Senones) والكارنوتيس (Carnutes) . ولما قيصر هزم هذه القبائل الواحدة تلو الأخرى ، ولكن الزعيم أميوريكس أفلت من يديه على الرغم من المحاولات التي بذلها للقضاء عليه .

— شقيق الخطيب المشهور — وكادت تقضى عليه لولا استماتته في الدفاع ومبادرة قيصر الى نجده . وأمضى قيصر الشتاء في « غالة كوماتا » لأول مرة ، واستطاع أن يمنع لهيب الثورة من الامتداد الى المنطقة الوسطى . ولما شق التريفيري (Treveri) في حوض نهر الموزيل عصا الطاعة قمع لاينوس ثورتهم وأرغمهم على الرضوخ للسيطرة الرومانية (عام ٥٣) .

غير أن الثورات لم تلبث أن نشبت أيضا في غالة الوسطى حيث انقضت إحدى القبائل على الموظفين والتجار الرومان المقيمين بالبلدة التي نعرفها اليوم باسم مدينة أورليان وذبحوهم . وكانت أخطرها جميعا هي الثورة التي نشبت في أوائل عام ٥٢ وتولى قيادتها ثركنجيتوريكس (Vercingetorix) ، وهو زعيم وطني كبير ينتمي الى قبيلة الأرفرني . وقد ناصبته الحكومة الارستقراطية في بلاد العداء ، فألب عليها العامة يفصاحته واستولى على مقاليد الحكم ونودي به ملكا . وشرع يعمل نهرا على كسب صداقة القبائل الأخرى وحالفه التوفيق في استمالتها الى جانبه . ولم يمض وقت طويل حتى كانت كل بلاد الغال الوسطى ما بين اللوار والجارون قد شقت عصا الطاعة في وجه الرومان وانضوت تحت لواء الزعيم النائر . ولم يشترك البلجيكي أو الأكويتاني في هذه انجركة ، وأما الأيدوي ، خصوم الأرفرني ، فقد ترددوا في أول الأمر . وبعدئذ انحازوا الى جانب الثوار .

كان قيصر في مقر حكمه بولاية « غالة القريية » عندما بلغته أنباء الثورة . وقد حاول الثوار عجزه عن الاتصال بالجانب الأكبر من قواته التي كانت ترابط في شمال غالة الشرقى تحت قيادة لاينوس . ولذلك قرروا غزو « غالة الناربونية » لكي يرغموه على الدفاع عن الولاية الرومانية القديمة فلا يستطيع هزتها الى الشمال . وقد أحرزت خيلتهم في أول الأمر بعض النجاح ، وانضمت اليهم بعض القبائل القائمة

قرب حدود الولاية . وكان الغال على وشك أن يقتحموها عندما ظهر قيصر على مسرح القتال بعد أن عبر الألب بمنتهى السرعة واتجه نحو ناربو ، عاصمة الولاية ، وصد هجومهم وأبعد خطرهم عنها . وبعدئذ سلك طريقه بصعوبة عبر الجبال الى أراضي الأرفرنى وشرع في تخريبها ، فاضطر ثركنجيتوريكس الى العودة للدفاع عنها . وسنحت الفرصة لقيصر فزحف بسرعة نحو الشمال حيث انضم الى الجيش الروماني الذي عززه بادماج بعض فصائل من الفرسان الجرمان المرتزقة من وراء الراين . وأدرك زعيم الغال أنه لا يستطيع مواجبة الرومان في معارك نظامية أو حماية مدنه من هجماتهم ، فأمر رجائه بتخريب الحقول لتجويع أعدائه وفتح الامدادات عنهم وتدمير المدن ما عدا الحصينة منها . ورابط ببلدة جرجوفيا (Gergovia) (١) التي تقع على هضبة مرتفعة وقرر الدفاع عنها . وتقدم قيصر اليها مع ست فرق رومانية وضرب عليها الحصار . ولكن محاولاته للاستيلاء عليها ذهبت سدى . ولما تبين أنها عسيرة المنال ارتد عنها مدحورا . وقد رفعت هذه الهزيمة - وهي أول هزيمة تلحق به - الروح المعنوية بين الغال وأغرت الأيدوى بالتمرد عليه فانضموا الى الثوار وقطعوا على قواته المنسحبة الطريق بتدمير القناطر القائمة على نهر اللوار . وعلى رءسهم عبر قيصر النهر وزحف ليحلق بالفرق الأربع الرومانية التي كانت قد اتجهت شمالا تحت قيادة لاينوس وهزمت بعض القبائل على مقربة من لوتيتيا Lutetia (باريس) ، عاصمة قبيلة الباريسين . (Parisii) . وبعدئذ عاد مع جميع قواته الى المنطقة الوسطى حيث كان ثركنجيتوريكس قد اعتصم ببلدة أليسيا (Alesia) الحصينة . وحاصر قيصر القلعة حصارا محكما بحفر الخنادق واقامة المتاريس وضيق عليها الخناق . وأخفقت كل المحاولات التي بذلها الغال لرفع الحصار عن البلدة وهاذا

(١) على مقربة من كليرمون فيران ' Clermont-Ferrand .

زعيمهم . ولما اشتد الجوع بالمحاصرين استسلم فركنجيتوركس إبقاء على حياة رجاله . وقد أرسله قيصر الى روما حيث بقى سجيناً ست سنوات . وأعدم في النهاية بعد أن اقتاده قيصر في موكب اقتصاره . غير أن فركنجيتوريكس أحرز شهرة في التاريخ بوصفه زعيماً قومياً وبطلاً شعبياً كافح كفاحاً مجيداً من أجل استقلال أمته .

وكان سقوط أليسيا نذيراً بانتهاء المقاومة في كل بلاد الغال . غير أن قيصر لم يتمكن من إخضاع جميع القبائل الثائرة وتوطيد السيادة الرومانية هناك الا بعد انقضاء عام بأكمله (٥١) . وقد عامل الغال بعد هزيمتهم بالرفق واللين حتى هدأت خواطرهم وساد السلام بلادهم ، ثم اكتسب رضاهم حتى أصبحوا من أخلص أنصاره . ولم يحول الرومان « غالة كوماتا » الى ولاية رومانية بل اتخذوا من شعوبها حلفاء لهم ، على أن يخضعوا إدارياً لحاكم ولاية « غالة الناربونية » ، ويمدوا روما بالقوات العسكرية ، ويؤدوا كلهم أو معظمهم جزية سنوية محددة^(١)

(و) أهمية غزو بلاد الغال :

ويعتبر غزو بلاد الغال حدثاً من أهم الأحداث لا بالنسبة لروما وحدها بل بالنسبة لتطور الحضارة الأوروبية كلها . فقد انتهى المرحل ذلك الاقليم ، وهو ما نعرفه اليوم باسم فرنسا ، أنفس جوهرة في تاج الامبراطورية الرومانية . وضمت روما الى أملاكها منطقة فسيحة خصبة فتضاعفت مواردها وازدادت قوتها ، ولو أن الدفاع عن حدود الرابن سيكبدها خسائر جسيمة ومتاعب جمّة . كما أتاحت الحملة لقيصر الفرصة لتنمية مواهبه العسكرية الغزاة ، وتكوين جيش مدرب يدين له بالولاء ، واقتناء أموال طائلة من الأسلاب والغنائم مما أعانه على شراء الأنصار في روما ورجح كفته في النضال السياسي والعسكري المقبل .

(١) ولكن في عصر اغسطس نظمت " غالة كوماتا " - نظراً لاتساعها في شكل ثلاث ولايات رومانية .

ومن حقنا ان تساءل عن الدوافع التى حفزت قيصر إلى القيام بكل هذه الحملات فى بلاد الغال أثناء السنوات التسع التى قضاها هناك . ومن المؤسف أننا لانستطيع الاجابة الا تخميناً . ذلك أن قيصر - وان كان قد كتب قصة حملاته فى مذكراته عن الحرب الغالية بانة لائىنية بسيطة سهلة (١) - لم يشأ أن يفصح لنا عما دار بخلده . ورب مؤرخ سطحى يقول ان ما حفزه هو الطموح والرغبة فى أن يجعل نفسه فى الوقت المناسب سيداً على روما والامبراطورية . لكننا نستطيع أن نؤكد أن قيصر الذى يبدو أنه لم يتمتع قسراً بصحة جيدة ما كان ليعرض حياته للخطر تسع سنوات متتالية لو أنه كان يبيت طوال هذه المدة نية تحقيق أمل قد يبدده الموت أو المرض الخطير فى أية لحظة . وانما الشيء الوحيد الذى يبدو أن قيصر أحبه حقاً ، مثله فى ذلك مثل جايوس جراكوس ، كان هو العمل المستمر الشاق دون أن يدع أحدا يعوقه عن تحقيق الهدف العملى المحدد الذى وضعه نصب عينيه . وليس معنى هذا أنه لم تراوده آمال أو تساوره مخاوف بل من المؤكد أنه كان له أطماع كما كان له خصوم . غير أن ذلك الرجل العبقري ذا التفكير الواقعى - فهو كما ذكرنا سليل أسرة عريقة من أسر الأشراف - وان تميز تفكيره بنزعة علمية لا تألفها فيمن نعرفهم من زعماء الرومان - كان يحكم دائماً على العمل المطلوب منه فى حينه ولا يهدأ له بال حتى يتم على النحو الذى يرضيه .

وعندما أسرع قيصر نحو الشمال ليصد زحف الهلثيتى فى سنة ٥٨ ثم تكن هناك سوى ولاية رومانية واحدة فى بلاد الغال عبر الألب ،

(١) Commentarii de Bello Gallico وتقع فى سبعة كتب وتشمل الفترة الممتدة بين سنتى ٥٨ ، ٥٢ . وقد اضاف إليها هيرتيوس (A. Hirtius) ، أحد ضباطه ، كتاباً ثانياً يشمل الفترة ما بين سنتى ٥١ ، ٥٠ . راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٢١ - ٢٢ .

(نرى المسماة "غالة الناربونية" التي كانت تسيطر على المنطقة الجنوبية الشرقية من فرنسا الحالية) والتي ما تزال تزخر بالآثار والتقوش اللاتينية) ، والمنطقة الفسيحة الواقعة الى غربها عند أسفل جبال البرانس^(١) ! فلما غادر بلاد الغال في نهاية سنة ٥٠ كانت جميع فرنسا وبلجيكا قد أصبحتا جزءا من الامبراطورية ، وان لم تتحولا بعد الى ولايات رومانية . وقد رأينا كيف بلغ قيصر المائس وأخضع القبائل الغالطنة^(٢) ساحل المحيط الأطلسي . ثم غزا بريطانيا مرتين بادئا بذلك تاريخها المكتوب . وعبر الراين الى ألمانيا على جسر أقامه مهندسوه المهرة . واستعمل في أعمال الحصار جميع حيل الحرب القديمة كأبراج الهجوم والمجانيق وأدوات الهدم وآلات التخريب . وكانت سرعة تحركاته مضرب الأمثال . ولا ريب في أن أعماله أذهلت الغال ، وهو ما كان يرمى اليه . فلما فشلت محاولاتهم اليائسة لاقتحام أنفسهم من دخول حظيرة الامبراطورية ، استسلموا مكرهين . وانا اذ نعطف على كفاحهم المجيد من أجل الحرية أو نلوم قيصر على قسوته التي لا مبرر لها في بعض الأحيان ، ينبغي ألا ننسى أن أخطاءهم هي التي أدت الى ضياع استقلالهم . فقد كان لديهم الوقت الكافي للعمل على تنظيم صفوفهم وحماية بلادهم ، ولكن المنازعات الدامية بين قبائلهم الكبرى استغلت بمرور الزمن حتى طغت على الجهود الضئيلة التي بذلت لتدعيم الوحدة القومية بينهم . ولعل الغزو الروماني لم يكن كله قمة عليهم لأنه أهدد حضارتهم من يد الجرمان البرابرة ومهد الطريق لانتشار الحضارة الرومانية بينهم واستقرار السلام الروماني (Pax Romana) في ربوعهم . ولا ينبغي أن ننسى أن ذلك الاقليم الممتد من نهر الراين حتى المحيط الأطلسي سيصبح منذ ذلك الحين عاملا هاما في تقدم الحضارة الأوروبية .

لكن خط الدفاع في الواقع كان لا يزال به ثغرة . كانت هذه

(١) انشئت الولاية عام ١٠١ ق م وسميت كذلك نسبة الى مينائها الهام وعاصمتها ناربو Narbo في جنوبها الغربي وقد =

الثغرة توجد عند الطرف الشرقى من جبال الألب . فكيف السبيل الى حمايتها من خطر الغزو ؟ كان السور الواصل ، كما رأينا ، سور جبال الألب يبلغ أقل ارتفاع له عند هذه المنطقة ، التى كانت تقطن وراءها جموع لا حصر لها من البرابرة . وقد أصبح نهر الدانوب بمرور الزمن هو حدود الامبراطورية هناك . وبعدئذ وُصِلَ بحدود نهر الراين . غير أن هذا العمل الجليل لم يتم الا بعد نصف قرن شاء حظ ايطاليا ألا تتعرض أثناءه لأى غزوات . وكان تيرىوس الذى حكم الامبراطورية بعد أغسطس جنديا عظيما ووضِع تحت امرته ، قبل ارتقائه العرش ، جيش لا يقل ولاء له عن جيش قيصر ، فاستطاع بعد جهد طويل متصل أن يوطد نفوذ روما فى تلك المنطقة (١) . وفى وسعنا أن نقول ان الامبراطورية الرومانية - وبالتالى الحضارة الغربية بوجه عام - كانت تدبّن بوجودها قرونا عدة ، من وجهة النظر العسكرية ، لجهود يومى ديفيد و تيرىوس وجيوشهم المدربة تدريبا رائعا ومهندسيهم الخبراء الماهرة .

هذا العمل الباهر ذو الأثر المستديم ، وتقصد به الغزو وتثبيت خط الدفاع عن الامبراطورية ، لم تقم به الدولة ولا يعزى الى الفضائل القومية القديمة كالشعور بالواجب أو التمسك بالنظام ، بل قامت به الجيوش المدربة خير تدريب والموالية لقادتها كل الولاء . وكان من البديهي اذن أن تطالب الجيوش وقادتها - كما طالب سُلا من قبل - بحققها فى الاشراف على شؤون الدولة التى اتابها الضعف . ذلك باختصار هو أصل نظام الحكم الاسبراطورى الذى ظم فيما بعد . وقد حدث نفس الشيء فى انجلترا على أيام كرومويل عندما آلت مقاليد الحكم انى يد الجيش ، لأن ذلك الجيش كان يعبر (وان كان فى حالة انجلترا

(١) ما بين عامى ١٢ ق. م. و ٢٩٠ م.

= است كمستعمرة رومانية (Gallia) فى عام ١١٨ ق م .
وتعرف بحالة الناروبونية " احيانا باسم " الولاية " فقط
اسم (غير رسمى) هو " غالة توجانا " Gallia Togata
لاستباحتها سريعا بالصيغة الرومانية .

لفترة قصيرة) عن أسى مطلب الأمة وأهدافها . ولكن المشكلة تركزت حينئذ فيما اذا كان في وسع قائد من قواد هذه الجيوش الرومانية أن يوحد مصالحه ومصالح الدولة الحقيقية فيصبح هو الأداة لاقامة حكومة حازمة رشيدة في عالم البحر المتوسط . وقد رأينا كيف أخفق سُلّا في هذا الصدد لأنه كان يفتقر الى الخبرة اللازمة والعطف الكافي على الجماهير . وأتيحت الفرصة ليومى بعد عودته من الشرق في آخر عام ٦٢ ، ولكنه سرح جينسه وأسقطه من حسابه . وكان يومى من وجوه كثيرة رجلا نافعا واداريا ممتازا ولكن كانت تعوزه الحنكة السياسية ، ثم أتاحت الفرصة ليوليوس قيصر بعد الحروب الطويلة في بلاد الغال فاغتتمها دون تردد .

مقدمات الحرب الأهلية

(٥٨ - ٥٠)

العاصمة في غياب قيصر

الخلاف بين پومپي وكراسوس

ما كاد قيصر يغادر إيطاليا حتى بدأ النزاع يلب بين زميليه في «الائتلاف الثلاثي»، إذ كانت العداوة قديمة بين پومپي وكراسوس. لكن قيصر استطاع أن يوفق بينهما ويقنعهما بضرورة التعاون لمناهضة نفوذ السناتو. فلما رحل عن العاصمة لم ير أي منهما ما يبرر استمرار التحالف بعد أن حقق كل منهما أغراضه. وكان كراسوس يعمل دائما على الحط من قدر پومپي والانتقاص من شأنه، وأما پومپي فقد بدأ يشعر بانصراف الناس عنه، فأراد أن يصفى حيا بينه وبين الحزب الارستقراطي، ويسترضي شيشرون لشعوره بالخجل من موقفه نحوه وسكوته على تقيده. لذلك أخذ يسعى لاعادة الخطيب الكبير من منفاه في سالونيك (Thessalonica). . . لكن هذا المسعى آثار ثائرة كلودبوس (١)، تقيب سنة ٥٨ الشهير، الذي لم يغفر لشيشرون شهادته ضده. وكان كلوديوس زعيما ديماجوجيا موهوبا فاجتذب الغوغاء اليه باستصدار قانون يقضي بتوزيع القمح عليهم مجانا، وقانون آخر باعادة إحياء النوادي أو الجمعيات (collegia = sodalicia) الخاصة

(١) راجع ما تقدم في ص ١٧٨ - ١٨٠.

بهم (١) . وقد برع في تنظيم العصابات المسلحة والمظاهرات الصاخبة
ببداً يهاجم يومياً كلما ظهر في المناسبات العامة ويوعز إلى رجاله
بالسخرية منه حتى اضطر القائد الكبير أن يلزم بيته . وقد أضعف مركزه
رحيل جنوده المسرحين عن العاصمة . ولم يكن في وسع الحكام أن

(١) أو sodalitates وجميع النوادي أو الجمعيات الرومانية كانت في الأصل
ذات طابع ديني حتى لو لم تكن العبادة هي الغرض من إنشائها . وكانت تسمى باسم
آلهة أو آلهة مثل ديانا (Diana) وأنتينوس (Antinon) وإيسكولابوس
(Aesculapius) وهيرقل (Hercules) . ويعرف أعضاؤها باسم cultores ، وكثيراً
ما كانت هذه النوادي تعقد اجتماعاتها في المعابد ، وقد تحول الدور الخاصة بها
(scholae) أسماء آلهة أيضاً . وقد تمتع الرومان حتى القرن الأخير من عصر الجمهورية
بحرية كاملة في إنشاء النوادي والجمعيات ، لكن السلطات كانت تتدخل إذا ارتأيت في
أضرار الجمعية مثلما حدث في عام ١٨٦ عند إصدار السناتو قراره الشهير بحل جمعيات
أبناء الآلهة باكخوس (ديونوسوس) (S. C. de Bacchanalibus) المعروف باسم
Bacchanales . لكن في عصر نيبشوروس انتهى نحن بمصدده - بدأت النوادي تقحم
نفسها في الشؤون السياسية ، واستغلها بعض الزعماء لآثاره الشغب والاضطراب . لذلك
صدر في عام ٧٤ قانون بالقاء كثير من هذه الجمعيات . لكن كلاوديوس - كما هو مذكور
أعلاه - أباح كثيراً منها من جديد . ولما تولى كراسوس القنصية بالاشتراك مع بومبي
للمرة الثانية في سنة ٥٥ استحصلوا قانوناً بفرض عقوبة على من يستغلون النوادي سياسياً
لمساعدة المرشحين للمناصب (lex Licinia de sodaliciis) . ثم عاد يوليوس قيصر
وأصدر شريعاً بالقاء مغلغها . وفي عصر الامبراطورية لم يكن من الجائز تكوين النوادي
أو الجمعيات إلا بعد الحصول على ترخيص من الامبراطور أو السناتو .

وكثير من هذه النوادي أو الجمعيات كانت لغايبه أو مهنية أي شالف من أعضاء
يستقلون بحرفة واحدة ، كالحدادين وصانعي الملابس والتجارين والبحارة ، ويقومون بدفع
اشتراكات شهرية . لكن ليس لدينا ما يؤيد أنها كانت تستهدف الدفاع عن مصالح أعضائها
أو تحسين حالتهم الاقتصادية . كان الغرض الظاهري منها في معظم الأحوال هو التكفل بدفن
الموتى من الأعضاء الفقراء (collegia funeraticia) . وأما الغرض الحقيقي فكان توطيد
أواصر الصداقة وتقوية الروابط الاجتماعية بين الأعضاء ، والنزوع عن النفس من سقم
الحياة وترتيبها ، والالتقاء في مناسبات كاعياد الميلاد وتناول الطعام سوا . وكانت توجد
نوادي شباب (iuvenes) لممارسة الرياضة ، وأخرى خاصة بالحاربين الفقراء
(veterani) . وكان لها رؤساء شرف (patroni) ، وهم ثروة أو رجال من
طبقة السناتو كانوا يتبرعون لها بهيات من وقت لآخر . وأما الرؤساء الفعليون فكانوا
يُدعون باسم magistri أو curatores . وعن هذا الموضوع انظر : [Journ. of
(editor), Oxford Classical Dictionary (1970), s. v. Clubs.

يفعلوا شيئا لهمايته من هذه العصابات لأن روما - كما ذكرنا - لم تكن بها قوة بوليسية دائمة حتى تقع المظاهرات وتعيد الأمن الى نصابه وترد كلوديوس الى سوابه .

وحدث أن نازي في انتخابات المناصب العامة لسنة ٥٧ حكام معظمهم من أنصار شيثرون ، فتقدم أحدهم الى الجمعية المثوية باقتراح لاعادته من المنفى . ومع أن كلوديوس لم يعد في عام ٥٧ قهبا يتمتع بحق النقض ، فقد كان لا يزال مسيطرا على الدهماء وقادرا على إثارة الشعب وعرفلة الاقتراح . وكان بين ثقباء ذلك العام رجل قوى التكيمة مشاغب مثله يدعى ميلو (T. Annius Milo) . وقد وطأ هذا التيب عزمه على أن يقابل العنف بالعنف فاستأجر عصابات من المجالدين لمناومة عصابات كلوديوس . وسرعان ما أصبحت شوارع روما مسرحا للمصادمات اليومية بين أتباع الزعيمين ، وتخضبت بالدماء وامتألت بالجثث . وناشد يومئذ الايطاليين استصدار قرارات في مجالسهم البلدية للمطالبة بعودة شيثرون والحضور الى العاصمة للاقتراع على مشروع إعادة الخطيب من المنفى ، فنمت الموافقة عليه في انجعية المثوية (١) ، وعاد شيثرون الى الوطن في سبتمبر من عام ٥٧ حيث استقبلته البلاد الايطالية والعاصمة استقبالا حماسيا .

وقد اتهم أنصار يومئذ فرصة حدوث قحط في الغلال فتقدموا للسناو في نفس الشهر الذي عاد فيه شيثرون باقتراحين أحدهما يقضى بتعيينه مشرفا على التموين (curator annonae) لمدة خمس سنوات ،

(١) وذلك بأن أصدر السناو أولا قرارا باعادته لم يعارضه سوى كلوديوس . ولا ندرى أكانت الجمعية المثوية تملك القرارات السابقة التي صدرت ضد شيثرون أم أنها قررت بطلانها استنادا الى أن النفي لا يكون قانونيا إلا بمعد محاكمة قضائية سليمة .

مع تخويله سلطة الامپريوم الپروكنصلية (imperium proconsulare) في ايطاليا وفي خارجها ، مع حق الرقابة على الموانى والأسواق وتجارة القمح في الممتلكات الرومانية ، أى تخويله ، في الواقع ، قيادة غير عادية والآخر يجعل هذه السلطة أعلى (imperium maius) من سلطة حكام الولايات (١) ، مع وضع أسطول وجيش تحت تصرفه . وأقرت الجمعية المثوية الاقتراح الأول ، ولم يجد السناتو ما يبرر الاقتراح الثاني فرفضه حتى لا يضع في يده سلاحا يهدده به . وقام پومپى بالمهمة خير قيام وخفت وطأة المجاعة في العاصمة . ولم يفقد أنصاره الأمل فأخذوا يتحينون الفرصة لتدعيم مركزه العسكري . وقد سنحت هذه الفرصة عندما ثار مواطنو الإسكندرية على ملكهم الخائن بطليموس « الزمار » . في عام ٥٨ لتفريطه في قبرص وتعصفه إليهم ، وأرغموه على مغادرة المدينة فالتجأ الى روما ليناشد أسدقاءه من ذوى النفوذ مساعدته على استرداد عرشه (٢) . وأكرم پومپى وفادته واستضافه . لكنه لم يكف يستقر حتى حضر الى العاصمة الرومانية وقد كبر أرسله الاسكندريون ليشكوه الى السناتو ويناشدوه ألا يعيده اليهم . واحتدمت المناقشات في السناتو حول « المسألة المصرية » التي استغلتها الأحزاب الرومانية المتطاحنة لخدمة مآربها . وقرر السناتو أن يسند الى لتولوس اسپنثر (P. Cornelius Lentulus Spinther) قنصل عام ٥٧ ، الذى كان يتأهب لارحيل الى ولاية كيليكيا ، مهمة إعادة « الزمار » الى عرشه . لكن

(١) maius imperium in provinciis quam sit eorum qui eas obtineant (Cicero, ad Att. IV, 17).

(٢) عُرِّجَ « الزمار » وهو في طريقه الى روما - جيجيزيرة رودس حب فابل كادو (الذى كان ساعب للاتصال الى قبرص ليعقبه املاك بطليموس) ليساله المسورة فتصطحبه بالعودة الى بلاده واسترغاه شعبه وعندما ألجأ بنفسه في معتزل السفارة امروانيية حتى لا يقع فريسة في يد الجشعين من زعمائها الديمقراطيين فيلقد ثروته ولا يعوز بطائل . ولكن بطليموس لم يعمل بهذه النصيحة وتابع رحلته الى روما تحت الحاح رجال حاشيته . والزمار هو بيتا . سيوس الثانى عشر (٨٠ - ٥١ ق م) وقد ظل طريسدا في المنفى من عام ٥٨ (بعد ٧ سبتمبر) حتى عام ٥٥ (قبل ٢٢ ابريل) وهو ابو كليوباترا الشهيرة .

أنصار رومى بذلوا قصارى جهدهم لنقض هذا القرار وتحويل المهمة إليه حتى تنجح له فرصة قيادة أحد الجيوش الرومانية . ولما وجدوا أن الحزب الارستقراطى يقف حائلا دون تحقيق هدفهم ، بحثوا عن وسيلة أخرى . وحدث أن نزلت صاعقة بتثال الاله جوبيتر اللاتينى (١) في يناير من عام ٥٦ ، وهى ظاهرة كانت تعتبر من نذر الشر المستطير . فعهد السناتو الى جماعة الكهنة الخمسة عشر باستشارة كتب النبوءات السيوللية (Libri Sibyllini) (٢) فيما ينبغى عمله . وأوصت النبوءة بمساعدة بطلمبوس ولكنها حذرت من استعمال الجيش عند مساعدته . وعندئذ أرغم قبيب للعامة من المواليين لكراسوس جماعة الكهنة (٣) على اذاعة النبوءة دون اذن من السناتو خلافا للعرف المتبع . وبديهي

- (١) Iuppiter Latialis (او Iuppiter Latialis) الذى كان يقام له عيد سنوى (Feriae Latinae) عند جبل ألبا .
- (٢) نسبة الى سيوللا (Sibylla) وهى كلمة او اسم مجهول الاصل . وقد اطلق على امرأة كانت تتنبأ بالفيب ورويت عنها أساطير مختلفة ، وتجلت في بلاد كثيرة . وقد أصبح اسمها يطلق على النسوة اللاتينيات بالنبوءات (Sibyllae) في أى مكان . وكان عددهن يراوح بين ٢ ، ١٠ ، ويختلف في مكان عنه في آخر . ومن أشهرهن نيبه كوماي (Cumae) على مقربة من نابلى . وقد حكى أن تاركوينيوس بريسكوس (Tarquinius Priscus) - وهو أحد ملوك روما القدامى - اشترى مجموعة من كتب النبوءات (او كتب القدر libri fatales) وهى منظومة شعرا في الوزن السداسى التفاعيل hexametron باللغة اليونانية ولوحها في معبد الكابيتول وعهد بها الى جماعة الكهنة المختصة بالمعابدات الاجنبية (انظر الحاشية التالية) . وكان لا يرجع الى هذه الكتب الفلسفة الا بالذن من السناتو في وقت الطوارئ او الازمات .
- (٣) وهى جماعة الكهنة المختصة بالكتب المقدسة ولا سيما كتب النبوءات السيوللية والمراسم الدينية الخاصة بالالهة الاجنبية المعترف بها او المسموح بعبادتها في روما . وقد زيد عند اعضاء هذه الجماعة من ٢ الى ١٠ ، وبعثت الى ١٥ في أيام سلا ، ومن ثم عرفت باسم Quindecimviri Sacris Faciundis (راجع ص ٨٦ ، ص ٨٧ حاشية) ثم زاد قيصر عددها الى ١٦ عضوا . وقد تحولت هذه الجماعة في القرن الاخير من عصر الجمهورية الى اداة في يد السلطة الرومان . وكانت هذه الجماعة هي احسن الرهينة او الجماعات الدينية الكبرى الاربع (quattuor amplissima collegia) في روما . والجماعات الثلاث الاخرى هي :

أن كراسوس هو الذى حمل الكهنة على اختلاق النبوءة وأن المناورة الدينية كان يقصد بها ابطال قرار السناتو واستبعاد لتولوس وتزويد رومى فى المهمة بعد أن فقدت صفتها العسكرية . لكن أنصاره نادوا

=

(١) جماعة الكهنة (Pontifices) التى كانت تتألف فى اول الامر من ٢ ثم ١٥ وآخرها ١٦ عضوا على أيام هبصر . وكانت هذه الجماعة تنظم ، الى جانب الكهنة أنفسهم ، الكهنة المختصين بنفسهم القرايين للالهة المختلفة والمعروفين باسم flamines والذين بلغ عددهم ١٥ ، وكان أهمهم ثلاثة كبار (maiores) وهم كاهن جوبيتر (flamen Dialis) ، وكاهن مارس (flamen Martialis) ، وكاهن كويرينوس (flamen Quirinalis) أى كاهن « رومولوس » ، مؤسس روما ، بعد تاليهه ، وكذلك عذارى فستا (Virgines Vestales) ، وأخبراملك القرايين Rex Sacrorum (راجع ص ٨٦ ، حاشية ٢) . وكان يرأس جماعة الكهنة (collegium pontificum) الكاهن الأعظم (Pontifex Maximus) وهو الرئيس الأعلى للديانة الرسمية فى الدولة . وكان فى حليفة الامر حاكما منتخبا بكيفية الحكام (magistratus) ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون برينورا أو لخملا فى الوقت نفسه . ولكنه كان يتولى منصبه مدى الحياة ، ولا زميل له . ومع انه لم يعد يتمتع فى أواخر عصر الجمهورية بأى سلطة فيما يختص بالمعاونون الدنى ، إلا انه كان الى جانب اختيار الـ flamines وعذارى فستا وملك القرايين - كان يرأس جمعية الأحياء القديمة (Comitia Curiata) لافراد هذا الاختيار ، والنظر فى مسائل التبنى (كانتقال كلوديوس من عشيرة من الإشراف الى عشيرة من العامة عن طريق التبنى ، transitio ad plebem ، راجع ص ١٧٩ هامش ١) والنصديق على الوصايا . وكان الكاهن الأعظم يفتى فى المسائل الدينية باسم الجماعة كلها التى كان الأعضاء بمثابة مستشارين له . وكان مقره الرسمى هو قصر الملك القديم المعروف باسم رجيا Regia (راجع ص ١٧٩ هامش ١) والفنائم بجوار السوق أو الميدان العام Forum . والحق انه كان ذا مقام رفيع فى الدولة ، ولم يكن يعلمه معاما سوى رئيس مجلس الشيوخ (Princeps Senatus) الذى يتصدر قائمة المواطنين . وفى كثير من الأحيان كان يشغل هذين المنصبين رجل واحد .

(ب) جماعة العرافين (Augures) التى كانت تتكون من ٢ أعضاء ارتفع عددهم الى ١٦ . وهى جماعة قديمة قوية النفوذ وجماعة الكهنة وكانت تعمل منها لجنة دائمة للسناتو بحال أغلبها المسائل ذات الطابع الدنى . ولقد تمتعت جماعة العرافين لاختصاصها بمسائل استطلاع مستقبل الآلهة (auspicia) بنفوذ سياسى أكبر من نفوذ جماعة الكهنة فى الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية .

(ج) جماعة تنظيم الآداب الدينية (Epulones) وبخاصة وليمة جوبيتر (epulum Iovis) وغيرها من الولائم التى كانت تقام فى الأعياد الدينية العامة . وكانت تتألف فى اول الامر من ٣ ، وبعدئذ من ٧ هرفت باسم (Septemviri Epulones) ، راسموت تحمل هذا الاسم حتى بعد أن زاد فيصر عدد أعضائها فصاروا عشرة .

بأنه طالما أن الحملة العسكرية قد تحولت إلى سفارة دبلوماسية فليس هناك من هو أجدر منه برئاسة نظرا لمكانته وسمعته في الشرق ، وزعموا أن بطليموس نفسه - الذي غادر روما في ٥٦ إلى إفسوس (بآسيا الصغرى) - أرسل يقول أنه يفضل أن تتم عودته على يديه (١) وكاد يومئذ - الذي تظاهر بعدم الاكتراث بالموضوع - يتقرب برئاسة البعثة إلى الاسكندرية لولا معارضة السناتو ومناوئة كلوديوس الزعيم الديمتوجي الذي وقف له بالمرصاد وأوعز إلى النوغاء في أن يطالبوا بإسناد المهمة إلى كراسوس. وأبدت آراء أخرى بشأن «المسألة المصرية» ، فاقترح فريق تأليف وفد من ثلاثة سفراء متساوين في السلطة لافجاز المهمة ، وفادى فريق آخر بعدم معاونة بطليموس إطلاقا . وقد تزعم هذا الفريق فافونيوس (M. Favonius) ، صديق كاتو والمعبر عن رأيه ، والذي لا نعلم عنه سوى أنه نولى منصب الكويستورية قبل عام ٥٩ ، غارض قانون يوليوس الخاص بتوزيع ، قضا . الزراعة على جنود يومئذ المسرحين ورفض مثل كاتو أن يقسم اليمين على احترام ذلك القانون ولم يرضخ الا بعد الالاحاح والتهديد . وجدير بالذكر أن شيشرون كان من أنصار اسناد المهمة إلى لنتولوس اسبشر الذي اقترح وهو فنصل في عام ٥٧ اعادته من المنفى . ولما كان يومئذ قد تظاهر بعدم الاعتراض على لنتولوس فقد كتب شيشرون إلى لنتولوس بعد أن رحل إلى كيليكيا ليتولى حكمها ، كتب إليه في مايو عام ٥٦ يقول

(١) يرجع علاقة « الزمار » بيومئذ إلى أيام حملة الأخير في سوريا وفلسطين عام ٦٢ (راجع ص ١٢٠) . ففي ذلك الوقت اتصل به بطليموس وعرض عليه خدماته وأمنه بكثيرة من ٨٠٠٠ فارس على أمل أن يكسب رضاه فيعينه على شعبه الذي ناز عليه لتهاونه مع الرومان في حق بلاده برقم ما أبداه زعماءهم من نوايا سيئة إذا ما مصر (راجع ص ١٢٦) فضلا عن أن بطليموس بعرضه الأخير على يومئذ تنازل ضمنا عن ممتلكات مصر في فلسطين وسوريا التي طالما خاض أسلافه الحرب من أجلها ضد آل سليوكوس . وقد كان في استطاعة يومئذ أن يجد في أوائل عام ٦٢ ذريعة للزحف إلى مصر لتوطيد مركز بطليموس وتاديب شعبه المتمرد ، ولكنه أتر عدم التدخل .

ان يوميى برى أنه ليس هناك ما يمنع من استخدام الجيش لاعادة النظام الى مصر ، وبعدئذ اعادة الزمار الى عرشه بدون استخدام الجيش عملا بما جاء فى النبوءة السيوللية . وازاء هذا التضارب الشديد وضيق الوقت أرجأ السناتو البت فى « المسألة المصرية » . وهكذا اتضح أن كراسوس كان لا يزال يحقد على يوميى ، ويطمع فى الظفر بالمهبة من حونه ، وأن الوفاق بين عضى « الائتلاف الثلاثى » لم يكن تاما بأى حال . (١)

وقد أُلجئنا الى حيد : كراسوس على يوميى ودسائسه وكيديه له أثناء غيابه فى الشرق (٢) . ولم يكن كراسوس ديمقراطيا (Popularis) بالمعنى الصحيح ، اذ كان ، خلافاً يوميى ، سليل أسرة نبيلة تولى كثير من أفرادها منصب القنصلية . وكان — كما ذكرنا — فاحش الثراء ، خاسد الذمة ، كثير الأتباع (clientes) ، لا يتورع عن استخدام أى وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية . وكان يستعين أحيانا بنقباء العامة ويستغل الجمعية القبلية — التى تعاون هور يوميى على دعم مركزها فى عام ٧٠ — لاصدار تشريعاته . ولهذا السبب يمكن أن نعدّه « ديمقراطيا » . غير أنه اعتمد أيضا اعتمادا كبيرا على أعضاء السناتو الذين اشترى ذمتهم بالقروض والرشا . وتأيد ترشيحهم للمناصب والدفاع عنهم فى المحاكم . كما كان كراسوس يتمتع بنفوذ بين طبقة الفرسان التى كانت تربطه بها طبيعة أعماله التجارية ومصالحه المالية . وكان يوميى هو خصمه الأول لأنه أضعف نفوذه بين الفرسان وسلبه — كما سلب أقطاب الحزب الارستقراطى —

(١) عن علاقه مصر بروما والمسألة المصرية ، راجع :

H. Winkler Rom und Aegypten im 2. Jahrhundert v. Chr.

Diss. Leipzig, 1933.

F. Olshausen, Rom und Aegypten von 116 bis 51 v. Chr.

Diss. Erlangen-Nürnberg. Kiel, 1963.

(٢) راجع ما تقدم فى ص ١٤٥ وما بعدها .

بعض مجده العسكرى بهـمـيـار كـلـة في شـمـن النصر على اسبر تـاكـوس .
وكان كراسوس - مثل يومبي - يعارض لوكللوس الذى أعاد تنظيم
شئون ولاية آسيا بما يكفل عدم استغلالها على يد الفرسان ، ولكن
كراهته ليومبي وخوفه من ازدياد قوته دفعاه الى التعاون مع الحزب
الارستقراطى فى معارضة القوانين الخاصة باسناد قيادات استثنائية
اليه . وقد صاهر أبناء أسرتين من الأسر الارستقراطية العريقة ، فنزوح
الأكبر ابنة ميتللوس « الكرتى » ، وتزوج الأصغر ، وهو بوبليوس
كراسوس (P. Crassus) . الذى التقياء وهو يعمل ضابطا
تحت امره قيصر فى بلاد الغال (١) - تزوج كورنيليا (Cornelia)
ابنة ميتللوس ناسيكا (Q. Metellus Scipio Nasica) . والأخير
سليل اسكيبو ناسيكا قنصل عام ١٣٨ الذى تزعم أعضاء السناتو فى
الحركة التى أودت بحياة تيروريوس جراكوس فى عام ١٣٣ ، وقد تبناه
ميتللوس بيوس فائد الحملة ضد سرتوريوس فى أسبانيا . ورغم
تشجيع كراسوس بعض حركات الاقلاب فقد أيد السناتو اقتراحه
بعمين كليورنيوس بيسو حاكما على «أسبانيا القرية» مع تخويله سلطة
استثنائية (٢) . لكن كراسوس لم يستطع أن يحمل الحزب الارستقراطى
على تأييد مشروعين اقترحهما أعوانه من قباء العامة لمناوئة يومبي ،
وأحدهما هو مشروع فرض الجزية على مصر ، والآخر هو
مشروع روللوس الخاص بلجنة الاصلاح الزراعى . ولا شك فى أن
فشل المشروعين يرجع الى تعاون أنصار يومبي مع الحزب الارستقراطى
فى هاتين المناسبتين . كما اصطدم مع كانولوس الزعيم الارستقراطى
وزميله فى الكنسورية عام ٦٥ الذى أطاح بمشروعه الخاص بمنح
الجنسية لسكان شمال البو (٣) . ومن هذا كله يتضح أن كراسوس

(١) راجع ص ١٨٧ .

(٢) راجع ص ١٤٥ .

(٣) راجع ص ١٤٨ .

ثم يثبت قبط على مبدأ سياسى واحد ، بل كان نيجارا للمعزى مستعدا للتعاون مع أى من الطبقات والأحزاب لتحقيق أطماعه الشخصية .

مؤتمر لوكا

وقد بلغت قيصر أنباء هذه الخلافات وهو فى بلاد الغال فساوره القلق من مصير « الائتلاف الثلاثى » ، وخشى أن يضطر يومئذ إلى التخلي عنه أثناء غيابه ، وبخاصة أن شيثرون كان يسعى للتوفيق بين حزب السناطو ، أو بعارة أخرى كان يسعى للايقاع بينه وبين قيصر ، وأخذ يندد بقانون الأخير الخاص بأراضى كميانيا وينادى بإعادة النظر فيه (١) ، ويهاجم عمليه كلوديوس وفاتينيوس (٢) . وقد زاد من مخاوفه أن خصمه دوميتيوس أهينو باربوس (L. Domitius Ahenobarbus) الذى اعتزم ترشيح نفسه للقنصلية ، أعلن أنه سيعمل ، فى حالة فوزه ،

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٧٤ .

(٢) هاجم شيثرون كلوديوس فى معرض دفاعه الرابع عن سستىوس (pro Sestio) وكان سستىوس (P. Sestius) كويستورا فى عام ٦٣ ، وعاون شيثرون أثناء فتاليته فى القضاء على مؤامرة كيليلى . وقد انتخب نقيبا للعامة فى سنة ٥٧ فبذل جهودا كبيرة لإعادة الخطيب من المنفى ونظم مصابة لمخالفة رجال كلوديوس . واتهمه أنصار الأخير فى عام ٥٦ باستعمال القوة للاخلال بالأمن (de vi) وكذلك بالرشوة (de ambitu) . وتولى الدفاع عنه شيثرون وغيره من كبار المحامين ورفضت المحكمة ببراءته (عارس ٥٦) . كما هاجم شيثرون كلوديوس فى خطبته التى دافع فيها عن كايلىوس (pro Caelio) . وكان كايلىوس روفوس (Caelius Rufus) شابا مستهترا منحلا تعاون مع كيليلى فى مؤامراته . وقد أحب كلوديا (Clodia) ، أخت النقيب كلوديوس ، إلى اشهرت حتى فبسبب وفاة زوجها فى عام ٥٩ بأنها أكثر نساء الطبقة الأرستقراطية خلاعه وفجورا . وكان الشاعر الفزلى الكبير كاتوللوس (Catullus) قد هاجمها بها وتخللها بـ «أشغال» قصائده المنسوبة مشيرة اليها باسم لىبيا (Lesbia) . وحدث بينهما قطعة عشقها كايلىوس روفوس ولكنه قطع صلته بها فى عام ٥٧ وحفظت عليه أخوها كلوديوس . وقد وجه اليه خصومه بهمة الاخلال بالأمن وتهمة القتل بالسم (de veneficiis) ، وبخاصة اغتيال ديون (Dion) ، رئيس الوفد الاسكندرى الذى جاء روما للرد على اتهامات بطلانيوس الزمار (راجع ص ٢٠٢) . وبالرقم من سيرته المشينة وتعاونته مع كيليلى فقد تطوع شيثرون للدفاع عنه . لكن كلوديوس ورفضت المحكمة ببراءته . وأما فاتينيوس فقد هاجمه شيثرون لاندعه كساهد ضد سستىوس فى خطبة عنيفة (in P. Vatinius testem interrogatio) حرص فيها على عدم إجريح سبده فيصر .

على انتهاء قيادته في بلاد الغال (١) ، مع أن قيصر كان يحتاج الى وقت طويل لتدعيم فتوحاته هناك . وأما كراسوس فكان يطمع في احراز مجد عسكري كالذى أحرزه زميلاه ، ولكنه أيقن أنه لن يظفر من السناتو بما يحقق غرضه ، مع أنه كان على استعداد لأن يدفع أى ثمن من أجل الشهرة . ورأى قيصر أن الظروف مهيأة للتفاهم فدعا زميله الى الاجتماع به في بلدة لوكا (Luca) الواقعة في شمال اتروريا على الحدود الجنوبية لولاية « غالة القرية » . وفي المؤتمر الذى عرف باسم « مؤتمر لوكا » ، جلس الأقطاب الثلاثة في أبريل من عام ٥٦ - ومعهم ما لا يقل عن ٢٠٠ عضو من أعضاء السناتو وجمع غفير من أتباعهم - جلسوا تكى يرأبوا الفسح الذى أصاب ائتلافهم ويصفوا خلافاتهم ويجددوا المواثيق ويرسموا سياسة للمستقبل . وتم الاتفاق بينهم على أن يرشح يومى وكراسوس نفسيهما قنصلين لعام ٥٥ ، وأن يسند الى الأول - بعد انتهاء قنصليته - حكم ولايتى أسبانيا لمدة خمس سنوات ، والى الثانى حكم ولاية سوريا لنفس المدة ، وأن تظل مدة قيادة قيصر فى بلاد الغال خمس سنوات أخرى ، على ألا تثار مسألة تعيين من يخلفه قبل أول مارس من عام ٥٠ (٢) . وبعدئذ عبر قيصر الألب عائدا الى بلاد

(١) كان لوكيوس دوميتيوس أهينوياربوس عدل كاتو وقريب بيولوس وابن جنايوس دوميتيوس (Cn. Domitius) نقيب العامة الذى اسنصر في عام ١٠٤ قاتونا لاضعاف سيطرة الاشراف على الجماعات الكهنوتية (راجع ص ٥٧ - ٥٨) ، والذى تولى العنصرية بعد ذلك في ٩٦ . وقد ورد عن أبيه ثروة طائلة وضياعا فسيحة وأنبعا كثيرين . وكان على غيابه وحماسه يتمتع بالحظوة لدى جمهور كبير من العامة . وقد ناصب قيصر العداء الشديد حتى انه أخذ يدعو منذ عام ٥٨ عندما تولى البريتورية ، ان لم يكن قبل ذلك ، الى انتهاء قيادته في بلاد الغال ، وأعلن في عام ٥٦ أنه سيسعى في حالة انتخابه قنصلا الى استبعاده من تلك البلاد وان كنا لا نعرف هل في الميعاد القانونى أو حبله) . ولعل سنخه على قيصر يرجع الى أنه كان يعتقد أنه أحق منه بحكم « غالة اناربونية » لأن جده جنايوس دوميتيوس أهينوياربوس ، فتصسل سنة ١٢٢ ، كان صاحب النفس الأول في فتح تلك الولاية وتنظيمها (راجع ص ٤٦ ، هامش ٢) .

(٢) بين الباحثين خلاف شديد حول هذا التاريخ الذى ستعرض له مرة أخرى .

انغال ينما عاد زميلاء الى روما ليقوما بتنفيذ قرارات المؤتمر ويوجهلا سياسة الدولة .

قنصاة پومپى وكراسوس الثانية

وعندما عاد پومپى وكراسوس الى العاصمة كان ميعاد الترشيح للقنصلية قد فات ورفض القنصل - وهو رجل من طبقة الأشراف كان يعارض الائتلاف - أن يدرج اسميهما في جداول الانتخابات . وعندئذ أوعز الزعيمان الى بعض شباء العامة من أنصارهما وعقلا اجراء الانتخابات (comitia) في عام ٥٦ مبتذرعاً بظهور طالع نحس (obnuntiatio). (١) فلما أقبل عام ٥٥ دون انتخاب قنصلين جديدين عين حاكم مؤقت (interrex) (٢) موال لهما وأجريت الانتخابات في يناير تحت اشرافه، ففاز پومپى وكراسوس بالقنصلية بعد أن أرغما منافسيهما على الانسحاب (٣) . وقد رشح كاتو نفسه للريثورية وكادت الجمعية المئوية تنتخبه لولا أن پومپى بوصفه عرافا (augur) فض الجلسة فجأاً بحدوث برق في السماء . فلما عادت الجمعية الى الانعقاد منع كاتو بالقوة من دخولها وانتخب ثابتيوس پريتورا بدلا منه . وسالت الدماء كذلك في معركة انتخاب الأيديليس (المحتسين) . وكانت هذه المرة في الحقيقة هي الوحيدة التي استعمل فيها پومپى القوة لارهاب الجمعية الشعبية وهي منعقدة لاجراء الانتخابات . واستصدر قتيب للعامة يدعى

(١) راجع ما تقدم في ص ١٧٩ .

(٢) في الأصل حاكم كان السنابو بعينه عند وفاة الملك (في عهد الملكية) ليزاول السلطة بصفة مؤقتة حتى ينولى الحكم ملك جديد . وفي عصر الجمهورية كان السنابو بعينه من بين اعضاءه الاشراف عند وفاة أو مرض أو استقالة القنصلين في وقت واحد ، ذلك لمدة خمس ايام فقط يجرى انابها انتخاب القنصلين . فالذا حدث ما يحول دون ذلك ، عين حاكم مؤقت آخر ، وهكذا دواليك حتى يتم انتخاب القنصلين . راجع أيضا ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) كان أحد المنافسين هو دوميتيوس اينيوباربوس (راجع ص ٢٠٩ وهامش ١) . وعن قنصليتهما الاولى ، راجع ص ١١٨ .

تريبونيوس (C. Trebonius) قانونا عرف باسمه (lex Trebonia) ويقضى باسناد الولايات التي تم الاتفاق عليها في « مؤتمر لوبيكا » الى القنصلين اللذين استصدرا بدورهما قانونا آخر يحمل اسمهما (lex Pompeia-Licinia) (١) ويقضى باطالة مدة قيادة قيصر خمس سنوات (quinquennium) أخرى في بلاد الغال (٢) . وبعدئذ احتضن يومي وكراسوس تشريعات تستهدف الاصلاح في ظاهرها ، واضعاف شوكة الارستقراطيين في حقيقتها (٣) . وهكذا ثبت للمرة الثانية أن « الائتلاف الثلاثي » هو الحاكم الفعلي في الجمهورية . ولما كان شيشرون يدن يومي بعودته من المنفى ، فقد اضطر الى تأييد الائتلاف أو الكف عن

(١) اي قانون يومي وليكينيوس (والاخر اسم عشيرة كراسوس M. Licinius Crassus) ويستحسن تعريفه باسمه الكامل lex Pompeia — Licinia de provincia Caesaris تميزا له عن القانون الذي استصدراه في فئسليتهما الاولى من ٧٠ بشأن السلطة التريبونية lex Licinia — Pompeia de tribunicia potestate (راجع ص ١١٩) .

(٢) في رأى بعض المؤرخين أن القانون صدر خاليا من شرط عدم الإساءة تعيين خلف لقيصر في حكم بلاد الغال قبل اول مارس من عام ٥٠ (راجع ص ٢٠٦) .

(٣) استصدر يومي قانونا للحد من سلطة الحكام كالپريتور المدني في اختيار الحلفين بأن فسر اختيارهم على ذوى أعلى نصاب مالى في الطبقات الثلاث (انفساء السناتو والدرسان « وتراينة الخزنة » ، راجع ص ١٢٠) ، على اعتبار أن هؤلاء ائوى من غيرهم على مقاومة اغراء الرشوة . ولا يتبين لنا بوضوح هدفه من ذلك القانون . ولعله كان يامل في التأثير على الرعيين (censores) اللذين كذا يمدان في هذه الحالة قوائم الحلفين وفقا للثروة . غير أن رقيب ذلك العام اعتزلا الخدمة قبل الانتهاء من عملية الاحصاء . ولاضعاف سيطرة الارستقراطيين على الانتخابات — حسبما يعتد المؤرخ الالقي الكبير مومسن (Th. Mommsen) — استصدر كراسوس في العام نفسه قانونا يعمل اسمه (lex Licinia de sodaliciis) للحد من تكوين النوادي أو التكتلات في داخل القبائل ، ولا سيما الريفية ، لأن هذه النوادي كانت تساعد — بفروعها الداخلية المروفة باسم decuriae — على توزيع الرشاش بين الناخبين في كل قبيلة . وفي القانون يمنع استغلال هذه النوادي في البطالة السياسية للمرشحين واعتبار ذلك جريمة تستوجب العقاب (قارن ص ٢٠٠ هامش ١) . وفحص على انه في المحاكمات الخاصة بهذه الجريمة والجرائم المماثلة يكون للمدعى حق تعيين اربع قبائل يختار من بينها الحلفون ، وليس للمدعى عليه أن يرد (يرفض) سوى واحدة منها . وكان القصد من ذلك عدم تمكين المتهم من شراء لمة جميع الحلفين .

مناوئته بالابتعاد عن ميدان السياسة (١) . ولم يبق هناك خصم عنيد سوى كاتيم الذي عاد الى روما في ربيع سنة ٥٦ وأصر - كما رأينا - على ترشيح نفسه للبريتورية ، ووجد فيه الحزب الأرستقراطي رجلا جريئاً جديراً بزعامته .

مصرع كراسوس وانحلال « الائتلاف الثلاثي »

وبمقتضى « قانون تريونيوس » الذي صدر في أوائل عام ٥٥ وأعطى القنصلين - بعد انتهاء خدمتهما - حق اعلان الحرب وابرار الصلح وجمع القوات العسكرية لا في ايطاليا وحدها بل في الولايات كذلك ، رحل كراسوس الى سوريا مع الفرق التي استطاع أن يحشدتها - رغم اعتراض ثقباء للعامية - في منتصف نوفمبر من نفس العام عاقدا العزم على أن يحرز مجدا عسكريا بغزو بلاد البارثيين (٢) . وقد استنكر

(١) اضطر نيسرون الى الدفاع عن مصلحة قيصر فنأى بعلم امفاته من منصبه في بلاد الغال قبل انقضاء مدته القانونية في خطبة القاها امام السناتو في يونيو من عام ٥٦ عن الولايات القنصلية (de Provinciis Consularibus) . كما دافع عن بالبوس ، (L. Cornelius Balbus) وهو رجل اصله من بلدة ^{الليبر} (Gades) باسبانيا كان يومئذ قد منحه الجنسية الرومانية (راجع ص ١٠٦) ، ثم حضر الى روما حيث أصبح من ذوي النفوذ فيها . وقد اكشف فيصر مواهبه فعينه وكيلا له وعهد اليه برعاية مصالحه أثناء غيابه في بلاد الغال . وفقدانهم خصوم « الائتلاف الثلاثي » في عام ٥٦ بانه اكتسب الجنسية بطريق غير مشروع ، واستندوا في دعواهم الى قانون بابيوس (lex Papia) الذي كان يجيز ابعاد غير المواطنين عن العاصمة الرومانية (وهو قانون رد به السناتو على مشروع كراسوس بمنح الجنسية لسكان غالة الواقعة شمال الپو - ص ١٤٨) . وقد قضت المحكمة ببراءة بالبوس فظل مقيما بروما حيث ازداد نفوذه عز ذي قبل حتى انه تولى القنصلية في الشطر الاخير من عام ٤٠ (consul suffectus) فكان اول رجل من اصل غير روماني يصل الى هذا المنصب .

(٢) ليس من المستبعد أن يكون الاتفاق على غزو بارثيا قد تم في مؤتمر لوكا وأن قيصر هو الذي اقترح الفكرة فسارع كراسوس الى الترحيب بها . وفي رأى بعض الباحثين أن كراسوس كان ينشد من الحملة السيطرة على تجارة الحرير لان الاستيلاء على سلوقية - التي تقع على الدجلة في مواجهة طيسفون Ctesiphon (الدائن) - عاصمة البارثيين - كان يتيح له أن يتحكم في السلع الواردة من الصين او الهند . ومع أننا لا ننكر أن ثروة بارثيا استهوت لب كراسوس الا أن هدفه الرئيسي انصب على الغزو واخرار الشهرة العسكرية .

الحزب الأرستقراطي هذه الحملة واحتج بأن پارثيا لم تهم بأي عمل استفزازي يرر العدوان عليها . وبعثا حاول بعض قبلاء العامة عوون الحملة عن الرحيل ، فلم يملك أحدهم الا أن استنزل اللعسات على قائدها . وكان البارثيون شعبا ايراني الأصل ، وقع تحت حكم الفرس وبعدئذ تحت حكم السليوكيين ، ثم استقل بنفسه وأقام مملكة تفتطم الولايات الواقعة في شرقي الفرات وكانت من قبل تابعة للامبراطورية انسلوكية (١) . وقد اصاب الضعف مملكة بارثيا فترة من الزمن في مستهل القرن الأول ، فاغتنم الفرصة تجرانيس ، ملك أرمينيا ، واقتزع منها أديابيني وجوردويني وما حول نصيبين (في شمال بلاد ما بين النهرين) . غير أن فراتيس الثالث أعاد النظام داخل مملكته حوالي عام ٧٠ واستعد لاسترداد أراضيه الضائعة . وكان ارتياب روما في نوايا مشراداتيس وتجرانيس قد دفعها الى انشاء علاقات ودية مع بارثيا منذ حوالي عام ٩٢ عندما عرض أحد ملوكها عقد محالفة معها . ومع أن ملكي بنطوس وأرمينيا حاولا ضم فراتيس الى جانبهما في عام ٦٦ فسان ملك بارثيا افحاز الى جانب يومبي على أمل أن يعينه على استرداد كل الممتلكات التي فقدتها بلاده في شمال شرقي ما بين النهرين . لكن يومبي حث بوعده بعد استسلام تجرانيس وقسم الأراضي المتنازع عليها بين الملكين . وبهذا التحول المفجائي الذي لم يكن هناك ما يبرره ، وضع يومبي — كما أسلفنا — بذور النزاع الذي استحكم بين روما وبارثيا مدة طويلة (٢) . وقد زاد من حدة التوتر بين الدولتين سياسة جايثيوس ، مساعد يومبي ، وقنصل عام ٥٨ ، الذي عاد الى الشرق

(١) الأشكانيون هم الذين وضعوا نواة مملكة بارثيا (وتعرف في العربية باسم بارثيا او فارطيا او ألبرت) . وتنسب الأسرة الحاكمة اليها الى جد يسمى ارشاك (Arsaces) وكان البارثيون يتكلمون لهجة فارسية تعرف بالبهلوية الاشكانية . والاستراة انظر : كريستن « إيران في عهد الساسانيين » (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب) ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص ٥ وما بعدها .

(٢) راجع ص ١٢٩ ، ١٤١ .

في ٥٧ كحاكم على ولاية سوريا (١) ، وعبر في العام التالي نهر الفرات ليد يد المساعدة لشقيق ملك بارثيا الذي استنجد به لينتزع له العرش من أخيه الأكبر (٢) . ومع أن ملك بارثيا الشرعى استطاع أن يتخلص بسهولة من أخيه المدعى ، فإن مسلك جابينيوس كان خليقا بآثارة الأحقاد وجعل كل من الدولتين تتحزن للاقتضاض على الأخرى .

ولم يجد كراسوس ذريعة لاشهار الحرب على بارثيا سوى الادعاء بأنها تهدد الولايات الرومانية المتاخمة لها في الشرق . غير أن السبب الحقيقي في التعجيل بالحرب هو طموحه الشخصى وتلفه في أواخر حياته على احراز شهرة عسكرية تطاننى شهرة بومبي وقيصر . وقد

(١) وذلك بمقتضى قانون استتمسده النقيب كلوديوس في ٨٨ ونص على منسح جابينيوس ولاية سوريا بدلا من كيليكيا التى خصصت له في أول الأمر ، وأن يمنع في الولاية بسلطة غير محدودة (imperium infinitum) .

(٢) اخمد جابينيوس عقب وصوله الى الشرق ثورة قام بها ارستوبولوس ، واعد تنظيم مملكة يهودا ونصب عليها انتيپاتر (Antipater) . وقد توترت علاقته مع اللاتزمين الرومان (publicani) في سوريا لانه كيج - فيما يبدو - جماهم ، ولكن القراصنة ماثروا فسادا في ساحل الولاية فاضطربت احوالها . ولذلك اخذ شيشرون يهاجمه منذ اوائل عام ٥٦ ويطالب بتمديد اطلاقه مدة حكمه. وترامى لجابينيوس أن يمد يد المساعدة لشقيق ملك بارثيا الذى كان يسعى الى اقتصاب العرش من أخيه ، فعبر الفرات في عام ٥٦ ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك والدم على مشروع آخر . فقد اتصل به بطلميوس « الزمار » المطرود من بلده ووعده بمبلغ ضخيم (١٠٠٠٠٠ تالنت) اذا هو أعانه على استرداد عرشه . واستجاب جابينيوس ، لطلبه وترك ولايته دون اذن من السناتو وغزا مصر في ربيع عام ٥٥ متجاهلا فرار عدم استخدام القوة في ارجاع بطلميوس الى عرشه (راجع ص ٢٠٢) ، ومتندرا بحجة ان الملك انلى ولاء الاسكندر يون عليهم كان مدير غزو ولاية سوريا . وبلغ جابينيوس ييلوزيون (الفرما) وبرففته ماركوس انطونيوس (M. Antonius) الذى كان يسولى قيادة الفرسان (praefectus equitum) ، واستسلمت له الحامية اليهودية دون مقاومة فسار الى الاسكندرية حيث استرد بطلميوس عرشه الذى افتداه عدة سنوات لكن سرعان ما عاد جابينيوس الى ولايته التى اختل فيها الأمن ونشبت الاضطرابات أثناء غيابه . وغد ترك وراءه في مصر حامية من بضع كتائب مؤلفة من جنسود رومان وجرمان وغال لتشد ازر بطلميوس (انظر : Dio 'Cassius, XXXIX 55-63; Cicero, in Pisonem, 48-50

وعن الاتهامات التى وجهت الى جابينيوس بعد عودته الى روما في عام ٥٤ ، انظر ص ٢١٩ فيما بعد ، حاشية ١ .

تجمعت لديه سبع فرق كاملة فضلا عن فرسيلة من الفرسان الغال والمشاة
خفيفي العدة ، واعتمد على أبجر ملك أسرهيني العربي^(١٨) ، وتوقع المساعدة
من ملك أرمينيا . وبدأ كراسوس حملته في عام ٥٤ بغارة على شمال
بلاد ما بين النهرين استولى فيها على بضعة مدن تقع على الفرات وداخل
ثنيته العليا . لكنه سرعان ما انسحب الى سوريا لأسباب مجهولة تاركا
وراءه حاميات بالمراكز التي استولى عليها . وفي العام التالي (٥٣) عبر
الفرات ثانية عند بلدة زيوجما Zeugma^(١٩) (بيراچله الحالية) ، بقصد
التوغل في أراضي البارثيين . وكان كراسوس كغيره من قواد عصر
الجمهورية رجلا بأسلا عنيدا على قدر من الكفاية لا يعيد عن الأسلوب
التقليدي في القتال ويضع ثقته العمياء في الفرق الرومانية عند التحارب
و العدو . لكنه لم يكسب ولاء جنوده ولم يعرف كيف يكسبه .
ومن سوء حظه أنه لم يلم الا انلما طفيفا بأساليب البارثيين في القتال
وطبيعة أراضيهم ولم يقدر قوتهم أو صعوبات الحرب في الصحراء
تديرا صحيحا . وبدلا من أن يسير حول جبال أرمينيا ويتخذ من هذه
البلاد قاعدة لعملياته الحربية أو يزحف جنوبا بمحاذاة الفرات ، شق
كراسوس طريقه عبر صحراء ما بين النهرين مباشرة . ولم يكد يتوغل
فيها حتى تصدت له القوات البارثية التي تولى قيادتها سورين (Surenas)
ساعد ملك بارثيا الأيمن ، وهو شاب جريء واسع الحيلة كان يعرف
مواطن الضعف في أعدائه .

كانت نواة الجيش البارثي تتألف من رماة مهرة يتقنون ركوب
الخيال ، وترافقهم قوافل من الابل تحمل ذخيرة احتياطية من السهام
لنساعدهم على متابعة القتال مدة طويلة ، وتمززهم كتيبة من حملة
الرمح الذين فكسو الدروع أجسامهم وخيولهم (cataphracti) أكرمان
العصور الوسطى . وانظر البارثيون حتى اقترب كراسوس من ضفة

(١٨) استقلت عن الليوكيين (السلوقيين) حوالي ١٣٢ ق.م . وهي مملكة
مغيرة صارت " منطقة حاجزة " بين البارثيين والرومان وابتعد المذكور
في ابيد الثاني (٦٨ - ٥٣) كان معظم سكانها آراميين ولغتهم
الآرامية والعاصمة اديسا (الرها = اورفه حاليا) .
بأقصى جنوب شرق تركيا ومعنى الاسم نقطة الاتصال أو المعبر .

أحد الأنهار الصغيرة ثم شنوا الهجوم عليه (١) . وعندئذ سار ابنه كراسوس (P. Licinius Crassus) ، الذي التقينا به في بلاد النبال وهو يعمل ضابطا تحت إمرة قيصر (٢) ، على رأس فصائل الفرسان المؤلفة من الغال لملاقاة العدو ومطاردته حتى يتيح لأبيه فرصة استكمال تنظيم قواته . وتجنح الفرسان البارثيون ، التقهقر أمامه واستدوجوه حتى ابتعد عن فرق المشاة الرومان ، ثم طوقوه وأبادوا قواته وسقط صريحا هو نفسه . وبعدئذ انهالوا بسهامهم على الفرق الرومانية من كل جانب وأفسوا منها عددا كبيرا . وارتد كراسوس الى بلدة كرهاي (Carrhae) حيث اعترض البارثيون طريق انسحابه وحاصروه وأوقعوا به الهزيمة في يونيو عام ٥٣ . وقد حطمت الهزيمة روح رجاله المعنوية . فأرغموا على قبول المفاوضة مع الأعداء . وذهب كراسوس - وهو يساوره شعور بأنه يدنو من نهايته - سار مع فريق من ضباطه الى مكان الاجتماع بسورين قائد البارثيين ووقع في الشرك المنصوب له ، وان لم يعرف أحد قط كيف لقي مصرعه . ودفع جيشه ثمن عصيانه فهلك جنوده ووقعوا أسرى ولم ينج من عدده البالغ ٤٠٠٠٠ سوى ١٠٠٠٠ رجل عادوا الى سوريا حاملين نبأ الكارثة .

ومع أن « كرهاي » (٩ يونيو ٥٣) كانت من الهزائم الكبرى التي منى بها الرومان الا أنها لم تحدث في العاصمة دويا كبيرا أو ذعرا شديدا . ولعل ذلك يرجع الى أن الحملة على بارثيا كانت مغامرة شخصية فلم ير الرومان في اخفاقها امتهازا لكرامتهم أو خطرا مباشرا يهدد كيانهم مثلما شعروا عقب هزيمتي كئاي وأراوسيو . وقد بلغ من تقاعس القوضى وتراخي الحكومة الرومانية وقتئذ أنها لم ترسل الامدادات الى الشرق على وجه السرعة . ومن حسن الحظ أن البارثيين

(١) هذا النهر يقع بين بلدة اخناي (Ichnae) بالقرب من الفرات وبلدة كرهاي - Carrhae (جران الحديثة) في جنوب أسرهيني (مملكة الرها) .

(٢) راجع ص ١٨٧ .

توافوا في استغلال انتصارهم فلم يغزوا ولاية سوريا على الفور ،
مما أتاح للكويستور كاسيوس (C. Cassius Longinus) فرصة الاستعداد
والدفاع عنها . ومع هذا فقد أصيبت هبة روما في الشرق بضربة
قاسية . وظلت بارثيا تهدد ولاياتها الشرقية طوال القرون الثلاثة التالية.

ولعل أهم ما ترتب على معركة كرهاى من نتائج هو موت كراسوس
نفسه وتدمير جيشه اذ عجل موته بوقوع الصدام بين يومبى
وقيصر اللذين اتسعت شقة الخلاف بينهما بعد أن زالت الرابطة الأسرية
ب وفاة جوليا ، زوجة يومبى وابنة قيصر^(١) . وانقصمت عرى « الائتلاف
التلاثى » فوجد كل من الزعيمين نفسه وجها لوجه أمام الآخر . وقد
أدرك يومبى أنه لن يستطيع وخصه مقاومة قيصر وأنه لا مناص له من
أن يتلمس معونة السناتو .

غير أن السناتو شعر هو الآخر بأنه محتاج الى تأييد يومبى . ذلك
أن أعمال قيصر في بلاد الغال أثارت ارتياب الدوائر الرومانية في العاصمة
وبخاصة الأرستقراطيين الذين ساورهم الخوف من أن يستعين بجيوشه
للقضاء عليهم بعد عودته . وكانت انتصاراته في تلك البلاد قد أكسبته
من الشهرة والمجد ما جعل من العسير تحريض جنوده على التخلي عنه
والانضواء تحت لواء قائد آخر الا اذا كان هذا القائد يضارعه شهرة
ومجدا . وفي الحق ان الحزب الارستقراطى كان في مأزق حرج اذ كان
عليه أن يختار بين شرين ، فاختار أهونهما ، ونكأ . . . في آخر
الأمر - نحو يومبى . غير أن عقبات كثيرة اعترضت طريق التفاهم لأن
النبلاء لم ينسوا تماما عداوه القديم لهم ، واحتضانهم للمشروعات الشعبية ،
وهدمه دستور سلا . وقد ارتابوا في نواياه وخشوا أن يسخرهم لما آربه
ثم يلفظهم أو يخذلهم ويعود الى التحالف مع زميله من جديد . وزاد
من شكوكهم أن يومبى كان بطبيعته رجلا مترددا ، فلم يشأ أن يجاهر
قبصر بالعداء ويقطع صلته به الا بعد أن يستوثق من تأييد السناتو .

(١) راجع ص ١٧٨ توفيت - اثناء الوضع - عام ٥٤ . وهى ابنة قيصر من
زوجته (الثالثة) كاليورنيا ٨٣ . تزوج يومبى من بعدها (فى ٥٢)
كورنيليا ، ارملة يوبليوس كراسوس .

قنصلية پومپى الثالثة

لم يرحل پومپى بعد انتهاء قنصليته الثانية فى آخر عام ٥٥ الى أسبانيا ليتولى الحكم فيها كما جرت العادة ، بل بقى فى ايطاليا — كما فعل بعد قنصليته الأولى فى عام ٧٠ — بحجة الاشراف على تموين روما بالغلل. وأرسل بعض ضباطه المساعدين (legati) لينهضوا بأعباء الحكم فى ولايتها نيابة عنه ، كما سيفعل الأباطرة فيما بعد . ولم يكن هذا المسلك فى الحقيقة عملا غير مشروع لأن القانون لم يلزم الحاكم بالرحيل الى ولايته فى وقت معين . غير أن بقاء پومپى فى ايطاليا طوال مدة حكمه كان سابقة خطيرة تنطوى على انتهاك للدستور . وقد قصد ببقائه خدمة أغراضه لأن هذا الوضع كان يمكنه من تعبئة القوات بدعوى الحاجة اليها فى أسبانيا ، واستخدامها فعلا لتدعيم مركزه فلا يستطيع السناتو أن يعالج أى أزمة دون الاستعانة به . ولما كان محظورا عليه أن يزاول سلطة الامپيريوم الپرو قنصلية داخل سياج المدينة المقدس (Pomerium) (١) فقد أخذ يرقب الأحداث عن كنب على أمل أن يستجد من الأمور ما يرغم الحزب الارستقراطى على الاستنجد به وقبول زعامته . وفى الواقع أن وجوده فى ايطاليا عاق السناتو عن حفظ الأمن والنظام لأن هذا المجلس لم يجرؤ على أن يأذن للقنصلين أو غيرهما من الحكام بتعبئة أى قوات مخافة الاحتكاك بالقائد الكبير . وترتب على ذلك أن عجزت الحكومة عن قمع الشغب وتفريق المظاهرات ومكافحة الرشوة فى ذلك

(١) لم يكن من الجائز أن يحتفظ أحد بالامپيريوم الپرو قنصلى (imperium proconsulare) وهو فى داخل المدينة الا فى أيام مواعيد الانتصار . غير أن پومپى منح حق اجتياز الپومپريوم (وهو الحد الفاصل بين نطاق السلطة المدني ونطاق السلطة العسكرية) دون النجى عنه ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يزاوله قانونا .

العام - عام ٥٤ - الذى تميز بكثرة المحاكمات التى جرت أثناءه (١)

(١) وكان معظم المتهمين من لعوان رجال « الائتلاف الثلاثى » . ومن أمثلة ذلك محاكمة جابينيوس الذى عاد من سوريا فى ذلك العام (٥٤) وواجه حملة عنيفة أثارها عليشيشرون الذى لم يتس أن جابينيوس كان قنصلا فى نفس العام الذى نفى هو فيه من روما (٥٨) . وقد وجهت إليه فى أكتوبر تهمة الخيانة العظمى (maiestas) لتركه ولايته (سوريا) ودخوله معريقات عسكرية دون إذن من السناتو (راجع ص ٢١٤ ، حاشية ٢) متهاكاً لقانون سلا فى هذا الصدد (راجع ص ٨٩) . وفيدريه من هذه التهمة ولكنه تعرض بعد شهر واحد لتهمة أخرى هى الابتزاز (repetundae) . ومع أن شيشرون اضطر فى هذه المرة إزاء الحاج يومى إلى الدفاع عنه إلا أن المحكمة أدانته وقضت عليه بغرامة كبيرة عجز عن دفعها فرحل إلى النفى . ولما تهمة الرشوة (ambitus) فقد بطل كل من يومى وبطلانيوس ما فى وسعه لاسقاطها عنه ، راجع المقال التالى عن سيرة جابينيوس :

Eva M. Sanford, "The Career of Aulus Gabinius," *TAPA* 70 (1939), 64-92.

وارضاء لقيصر دافع شيشرون عن رابيريوس بسطوموس (Rabirius Postumus) وهو ثرى من الفرسان كان يشتغل بالفساربة فى الأسواق التجارية والأعمال المصرفية ، ودمت بصلة القرابة لرابيريوس (C. Rabirius) الذى اتهم بتل ساتورنيوس (راجع ص ١٦٠ هامش) . وكان بطلميوس « الزمار قد اقترض منه مبالغ طائلة أثناء إقامته فى روما ليشتج بها نهم الزعماء ويشتري الانتصار فلما استرد عرشه لحق به رابيريوس فى الاسكتنبية ليحصل دينه مع القوائد وبقية المبلغ الذى وعد الملك به جابينيوس . ولم يجد بطلميوس مخرجاً من مأزقه إلا بتعيينه وزيراً للمالية (dioikētēs) . واستعان رابيريوس بجنود الحامية التى تركها جابينيوس فى تحصيل الضرائب من السكان بالقوقار هقهم أرهاقاً شديداً فهوا ثائرين . ومنتخذ زج بمالك فى السجن ليحميه من بطشهم ثم يسر له - فيما يبدو - طريق الفرار من مصر . ولما عاد رابيريوس إلى روما وجهت إليه تهمة الرشوة لاستيلائه على المبلغ الذى كان من المفروض أن يحصله باسم جابينيوس . ويبدو أن المحكمة قضت ببراءته لأننا نلتفى به كفضو فى مجلس السناتو فى عام ٦٩ وكأحد أنصار قيصر . ولعله هو الذى تبادل وشيشرون بعض الرسائل تحت اسمه الأصلى بسطوموس كورتىوس (Postumus Curtius)

كما أرغم شيشرون على الإضطلاع بمهمة ثقيلة أخرى ، وهى الدفاع عن خصمه اللدود فابينيوس ، صنيعه قبح ، الذى كان يقضه وسبق أن هاجمه (راجع ص ٢٠٨ هامش ٢) وكان قد اتهم بالرشوة فظفر له شيشرون بحكم البراءة . وعن علاقة شيشرون بقيصر فى عام ٥٤ (عام المحاكمات) راجع الكتاب التالى :

F. Lossmann, *Cicero und Caesar im Jahre 54*

(Hermes, Einzelschriften 17). Wiesbaden, 1962.

وترافع شيشرون فى نفس العام عن بلانيوس (Cn. Plancius) - وهو كويستور كان قد عقد معه أواصر الصداقة وواساه أيام مجنته فى منقواء بمقدونيا عام ٥٨ - ورد شيشرون له الجميل فدافع عنه فى قضية اتهم فيها باستغلال النوادى فى داخل القبائل استقلالاً غير مشروع فى الدعاه الانتخابية (راجع ص ٢١١ هامش ٢) . كما دافع

وليس أدل على استفحال الرشوة والفساد من أن فنصلى ذلك العام ،
الذين كانا يعارضان « الائتلاف الثلاثي » وصنائه ، اتهما أثناء
إشرافهما على انتخابات القنصلية للعام التالي بعقد اتفاق مشين مع
مرشحين لمساعدتهما على الفوز بالمنصب من بعدهما متا بمبلغ معين (١) .

=

شيشرون عن أسكاروس ، الكويستور في جيش بومبي أثناء حملته في الشرق الأوسط
(راجع ص ١٢٩) ، والذي انتخب أيدى في ٨٥ وبرتورا في ٥٦ ثم عين حاكما على سردينيا
في ٥٥ ، وانهم بعد عودته إلى روما في ٥٤ بالابتزاز في ولايته ، ولكن الحكمة التي كان
يرأسها كانوا يرآه بأغلبية ٥٧ صوتا ضد ٨ أصوات . ولم يقتصر نشاط شيشرون على
مبدان الحماة فكف في تلك السنة على كتابة بحثيه القيمين في السياسة أو الدولة
(de Republica) وفي القوانين (de Legibus) وهما بحثان سنعود إليهما بعد قليل
(انظر ص ٢٢٨ وما بعدها هوماش ، فيما يلي) .

كما كان من بين أعوان « الائتلاف الثلاثي » الذين قدموا للمحاكمة وقتل مسيوس
(C. Messius) نقيب سنة ٥٧ الذي قدم بمشروع تعيين بومبي منرفا على ديون روما
بالنقل ومنحه اعتمادات مالية ضخمة وتخوله سلطة أعلى من سلطة حكام الولايات (راجع
٢٠١) . وقدم أيضا للمحاكمة جايوس كاتو C. Porcius Cato (وهو غير كاتو
الزعيم الأرستقراطي) ، نقيب عام ٥٦ الذي ناطق مع كراسوس وأرغم جماعة الكهنة
الخاصة بالكتب المقدسة على إذاعة النبوة السييوية للحيلولة دون اسناد قيادة جيش
إلى لنتولوس أسينثر أو بومبي لأغراض «الزمار» إلى عرشه (راجع ص ٢٠٢) . وكان قد أيد
« الائتلاف الثلاثي » بعد مؤتمر لوكا ، ثم وجهت إليه تهمة عرقلة الانتخابات ، ولكن
الحكمة برأت ساحته .

ولعل ما حدث لبومبينيوس (C. Pomptinus) نهض دليلا على مدى التطاحن
الحزبي وتآزم الأمور . كان بومبينيوس قد انتخب بريتورا في عام ٦٢ ثم عين في عام ٦٢ ،
بوصفه بريتورا سابقا ، حاكما على ولاية « غالة الناربونية » ، والحق في عامي ٦٢ ، ٦١ هزيمة
بالالووبروجيس الثائرين (انظر ص ١٨٤) . ثم طالب في عام ٦٠ بإقامة موكب له احتفالا
بانتصاره (triumphus) ، ولكن السناورد رفض مطلبه ، فظل مقيما خارج روما ست
سنوات لا يريد دخولها حتى لا يفقد حقه في الموكب . ولم نتحقق أنيته إلا في عام ٥٤ بعد
أن بلل حاكمان من أصدقائه فصارى جهدهما الانتزاع فرار من السناو بعضى بدخوله المدينة
في موكب نصر .

(١) كان هذان القنصلان هما نومييتيوس أهينوباردوس ، خصم فيسر (راجع ص ٢٠٨ ،
٢٠٩ هاس ١) ، وأيبوس كلوديوس بولكر (Ap. Claudius Pulcher) شقيق نقيب
العامة الديماجوجي كلوديوس (P. Clodius Pulcher) ، وهو من طبقة الأنراف .
وكان الاثنان قد فازا بالقنصلية لعام ٥٤ ، كما فاز كاتو بالبريتورية لنفس العام . ولم يحاول
بومبي وكراسوس اللذان أشرفا على الانتخابات في منتصف عام ٥٥ إسقاطهم كما فعلا في العام
السابق (راجع ص ٢١٠) ، حتى لا يثير الرأي العام الذي بدأ بسنكر أساليب

=

وترتب على ذلك أن تعطل اجراء الانتخابات أكثر من مرة ، فبقيت

=

« الائتلاف الثلاثي » وينتشر بالدعاية التي قام بها الارستقراطيون ضده . وإذا كان شيشرون قد رضى لرجال الائتلاف واضطر - كما رأينا - الى الدفاع عن المتهمين من أروانهم ، فقد كان هناك - الى جانب السياسة كابو وببيلولوس وأهينوس وبروتوس وكورديو - رجال آخرون لم يكفوا عن مهاجمة الائتلاف الثلاثي وصنائه . وكان في مقدمتهم الاديبان الوهوبان كالقوس (C. Calvus) الذي لم يكن شاعرا فحسب بل خطيبا أيضا وزعيم مدرسة « الأسلوب الانيكى » ، وهو أسلوب سهل معنع يمتاز بالإيجاز والوضوح ، والآخر هو صديقه كاتوللوس (C. Catullus) الشاعر الغزلى الكبير وعشيق لسيا (راجع ٢٠٨ هاشمى ٢) . وقد كتب الأول عدة خطب لازعته فيها بغابنيوس بطية فيصر . ومع انه لم يستطع ادانته الا أن خطبه كان لها وقع كبير في نفوس الناس . ومن المؤسف أن أشعاره التي هجا فيها بومبي وفيصر ضاع معظمها . غير أن القصائد التي نظمها كاتوللوس وصلتنا كاملة . وكان كاتوللوس ابن أحد وجهاء فيرونا (Verona) ، وهي إحدى المدن الرئيسية في غالة القربية . وقد هجا هذا الشاعر الغزالي الذي اشتهر شعره بالركة والرسافة والجمال ، هجا فيصر هجاء مفعلا فاحتسا ، ولم يسلم من لسانه رجال فيصر ، فهجا فانيشوبوس وربما لاينيوس (راجع ص ١٨٨) ومامورا (C. Mamurra) ، رئيس الهندسين (praefectus fabrum) في جيش فيصر ، الذي جمع أو نهب ثروة طائلة في بلاد الغال ، واشتهر بالبئخ المفرط والاسهتار والسدد . ومع هذا فقد استطاع فيصر في النهاية أن يستميل الشعراء الى جانبه بلبافته ودمائه . ولكن القسدر لم يهمل كاتوللوس حتى ينعم بهذه الصداقة الجديدة فها هو شاب في سن الثلاثين (٨٤ - ٥٤) راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ص ٤٩ - ٥١ .

وأما الرشحان اللذان تواطأ معهما فتنصلا عام ٥٤ على تزوير الانتخابات من أجلهما ، فهما دومينيوس كالينيوس (Cn. Domitius Calvinus) وجايوس ميمبوس (C. Memmius)

وكان الأخير هو الذى أفضى - لسبب لا نعرفه سر الانفاقية المخزية أمام السناو في أوائل سبتمبر من سنة ٥٤ . ومع هذا انتخب الأول فتنصلا ولكنه لم يتقلد منصبه بسبب الفوضى والاضطرابات الا في يوليو من عام ٥٢ وظل يشغله حتى نهاية ذلك العام . وكان قد بدأ حياته السياسية كخصم لقبصر وعارض وهونتيب في عام ٥٩ مشروعه الأول الخاص بتوزيع الاراضى على جنود بومبي . وقد انحاز في آخر الامر الى فيصر بعد مؤمر لوكا وقابل الى جانبه في الحرب الاهلية . وأما ميمبوس الذى تزوج فاوستا (A. Fausta) ، ابنة الدكتاتور سلا الخليفة المستهتره (والى زوجها من بعده ميلو) ، فقد تولى البريتورية في عام ٥٨ وكتب خطابا لاذع طعن بها في دستورته شرمعات فيصر ، ثم عين حاكما على ولاية بثونيا وبثغوس في عام ٥٧ . وقد رافعه في رحلته الشاعر كاتوللوس الذى ذهب لزيارة قبر أخيه في منطقة طروادة . واهمى الى لوكرتوس (T. Lucretius Carus) الشاعر الفيلسوف الكبير ، قصيدته الطويلة في طبيعة الاشياء (de Rerum Natura) (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ص ٤٦) . وقد استطاع فيصر أن يستميل ميمبوس أيضا الى جانبه بعد مؤمر لوكا .

الدولة دون قنصلين حتى شهر يوليو من عام ٥٣ . وقد أثار هذا الشغب كل من كلوديوس وميلو عندما رشح الأول نفسه للبريتورية ورشح الثاني نفسه للقنصلية في ذلك العام . وكان ميلو كبير الأمل في النجاح لأن السناتو كان يشد أزره .

ويبدو أن پومپى خشى أن يؤدي فوز ميلو بالقنصلية الى تعزيز مركز السناتو فرأى أن يتخلى عنه ويتعاون مع كلوديوس ، خصمه القديم ، الذى عاد الى الظهور على رأس عصاباته المسلحة ليعكر صفو الأمن ويحول دون اجراء الانتخابات . ولم يقف ميلو مكتوف اليدين فاستعان هو الآخر بعصاباته ، واحتدمت المعارك في شوارع العاصمة وتعذر انعقاد الجمعية المثوية ، ولم يدر السناتو ماذا يفعل ، وبلغ من سوء الحالة أن أقبل عام ٥٢ دون أن يتم انتخاب كبار الحكام مثلما حدث في مستهل العام السابق . وكان في وسع پومپى أن يعيد الأمن الى نصابه ، ولكنه ترك الحالة تتدهور حتى يضطر السناتو الى منحه سلطات استثنائية جديدة . وحدث في يناير من نفس العام أن نشبت معركة بين أتباع ميلو وأتباع كلوديوس على طريق أپيوس (Via Appia) وانجلت عن مقتل كلوديوس . وما كاد نبأ مصرعه يسرى في العاصمة حتى نزلت عصاباته الى الشوارع تعيث فسادا ونهباً وتقتيلاً ، وقلت جثته أولاً الى منصة الخطابة (Rostra) وبعدئذ الى دار السناتو (Curia) التى أضربت فيها النيران . ولم يعد في وسع السناتو أن يسكت فأصدر « قراره النهائى » ، ودعا الحاكم المؤقت (interrex) وقياء العامة والبروقنصل لاتخاذ الموقف . وتخلى پومپى عن ترده المعهود وحشد قواته وتأهب لدخول المدينة . وعندئذ اقترح بيبولوس نفسه ، وهو من أشد أعضاء الحزب الارستقراطى تمسكا بنصوص الدستور ، انتخاب پومپى وحده قنصلاً . وأيد كاتو الاقتراح . ولم يشأ السناتو أن يعينه دكتاتوراً فأخذ برأى بيبولوس وأوصى الجمعية

بإتخابه وحده قنصلا على أن يختار هو زميلا له اذا شاء . وأُسندت
إليه مهمة إعادة النظام واستئصال الفساد وإصلاح شئون الدولة .
وسرعان ما دخلت قواته المدينة وقرت المظاهرات وقضت على الفوضى
والشغب واستتب الأمن وساد النظام . وبمقتضى السلطات الاستثنائية
التي خولت له استصدر يومى قانونين صارمين أحدهما بأثر رجعى
يسبى من عام ٧٠ لتشديد عقوبة الرشوة (de ambitu) والآخر
لتشديد عقوبة الإخلال بالأمن (de vi) . وقد شفع هذين القانونين
بمواد تنص على تبسيط الاجراءات القضائية لسرعة الفصل فى الدعاوى ،
فحدد عدد المحلفين الذين اختارهم يومى من بين ذوى السمعة الحسنة
فى الطبقات الثلاث (أعضاء السناتو والفرسان وترابنة الخزائن) ،
واختير رؤساء هذه المحاكم (quaesitores) لا من بين البريتورين ، بل
من بين القناصل السابقين . وتقرر الاكتفاء بمحام واحد عن كل متهم ،
مع تقصير مدة المرافعة ، والاستغناء عن شهود الأخلاق (laudatores) ،
وهى شروط كانت تنذر بوأد حرية الخطابة القضائية . وسرعان ما قدم
ميلو - مع فريق من أنصاره - للمحاكمة فى إبريل عام ٥٢ بتهمة استعمال
العنف والإخلال بالأمن . ومع أن الحزب الارستقراطى حاول حمايته
وتطوع شيشرون للدفاع عنه فان المحكمة أدانته فرحل الى المنفى
فى مرسيليا .

لقد بلغ يومى حينئذ ذروة مجده السياسى فأصبح حتى قبل أن
تنقضى عشر سنوات على قنصليته الثانية فى ٥٥ ، قنصلا بمفرده
(consul solus) وهو مركز لا يختلف فى واقع الأمر عن مركز الدكتاتور ،
الذى كان يعين قديما فى وقت الأزمات لانجاز مهمة معينة . ولكنه كان
يناقض الدستور وكافة السوابق ومعنى المنصب ذاته . كان مشرفا
على تموين روما بالغلل ، وحاكما على ولايتى أسبانيا ، وجمع بذلك
بين القنصلية والپروقنصلية فى وقت واحد ، وهو أمر لا تجيزه القوانين .

لقد أصبح هو السلطة الرئيسية في العاصمة لأن السناتو كان بدونه عاجزا لا حول له . ولعل ذلك هو ما حدا بمعاصريه الى وصفه في هذه الفترة بالمواطن الأول أو « الرئيس » (Princeps) ، الذي مهد مركزه الطريق لرئاسة أغسطس (Augustus) مؤسس الامبراطورية الرومانية^(١) . ومع هذا فان يومى لم يرغب بل لم يفكر في قلب نظام الحكم الجمهورى ، واقتصرت مطامعه على أن يكون هو الرجل الذى لا تستطيع الدولة الاستغناء عنه والدعامة التى ترتكز عليها الحكومة ، مع تمتعه بالسلطات وألقاب الشرف اللائقة بمركزه^(٢) . ولم يعد يومى يحتمل وجود منافس يناقسه أو يحرص على مصالح قيصر أثناء غيابه . وكان من البديهي أن يدفعه وضعه الجديد الى الانحياز تدريجيا الى معسكر الارستقراطيين الذين أثار قيصر القلق في نفوسهم بما أحرزه من جاه ونفوذ وشهرة فباتوا يخشونه كخصم خطير .

النزاع السياسى بين يومى وقيصر

كان قيصر يدرك وهو في بلاد الغال أن خصومه يتربصون به

(١) راجع :

Edward Meyer, *Caesars Monarchie und das Principat des Pompejus*, Stuttgart und Berlin, 1918 [cf. however, F. E. Adcock, *CAH*, IX (1932), 718 ff.; R. Syme, *The Roman Revolution* (1939), Ch. IV; Id. *JRS* (1944), 99 ff.; H. Last, *JRS* (1944), 119 ff.]

(٢) راجع ص ١٦٩ هامش ٢ . ولم يشاء يومى أن يحتفظ بالقتلية وحده حتى آخر العام فعمل على انتخاب زميل له شاركه التنصب في الشهور الخمسة الأخيرة من السنة (٥٢) . وقصد رفع اختياره على ميتيلوس اسكيبيو ناسيكا (راجع ص ٢٠٧) الذى كان قد رشح نفسه للقتلية في أواخر عام ٥٣ ، ولكن الانتخابات لم تتم بسبب العوضى والاضطرابات . وقد اتهم بالرشوة ولكن يومى استخدم نفوذه لتبرئته من التهمة . وتزوج يومى ابنته كورنيليا Cornelia (امرأة كراسوس الأصغر) . واستصدر ميتيلوس اسكيبيو هاتونا يقضى بارجاع السلطة الكاملة « للرفيقيين » فيما يتعلق بحلف اسماء مرتكبي المخالفات او لدى السمعة السيئة من فائمه اعضاء السناتو ، وهى سلطة كان نقيب العامة كلوديوس قد لبسها في عام ٥٨ بان جعل استبعاد العضو غير جائز الا اذا وجهت اليه تهمة علنية محددة : انق « الرفيقيان » على ادايته .

الدوائر . فقد بلغ مكانة أوغرت صدورهم منه . وأيقن أن زعماء الحزب الأرستقراطي سوف يكيلون له التهم جزافا بمجرد تنحيه عن سلطة الامپريوم ولذلك حرص على ألا يضع نفسه تحت رحمتهم ووضع نصب عينيه أن يفوز بالقنصلية للمرة الثانية وهو في بلاد الغال بعد انتهاء مدته قيا دمه مباشرة . ولذلك أوجي الى قباء عام ٥٢ باستصدار قانون - يعرف باسم قانون النقباء العشرة (lex Decem Tribunalium) - ويجيز له أن يرشح نفسه للقنصلية وهو متغيب عن روما (in absentia) . وقد فهم قيصر من هذا القانون أنه يطيل ضمنا مدة قيادته الى ما بعد انتخابات عام ٥٠ . غير أن قانون فيليبوس (lex Vellia annalis) (١) لم يكن - على ما يرجح - يسمح له بأن ينولى القنصلية مرة ثانية إلا بعد اقضاء عشر سنوات منذ نهاية دخليته الأولى ، أى في أول يناير من عام ٤٨ . ولما كانت فترة قيادته في بلاد الغال تنتهى في أول مارس من عام ٥٠ (٢) ، فقد كان عليه أن

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٦ - ٨٧ وعن هذا القانون ، انظر الآن : A. E. Astin, "The Lex Annalis before Sulla," Collection Latomus 32 (Bruxelles 1958).

(٢) راجع ص ٢٠٩ . وفي رأى آخر أنه يهينه كانت تنتهى في أول مارس ٤٩ . وهذا الخلاف يرجع الى عدم الاتفاق حول بدايه مدة قيادته فيصر الثانية في بلاد الغال وهي خمس سنوات (quinquennium) وهل كانت تبدأ من حيث تنتهى مدة قيادته الأولى أى من أول مارس ٤٩ كما يعتقد المؤرخ Mommsen أم كانت تبدأ منذ صدور قانون بومبي وليكنيوس في أوائل عام ٥٥ (راجع ص ٢١١) وتستمر حتى عام ٥٠ (في أول مارس كما يعتقد الأستاذ Marsh أو ١٢ نوفمبر كما يعتقد الأستاذ Adcock أو في يوم مع من أول أغسطس وأول أكتوبر كما يعتقد الأستاذ Stevens) . وقد ظل رأى مومسن - أثناء فترة طويلة ، غير أن معظم الباحثين يميلون الآن الى الرأى الذى اخذنا به استنادا الى ما ورد من فرائن لدى بعض المؤرخين مثل كاسيوس ديو وأبياتوس وشيرون . رجع هذا عند ظهر منذ سنوات بحث جديد يؤيد رأى مومسن . انظر : G. R. Elton, "The Terminal Date of Caesar's Gallic Proconsulate" J.R.S. 36 (1946), 18-42.

وعن هذا الموضوع ، انظر أيضا المصادر والراجع الآتية : Cicero, ad fam. III, 8, 4-9; II, 3; ad Att. VII, 7, 6; 9, 3.

يتنحى عن سلطته البروقنصلية ويعود الى روما كمواطن عادى مجرد من الحصانة ثم يرشح نفسه فى انتخابات منتصف عام ٤٩ قنصلا لعام ٤٨ . ولكن هذا الوضع كان يجعله عرضة لهجمات خصومه . لذلك حاول أن يسد الثغرة بين هذين التاريخين (مارس ٥٠ ، يناير ٤٨) بأن يحتفظ خلالها بالامير يوم ، إما باطالة مدة قيادته فى بلاد الغال الى ما بعد يوم انتهاء القانونى (legis dies) ، أو بالتعجيل بترشيح نفسه غاييا فى عام ٥٠ ليتولى منصب القنصلية فى أول ٤٩ ، أى قبل الميعاد القانونى سنة واحدة . وكان حجه فى المطالبة بترشيح نفسه قبل الميعاد هى أن قنصلية يومى الثالثة فى عام ٥٢ كانت هى الأخرى انتهاكا لقانون فيليوس . وكان قيصر كبير الأمل فى أن حكم بلاد الغال سوف يسند اليه فى أول يناير من عام ٤٨ بعد انتهاء مدة قنصليته فى ٤٩ . وقد بنى أملا على قانون سمپرونيوس الخاص بالولايات القنصلية (١) . ولما كان هذا القانون ينص على تعيين أسماء الولايات المزمع اسنادها الى القنصلين قبل ظهور نتيجة الانتخابات ، وكانت مسألة تعيين خلف لقبصر لا تجوز اثارها قبل أول مارس من عام ٥٠ (٢) ، فلم يكن من

F. B. Marsh, *The Founding of the Roman Empire* (1927), 275 ff.

F. E. Adcock, *Class. Quart.* (1932), 14 ff.

C. E. Stevens, *AJP* (1938), 169 ff.

R. Sealey, *Class. et Mediaev.* (1957), 75 ff.

P. J. Cuff, *Historia* (1958), 445 ff.

(١) lex Sempronia de provinciis consularibus

وهو القانون الذى استصدره جانيوس (سمپرونيوس) جراكوس فى عام ١٢٢ (راجع ص ٢١) .

(٢) راجع ص ٢٠٦ . غير أن الرأى يتجه الآن الى أن قانون يومى وليكينيوس لم يتضمن شرط (sanctio) بهذا المعنى لأن المسألة اثيرت أكثر من مرة قبل ذلك التاريخ (راجع ص ٢١١ وهامش ٢) . ومع هذا فلا يستبعد أنه كان أمرا متفقاً عليه فى مؤتمر لوكا عام ٥٦ فلما توترت العلاقة بين يومى وقيصر وندأ خصوم الأخير يشيرون مسألة استبعاده من =

المستطاع اسناد حكم أى ولاية فى بلاد الغال لقنصلى عام ٥٠ ، لأن السناتو يكون قد عين لكل منهما ولايته قبل ظهور نتيجة انتخابهما فى عام ٥١ .

لكن اذا كان قيصر قد عقد أمله على اطالة مدة قيادته فى بلاد الغال بهذه الطريقة ، فقد خيب يومىي أمله باصدار قانونين فى عام ٥٢ ، ينص أحدهما على منع الفائزين عن روما من ترشيح أنفسهم للمناصب (lex de iure magistratuum) . وكان هذا معناه حرمان قيصر من الامتياز أو الاستثناء (privilegium) ^(١) الذى اكتسبه مؤخرا بمقتضى قانون النقباء العشرة . ولذلك اعترض أنصاره عليه اعتراضا شديدا مما اضطر يومىي الى الاعتذار بأن ما حدث كان سهوا وأنه لم يعتمد الغاء امتياز قيصر ، وأضاف بخط يده الى القانون بعد صدوره مادة تستثنى قيصر من أثره . ومن العسير أن تقطع بحسن نية يومىي الذى لم يكن قد جاهر بعد بعدائه ليقصر ، أو أن تقطع بأن تعديل القانون بعد صدوره لم يكن اجراء باطلا عرضة للطعن . وأما القانون الآخر (lex Pompeia de provinciis) فينص على أن يكون اختيار حكام الولايات ، لا من بين القناصل والپريتورين بعد انتهاء مدة خدمتهم السنوية مباشرة ، بل من بين القناصل والپريتورين الذين

الغال فى أوائل عام ٥١ اصل فيصر ييومىي شخصيا أو عن طريق مندوب عنه فى أغسطس أو سبتمبر من نفس العام وذكره بوعده القديم فى لوكا بالا تناقض مساله تعيين خلف له فى بلاد الغال قبل أول مارس من عام ٥٠ ، راجع :

J.P.V.D. Ealsdon, JRS 29 (1939), 57 ff.

(١) ومعناها إعفاء شخص من أثر قانون معين وذلك بمقتضى قرار من السناتو . وكان كورنيلوس (C. Cornelius) أحد نقباء نفاء سنة ٦٨ قد اقترح - دون جدوى - مشروعا يجعل الإعفاء من حق الجمعية الشعبية وأخيرا ووفق على الاقتراح بعد تعديله وذلك بأن يمنح السناتو الإعفاء بشرط ألا يقل عدد الحاضرين فى الجلسة عن ٢٠٠ عضو (راجع ص ١٤٢) .

مفدت شئى انقل خمس سنوات على اغزالهم المنصب (١) . وكان ذلك

(١) ان بومبى ، الذى وضع القانون استثنى نفسه من اثره ، فكانه - على حد قول المؤرخ باينوس Annal. III. 28 - كان هادما لقوانين اتشاهها هو نفسه : *suorum legum auctor idem ac subversor* . وبمقتضى هذا القانون عين بعض الدناسل السابقين ، ممن لم تسبق لهم الخدمة فى الخارج ، حكاما على الولايات وكان من بينهم بيبولوس (الذى عين حاكما على سوريا) واهينوباربوس (الذى عين على غالة البعيرة ولكنه لم يتقصد منصبه) وشيشرون الذى عين حاكما على ولاية كيليكيا بآسا الصغرى (راجع ص ١٥٥ هامش ١) . وقد ضرب المثل فى العدالة والنزاهة وأحرز بعض الاسسارات وحياة الجنود بلب امبراطور (imperator) وكان يطعم فى ان يقرر له المئتانو موكيا احتفالات انتصاره (triumphus) : وعن هذا اللعب (راجع ص ١٠) .

وجدير بالذكر انه اتم قبل رحيله الى الولاية فى شهر مايو من عام ٥١ كتابة بحثيه « فى الدولة » (de Re Publica) « وفى القوانين » (de Legibus) اللذين بدأهما فى صيف عام ٥٤ (راجع ص ٢٢٠ هامش) وعرض فيهما برنامجا سياسيا لانتشال الدولة من التدهور . وكان بومبى قد غادر روما الى الريف الاطالى باركا السيطرة على السناتو فى يد الارستقراطيين الذين شعروا بحرية لم يشعروا بها منذ سنوات . وقد شاطروهم شيشرون هذا الشعور . وكان شيشرون قبل رحيل بومبى عن العاصمة قد قام لأول مرة ، منذ قضية فريس ، بدور المدعى فى قضية كان اتهم فيها أحد رابته عام ٥١ التوالين لبومبى وقد ادى ذلك الى ساجره هوروالعائد الكبير مما اثلج صدر الارستقراطيين الذين قابلوا الخطاب الكبير بصيحات الاسحسان . وأحسن نيترون أنهم ينظرون اليه ثانية على انه واحد منهم . ولعل هذه الحرية هى التى حفته على ان ينشر بحثه او حواراه من « الدولة » بعد ان عكف عليه ثلاث سنوات لبعلا فراعته وبسلى نفسه فى محتته ويتخلص من شعوره بالذلة والمهانة . وقد خطر له أولان يجعل الحوار بدور فى زمنه على ان يقوم هو نفسه بالدور الرئيسى فيه ، ولكنه ادرأه قد اصبح بعد رضوخه للاتلاف الثلاثى رجلا مجرعا ، فعزل عن العكرة وأثر ان يدع اسكيبو اميليانوس Scipio Aemilianus (راجع ص ١٧) يدير الحوار ، وعاد بتاريخه الى بداية عمر الثورة عقب مصرع بيبولوس جراكوس ، وهو أيضا عصر كانت الدولة فيه منتهورة نحتاج الى الاحياء والاصلاح . (راجع : H. H. Scullard, "Scipio Aemilianus and Roman Politics," JRS 50 [1960], 59-74.

وفى هذا البحث الذى يتكون من ١٠ محاضرات « جمهوريه » افلاطون يتناول شيشرون الدستور المثالى والحاكم المثالى . وهو لا يدعو الى دستور مثالى فى دولة وهمية لم نقيم شيئا بين البشر (Utopia) ، بل الى الدستور الذى تركه السلف ، دستور العصر السابق لا بيبولوس ، جراكوس ، الذى اثار اعجاب المؤرخ بوليبيوس Polybius (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ، ص ٥٧ - ٥٨) لانه يجمع بين أفضل عناصر الملكية والارستقراطية والديمقراطية . وستدرك ان لسان اسكيبو اميليانوس ما بين هذه النظم الثلاثة من توازن تتشابه فى الدستور الرومانى بين القنصلين والسناتو والنسب ، او بالاحسن بين

يعنى فى حقيقة الأمر ابطال قانون سيرونيوس الخاص بالولايات
التنصليّة الذى عقد قيصر أمّله عليه ، لأن القانون الجديد كان يجيز

=

الـ potestas consularis (= imperium) والـ auctoritas (patrum)
والـ libertas (أى بين السلطة التنصليّة وبين الحرية)
ويعد شيرون رجلا حكيما آخر من المحافظين وهو ليليوس (C. Laelius) - صديق
اسكيبيو ورفيقه فى حملته التى دمر فيها قرطاجنه فى الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦
وفصل عام ١٤٠ وعضو « حلفه اسكيبيو الادبية » واحد اتباع المدرسة الروائية -
يدعه يعقب على ذلك فيقول انه لاستمرار هذا التوازن لابد من وجود رجل واحد يرعاه
ويحميه ، وهى المواطن الاول فى الدولة (princeps) . وقد جاء على شيرون وقت
كان يامل فيه ان يكون « الوئام بين الطبقتين » (Concordia Ordinum) او « إجماع راء
كل العناصر الفاضلة » consensus omnium bonorum فى الدولة (راجع ص
١٥٢ - ١٥٤) ، هو الاداء لحفظ هذا التوازن . لكن يبدو انه يغلى من هذا الرأى
واخذ بتطلع الى رجل واحد يطلق عليه لقب rector rei publicae او moderator
gubernato ، أى مرشد سفينة الدولة ومنظم شئونها وحاكمها المصلح . وفى رأى
بعض المؤرخين ان يوميى هو الرجل الذى كان يجول بخاطر شيرون . كان شيرون - كما
ذكرنا - قد بدأ كتابة هذا البحث فى صيف عام ٥١ ولكنه لم ينمه الا قبيل رحيله الى
كيليكيا فى صيف عام ٥١ ، وفى خلال تلك الفترة تغير رأيه فى يوميى بعد ان بدر منه
ما خيب أمّله فيه . فقد التجأ الى القوة لاعادة النظام واستعمل العنف فى الانتخابات
(انظر ص ٢١٠) ولم يعد فى نظر الخطيب الكبير اهلا لان يكون هو الزعيم الذى يسوس
امور الدولة بالحكمة . فليس فى معنى كلمة moderator - كما فهمها شيرون -
ما يوحي بانه حاكم مزود بالسلطة العسكرية قبل هو سياسى وفيلسوف . فمن هو ان
ذلك الحاكم المثالى الذى دار بخلد شيرون وهو شيرون نفسه ام كانو ام رجل الحكم
المثالى على الاطلاق ؟

ولا مراء فى ان مقترحات شيرون لاصلاح الدولة والتى بسطها فى بحثه عن القوانين
(de Legibus) بصورة أكثر وضوحا وتحديدا ، انما تمثل او تعبر عن الهدف
الاسمى الذى كان يصبو اليه الحزب الارستقراطى تحت زعامة كانو . فقد ناضل رجال
هذا الحزب نضالا مستمرا للاحتفاظ بالوضع الراهن (status quo) ، غير ان ما كانوا
يتوقون اليه هو دستور عصر ما قبل تيبريوس جراكوس ، او دستور سلا ، عندما كان
السناتو هو صاحب السلطة العليا فى توجيه السياسة العامة . وكان حزب كانو يوصف
او يوصم حينئذ بانه factio أى جماعة تمثل الاقلية . واهتمام شيرون بتحديد
معنى هذه الكلمة أمر له مغزاه . فهو يصفال factio بانها شرذمة ارستقراطية
منحلة فاسدة تستأثر بسلطة اولجركية ويقارنها بحكومة الطبقة الثلاثين فى اينا
(عام ١٠٤) . ومن المعتقد انه يدافع بلباقة عن الارستقراطيين (Optimates) وينفى
عنهم تهمة انهم اولجركية ، ويحثهم فى الوقت نفسه على ان يسلكوا سلوكا قويا ويظهروا
بمظهر الارستقراطيين الاصلاء .

ايفاد الحكام الى الولايات في أى وقت من أوقات السنة . ولعل يومى كان صادق الرغبة في اصلاح أداة الحكم في الولايات لأن قانونه كان يستهدف منع المرشحين للمناصب من اقتراض مبالغ ضخمة على أمل تسديدها من مغنم الولايات التى تسند اليهم عقب انتهاء خدمتهم السنوية مباشرة . لكن ذلك لا ينفى - برغم اعتراض بعض الباحثين - أن القانون الجديد كان قصد ٥٠ أيضا الاضرار بقيصر لأنه كان يسمح بتعيين حاكم غيره على بلاد الغال بعد أول مارس من عام ٥٠ مباشرة . وعندئذ كان يضطر الى العودة الى روما ليرشح نفسه للفنصلية كمواطن عادى لا صفة رسمية له (privatus) مجرد من الحصانة فيكيل له خصومه الاتهامات لما مارسه من أعمال غير دستورية في قنصليته عام ٥٩ كاستخفافه بحق الاعتراض وانتهاكه حق استطلاع مشيئة الآلهة واستخدامه الرشوة في الانتخابات ، أو قد يتعرض لتهمة الابتزاز في الولايات أو حتى لتهمة الخيانة العظمى . ولم يعد في وسعه إلا أن يعتمد على أنصاره من قباء العامة لعرقلة أى مشروع يرمى الى تعيين حاكم يخلفه على بلاد الغال ، لأن قانون يومى انجديد كان - من حسن حظه - على تقيض « قانون سمپرونيوس » لا يمنع من استعمال حق الاعتراض لوقف القرارات الصادرة طبقا له (١) . ومع هذا فقد تخرج مركز قيصر وتهدهدته الخطر بينما وطد يومى مركزه وأمن مستقبله باستصدار قرار من السناتو باطالة مدة قيادته في ولايتى أسبانيا أربع أو خمس سنوات أخرى .

وقد أصبحت مسألة تنحية قيصر عن قيادته الپروقنصلية واستدعائه من بلاد الغال محور الصراع في حلبة السياسية الرومانية طوال السنتين التاليتين (٥١ - ٥٠) . وكان الفشل في ايجاد حل وسط للنزاع الذى ثار حولها هو . - المباشر في نشوب الحرب الأهلية من جديد . فقد

أدرك قيصر بعد اخماد الثورات في بلاد الغال عام ٥١ (١) أن تسليم ختوجاته يتطلب بقاءه هناك سنة أخرى أو سنتين . ولذلك عدل - فيما يبدو - عن ترشيح نفسه للقنصلية في عام ٥٠ وطالب بإطالة مدة قيادته حتى نهاية عام ٤٩ . وقد قصد بذلك أن يرشح نفسه وهو غائب في انتخابات عام ٤٩ دون أن يتنازل عن سلطته الپروقنصلية . فإذا ما فاز فيها عاد الى روما في أول يناير من عام ٤٨ ليتولى القنصلية فلا يستطيع أعداؤه توجيه الاتهامات له وهو متمتع بحصانة المنصب . ومن المرجح أنه استند في دعواه الى أن « قانون النقباء العشرة » الذي أعفاه من الحضور شخصيا لترشيح نفسه كان يعنى ضمنا تمديد قيادته في بلاد الغال الى ما بعد موعد انتهائها القانوني . وسواء أكان هذا اليوم هو أول مارس من عام ٥٠ كما يعتقد بعض الباحثين أم أول مارس من عام ٤٩ كما يعتقد البعض الآخر (٢) ، فالمشكلة القانونية (Rechtsfrage) لم تستخدم اذن حول ميعاد انتهاء قيادة قيصر في بلاد الغال بل حول اصراره على التمسك بالسلطة الپروقنصلية والاحتفاظ بجيشه أثناء ترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب في عام ٥٠ (٣) ، حتى يتجنب الحضور الى روما كقرد عادى في الفترة ما بين أول مارس من عام ٥٠ وأول يناير من عام ٤٩ (٤) عندما يتقلد رسميا منصب القنصلية . غير أن القانون الجديد الذى أصدره يومى ونسخ به قانون سمپروفيوس الخاص بالولايات القنصلية قضى على أمل قيصر في إطالة مدة حكمه قضاء مبرما لأنه - كما أشرنا - كان يسمح بتعيين حاكم غيره على بلاد الغال بعد أول مارس مباشرة . كما أصبح الاستثناء

(١) راجع ص ١٩٤ .

(٢) راجع ص ٢٢٥ هامش ٢ . ويقوم من كلام قيصر (Bellum Civile 1, 9, 2)

ان الاستثناء (privilegium) الذى منحه اياه قانون النقباء العشرة كان لعام ٤٩ . ولكن هذا لا يعنى أنه كان ينوى فى الاصل ترشيح نفسه فى عام ٥٠ .

(٣) او فى عام ٤٩ بعد ان عدل عن رأيه كما يعتقد بعض الباحثين .

(٤) او بين أول مارس ٤٩ وأول يناير ٤٨ وفقا لرأى البعض الآخر .

الذي ظفر به لترشيح نفسه وهو غائب عديم القيمة . وحدث ما كان يخشاه فبدأ خصومه يشيرون مسألة تعيين خلف له منذ عام ٥١ حتى لا يدعوه يستفيد من الامتياز الذي حصل عليه بمقتضى قانون النقباء العشرة . وتقدم القنصل ماركوس مارك كللوس (M. Claudius Marcellus) في شهر أبريل من عام ٥١ باقتراح إلى السناتو يفيد ذلك بدعوى أن الحرب قد انتهت في بلاد الغال . غير أن زميله القنصل وبعض نقباء العامة اعترضوا عليه . ولم يؤيد يومئذ نفسه الاقتراح أما بسبب تردده أو عزوفه عن مجاهرة قيصر بالعداء . ولما تقدم ماركوس مارك كللوس بنفس الاقتراح في شهر سبتمبر رفض يومئذ تأييده للمرة الثانية قائلاً أنه متمسك بحرفية القانون وغير مستعد لاثارة المسألة حتى يحل اليوم الأول من مارس عام ٥٠ . وأصدر السناتو في اليوم الأخير من سبتمبر قراراً بمناقشة موضوع القيادة في بلاد الغال في أول جلسة يعقدها بعد نهاية شهر فبراير من العام التالي . لكن بعض نقباء العامة اعترضوا على هذا القرار .

وفي انتخابات التريونية لسنة ٥٠ كان معظم الفائزين من أنصار قيصر . وحدث أن أدين واحد منهم بالرشوة فألغى انتخابه وفاز بمكانه شاب يدعى كوريو (C. Scribonius Curio) (١) . وكان كوريو قد دخل المعركة الانتخابية على أنه من أنصار الحزب الأرستقراطي ولكنه سرعان ما خذله وانحاز إلى قيصر عندما اشترى الأخير ذمته بتأدية جميع ديونه . وقد أثبت هذا النقيب - الذي قال عنه شاعر أنه يتحوله

(١) بلغ من عنادة هذا القنصل لقيصر أنه أمر بجلد رجل من مستعمرة Novum Comum الجديدة بقالة الواقعة عبر نهر البو ليعربع عن عدم اعترافه بحق الجنسية الرومانية التي منحه فيصر لسكان تلك المنطقة .

(٢) راجع ص ١٧٧ هامش ٢ وكان أبوه جايوس كوريو C. Curio (راجع ص ٢٢١ هامش) خصماً لبودا لقيصر حتى أنه نشر في عام ٥٥ عدة خطب لالعة نسب إليه فيها شتماً كثيرة بقصد التشهير به والدعاية ضده .

من الحزب الارستقراطي الى جانب قيصر قد جرى التاريخ - (١)
أله خطيب مفوه وسياسي بارع خير بأساليب الدعاية والمناورات
الحزبية . وتقدم بوصفه « ديمقراطيا » بعدة مشروعات شعبية كتوزيع
قطائع زراعية على الفقراء وبيع الغلال لهم بأسعار زهيدة . كما أثبت
أنه أقوى أعوان قيصر فاستطاع أن يحبط جميع المحاولات التي بذلها
خصومه خلال عام ٥٠ لتنتحيه عن القيادة في بلاد الغال . وحل اليوم
الأول من مارس دون أن يستطيع السناتو تعيين حاكم بدلا منه بسبب
اعتراض ذلك النقيب الذي راح يزعم أنه جمهوري مخلص لا يستهدف
سوى تحرير السناتو من شعوره بالخوف من القوة العسكرية . وكان
من رأيه أن الدولة ستكون تحت رحمة يومى إذا بقي في إيطاليا على
رأس جيشه ومرح قيصر جيشه ، وستكون تحت رحمة قيصر إذا
احتفظ بسلطته البروقنصلية وتخلّى يومى عنها . فلا سبيل إذن الى
حل المشكلة أو الخروج من المأزق إلا إذا استرد السناتو السيطرة الفعلية .
ولتحقيق ذلك ينبغي أن يتحى كل من يومى وقيصر عن قيادته
الاستثنائية في وقت واحد . وبذلك وضع يومى في مركز حرج لأنه لم
يكن في وسعه أن يقبل اقتراحا يفرض عليه أن يتخلّى عن سلطته
البروقنصلية دون أن يستوثق من أن قيصر سيقبض به ، ولا كان في
وسعه أن يجاهر برفض هذا الحل الوسط الذي أبدى كثير من أعضاء
السناتو استعدادهم لقبوله إذ كان هناك بين النبلاء والفرسان كثيرون
كشيشرون لا يخشون قيصر بقدر ما يخشون الحرب الأهلية ، وكانوا
على استعداد ليفعلوا أى شئ في سبيل تجنبها . كما أن ظهور كوريو
بمظهر المواطن المحايد الغيور على المصلحة القومية كان يستهوى
جمهور العامة .

(١) Lucanus, Pharsalia IV, 819-820

ومن هذا الشاعر لوكانوس وملحنته « فرساليا » أو « الحرب الأهلية » ، راجع
كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٥٢ - ٥٤ .

وفي اليوم الأول من ديسمبر عام ٥٠ أجبث كوريو في السناتو مناورة قام بها القنصل جايوس مارك كللوس (C. Claudius Marcellus) (١) لتعيين حاكم على بلاد الغال بدلا من قيصر . وأصر كوريو على أن يقتصر المجلس على اقتراحه بأن يتنحى كل من پوميى وقيصر عن القيادة الاستثنائية ويسرح قواته . وأقر السناتو الاقتراح بأغلبية ساحقة (٣٧٠ ضد ٢٢ صوتا) . وأسقط في يد القنصل فشهر سلاح « النقبض » وأبطل القرار بعد صدوره ناعيا على السناتو رضوخه لقيصر . وفي تلك الآونة تواترت شائعة بأن قيصر قد شرع في الزحف إلى روما فساد الهلع أنحاء المدينة . واستغل مارك كللوس الفرصة هو وفريق المتطرفين في الحزب الارستقراطى وقاموا بمحاولة أخيرة لارغام السناتو على أن يقف من قيصر موقفا حازما ويتخذ ضده اجراء حاسما . وكان قيصر قد أرسل الى ايطاليا في بداية ذلك العام فرقتين من جيشه ، احدهما كان پوميى قد إعارها له عندما كان على وفاق معه ، والأخرى طلبها منه السناتو لاستخدامها هي والفرقة الثانية في الحرب ضد البارثيين . لكن الموقف تحسن في الشرق فظلت الفرقتان مرابطتين عند كاپوا تحت تصرف پوميى . واقترح مارك كللوس اسناد قيادتهما الى پوميى ليتولى الدفاع عن ايطاليا . ولم يقف كوريو مكتوف اليدين فكذب الشائعة واعترض على اقتراح القنصل وأفسد عليه خطته . وعندئذ أعلن مارك كللوس أنه سيأخذ على عاتقه مسئولية حماية الدولة ، وذهب مع القنصلين المرشحين للعام التالى وقابلوا پوميى خارج المدينة وناشدوه أن يتولى قيادة الفرقتين ويحشد قوات جديدة ، وفوضوه مهمة الدفاع عن الجمهورية ضد قيصر . ومع أن هذا التفويض - وهو بمثابة اعلان الحرب - لم يكن له سند دستورى لأن السناتو لم يقره الا أن پوميى قبله واستجاب له . وقد فلتبس له العذر

(١) وهو ابن عم ماركوس مارك كللوس قنصل العام السابق (٥١) الذى نادى بانتهاء مدة قيادة قيصر لى بلاد الغال (انظر ص ٢٣٢) .

لأنه لو رفضه لوضع نفسه تحت رحمة أنصار مهادة قبصر في السناتو الذين كانوا يؤثرون الاستسلام على القتال . لكن يومى بانسيافه وراء فريق المتطرفين في السناتو ، وهم أقلية ، بدا كأنه هو البادى بالعدوان وأتاح لخصمه فرصة التنديد به وتحيله وزر الحرب الأهلية . ولم يدع قيصر الفرصة تفلت من يديه فسعى الى توريثه في الخطأ لالقاء التبعة عليه . ولذلك أعلن عن استعدادده للامتنال لقرار السناتو لو حذا يومى حذوه . ثم ذهب الى أبعد من ذلك فأعلن عن استعدادده لقبول أى حل وسط اذا تعذر تنفيذ قرار السناتو من جراء رفض يومى التنحي عن قيادته . ولو كان السناتو يملك حينئذ حرية التصرف لرحب بهذا الاقتراح ، ولكنه كان مغلول اليدين مسلوب الارادة اذ طمّنت قوات يومى أسوار المدينة ، وسيطرت أقلية متطرفة في الحزب الارستقراطى على المجلس سيطرة تامة . واضطر السناتو تحت الضغط الشديد أن يوافق في اليوم الأول من يناير عام ٤٩ على اقتراح تقدم به ميتيللوس اسكيبيو (ناسيكا) بأن يتنحي قيصر عن قيادته في بلاد الغال ويسرح جيشه في يوم معين . فإنه لم يمثل القرار يحدّ خارجا على القانون خائنا للوطن (١) . لكن ماركوس أنطونيوس (M. Antonius) الذى انتخب قهيبا لعام ٤٩ (٢) ، اعترض هو وزميله كاسيوس (Q. Cassius) على هذا القرار . وعندئذ تملك الغضب فريق المحافظين في السناتو فطردوا النقيين من المجلس وأندروهما بالموت . ولكى يبطل السناتو حق النقباء في الاعتراض أصدر في يوم ٧ يناير من

(١) Caesar, Bell. Civ. 1, 2, 6: uti ante certam diem Caesar exercitum dimittat; si non faciat eum adversus rem publicam facturum videri.

(٢) خدم ماركوس أنطونيوس في جيش جابينيوس ، هاكم سوريا ، قائد للفرسان بين عامي ٥٧ ، ٥٥ (راجع ص ٢١٤ هامش ٢) . وبعد عودته الى روما انتخب كويسورا لعام ٥٢ وخدم في جيش قيصر ببلاد الغال ، ثم عاد الى روما في عام ٥٠ حيث انتخب عرافا (augur) وبعدئذ فاز بمنصب نقيب لسنة ٤٩ .

عام ٤٩ « قراره النهائي » ودعا القنصلين الجديدين (١) والقناصل السابقين ومن بينهم يومبي لاتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الدولة ، وأعلن أن قيصر عدو للوطن . ولم يلبث أنصاره من أعضاء السناتو وقبلاء العامة أن فروا من روما ملتجئين الى معسكره في غالة القريبة حيث كان يرقب مع جزء من جيشه تطورات الموقف . فلما بلغه نبأ طرد النقباء وهم ممثلو العامة والمدافعون عن حقوقهم ، وأحاط علما « بالقرار النهائي » الذي اتخذته السناتو ضده ، اختلى بنفسه فترة قصيرة ليتدبر الأمر ، وبعدئذ رد على خصومه بعبور نهر روبيكون (Rubico) ، وهو الحد الفاصل بين "غالة القريبة" وإيطاليا ذاتها . ولم يعد هناك سبيل للتراجع ، فقد بدأت الحرب الأهلية .

(١) كان أحد هذين القنصلين يدعى أيضا جايوس ماركلوس (C. Claudius Marcellus) وهو غير جايوس ماركلوس قنصل عام ٥٠ ، ولكنه يمت له بصلة القرابة . وكلاهما قريب لماركوس ماركلوس قنصل عام ٥١ .

الحرب الأهلية

بين قيصر والسنااتو

(٤٩ - ٤٥)

مسئولية اثاره الحرب

رأينا كيف بدأت الحواث تتوالى بسرعة منذ عام ٥١ حتى انتهت بتلك الأزمة الحادة التي أدت الى قيام الحرب الأهلية . ويُعدُّ قيصر ، من الناحية القانونية الشكلية ، هو المسئول عن اثاره تلك الحرب . ففي عام ٥٩ الذي تولى فيه القنصلية لأول مرة ، انتهك الدستور باستعمال القوة المسلحة لتحقيق أهدافه السياسية . وفي عام ٥٢ طالب باطالة مدة تبادته في بلاد الغال ، وترشيح نفسه للقنصلية وهو متغيب حتى لا يحضر الى روما مجردا من الحصانة فيتعرض للاتهامات . وكان هذا المطلب يتعارض والدستور ويشكل سابقة غير حميدة . وأخيرا عبر نهر روبيكون في يناير من عام ٤٩ متخطيا حدود ولايته ، واقتحم أرض الوطن على رأس جيشه ، مرتكبا بذلك جريمة الخيانة العظمى (maiestas) . غير أن مطلبه في الواقع ، لم يكن شاذا بالقياس الى مطلب يومى الذى حصل بمقتضاه على اطالة مدة قيادته في أسبانيا أربع أو خمس سنوات أخرى . كما أن خصومه ، بالحاحهم على يومى أن يضط على السنااتو بقواته العسكرية ، وضدّهم ثقباء العامة عن مزاوله حقهم المشروع فى الاعتراض ، وحرمانهم اياه من امتياز ترشيح نفسه وهو غائب — وهو امتياز حصل عليه بمقتضى قانون أصدره

الشعب - انتهكوا هم الآخرون الدستور الجمهورى الذى زعموا أنهم حماة .

واذا نظرنا الى المسألة من زاوية أكبر أو درسناها دراسة أعمق ، ننضح لنا أن يوليوس قيصر ليس هو المسئول عن الحرب الأهلية . وإذا كان قيصر قد اجتاز الحدود الى ايطاليا على رأس جيشه ، فانه قاد هذا الجيش ضد السناتو الذى أصبح پومپى حليفا له ، بل قاده ، على حد قوله ، ضد شرذمة الارستقراطيين ، هؤلاء الرجال الذين اتحدوا كلهم مرة ضد پومپى ، وبعدئذ ضده وضد پومپى معا ، وأخيرا ضده وحده مستهدفين ادائته وهدمه . وعندما انتهت معركة فرسالوس نظر الى ساحتها المليئة بالقتلى من أعدائه وقال « لقد أرادوا ذلك . ولو لم أستعن بالجيش عليهم ، لقضوا على أنا نفسى بالموت برغم ما قمت به من أعمال جليلة » (١) . وتتضمن هذه العبارة خلاصة الموقف كله . فقد كان على قيصر فى عام ٤٩ ، كما كان على سلا فى عام ٨٣ ، أن يختار اما الدفاع عن نفسه أو تسليم نفسه . ولو أنه عاد الى روما وقدم نفسه للحاكم ، لما كان هناك شك فى أن المحلفين سيرغمون على ادائته . ولم يكن من المعقول أن يسعى الى حنقه بظلمه أو أن يسلم عنقه للجلاد بحض ارادته . وفضلا عن ذلك ، فان قيصر يؤكد فى رسائله الى السناتو اضطراره الى الدفاع عن كرامته أو هيئته أو مركزه (dignitas) ، تلك الكرامة المرتبطة بكرامة الشعب الذى احتضن هو قضيته . لقد انتقص الأولجركيون من تلك الكرامة عندما جردوه من امتيازهم الذى كفله له قانون النقباء العشرة وحاولوا تنحيته عن مركزه . ولما كانت مصلحته هى مصلحة الشعب نفسه فقد زحف بجيشه

Suetonius, Div. Iul. 30 "Hoc voluerunt; tantis rebus (١)
gestis Gaius Caesar condemnatus essem, nisi ab exercitu
auxilium petissem."

ليحرر نفسه والشعب الروماني من طغيان شرنمة طليين (factio paucorum) (١). ولو أن السناتو كان طليق اليدين في عام ٤٩ لأصدر قرارا شبه اجماعي بتسوية الخلاف مع قيصر مثلما أصدر في عام ٥٠ قرارا بأن يتخلى كل من الزعيمين عن قيادته ويسرح جيشه. وعلى ذلك فإن أعضاء الحزب الارستقراطي المتطرفين في السناتو الذين أصروا على استدعاء قيصر في الحال ، كانوا في حقيقة الأمر يصرون على اضرار نار الحرب الأهلية . فالخصومة مع قيصر كانت في نظرهم عدفا أعلى من مصلحة الدولة . ومن العسير أن نحكم على الدور الذي قام به پومپي قبيل نشوب الحرب . فقد أبدى من التردد والتقلب والمراوغة ما أثار حيرة معاصريه أنفسهم . ومع أننا تقتصر الى الدليل الكافي لانتهامه بأنه انحاز الى أعداء قيصر لالتصايب شخصية تافهة ، فإنه من العسير أن نقول انه كان أكثر ولاء للدولة منه لحلفائه السياسيين . ولقد كانت المحاولة بينه وبينهم محاورة منكرة بالنسبة للطرفين . ذلك أن پومپي ، وقد أكلت الغيرة قلبه فام يحتمل أن يرى أحدا كفوا له ، تخلى عن حليف كان هو نفسه قد حزنه على انتهاك الدستور . وأما الارستقراطيون ، حماة الدستور القديم ، فانهم بمقاومتهم الرجل الذي حسبه أكبر خطر على الدولة ، قد اعتمدوا على زعيم ، وان تمسك شكلا بالدستور كان يعتبر نفسه فوق كل القوافين . ومن سخرية القدر أن هذا الرجل الذي كان بيده عام ٤٩ أن يحشد الجيوش ويسرحها ، و بيده تبعا لذلك أن يقرر السلم والحرب ، لم يعرف أى طريق ينبغي أن يسلكه ، واتقاد في النهاية لأسوأ نصحاء (٢) .

(١) Bell. Civ. I. 22. 5 : cf. Res Gestae I. 2: Rempubicam dominatione factionis oppressam in libertatem vindicavi.
M. Cary, A. History of Rome (1949), p. 396

(٢) انظر

Kurt von Fritz, "Pompey's Policy before and after the Outbreak of the Civil War of 49 B.C.", TAPA 73 (1942), 145-180.

انسحاب بومبي من إيطاليا

لم يبق أمام قيصر بعد أن أرغمه على القتال فريق المتطرفين في حزب السناتو الا أن ينتصر أو يهلك . وكان يتفوق على خصومه من نواح

ومن بين النصوص الهامة التي نلّفى ضوفا بأعرا على النزاع الحزبي حينئذ تلك الرسالة التي يرجع الآن إلى المؤرخ سللوستيوس Sallustius (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ، ص ١٢ - ١٥ هامش) وجهها إلى قيصر في سنة ٥١ . وهذه الرسالة المسماة « رسالة إلى قيصر الشيخ في إصلاح الدولة » Epistula ad Caesarem Senem de Re Publica من النوع الذي يصرف في الأدب اليوناني باسم symbouleutikon وهو ما يسدى فيه الكاتب النصائح لرجل السياسة ونشبه الرسائل البلاغية التخيلية (Suasoriae) التي كتبها المؤرخ نفسه . كان سللوستيوس ينتمي إلى الحزب الديمقراطي ، ويعتبر من أنصار قيصر . وقد تولى منصب التربيونية في سنة ٥٢ وحمل على الأرستقراطيين في خطبة حمولة شعواء . ويسنهل رسالته قائلا : إن إصلاحات بومبي في العام السابق (٥٢) قد وضعت مقاليد الأمور في يد الأقلية (factio) ويعني بها الحزب الأرستقراطي (Optimates) . لذلك يوصي قيصر بإجراء عدة إصلاحات مضادة . ويبدأ بالشعب فيصفه بأنه فقير خامل مستعبد ، وعاجز عن أن يقوم بدور فعال في الشؤون العامة . ويقترح لجنة من رفاة وإيقاف روح الحرية في صدره اندماج مواطنين جدد في صفوفه وإيجاد كثيرين من المواطنين القدامى والجديد للسكنى سوا في مستعمرات جديدة . ومن الواضح أنه كان يعني بذلك منح الجنسية لسكان غالة الواقعة شمال البو . وهو لا ينكر أن قيصر سوف ينهم - كما أنهم تقيب العامة ليقيوس دروسوس الأصفر (ص ٦٢) - بأنه يحاول إقامة حكم فردي أو استبدادي (regnum) إذا هو توسع في منح الجنسية الرومانية . ومع هذا فهو يوصيه بانتهاج هذه السياسة طالما استعود على الدولة وعليه بالخير .

ثم يقترح على قيصر إصلاحا جوهريا آخر وهو إضعاف نفوذ المال بين الشعب ، ويقول إن هناك إجراءات لتحقيق ذلك ، أحدها اندماج أفراد أقل ثراء في هيئة المحلفين والآخر إزالة الفوارق بين الطبقات الخمس في الجمعية المثوبة وبعبارة أخرى خفض النصاب المالي التلزم توافره في المحلفين باختيارهم لا من بين ذوي أعلى نصاب بين الفرسان (الحد الأدنى لنصابهم ١٠٠.٠٠٠ سستريوس) وأعضاء السناتو (الحد الأدنى لنصابهم ٢٠٠.٠٠٠ سستريوس) ، بل الفرسان على الأقل (وترابنة الخزنة) الحد الأدنى لنصابهم ١٠٠.٠٠٠ سستريوس) ، ويبدى أنهما إجراءان موجهان ضد محاكم المحلفين والجمعية المثوبة ، وهما المقلان اللذان تتركز فيهما قوة الحزب الأرستقراطي . وقد رأينا كيف استصدر بومبي وكراسوس أثناء فصليتهما الثانية في سنة ٥٥ بعض قوانين لإضعاف نفوذ الأرستقراطيين في هاتين الهيئتين (راجع ص ٢١١ حاشية ٣) . ولا يذكر سللوستيوس شيئا عن الجمعية المالية . ولعل ذلك يرجع إلى أنه لم ير ضرورة إجراء أي إصلاح فيها .

كثيرة ، اذ كان تحت امرته جيش موال له مدرب على القتال متأهب لخوض المعركة في الحال . وقد كسب الى جانبه كثيرا من الأنصار في كميانيا بفضل قوانينه الخاصة بالاصلاح الزراعى . وتعلق به جمهور

وهى الجمعية التى احرز قيصر عن طريقها نجاحا سياسيا كبيرا نظرا لبعدها عن سيطرة الاكثية المتعصبة في الحزب الدستورى . ويعتقد يتناول السناتو . وما يسترمى الانتباه انه - على الرغم من كونه « ديمقراطيا » واعتقاده بان قيصر ممثل الشعب - يعتبر السناتو حصن الدولة المكين . فرفاهية الدولة - في رأيه - هى موضع اهتمام أولئك الذين احرزوا بمؤهلاتهم الممتازة الثروة والشرف والنصيب العامة . فهو لا يقترح القضاء على نفوذ المال في السناتو ، بل القضاء على سيطرة الاولجركية الدستورية . ويعتقد ان ذلك يمكن تحقيقه بزيادة عدد اعضاء المجلس وجعل الاقتراح فيه سرى . ويختتم سلوستيوس رسالته بمناشدة قيصر احياء الجمهورية بالانهاضة واعادة الحرية السلوية . ووافصح من سياق الرسالة انه يقف على الطاب الاولجركية الدستورية (factio) بعبء هذين الحرية وهدم الجمهورية .

ولا يتعرض الكاتب ليومى الا بوصفه شخصا هوى الى ذلك سحق فوضع السلاح في يد أعدائه اما لكابرتة وضلاله أو لرغبته في ايلاء قيصر . ههنا مع ان أعداء قيصر (hostes) هم أعداء يومى ، وهم الاولجركيون في الحزب الدستورى ، الذين يصفهم بأنهم طفاة الدولة . هم على حال عدم سيظرون على الخزانة ويفسبون أنفسهم ن المناصب ويستعبدون الشعب وينهبونه ويستخفون بالمواتبين كأنهم في مدينه أسره . وهم يسيطرون كذلك على الحاكم . ويقال فيقول انهم يصنعون احكاما نفوق في قسوتها احكام سلا ، ويرب عليها تجريد عدد كبير من اعضاء السناتو المسنين والشبان اللامعين من حق المواطنة ارضاء لكانو وأفينوباربوس وغيرهما من الارستقراطيين المتعصبين . ولعله سمر هنا الى المحاكمات التى جرت طبقا للقوانين الجديدة التى أصدرها يومى في فصليته المفردة عام ٥٢ ، واستمرت حتى عام ٥١ . ويتابع سلوستيوس حديثه فيقول ان الارستقراطيين يعتزمون توجيه الاتهامات لقيصر في المحاكم . « هؤلاء الجبناء مستعبدون للشعبية بأنفسهم في سبيل القضاء عليك ، ويفضلون ان تهدر الحرية بسقوطك على ان يصبح الامبراطورية عظيمة على يدك » .

ويرسم الكاتب صورة قائمة الاولجركية الارستقراطية المحكمة في تنون العولتويصف رجالها بأنهم شديبو التراخي (inertissimi) قادرين على الكلام عاجزون عن العمل . ويخص بالذكر منهم أعداء قيصر الالهة : كاتوزمرت : ييبولوس وأفينوباربوس وفافونيبوس (انظر ص ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨) ويعد نقائصهم ويلهم جميعا ما عدا كاتو الذى يترف بآته لى مواهب جديرة بالاكبار كالنصاحه والطنه والدهاء . ولكنه يعزو هذه المواهب الى ثقافته اليونانية . ويضيف بان الفضيلة والبقية والجد ليست من صفات الاثريق ، وليس من العتول ان تقوم حكومة على اكتاف قوم - كالاثريق - انصاعوا استقلالهم بتراخيهم . ولما كان كاتو يؤمن بتماليهم فهو على شاكلتهم رجل كلام ، لا رجل عمل ، وسيلبى اريب ولكن ليس له مبال .

العامّة في المدينة لسخائه ، كما وقف سكان غالة القرية في صفه اعترافا
بجميله وعدم ضنه عليهم بالجنسية الرومانية (lex Roscia & lex
Rubria) . وافحاز الرأي العام الايطالى الى جانبه لما أظهره من روح
تم عن الاعتدال والرغبة في التفاهم ونجاحه في توريث خصمه . وأما
أعداؤه فلم تكن لديهم في ايطاليا فرق مدربة أو حتى قوات كافية .
يضاف إلى هذا أن يومى لم يكن في استطاعته أن يبت في الأمور بسرعة
لاضطراره أحيانا الى استطلاع رأى القنصلين وأعضاء السناتو البارزين
الذين فروا معه .

كان من الواضح اذن أن من مصلحة قيصر التعجيل بالهجوم وارغام
أعدائه على القتال قبل أن يتمكنوا من استدعاء قوات من أسبانيا
والشرق وحشدتها ضده . لذلك قرر أن يزحف من رافنا (Ravenna)
دون تباطؤ على رأس فرقة واحدة بعد أن أمر الفرق التسع المرابطة وراء
الآل أن تلحق به على وجه السرعة حتى يأخذ خصومه على غرة . وبعد
أن عبر نهر روبيكون في اليوم العاشر من يناير عام ٤٩^(١) اقتحم أومبريا

والرأى السائد أن سلوستيوس يعلن في هذه الرسالة برنامج قيصر المزمع تنفيذه .
غير أننا ننك في صحة هذا الرأي لأن قيصر لم يكن قد وضع حينئذ برنامجا محددا .
وعندما آلت اليه مقاليد الأمور ، اخذ برأى المؤرخ فيما يتصل بالتوسع في منح الجنسية
الرومانية وزيادة عدد أعضاء السناتو ، ولكنه اففل بقية نصابه ، بل قام بأعمال تنافضها
تماما . ولذا نرجح أن الرسالة لا تعبر إلا عن رأى سلوستيوس الذى تأثر فيها ببرامج
الخطباء الشعبين وانوا من وحي أفكاره السامية المتوى ، لا من وحي تفكير قيصر السليم
الواضح . وعن هذه الرسالة والآخرى التى ينسبها البعض اليه ، راجع :

Lily R. Taylor, *Party Politics in the Age of Caesar*
(Berkeley 1949). 154 ff., 185 ff., 232 ff. Cf. however,
F. E. Adcock, *JRS* (1950), 139; E. Fraenkel, *JRS*
(1951) 192 ff.; R. Syme, *Mus. Helv.* (1958), 46 ff.

(١) قال قيصر عند عبوره نهر روبيكون عبارته المشهورة التى ذهبت مشلا :
« يا آيا آيا آيا » وترجمتها الحرفية « يا آيا آيا بالترد » ، والمعنى هو أنه قد خاطر
وانتحم العمة ولم يعد هناك سبيل للتراجع ، انظر : *Suetonius Div. Iul.* 32

ثم ييكنوم ، وهو اقليم عرف بولائه ليومى (١) . وفتحت البلاد
الاطالية أبوابها له ، وانحازت اليه القوات التى حشدتها ضيابط يومى
ثم تركوها مولين الادباز . وأصبح الطريق مفتوحا أمامه الى روما .
وعرض قيصر للمرة الثانية أن يسرح قواته لو حذا يومى حذوه ولكن
اقتراحه قوبل بالرفض .

وعندما بلغت روما الأنباء أن قيصر قد عبر الرويكون واستولى
على أريمينوم ، ساد الذعر أنحاء العاصمة لأن القوات المرابطة بها لم
تكن كافية للدفاع عنها . ولم يخف أعضاء السناتو جزعهم من سوء
الموقف ولا شعورهم بالمرارة من عدم استعداد زعيمهم . واقترح فريق
منهم ايضاد الرسل الى قيصر لفتح باب المفاوضات . ولم يجد يومى
مناسا من الانسحاب جنوبا الى كاپوا حيث يستطيع تركيز جيشه .
غير أنه فطن الى أن قواته الجديدة غير المدربة لن تستطيع مواجهة
جنود قيصر ذوى الخبرة الطويلة . ولم يكن فى وسعه أن يعتمد على
الفرقتين اللتين كانتا فى الأصل جزءا من جيش خصمه . لذلك عقد نيته
على الانسحاب من ايطاليا الى بلاد اليونان علىه يستطيع أن يجمع هناك
شقات جيشه ثم يركز هجومه على شبه الجزيرة الايطالية من جميع
الجهات - وهى خطة كان من اليسير تنفيذها لأن البحر الأدرياتيكي
كان تحت سيطرته . ولا شك أيضا فى أنها كانت خطة سليمة من الناحية
العسكرية . ولكنها أثارت دهشة أنصاره بل أثارت حنقهم لأنها كانت
مفاجأة لم يتوقعوها بعد أن ملأ يومى قلوبهم ثقة ومناسهم بالنصر .
وقد استنكر شيشرون فراره من روما ولم يفهم ضرورته ، فلما علم أنه
ينوى الفرار من ايطاليا كلها ، تملكه الجزع وتردد فى اللحاق به وكتب

(١) تظلى لابينوس (T. Labienus) - اكلا فباط الجيش الرومانى فى بلاد الغال
(راجع ص ١٨٨) - عن فبصر وفر من جيشه وانحاز الى يومى . وفى رأى احد الباحثين
ان لابينوس كان دائما على صلة سبية مع يومى لانه كان مثله من اقليم ييكنوم .

انى صديقه الحميم أتيكوس (T. Pomponius Atticus) يقول فى احدى رسائله الخالدة « لقد كنت أعلم من قبل أنه أقل الساسة دهاء ، والآن أعلم كذلك أنه أقل القواد كفاءة » (١) . وتعذر التفاهم بين أعوانه اما لأنهم لم يفهموا خطته أو لم يوافقوه عليها . وكان الجانب الأكبر من قواته ، غير القوات التى تحت امرته ، يربط عند بلدة كورفينيوم تحت قيادة دوميتيوس أهينوباربوس ، الحاكم الجديد لولاية غالة البعيدة . وقد صمم هذا القائد على الوقوف فى وجه قيصر ومقاومته مخالفا بذلك يومى الذى نصحه بالانسحاب قبل أن يقطع العدو الطريق عليه (٢) . وحدث ما كان متوقعا فحوصرت قواته ولم يتمكن يومى من ارسال النجدة اليه . واستسلم جنوده لقيصر وسلموه له . لكنه عفا عنهم جميعا وأدمجهم فى جيشه مثيرا بتسامحه ورافته دهشة الرأى العام الايطالى .

وانسحب يومى من كاپوا الى ميناء برنديزى على الساحل الشرقى حيث احتشدت السفن لنقل قواته عبر البحر الأدرياتيكي الى اقليم ايبيروس على الساحل الغربى لبلاد الاغريق . وكان قيصر قد فطن الى خطة العدو فبذل قصارى جهده لكى يلحق به وينهى القتال بسرعة ، غير أنه وصل بعد فوات الفرصة واقلع الأسطول حاملا يومى وجيشه وغالبية أعضاء السناتو (١٧ مارس ٤٩) . ولما رأى أنه لا يستطيع أن يقتفى أثره لافتقاره الى السفن ، عاد أدراجه الى روما بعد أن أصبح سيدا على ايطاليا فى مدة لم تتجاوز الشهرين الا بأيام

(١) ad Att. VIII, 16: quem ego hominem *apolitikôtaton* (١)
omnium iam ante cognoram, nunc vero etiam *astratêgetotaton*.
: فيرمياني Formiae فى ٤ مارس ٤٩)

(٢) عن الرسائل الطريفة التى تبيحت فى ذلك الوقت بين يومى وأهينوباربوس :
Cicero, ad Att. VIII, 11. Cf. D.R.S. Bailey, JRS (1956),
57 ff.

تليدة . لكنه كان على يقين - بأنه سيخوض معارك أخرى لأن الحرب الحقيقية لم تكن قد بدأت بعد . وقد اتفنى في طريقه بشيشرون ، الذي لم يتمكن من الرحيل مع يومبي ، وحاول أن يقنعه بالانضمام إليه ، ولكنه رفض عرضه شاكرا حتى لا يرمى بالجحود أو التنكر لمبادئه . ولم يلبث الخطيب الكبير بعد أن اقتنع بعدم جدوى الوساطة بين الزعيمين أن سنحت له الفرصة فرحل الى اميروس حيث لحق بجيش الحزب الارستقراطي في أوائل يونيه .

وعند ما بلغ قيصر العاصمة حاول أن يراعى فصوص الدستور بقدر استطاعته . ولما لم يكن في وسعه أن يدخل المدينة وهو مزود بسلطة الامپيريوم البروقنصلية ، فقد دعا النقباء من أعوانه أعضاء السناتو المنخلفين للاجتماع به خارج حدود المدينة . وهناك خطب فيهم بيسر مدافما عن تصرفاته وأعلن أنه ما يزال راغبا في التفاوض مع يومبي (١) . وشرع في تنظيم أداة حكومية مؤقتة لتضطلع بشئون الحكم . ولما كان في حاجة ماسة الى المال فقد وضع يده على الرصيد الاحتياطي المودع بالخزانة العامة (Aerarium) ، وهو ما تركه أنصار يومبي ساعة فرارهم من المدينة على عجل . وبديهي أنه لم يعبأ بنائب العامة الذي حاول الاعتراض على هذا الاجراء . على أن مركز نبصر كان دقيقا من الناحية العسكرية لأن يومبي فر الى بلاد الاغريق مع جانب من جيشه على أمل أن يعززه باستدعاء الترق الموالية له من أسبانيا والشرق الأوسط . ولما كان قيصر لا يملك أسطولا يتيح له عبور البحر الى بلاد الاغريق فقد قرر أن يتجه الى أسبانيا لكي يفضي أولا على الفرق الموالية للارستقراطيين ويقطع الامدادات عن

(١) عن المفاوضات التي دارت للتوسط في الصلح في اللحظات الأخيرة ، راجع الى جاب رسائل شيشرون وكتاب قيصر « الحرب الأهلية » ، الفصل التالي :
K. von Fritz, TAPA 72 (1941), 125 ff.

خصمه . وعهد بشئون روما الى اليريتور ليدوس (M. Aemilius Lepidus) الذى عينه قائدا للمدينة (praefectus urbi) ، ونصب أنطونيوس (M. Antonius) الذى كسب ثقته يسالته الفأقة فى بلاد الغال ، نصبه قائدا أعلى للقوات فى سائر ايطاليا مع أنه كان يشغل حينئذ منصب ققيب للعامه . وبعد خمسة عشر يوما غادر المدينة على وجه السرعة قائلا لأصدقائه « راتقذاهب لملاقاة جيش بلا قائد وسأعود لملاقاة قائد بلا جيش » (١) . وفى تلك الأثناء كان ضباطه - وفى مقدمتهم كوريو - قد تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا وصقلية وعبروا البحر الى افريقيا ليضعوا أيديهم على موارد الغلال اللازمة لتكوين العاصمة الرومانية .

الحملة الأسبانية الأولى : إيلرڤد ١

واجتاز قيصر جبال الألب الغربية ودخل ولاية « غالة الناربونية » . وضرب الحصار على مرسيليا التى تمردت عليه وأغلقت أبوابها فى وجهه . ولم يشأ أن يضيع الوقت فتركها محاصرة بثلاث فرق تحت قيادة تريونيوس (C. Trebonius) (٢) ، وأسطول صغير تحت قيادة دكموس بروتوس (D. Iunius Brutus Albinus) ، وأسرع الخطى على رأس ست فرق أخرى الى أسبانيا ، مجتازا جبال البرانس . وكان يوجد بأسبانيا سبع فرق (غير القوات الأسبانية الاضافية) موالية ليومى موزعة بين ولايتها ويتولى امرتها قواد محنكون سبق لاثنين

(١) Suetonius, Div. Iul. 34: professus ante inter suos. ire se ad exercitum sine duce et inde reversurum ad ducem sine exercitu.

(٢) انظر ص ٢١١ .

منهم أن شهدا معارك كثيرة (١) . ولم يقيم هؤلاء القواد بأي محاولة للدفاع عن حدود أسبانيا الشمالية : بل اختاروا أن يلدقوه عند بلدة ايلردا (Ilerda) في شمال نهر الابرو بأسبانيا القريبة . وقد صدوا هجماته الأولى وضيقوا عليه الخناق وكادوا يظفرون به . لكنه خرج من المأزق بفضل شجاعة الفرسان الغال وطارد أعداءه الذين انسحبوا الى جنوب النهر . وبعد مناوشات استغرقت بضعة أيام استطاع قيصر أن يطوقهم ويمنع عنهم الماء والمؤونة . وأخيرا استسلم له القواد بعد أن وعد بالصفح عنهم لو سرحوا قواتهم . وانضم بعض الأسرى الى جيشه وعاد البعض الآخر الى أوطانهم . وقد أحدث انتصاره كما أحدثت رآفته تأثيرا كبيرا في نفوس سكان أسبانيا البعيدة حتى أنهم أبرعوا القائد الموالي ليومي على القاء السلاح ثم سلموه لقيصر الذي أنهى الحملة الأسبانية نهاية موفقة (يونيه ٤٩) . وعاد قيصر الى إيطاليا . سالكا نفس الطريق ومر بمرسيليا التي قاومت ضباطه مقاومة عنيفة ولكنها استسلمت غداة وصوله . وقد أعفاهها من التدمير ولكنه اقتصر منها فأرغمها على أن تمد جيشه بالمؤونة وانتزع منها معظم أراضيها وسلمها مؤقتا استقلالها الذاتي . وبعدئذ تابع سيره الى روما . وهناك وجد أنه قد عين بايعاز من البريتور ليدوس دكتاتورا بمقتضى قانون خاص أصدرته الجمعية المثوية أثناء غيابه . وقد أبدى من التسامح ما أثار إعجاب خصومه ، وقام بإصلاحات مالية خاصة بتخفيف وطأة الديون :

(١) كانت ثلاث من هذه الفرو مرابطة في أسبانيا الغربية تحت إمسة افرانيوس (L. Afranius) الذي قاتل ضد بربوروس واشترك في حملة يومي على السرق ، واثنتان في القسم الشرقي من أسبانيا البعيدة تحت قيادة بترئوس (M. Petreius) الذي دحر كليلينا ؛ واثنتان في القسم الغربي من الولاية الأخيرة تحت إمسة فارو (M. Terentius Varro) العلامة الروماني المشهور . وقد عفا عنه قيصر وعينه امينا للمكتبة في عام ٤٧ ق . طعنف بعد الحرب الأهلية على دراساته المتنوعة في الادب واللغة والتاريخ . وكان غزير الانتاج فالف عددا ضخما من الكتب نعرف عناوين خمسة وخمسين كتابا منها . غير انه لم يصلنا منها سوى أجزاء من كتابين أحدهما هو بحثه في اللغة اللاتينية (de Lingua Latina) والآخر في الشؤون الريفية (de Re Rustica) ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ، ص ٢٦ - ٢٧ .

ورد حقوق المواطنة لأبناء ضحايا سلا (١) ، وأعاد المنفيين الذين صدرت ضلهم أحكام بمقتضى قوانين پومپى (٢) ، وأدخل بعض اصلاحات على نظام الحكم فى الولايات . وبعد قليل أجريت الانتخابات تحت إشرافه ففاز فيها بالقنصلية لعام ٤٨ هو وسرقيلوس الاساورى (٣) . وعندئذ تنحى عن الدكتاتورية بعد أن تقلدها أحد عشر يوما . وبعد أذ. احتفل بالعيد اللاتينى ، وقبل أن يتولى القنصلية رسميا ، كان قيصر يشق طريقه جنوبا الى برنديزى .

القتال فى بلاد اليونان : فرسالوس

كان پومپى فى تلك الأثناء قد تجمعت لديه تسع فرق سحبها من إيطاليا نفسها وبلاد الإغريق وكريت وكيليكيا ، ثم عززها بفرقتين أخريين أحضرهما من سوريا ، حتى بلغ عدد قواته حوالى ٤٤٠٠٠ مقاتل وقام بتدريب جنوده فى مقدونيا واستعد للمعركة . لكنه كان يدرك أن جيشه ليس ندا لجيش قيصر الذى حنكته معارك بلاد الغال فتسار شديد المراس لا تلين قناته . ولما كان قيصر يشق فى تفوق جيشه ، ولا سيما مشاته ، فقد تلهف على حنازلة العدو فى أقرب فرصة . وكان رجاله قد بذلوا أثناء غيابه فى أسبانيا كل ما فى وسعهم لبناء الناقلات والسفن اللازمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا منها ما يكفى لنقل جميع قواته - وهى اثنتا عشرة فرقة - الى بلاد الإغريق

(١) راجع ص ١٤٨ ، ١٧٢ حاشية ١ .

(٢) سبق لقيصر عندما تولى الكويستورية فى عام ٦٩ (؟) أن اتخذ خطوة مشابهة فأيد مشروعا يقدم به نقيب العامة يدعى بلاوتىوس (Plautius) فى عام ٧٠ ويقضى بإعادة اتصار لپيدوس ، زعيم فتنة عام ٧٧/٧٨ . (راجع ص ١٠٤) الذين فروا الى أسبانيا للانضمام الى سرتوريوس ، ورد حقوق المواطنة اليهم (lex Plautia dereditu Lepidanorum) ، وعن هذا القانون ، راجع : CAH, IX, 896 .

(٣) وهو ابن سرقيلوس الاساورى قنصل عام ٧٩ وقائد الحملة ضد القراصنة فى عام

٧٧ (راجع ص ١١١) .

في رحلة واحدة . وبرغم سيطرة يومبي على البحر ، فقد جازف قيصر وأقلع بحوالي نصف قواته من برنديزي وعبر الأدرياتيكي ونزل بساحل ايبيروس في نوفمبر من عام ٤٩ بعد أن أفلت من الحصار الذي نربه بيولوس ، قائد أسطول يومبي ، وزميله من قبل في قنصليته الأولى .

كان يومبي قد اتخذ من بلدة دوراخيوم (Dyrrachium)^(١) الواقعة على الساحل مستودعا لمؤوقته ونقطة اتصال بينه وبين أسطوله المرابط في الأدرياتيكي . وعندما بلغه خبر نزول قيصر في ساحل ايبيروس ، واستيلائه على أبولونيا (Apollonia) - التي تقع على مصب نهر أيسوس عند نهاية طريق اجناتيوس Via Egnatia - وشروعه في الزحف شمالا لمهاجمة دوراخيوم ، غادر مقدونيا - حيث كان يدرب قواته - واتجه غربا ليقطع عليه في الوقت المناسب طريق التقدم . اضطر قيصر الى وقف هجومه حتى تصله بقية قواته من ايطاليا . اخيرا بلغته الأنباء بأن ماركوس أنطونيوس استطاع أن يفلت من الحصار البحري وينزل في ساحل ايبيروس ولكنه نزل بمكان الى الشمال من دوراخيوم بحيث كان في وسع يومبي أن يحول دون إلتاقه به . واستغل قيصر تواني خصمه وبطء تحركاته ، ولم ينجح أثناء في الاتصال بأنطونيوس بل احتل أيضا ذلك اللسان من الأرض الذي لا يمكن بلوغ دوراخيوم الا عن طريقه . وبذلك حال دون اتصال خصمه بقاعدته العسكرية ومركز امداداته . وعندئذ قرر يومبي انتزاعا على تفوق قواته العددى وسيطرته على البحر أن يتحصن ويقف مدفع الدفاع في پترا (Petra) ، وهي بلدة تقع الى جنوب دوراخيوم مباشرة . ولم يقف قيصر مكتوف اليدين فقام بمحاولة كادت أن تنجح في حاصرة خصمه في مكانه . غير أن ضالة قواته بالقياس الى طول خط دفاع يومبي جعلته عاجزا عن اختراق ذلك الخط . وحدث في الوقت

١- الأصل مستوطنة يونانية باسم ابيدامنوس (Epidamnus) وغلب عليها اسم دوراخيوم (بعد عام ٣٠٠ ق م) وهي تقابل الان دورازو (Durazzo) في البانيا الحديثة

الذى بدأ يومى يعانى فيه من قلة المئونة أن اكتشف ثغرة في خط العدو فاخترقها من قوره، وأنزل خسائر فادحة بقوات قيصر الذى يعترف في « مذكراته عن الحرب الأهلية » (١) أنه كان قاب قوسين من انهزيمة الملاحقة .

وتبدأ المرحلة الأخيرة من هذه الحرب بهروب يومى من بتر . ويبدو أن قيصر أدرك حينئذ أنه لن يستطيع أن يظفر بخصمه الا اذا استدرجه بعيدا عن قاعدة عملياته الحربية على الساحل وقل مسرح القتال الى الداخل . وكان يومى يتوقع أن تصله من سوريا بعض الامدادات مع وحدات من الفرسان الأشداء تحت قيادة حيه ميتيللوس . اسكيبيو (ناسيكا) عن طريق مقدونيا . ولذلك أرسل قيصر فرقتين تحت قيادة دوميتيوس كالفينوس (٢) لتعترض طريق هذه الامدادات . وعندما تخرج مركز هاتين الفرقتين اسرع قيصر السير الى ثساليا (Thessalia) لاثاذهما .

وخلا الجو ليومى وأصبح أمامه أن يختار أحد أمرين فاما أن يترك خصمه في بلاد الانغريق ويعود هو — كما اقترح عليه أحد

(١) Commentarii de Bello Civili

وتقع في ثلاثة كتب . ويتضح من هذه المذكرات ومذكراته الاخرى عن الحرب الغالية (راجع ص ١٩٥ ، هامش ١) ، أن قيصر لم يكن فقط قائدا وسياسيا ومصلحا وخطيبا من الطراز الاول ، بل كان مؤرخا بمتد به . ولا تصرفه العناية لنفسه عن وصف الحرب وصفا رائعا أصبح موضع دراسة القواد في الاجيال ، التالية . ويشهد شيشرون نفسه أن أسلوبه يمتاز بالوضوح والابجاز والبساطة والبعد عن التكلف . والفاظه سهلة منتقاة بعناية . ويعتبر قيصر الكاتب من اتباع مدرسة الاسلوب الايكلي (راجع ص ٢٢١ ، هامش) انظر الى جانب كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ، ص ٢١ — ٢٢ ، الكتب الآتية : M. Rambaud, *L'Art de la déformation historique dans les commentaires de César*, 1953 (Cf. however, J.P.V.D. Balsdon, *JRS*, 1955, 161 ff.; *Greece and Rome*, 1957, 19 ff.). F. E. Adcock, *Caesar as a Man of Letters*. 1956.

(١) راجع ص ٢٢١ ، هامش .

نشاطه - الى ايطاليا ويفزوها - كما غزاها سلا - ويستولى على روما دون عناء أو أن يتعقب قيصر الى سهول ثساليا وينازلها ، في معركة فاصلة . ولم يكن غزو ايطاليا أمرا شاقا بعد أن جلت عنها القوات العسكرية . غير أن ذلك لم يكن لينهى الحرب الأهلية . فقد أدرك يومئذ أنه لن يستطيع أن يسترد أسبانيا الا بالسيطرة أولا على بلاد الغال ، وهو أمر عسير التحقيق لأن هذه البلاد كانت تقف الى جانب قيصر . وكان الاحتفاظ بقوات ضخمة في ايطاليا تحت السلاح عبئا ثقيلا . وكان من المحتمل أن ينشغل زعماء السناو عن الحرب بالانغماس في الأعمال الانتقامية . كما أن عودته الى ايطاليا كانت تظهره بمظهر الهارب من ميدان القتال . وقد أيقن أنه لا سبيل الى استقرار السلام الا اذا هزم قيصر ودمر جيشه . ولذلك زحف شرقا الى ثساليا حيث التقى الامدادات التي توجهت في بلدة لاريسا (Larissa) .

وفي تلك الأثناء كان قيصر قد رابط مع جميع قواته على مقربة من بلدة فرسالوس (Pharsalus) الواقعة الى جنوب لاريسا . وقد ظل يومئذ مترددا فترة طويلة ولم يشأ أن يخوض معركة فاصلة ضد العدو الذي كان يتميز عليه بمشاته المدربين ذوى الخبرة الطويلة . لكن زعماء الحزب الارستقراطي ألحوا عليه في التقدم الى فرسالوس لملاقاة خصمه ، واضعين ثقته في تفوق فرسانه . ولم يبدأ القتال حتى بعد أن أصبح الجيشان أحدهما في مواجهة الآخر . فقد احتل يومئذ موقعا مرتفعا عسير المنال ، ولم يستطع قيصر ازاحته عنه ، وتظاهر الأخير بالتقهقر لاستدراجه ولكن ذلك لم يحمله على التبخل عن موقعه الممتاز . ولم يجد قيصر مناصا من التأهب لمهاجمة العدو ولكنه خشى أن تطوق فرسان يومئذ القوية جناحه الأيمن ثم تطبق عليه من الخلف أثناء انهماك قلب جيشه في القتال . ولذلك وضع أقوى فرقه ، وهى الفرقة العاشرة ، في ميمنة جيشه وعززها بالفرسان وبقوة

أحيائية من المشاة ، وأسند قيادتها كلها الى سلا (L. Sulla) ابن شقيق الدكتاتور (١) . ووقف هو نفسه الى جانبه في مواجهة پومپى على رأس قوات أخرى . وأما قلب الجيش فقد وكل أمره الى دوميتيوس كالفينوس ، وتولى ماركوس أنطونيوس قيادة الجناح الأيسر ، وعندما بدأ القتال صمد مشاة پومپى أمام هجمات مشاة قيصر ، بينما حمل فرسانه في الميسرة على فرسان العدو وردوهم على أعقابهم وشرعوا في القيام بحركة التفاف حولهم للاجهاز عليهم وانهاء المعركة . لكن حدث في تلك اللحظة أن تغير الموقف فجأة بفضل بسالة الكتائب المساعدة التى وضعها قيصر في مينة جيشه ، اذ حملت هذه الكتائب المختارة على فرسان پومپى ومزقت شملهم وأرغمتهم على الفرار ، ثم اكتسحت أمامها رماة العدو وانهالت على الجانب الأيسر لمشاته طمنا وتقتيلا . وفى الوقت نفسه أمر قيصر كل قواته بالتقدم . وكان الاعياء قد نال من فرق پومپى بعد أن قاومت طويلا هجمات العدو الأولى ، ثم تخلى عنها الفرسان والمشاة خفيفو العقاد ، وتعرضت آتئذ للهجوم من الأمام والجانبين . وسرعان ما انهارت وولت الأدبار . وتعقبها جنود قيصر برغم اشتداد القيظ واستمروا في مطاردتها دون أن يتوقفوا لجمع الأسلاب والغنائم من معسكر پومپى . ولم تشرق شمس اليوم التالى حتى كان من بقوا على قيد الحياة ، وعددهم حوالى ٢٤٠٠٠ جندى ، قد ألقوا بسلاحهم مستسلمين للقائد الظافر . وكان لاينوس ، الذى أقسم ألا يرح ميدان القتال الا منتصرا ، هو أول من حمل نبال الهزيمة الى دوراخيوم . وقد هلك في المعركة دوميتيوس أهينو باربوس ولاذ عدد قليل من أعضاء السناتو بالفرار . ولما بلغ قيصر لاريسا أحرق

(١) وهو رجل نرى من الإشراف انتخب قنصلا لعام ٦٥ ولكنه ادين هو وزميله بالرشوة فبطل انتخابهما . وكان له ضلع فى المؤامرة الأولى الفاشلة التى دبرها كنيلىنا فى اواخر عام ٦٥ لقتل القنصلين (راجع ص ١٤٩ - ١٥٠ هامش ١) . وقد ادينهم فى عام ٦٢ بالاشتراك مع كنيلىنا فى مؤامره الثانية الشهيرة . لكن سييسرون نفسه دافع عنه فى خطبة وصلتنا بعنوان (pro Sulla) وظفر له بحكم البراءة .

مراسلات بومبي مع ميتيللوس ،سكيبو دون قراءتها ، مثلما فعل بومبي نفسه عام ٧٢ عندما وقعت في يده مراسلات سرتوريوس مع بعض الأقطاب الرومان .

نهاية بومبي

هكذا انتهت معركة فرسالوس (٨ أغسطس ٤٨) أولى المعارك الثلاث التي قررت مصير العالم الروماني في تلك الحقبة (١) . وقد فر بومبي عقب هزيمته الى ساموس وبعدئذ الى كيليكيا وقبرص . ولم يجد في جزر بحر ايجه أو آسيا الصغرى أو في سوريا أصدقاء أقوياء يمكنه الاعتماد عليهم . ولم يعد أمامه سوى مكافئ يستطيع الالتجاء اليهما ، وهما افريقيا ومصر . وكان من الجائز أن يسترد في افريقيا - حيث سيطر أنصاره على الموقف - بعض تفوذه العسكري ، ويستخدم أسطوله في تعبئة جيش جديد ويتابع تهديده لاطالبا حتى يرغم خصمه على قبول الصلح . غير أنه قرر ألا يرحل الى افريقيا . ولعل كبرياءه منعه من أن يضع نفسه تحت رحمة جوبا (Juba) ، ملك

(١) هذه المعارك الثلاث هي فرسالوس (Pharsalus) التي نسبت بين بومبي وهير
في أغسطس عام ٤٨ باقليم نباليا في بلاد الاغريق ؛ والثانية هي فيليبى (Philippi) التي
نسبت في مقدونيا عام ٤٢ وهزم فيها ماركوس أنطونيوس كثر من بروتوس وكاسيوس في
مركبتين ؛ والثالثة هي أكتيوم (Actium) البحرية التي نسبت عام ٣١ عند المدخل
الجنوبي لخليج امبراكيا على الساحل الغربي لبلاد الاغريق وهزم فيها اوكتافيانوس
(أغسطس) ماركوس أنطونيوس وكليوباترة، وعن معركة فرسالوس راجع ملحة الشاعر
لوكانوس « فرساليا » أو « الحرب الاهلية » في كتابنا « مصائد التاريخ الروماني » ،
ص ٥٢ - ٥٤ ؛ وللاستزادة انظر ايضا :

M. Rambaud, *Historia III* (1955), 346 ff.;

W. E. Gwatkin, Jr. "Some Reflections on the Battle
of Pharsalus," *TAPA* 87 (1956). 109-124.

نوميديا ، الذي كان زغم عداوته لقيصر (١) ، رجلا سلفا متغطرسا . وأيا كان الباعث فقد عقد عزمه في تلك اللحظة العصبية من حياته على أن يجر الى مصر . وكان ابنه جنايوس پومپي (Cn. Pompeius) قد استطاع في العام السابق أن يحصل منها على خمسين سفينة ومدد من القمح وقوة قوامها ٥٠٠ جندي . ولعل ما حمل الحكومة البطلمية على تقديم هذه المساعدة هي صلة الصداقة التي كانت تربط پومپي بالبيت المالک أو اعتقادها حينئذ بأن كفته راجحة . وكان پومپي يأمل أن يجد في مصر ملاذا في ساعة الشدة لدى ابني بطليموس « الزمار » الذي كان قد احتضن قضيته وأوعز الى جايينيوس بمساعدته على استرداد عرشه (٢) .

كان بطليموس « الزمار » قد مات قبل فرسالوس بثلاثة أعوام (أوائل ٥١) موسييا بأن تعتلى العرش من بعده ابنته الكبرى كليوبطرة (السابعة) التي بلغت من العمر ثمانية عشر ربيعا ، وابنه الأكبر بطلمبوس (الثالث عشر) الذي بلغ الثانية عشرة من عمره ، وأن يولى الشعب الروماني تنفيذ هذه الوصية . وقد أحاطت بالملك الصغير حاشية من المغامرين ذوى الأطماع كان في مقدمتهم الخصم پوثينوس مريبه ، وثيودوتوس معلم البلاغة ، وأخيللاس قائد فوائه . وكان يحمى العرش جيش الاحتلال الصغير الذي تركه جايينيوس وراءه (٣) . ولما كان عدد كبير من رجال هذا الجيش قد خدم من قبل تحت لواء پومپي ، فقد توقع أن يشدوا من أزره ، اذا كان الملكان الجديدان قد نسيا فضله على أبيهما الراحل . وكان قد نشب قبل فرسالوس بشهور قليلة نزاع شديد بين الأخوين على السلطة انتهى بثورة الاسكندرین

(١) ترجع هذه العداوة الى عام ٥٥ عندما انزع النقيب كورديو صنيعه قيصر مشروعا بغضم مملكة نوميديا الى الشعب الروماني .

(٢) راجع ص ٢٠٥ ، حاشية ١ .

(٣) راجع ص ٢١٤ ، حاشية ٢ .

على كليوبطرة وفرارها من المدينة . ولم يكن من المتوقع أن تنجى امرأة طموح مثلها ورثت عن بنات جنسها مضاء العزم وقوة الشكينة لأخيها الصغير أو حاشيته التي تأمرت على إبعادها خوفا من اشتداد بأسها وازدياد مطامعها . وسرعان ما استطاعت أن تحشد عند حدود مصر الشرقية جيشا من الأعراب وغيرهم وربطت في مواجهة جيش أخيها على مقربة من بلوزيوم ، وتأهبت للزحف على الاسكندرية لاسترداد حقها .

وفي تلك الأثناء بلغ معسكر بطليموس نبأ اقتراب يومبي من السواحل المصرية . وقد أثار ذلك اضطرابا بين أفراد حاشيته لأنهم خشوا أن يرحبوا بالقائد الرومانى فيتعرضوا لغضب قيصر ، وخشوا كذلك الاعراض عنه فيقتص منهم اذا حالقه الحظ في النهاية . وتزأى لهم أن أسلم السبل للخروج من المأزق هو التخلص من يومبي حتى لا يجد قيصر عند قدومه تكأة لدخول مصر . ولذلك عهدوا الى أخيلاس وضابطين رومانين فى خدمتهم بغتياه وهو بهم بالنزول الى الى الشاطئ من الزورق الذى أعدوه له . وقفلت الجريمة البشعة وخر القائد الرومانى صريع طعنات من حسب أنهم يرحبون بمقدمه .

هكذا قتل يومبي غدرا بعد أن قام بدور كبير فى العالم الرومانى دون أن يكون هو نفسه رجلا كبيرا . ومن العسير أن نحكم عليه حكما صائبا لأن الحظ أسهم بنصيب كبير فى معظم انتصاراته . كان قد أدى لسلا خدمات جليلة ولكنه لم يظهر وقتئذ من المواهب العسكرية ما يفوق به كراسوس لأن حملته فى صقلية وافريقيا التى أحرز بفضلها أول موكب انتصار ولقب الكبير أو العظيم (Magnus) كانت موجهة ضد أعداء ضعاف لا يبرر الانتصار عليهم منح هذا اللقب الضخم (١) .

(١) راجع ص ١٠٢ .

وقد اغتيل يومبي فى ٢٨ سبتمبر عام ٤٨ (وفقا للتقويم الرومانى القديم) = ٢٤ يوليو ٤٨ (وفقا لتقويم بوليوس)

ولم يكن اخماد فتنة لبيدوس يتطابق مقدرة فتنة (١) . وكان سرتوريوس أول قائد قدير واجهه يومى ، وقد أوشك أن ينظر به لولا ائزال ميتلوس بيوس الهزيمة بضباط الزعيم الثائر (٢) . ولم يخمد يومى الثورة الأسبانية الا بعد مصرع سرتوريوس . وفى حملاته فى الشرق جنى ثمرة اقتصارات لوكللوس (٣) . وأما تطهير البحر من القراصنة فلم يتطلب سوى عناية فائقة فى تنظيم القوات الهائلة التى وضعت تحت تصرفه (٤) . فلما التقى بقائد من الطراز الأول مثل قيصر ، منى بالهزيمة لأول مرة ، ولو أن الهزيمة لا تعزى الى أخطائه العسكرية بقدر ما تعزى الى انحطاط مستوى جنوده . فليس هناك اذن من الأسباب القوية ما يدعوفا الى وصفه بأنه قائد عظيم على الرغم من الشهرة العريضة التى أحرزها . ومع هذا فلا جدال فى أنه كان منظما بارعا ، وقائدا ماهرا فى ادارة العمليات الحربية ، جمع بين الحذر والجرأة فى وضع الخطط العسكرية . فهو لم تعوزه الخبرة الفنية أو سلامة التقدير أو مسحة الحيلة ، بل أعوزه امتزاج قوة الادراك بسعة الخيال ، وهو ما يميز العبقرية من الموهبة .

لكن اذا كان هناك خلاف حول يومى القائد ، فليس ثمة خلاف كبير حول يومى النياسى . كان يومى تعوزه اللباقة والكياسة والكفاءة فى معالجة المسائل السياسية . وكان محبا لذاته ملتوى الحديث لا يمل سماع المديح . على أن نقطة الضعف الأساسية فيه هو أنه لم يكن حازما بقدر ما كان طموحا . لقد دفعه طموحه الى السعى وراء مركز يتعارض والدستور ، فانتهك روحه وإن تمسك بنصه بوازع من ضميره . ولم يكن ليحجم عن تقوية مركزه بطريق غير مشروع لو تحمل غيره مسئولية خرق القانون . ولعل افتقاره الى الحزم هو ما جعله

(١) راجع ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) راجع ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) راجع ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ .

(٤) راجع ص ١٢٤ - ١٢٥ .

لا يقدم على هدم الدستور الجمهورى . لكن ينبغي ألا تسى أن بعض هذه المثالب هى ترديد لانتقادات شيشرون الذى جرح يومى شعوره بتجاهله ما قام به من عمل جليل فى احباط مؤامرة كتيلىنا . ولا مرأ فى أن يومى كان حريصا على اصلاح أداة الحكم ومستعدا لبذل أى خدمات للدولة فى مقابل الثقة به والثناء عليه . ومن الانصاف أن نقول إنه لم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل ازاء الظروف التى أحاطت به ، اذ حاول عبثا أن يعمل السناتو بعد عودته من الشرق على اقرار السياسة التى شعر بأنه ملتزم بتنفيذها ، وذهبت جهوده سدى لاقناع الجمعية الشعبية بالتصديق على تنظيماته (١) . وعندئذ اضطر الى قبول عضوية « الائتلاف الثلاثى » لكى يفى بوعوده لجنوده المسرحين . ولعل عدم كياسته وانطوائه على نفسه وترفعه عن المهاترة كانت من العوامل التى أفضت الى هذه النتيجة ، غير أنه كان من المستبعد أن يرحب أعضاء السناتو بالرجل الذى أطاح بدستور سلا (٢) . واذا كان يومى قد انتهك الدستور ، فقد فعل ذلك لأنه لم يجد أمامه سوى هذا الطريق . ويبدو أن الاستياء الشديد الذى أثارته قنصلية قيصر الأولى قد أذهله أو أخذته على غرة ، غير أن تعنت الارستقراطيين انتديد أرغمه على أن يدع زميله يتمادى ويقطع شوطا أبعد مما كان متقفا عليه ، ولم يلبث أن تورط معه فتعذر عليه للتراجع واضطر الى التشبث بموقفه . فلما تغيرت الظروف بموت كراسوس وجد نفسه وجها لوجه أمام قيصر ، فزين له المتطرفون فى الحزب الارستقراطى أن يناوىء حليفه القديم ويزيحه عن طريقه قبل أن يستفحل خطره . ومن الجائز أنه لو ترك لنفسه لوصل الى اتفاق مع قيصر . لكنه وقد تحالف فى آخر الأمر مع السناتو انساق الى الحرب تحت ضغطا فريق من النبلاء المتهورين الذين لم يحالفوه الا لأنه كان فى نظرهم أقل

(١) راجع ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) راجع ص ١١٩ .

خطرا من قيصر . ولو اقتصر لعملا على اسقاطه . وقد ترتب على تحول كوريو الى جانب قيصر (١) - وهو تحول مفاجيء لم يكن من المستطاع التكهّن به - أن عجز پومپي عن عزل خصمه من القيادة خلال عام ٥٠ . ولو استطاع أن يملك زمام أنصاره ، لكان من الجائز أن يجد ذريعة أقوى لاشهار الحرب ، اذا لم يكن هناك سبيل الى تجنبها. لكن الزمام أفلت من يديه فخر عطف الرأي العام لأن خصمه أظهره بمظهر البادئ بالعنوان . وأخيرا ، فمع أنه كثيرا ما استفز السناتو وأثار حنقه فإن مطامعه كانت معتدلة بوجه عام . وقد منحت للنبلاء أكثر من فرصة ليكسبوا صداقته . ولو فعلوا ذلك منذ البداية واستجابوا لشيثرون الذي لم يدخر وسعا لاقتناعهم بمصادقته ، لما تعرضت الجمهورية للخطر على الأقل أثناء حياته . فاذا كانت قد سقطت في النهاية ، فان ذلك لا يعزى الى أخطائه بقدر ما يعزى الى أخطاء السناتو (٢) .

وكان قيصر قد غادر بلاد الاغريق متعبا خصمه فسار الى الدردنيل وعبره الى آسيا الصغرى . وهناك سمع بأن پومپي شوهد في قبرص ، فاستخلص أنه اتجه الى مصر . لذلك انتقل الى رودس ومنها أبحر بأسطول صغير يتألف من عشر سفن رودسية وبضع سفن أخرى آسيوية ، وترافقه الفرقة السادسة وحوالي ٨٠٠ فارس من الغال والجرمان . وقد التحقت به فرقة أخرى استدعاهما من آخيا وهي الفرقة السابعة والعشرون . ولم يزد عدد جنود الفرقتين على ٣٢٠٠ رجل . واستنادا الى الصيت الذي أحرزه باتتصاراته الأخيرة ، ألقى قيصر مع هذه القوات الضئيلة ، وبلغ ساحل مصر في ٢ أكتوبر من عام ٤٨ بعد موت غريبه بأيام قليلة (٣) . فلما علم بمصرعه حزن عليه وتألّم لمصيره . ولا يخامرنا الشك في صدق

(١) داجع ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) Cf. M. Gelzer, *Pompeius* (1949); J. van Ooteghem, *Pompée le Grand* (1954).

(٣) ٢٧ يوليو ٤٨ حسب تقويم نيوليوس .

شعوره . غير أن اختفاء يومى من الميدان يسر مشاكله لأنه كان خليقا اذا امتد به الأجل أن يثير المتاعب في وجهه . لقد كان يومى في نظر رأى العام رجلا كبيرا لا سبيل الى تجاهله أو الاستخفاف به . ولم يكن من المحتمل أن يقنع بدور التابع لغيره . وعلى أى حال فقد اخفى بوته أقوى منافس لقيصر .

حرب الاسكندرية

غير أن ذلك لم يمنع قيصر من أن يدخل الاسكندرية كما لو كانت مدينة مقهورة ، ويسير في شوارعها يسبقه حملة شارات سلطته القنصلية (fasces) . وقد أثار دخوله المدينة على هذه الصورة بعض الاضطرابات لأن الاسكندريين اعتقدوا أنه افتأت على سلطة الملك البطلمي . و نجح قيصر في اخماد هذه الاضطرابات الأولية . غير أن الاسكندريين لم ينسوا أن قيصر كثيرا ما أيد مشروعات ضم مصر الى ممتلكات الجمهورية ، وأنه ربما حضر ليحصل المبلغ الذى كان "الزمار" قد وعد به رجال الائتلاف الثلاثي نظير الاعتراف به ملكا شرعيا على مصر . وبينما أدى احتشاد الجماهير الى قشوب عدة معارك في أيام متوالية قتل فيها عدد من جنوده في أنحاء متفرقة من المدينة . واستشعر قيصر الخطر لضالة قواته ، أو تعذر عليه الرحيل عن مصر لاشتداد هبوب الرياح التجارية في ذلك الوقت من السنة ، كما يزعم مؤلف كتاب « حرب الاسكندرية » في محاولته تبرير بقاء قيصر . ولذلك أرسل الى ضابطه دوميتيوس كالكثيوس طالبا اليه أن يمدّه بالفرق التى جمعت من قلول جيش يومى في آسيا الصغرى .

وقد أعلن قيصر بعد نزوله بالقصر الملكى أنه يعتزم ، بوصفه قنصلا ، أن يتوسط باسم الشعب الرومانى لحل النزاع القائم بين الأخوين بطلميوس (الثالث عشر) وكليوپطرة (السابعة) . وأضاف أن واجبه يحتم عليه ذلك ، وبخاصة أن روما عقدت في أثناء قنصليته

الأولى (عام ٥٩) محالفة مع أيهما الراحل بمقتضى قانون أصدرته الجمعية وأقره السناتو . ولذلك طالب كلا من الملكين بتسريح جيشه والحضور الى المدينة . وجاءه بطليموس مع پوثينوس (Pothinus) ، كبير أوصيائه ، دون أن يسرح جيشه الذى تركه عند بلوزيوم تحت قيادة أخيللاس (Achillas) ، وكان پوثينوس قبل مجىء قيصر هو الحاكم الفعلى فى البلاد ، اذ كان يشغل منصب وزير المالية (dioikêtês) ، وكبير الأوصياء ، وهو الذى ألب الاسكندريين على كليوبطرة متهما اياها بالرغبة فى الاستئثار بالسلطة دون أخيها ، مما أرغمها على الفرار من المدينة . وقد أوجس خيفة من أن يصفى قيصر ما بين الأخوين فتعود كليوبطرة الى العرش وتنتقم من خصومها . ولذلك أخذ يثير العراقيل فى وجه القائد الرومانى ويكيد له بغية التخلص منه . ولم تخف نواياه على قيصر فأخذ حذره منه وراقب حركاته . ولم تلبث كليوبطرة أن جاءت هى الأخرى الى الاسكندرية خفية عن طريق البحر ، وتسلمت الى القصر الملكى حيث التقت بقيصر . ولم تكن كليوبطرة فى ربيعها الحادى والعشرين جميلة بقدر ما كانت جذابة لبقة الحديث حاضرة البديهة رخيمة الصوت . فلا عجب أن فتنت قيصر الذى كان فى الخمسين من عمره وسلبت لبه حتى لم يعد فى وسعه أن يعدل بينها وبين أخيها . وقد اجتاحت بطليموس الصغير عند مشاهدة أخته موجة من الغضب الشديد ، فعادر القصر وهو يرغى ويؤيد ويصرخ مستنكرا الخيانة وملقيا بتاجه على الأرض . غير أن الجنود الرومان هداؤا من ثورته وأجبروه على العودة . وقد بلغ صراخه مسامع بعض الاسكندريين فاحتشدوا وهاجموا القصر من جميع جهاته ، وكادوا يقتحمونه لولا أن قيصر أطل عليهم وخطب فيهم واعدأ بتحقيق مطالبهم .

ودعا قيصر الى اجتماع حضره كل من بطليموس وكليوبطرة وقرئت عليهما وصية أيهما الراحل التى كان أصلها قد أودع

بالاسكندرية ، بينما أرسلت صورتها الى روما وسلمت ليومبي عندما تمذر ايداعها بالخزاة العامة . وقد نصت الوصية على أن يتزوج بطلميوس بأخته جريا على تقاليد الأسرة ، وأن يعتليا العرش سويا ، تحت حماية الشعب الرومانى . وأضاف قيصر أنه وقد أصبح دكتاتورا (١) ، يتمتع بكامل السلطة لتنفيذ الوصية . وتبعاً لذلك نصب الأخوان ملكين على مصر ، ووعد قيصر باهداء قبرص - التى أصبحت جزءاً من أملاك روما - لأرسينوى (Arsinoe) أختها الصغرى و بطلميوس أخيها الأصغر . وبذلك هدأت الأحوال على الأقل بعض الوقت . ورضخ الملك الصغير أو تظاهر بالرضوخ لحكم قيصر . وأقيم فى النهاية حفل ابتهاجاً بالصلح .

غير أن هذا الصلح لم يكن فى مصلحة پوئينوس الذى أحس بالخطر من عودة كليوبطرة الى العرش بمساعدة قيصر . وقد أيقن أنها سوف تصبح الحاكم الفعلى وأن بطلميوس لم يشرك معها الا اشراكاً شكلياً مؤقتاً ، وسرعان ما تنفرد بالسلطة وتحاسبه حساباً عسيراً سواء على معادمتها لها أو على تصرفاته كوزير للمالية ، ثم تنكّل به . واستبد به القلق لا على سلطته فحسب بل على حياته أيضاً فسمى الى دس السم لقيصر . وعندما أخفق فى التخلص منه بالخديعة لجأ الى القوة السافرة ، فأرسل الى أخيللاس ، قائد الجيش البطلمى فى بلوزيوم (٢) ، يدعوهُ سرا للزحف بقواته إلى الاسكندرية . وعندئذ طلب قيصر من بطلميوس أن يأمر قائده بالكف عن مهاجمة المدينة . فبعث اليه برسولين،

(١) عين قيصر دكتاتورا للمرة الثانية فى أواخر أكتوبر من عام ٤٨ بعد وصوله
الانبياء بانتصاره فى معركة فرسالوس ؛ انظر :
T. R. S. Broughton, *The Magistrates of the Roman Republic*, II
(1952), p. 272.
P. Graindor, *La Guerre d'Alexandrie* (1931), p. 35, n. 3.

(٢) بيلوزيون فى اليونانية وهى « الفرما » .

قبض عليهما أخيللاس وقتل أحدهما وجرح الآخر جرحا بليغا . وبذلك بدأت الحرب الشهيرة في التاريخ باسم حرب الاسكندرية (Bellum Alexandrinum) (١) .

وترك أخيللاس في بلوزيوم حامية على حدود مصر الشرقية ثم سار مع بقية جيشه إلى الاسكندرية . وقد بلغ عدد جيشه ٢٠.٠٠٠ رجل من المشاة و ٢.٠٠٠ من الفرسان الذين حكنهم المعارك . وكانت قواته تتألف من جنود الحامية الرومانية التي كان جابينيوس قد تركها في مصر لتشد من أزر « الزمار » عام ٥٥ (٢) . وضرب الجصار على قوات قيصر المرابطة في بروخيوم (Bruchium) ، وهو الحي الملكي الذي يتأخم الميناء الكبير Portus Magnus (الشرقي) وكانت تقع فيه معظم القصور وملحقاتها (٣) . ولم يعد في وسع القائد الروماني إلا أن ينحصر داخل القصر الملكي ويتخذ موقف الدفاع . واكتفى بارساء بعض كتائبه لمنازلة العدو في الشوارع المؤدية إلى القصر حتى يصده

(١) جميع الأحداث السابقة الذكر رواها قيصر نفسه في آخر الكتاب الثالث من مذكراته عن الحرب الأهلية (Commentarii de Bello Civili III, 106-112) .
وأما الأحداث التالية فقد وردت في كتاب « حرب الاسكندرية » الذي ألفه ضابط من ضباط قيصر يرجح أنه هيرتيوس (A. Hirtius) ؛ راجع ص ١٩٥ ، هامش ١ .
(٢) كان هؤلاء الجنود قد استوطنوا الاسكندرية منذ ذلك الوقت فألفوا المعيشة السهلة وشغلوا بالفوضى ونسوا صرامة النظام العسكري ، واتخذوا لهم زوجات وأصبح كثير منهم أسر . وقد انضم اليهم مرتزقة كثيرون بعضهم لصوص أو قطاع طرق وفدوا من سوريا أو كيليكيا والأقاليم المجاورة ، وبعضهم الآخر مجرمون عتاة هاربون من وجه العدالة أو منفيون أو عبيد أبقوا لتجارتهم إلى الاسكندرية حيث انتحروا في سلك الحامية ليضموا قوتهم . وقد تحكم هذا الجيش في المدينة ، فكان يطالب بإعدام أحسبائه الملوك أنفسهم وينهب ممتلكات الأثرياء ، ويحاصر قصر الملك لإرغامه على زيادة زيادة رواتبه ، وبطرد ملكا ويولى آخر مكانه، وفقا لتقليد داوم عليه الجيش البطلمي منذ القدم . وقد حثت معارك الاسكندرية الكثير من رجال هذا الجيش الذين أعادوا بطلميوس الزمار إلى عرشه . وقتلوا ولدين من أبنياء بيولوس ، حاكم سوريا ، عندما جاءا في طلبهم ، كما حاربوا الأهالي المصريين (راجع Bell. Civ. III, 110) .
(٣) في هذا الحي كانت تقع دار العلم (Museum) والمكتبة (Bibliothèque) والمسرح (Theatrum) ومدافن الأسرة الملكية ، وربما أيضا قبر الاسكندر (Séma) .

عنه ويفقد ميرة تقوقه العديني مؤيدون، أن بأخلاقنا خطأ بتفريق قواهم
وعدم تركيز الهجوم على هدف معين واحد. وتفيد نشيبت في الوقت
نفسه معركة عنيفة عند الميناء الكثير. فإذا حاول الاستكشافيون أن
يلتقوا سفنهم الزائنية فيه ليدمرؤا بها أسطول قيصر ويستولوا على
الميناء والشرائط الساحلي المتاخم له وينزعوا عنه المؤونة والامدادات.
ولم يجد قيصر تنافسا من أن يحرق جميع هذه السفن بالطلعية وغيرها
منها كان زائنا في أحواض الترسيم حتى يحرم أعداءه من الارتفاع بها.
ويحتمل أن أسطول السفين وتوسم طريق الامدادات. وقد امتدت السنة
الطالبة التي الخاؤون (apostaseis) الملقبهم برصيف الميناء الكبير
وقد مررت خوالق مائة مع كتابته أو عبارة أدق. الحافة الجديدة مخطوطة
(biblia) كانت مودعة بها توطئة لتصديرها الى الخارج. وقد أدى
ذلك الى رواج القصة القائلة بأن مكتبة الإسكندرية الكبيرة - التي
كانت تحتوي على ما لا يقل عن ٧٠٠,٠٠٠ مخطوط (١) - دمرت في
ذلك الحريق. بيد أنها قصة غير صحيحة لأنه لم يرد لها ذكر عند قيصر
أو صاحب كتاب حرب الإسكندرية، أو شيشرون أو أي كاتب آخر
معاصر (٢). وبضربة خاطفة استولى قيصر على جزيرة صغيرة تقع عند
أقصى الطرف الشرقي من جزيرة فاروس (Pharos) (جي رأس التين) ،
وتحكم في مدخل الميناء الكبير. وعلى هذه الجزيرة الصغيرة (وتعرف
أيضا باسم فاروس) كانت تقوم المنارة الشهيرة التي تقوم مكانها الآن.

(١٦) قالوا أضغاث ألقي فيها الرقم ٩٠٠٠٠ مخطوطات اقتناها أنطونيوس إلى كليوباترة
 يبلغ أقصى عدد احتواه مكتبة الإسكندرية من المخطوطات البردية المخطوطة ٩٠٠٠٠٠ ويتبقى
 المتبقية أن هذه المخطوطات لم تكن كتباً بالعلمى الأول بالكتابة ، وإنما كانت حوائى فصبغ منها
 تعادل كتاباً متوسط الحجم من ٣٠٠ صفحة ، وعلى ذلك يكون عدد الكتب التى احتواها المكتبة
 المكتبة في عصر كليوباترة ١٢٨٠٧٧ كتاباً على وجه التقريب . مصدر : كتابه ج ١ ص ١١٠
 (٢٧) من حريق مكتبة الإسكندرية الكبرى : (راجع : كتابه ج ١ ص ١١٠) ج ١ ص ١١٠
 E. A. Parsons, *The Alexandrian Library* (London, 1952), 288-319;
 413-425
 دكتور محمد عواد حسين « المسألة المصرية في السياسة الرومانية » ، حوليات آداب

رأى أيضاً :
دكتور مصطفى العبادي ، مكتبة الاسكندرية القديمة (مكتبة الانجلو
المصرية - ١٩٧٧)

قلعة قايتباي (قايد بك) (١) . ولما كان الاسكندريون يسيطرون على الجسر الكبير أو الهبتاستاديوم (Heptastadium) (٢) الذي يصل الشاطئ بجزيرة فاروس ، فقد استطاعوا أن يبنوا أسطولا جديدا في ميناء ايونستوس (Eunostos) الذي يقع في غرب الجسر الكبير . وفي الوقت نفسه أمر جانوميديس (Ganymedes) مربي أرسينوى ، الذي خلف أخيلاس في قيادة القوات البطلمية ، بإيصال ماء البحر الى القنوات قصد تلويث مياه الشرب التي كانت مخزونة في صهاريج يتزود منها العدو . وقد أثار هذا الاجراء الهلع بين جنود قيصر فسرت بينهم موجة من التذمر الشديد . لكن القائد الحازم أمرهم من فوره بالحفر طوال الليل ، ولم ينبجج الصباح حتى كانوا قد عثروا على آبار بها مياه صالحة للشرب .

ولم تلبث أن لاحت في الأفق السفن التي جاءت من موانئ آسيا الصغرى وسوريا حاملة جنود الفرقة السابعة والثلاثين . وكان قيصر قد استجد بكاثينوس للمرة الثانية ، فأرسل اليه هذه الفرقة وفرقة أخرى عن طريق البحر . لكنه لم يستطع أن يرح آسيا الصغرى لانشغاله بالقتال ضد فرناكيس (Pharnaces) . وناشد قيصر أيضا مالخوس (Malchus) ملك النبط ، أن يمدّه بوحدة من فرسانه الأشداء . وسرعان ما لبى هذا الملك نداءه لأنه كان يفتقد على البطلمة ولم ينس أن يوميى هو الذي أرغم سلفه الحارث (Arethas) على الجلاء عن فلسطين . كذلك عهد الى مشراداتيس البرجامى أن يحشد

(١) عن هذه القارة ، انظر : دكتور ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة (القاهرة ، ١٩٥٩) ص ١١ - ١٦ .

(٢) الكلمة معناها سبعة استادات . ولا كان الاستاديوم (stadium) يساوى ٢٠٠ ياردة أى نحو ١٨٥ مترا ، فان طول هذا الجسر كان يبلغ ١٢٩٥ مترا . وكان يبدأ في الجنوب عند مكان يقابل الآن كوم الناصور ويومر وسط المنطقة التي يشغلها الآن ميدان التحرير (محمد على سابقا) وهي الكيلنوالبحر . ويتهى عند مكان يقابل الآن شارع ابو وردة .

قوات من كيليكييا وسوريا وفلسطين ويخضع بها الى مصر (١) . وكان أنتياترو الاثومى (٢) الذى يحكم فى أرض يهوذا باسم هرثاكافوس ، الكاهن الأعلى ، هو أول من يادر بعرض خدماته على مثراداتيس ، فأمدته بفرقة من ثلاثة آلاف جندى يهودى مزودين بالسلاح الثقيل . ولعل الباعث على اهتمامه هو أنه كان يدين ببركته ليومى ثم تحول الى جانب قيصر بعد أن بلغه نبأ انتصاره فى فرسالوس . وفضلا عن ذلك فإن اقتحام يومى أورشليم عنوة كان لا يزال ماثلا فى أذهان اليهود . وقبل انتهاء عام ٤٨ كان مثراداتيس البرجامى يقترب بسرعة من بلوزيوم ، مفتاح دخول مصر من ناحية الشرق .

كان قيصر قد جازف حينئذ بترك جنود الفرق لحراسة المراقع الساحلية وأبحر مع سفنه الى مدخل الميناء الكبير . وقد أراد بذلك أن يحمى الامدادات من هجوم أسطول العدو ويقسح أمام ناقلات الجنود الطريق لبلوغ الساحل . وأفضى ذلك الى اشتباكه والأسطول الاسكندرى فى معركة انتصر فيها الرومان بفضل بسالة ملاحي سفن رودس ، وفى مقدمتهم الضابط البحرى الشجاع يوفرانور Euphranor (أكتوبر ٤٨) . ومع هذا فقد أبدى الاسكندريون نشاطا كبيرا فأخذت مراكبهم تجتاز معبرى الجسر الكبير ، قاذفة باللهب سفن الرومان الراسية بالميناء الكبير (٣) . واستطاعوا أن يبنوا على عجل أسطولا صغيرا آخر أزعجوا به أعداءهم واشترضوا به طريق مراسلاتهم البحرية . ولم يعد فى وسع قيصر أن يسكت على هجماتهم المتكررة ورأى أنه لابد من أن ينتزع منهم السيطرة على مياه المينائين .

(١) وهو ابن أحد أثرياء برجامون كان قد تبناه مثراداتيس الأكبر (يويانور) وفى رواية أخرى انه كان ابنه من إحدى صغانيه . وكان واسع الخبرة بالحرب شجاعا شديدا الولاء لقيصر .

(٢) فى اليونانية أنتيپاتروس (Antipatros)

(٣) كان بالجسر الكبير (Heptastadium) منفذان أو معبران يصلان بين المينائين أحدهما على مقربة من جزيرة فلوروس والاخر على مقربة من الساحل .

ولذلك أبحر مع سفينه وداور حول جزيرة فاروس لمقاتلة الأسطول
البطلمي في الميناء الغربي . واستطاع يوفراتور الجريء أن يمرق مع
بعض سفينه عبر ممر ضيق وسط الشعاب الصخرية وأن يفسح الطريق
بمنورة بارعة أمام بقية السفن الرومانية . وقد اقتحمت هذه السفن
الميناء الغربي والتحيت في أسطول العدو في معركة حامية انجلت عن
هزيمة الاسكندر بن وفرارهم للاعتصام بالجسر الكبير أو بتباني الميناء
المزودة بمعدات الدفاع .

غير أن هذا الانتصار كان كسابقه ، تنظرا لاختلاف طاقته ، إذ بقي مقلقه
قيصر أن يستولى على الجسر نفسه . ولذلك قام من الشمال الغربي
بهجوم مفاجيء استولى ابيه على كل جزيرة فاروس . وفي هذا الهجوم
قتل أعداد كبيرة من السكان الجزيرة مرة أخرى ، جوارحهم ، ورجلهم
منزلهم أو لدمرت . كما استولى في الوقت نفسه على الطرف الشمالي
للجسر وسيطر على المنبر المتاخم للجزيرة ، ويرأى قيصر أن يستغل
انتصاره بسرعة فقام في اليوم التالي بهجوم على الجسر نفسه . بمعلونة
الأسطول . وقد استطاع رجاله أن يرغموا بوابطة الآلات الثقيلة
(tormenta) المدافع عن القنطرة الواقعة بين الجسر والساحل على
الارتداد إلى المدينة ، وجرلوا ثلاث كتائب على الجسر ، بينما تأهت
القوات الأخرى للواقعة ، على ظهور السفن للثول في أية لحظة . وأقام
قيصر التحصينات عند مدخل الجسر من ناحية الاسكندرية وشرع
جنوده في سد الممر الواقع في أسفل القنطرة . واعتدلت نفق
الاسكندر بن من المدينة لمهاجمة الرومان وأخذت سفنهم تهاجم الجسر
الكثير من الجنائين ، وضربوا الخماسي من الملاحين والمجسطفين
الرومان فتركوا سفنهم وصعدوا إلى الجسر ليساعدوا ملائمتهم . والاشهر أن
في المعركة . وقد استطاعوا أن يرغموا السفن المظلمة على الانسحاب
عنه . غير أن انتصارهم لم يطل أمده لأن فريقا جريئا من الاسكندر بن

تمكن من التسلل الى ذلك الجزء من الجسر الذى يقسم بين فاروس
والجانب الأيمن من الساحل المواجه للميناء الغربى ، حيث احتشدت
قوات الرومان . وقد أحدثت حركة الالتفاف هذه اضطرابا شديدا بين
صفوف الملاحين الرومان الذين صعدوا الجسر منذ فترة قصيرة وحملتهم
على الانسحاب بسرعة الى سفنهم فى غير نظام . وتشجع الاسكندريون
فغادرت جموع غفيرة منهم السفن وصعدت الى الجسر . واشتد النحر
بين الرومان عندما شاهدوا سفنهم وهى تبتعد عن الجسر بسرعة حتى
لا تقع فى أيدي الأعداء . ولما سمع جنود الكتائب الثلاث أذان زملائهم
البحرى ورأوهم يفرون أو يهذبون بأنفسهم الى البحر ، وأدركوا أن
العدو قد أوشك أن يطوقهم ، تخلوا عن الاستحكامات التى أقاموها
عند رأس القنطرة وهرعوا بدورهم الى أقرب السفن اليهم . وقد
غرقت بعض هذه السفن من ثقل حمولتها . وأما من ترددوا فى الفرار
أو ثبتوا للمقاومة فقد لقوا حتفهم على أيدي الاسكندريين . ومع هذا
فقد تمكن بعض جنود الفرق الرومانية من النجاة اما بالاعتصام
بالمراكب التى كانت فى انتظارهم أو بالسباحة الى الزوارق القريبة .
وظفق قيصر يحث جنوده على القتال والدفاع عن الاستحكامات
والقنطرة حتى أدرك أن الموقف قد ساء وأن لا جدوى من الصمود .
وعندئذ قرر أن يلتجئ الى السفينة التى قلبته . غير أن بعض جنوده
اندفعوا فى اثره وركبوا معه فلم تستطع السفينة الابتعاد عن الجسر ،
وسرعان ما مالت على أحد جنبىها وأوشكت أن تغوص فى الماء . وكاد
قيصر نفسه أن يهلك لولا أنه بادر بالقفز الى البحر والسباحة الى
سفينة أخرى قريبة . وقد بلغت خسائره فى هذه المعركة ، ما عدا السفن
التي لا نعرف عددها ، حوالى ٨٠٠ مقاتل روماني نصفهم من جنود
الفرق الذين كان يعتز بهم ويحتاج اليهم أشد الاحتياج . ولم يلبث
الاسكندريون أن طهروا معبر الجسر المتاخم للساحل من الأحجار
وأخذت سفنهم تنتقل بين المينائين دون عائق ، بل أخذت أيضا تعترض

وتأسر السفن التي تمد العدو بالموونة . ولم يجد قيصر الذي عاد الى مرقف الدفاع مناصبا من الاشتباك وأسطول العدو فدارت رحى معركة بحرية أحرز فيها الرومان انتصارا رجح كفتهم ، اذ استطاع يوفرانور الردوسى أن يوقع بعض قطع الأسطول البطلمى فى كمين عند مصب الفرع الكافوبى ، وان كان هذا الضابط الجرىء قد دفع حياته ثمنا لهذا الانتصار .

كان الاسكندريون أو بعضهم قد بدأوا حينئذ يسأمون الحرب وينزعجون من ركود الحالة التجارية فى المدينة ويضيقون ذرعا بقسوة جانوميديس وتعسف أرسينوى التي كانت قد فرت من القصر الى معسكر الجيش البطلمى وتخلصت من قائده أخيللاس بمعاونة مرييها . ولذا أبدى الاسكندريون رغبتهم فى التفاوض مع قيصر اذا هو خلى سبيل ملكهم الصغير . وقد اعتقدوا أن عودته اليهم قد تكسبهم قوة وتحد من شوكة أرسينوى أو أنه قد يتوسط لهم فى عقد الصلح مع العدو اذا ما تعذر اجلاؤه بعد أن تبلغه الامدادات . ومع أن قيصر لم يندفع بكلامهم الا أنه استجاب لمطلبهم وأطلق سراح بطلميوس مناشدا إياه أن يرد قومه الى صوابهم ويقنعهم بوقف القتال وأن يبقى على ولائه للشعب الرومانى ويثبت أنه أهل للثقة التي وضعها قيصر فيه . وليس من المستبعد أن قيصر كان يأمل فى أن ينشب النزاع بين الملك وأخته بعد التقائهما . وفى رأى مؤلف كتاب « حرب الاسكندرية » أن قيصر لم يستجب لمطلب الاسكندريين الا لأنه رأى أن من الأليق به أن يقاتل ملكا من أن يقاتل شرذمة من اللباقين اللاجئين والعييد الأبهين (١) . ومع أن بطلميوس تظاهر بعدم الرغبة فى مبارحة القصر وبايثاره البقاء الى جانب قيصر ، وبكى عند مفارقتة ، الا أن دموعه — كما يقول المؤرخ نفسه — لم تكن سوى دموع الفرح لاطلاق سراحه (٢) . فلم

Bell. Alex. 24, 6. (١)

Bell. Alex. 24, 1. (٢)

يكبد يهود الى جيشه حتى استألف القتال ضد الرومان بصورة أعنف
ما كانت من قبل .

وفي تلك الأثناء كان مشراداتيس البرجامي قد بلغ الحدود الشرقية
واستولى على بلوزيوم بعد قتال عنيف (أواخر فبراير عام ٤٧) .
وانحدر جنوبا - كسائر غزاة مصر الأقدمين - و فرع النيل البيلوزي
إلى الشرقى) حتى يتجنب شبكة قنوات الدلتا ومستنقعاتها . وتابع مسيره
حتى بلغ ليونتوبوليس (Leontopolis) حيث كانت تقيم جالية كبيرة
من اليهود منذ عهد بطليموس السادس (فيلوميتور) (١) . وقد حاول
يهود أن يتصدوا له ويعرقلوا زحفه ، ولكنهم ما لبثوا أن كهوا عن
مقاومته عندما أبلغهم أتبياتر أوامر هركانوس ، الكاهن الأعلى ، بأن
مدوا الرومان بالمساعدة والمؤونة (٢) . وبعد أن بلغ منف سار شمالا
و الفرع الكانوبي حتى بلغ مكانا على مقربة من بحيرة مريوط
(Mareotis) . وعندما نهى إلى بطليموس نبأ وصول مشراداتيس ،
رأسل جافا من قواته لوقف تقدمه ، وزحف هو مع بقية جيشه جنوبا
بمحاذاة الفرع الكانوبي ليقضى عليه قبل أن يتمكن من الاتصال
بغيره . وكان الأخير قد بلغه خبر وصول الامدادات ، فأقلع بسفنه
نريدا لتضليل العدو ، ثم قفل راجعا الى الغرب فجأة حيث أنزل قواته
على رأس على الساحل تعرف باسم «خرسونيسوس» أى شبه الجزيرة
(هي الدخيلة) ، وبعدئذ دار حول الشاطئ الجنوبي لبحيرة مريوط ،
أخفا بسرعة ليتصل بجيش مشراداتيس الذي تخرج مركزه (٣) .

(١) وهي بل اليهودية قرب شبين القناطر .

(٢) من الجائز ان هركانوس نفسه كان يرافق مشراداتيس في حملته : انظر :
P. Graindor, La Guerre d'Alexandrie, p. 135, n. 3.

(٣) هذه الرأس التي كانت تقع وتنتدعت أقصى الطرف الغربي لبحيرة مريوط كانت
ترب النقطة الى فرع النيل الكانوبي ، ولم تكن بحيرة مريوط تمتد قديما الى الغرب
منها بمتد اليوم .

كان الملك البطلمي قد رابط فوق ربوة مرتفعة ووزع قواته توزيعا ملائما . فكان الفرع الكانوبي — حيث احتشدت كثير من سفنه — يحمي جانبا من موقعه ، والمستنقعات تحمي جانبا آخر بينما كان الارتفاع نفسه يقي الجانب الثالث الذي ضرب فيه معسكره ، وأما الجانب الرابع فكان مكشوبا غير عسير المنال . ولذلك وضع فيه صفوة جنوده . وأقام الملك حصنا في قرية متاخمة لمعسكره . وفضلا عن ذلك فإن قناة أو فرعا صغيرا من فروع النيل كان يفصل بينه وبين موقع الرومان . ومع هذا فقد تمكن الفرسان الجرمان في جيش قيصر من عبور هذه القناة ، وسرعان ما لحق بهم جنود الفرق الذين عبروا القناة فوق قنطرة بنوها من جذوع أشجار النخيل . ودحرت القوات الرومانية طلائع الجيش البطلمي وردتها على أعقابها ، وإن كان معسكر الملك قد صمد أمام المهاجمين . وحدث عندئذ أن تدفقت القوات البطلمية المرابطة في المؤخرة بأعلى الربوة الى الامام لتشد من أزر مقدمة الجيش التي تعرضت للخطر . غير أن ذلك كشف المؤخرة وأضعفها . واكتشف قيصر بسرعة نقطة الضعف وهو في مكانه المطل على ساحة المعركة ، فأرسل كارفولينوس (Carfulenus) وهو ، أحد ضباطه "الأكفاء" ، على رأس ثلاث كتائب ، لمهاجمة هذه الثغرة . وقام كارفولينوس بواجبه خير قيام ، وأثار هجومه المفاجيء ذعرا شديدا بين صفوف جنود بطليموس فلولوا هارين . وتدفق الجنود الرومان من كل جانب ، وطاردوا أعداءهم الذين هدموا استحكاماتهم المجاورة للنهر لكي يبلغوا السفن الراسية فيه وينجو بحياتهم . وقد قتل بعضهم أثناء الفرار ، وغرق البعض الآخر . وكان الملك الصغير نفسه بين الهالكين^(١) . واستسلم

(١) مات (بطليميوس الثالث عشر) قبل ١٥ يناير ٤٧ ، وهو في سن ١٦ (إذ ولد في ٦٣) بينما ولدت كليوبطرة في عام ٦٩ . وأما أخوها الآخر (ص ٢٧١) فقد ولد في عام ٥٩ .

الاسكندريون قيصر في ١٥ يناير من عام ٤٧ ق وفقا « لتقويم يوليوس ^(١) » .

وعاد يوليوس قيصر الى الاسكندرية عودة الظافرين فخرج اليه مواطنوها حاملين تماثيل آلهتهم لتشفع لهم عنده . وقد صفح عنهم بما عهد فيه من تسامح ورافة (clementia) . وحمل الى كليوبطرة نبأ موت أخيها ، وأرسل أختها الغنيمة أرسينوى الى روما لتلقى جزاء عداوتها للرومان . وعمل على تنفيذ وصية «الزمار» فتزوجت كليوبطرة : بباخ آخر أصغر سنا ، وهو بطليموس الرابع عشر ، وارتقت العرش معه حفاظا على تقاليد الأسرة البطلمية . وليس من المستبعد أن الدكاتور قد حصل باسم « الائتلاف الثلاثي » بقية الدين الذي كان في عنق الملك الراحل ، ومن الجائز أيضا أنه منح بعض الامتيازات للجالية اليهودية بالمدينة ، وان كان من العسير تحديدها أو معرفة طبيعتها . ولم تجد كليوبطرة أى صعوبة في اقناع قيصر بالبقاء الى جانبها في مصر بعض الوقت ، ولعله رافقها في رحلة نيلية الى مصر العليا ^(٢) . ولم يشأ أن يعلن مصر ولاية رومانية لأنه خشى أنه اذا أقام واليا رومانيا على بلد غنى مثل مصر فان هذا الوالى قد يدفعه الطموح الى الاستقلال بها والتمرد عليه ^(٣) . ولذلك آثر أن يدع السلطة في يد كليوبطرة الموالية

(١) أو ١٢ يناير أو ٦ فبراير وفقا لآراء بعض الباحثين : ويقابل ١٥ يناير يوم ٢٦ مارس في التقويم الروماني القديم قبل اصلاحه على يد يوليوس قيصر في سنة ٤٦ ق م.
انظر :

T. C. Skeat, *The Reigns of the Ptolemies* (Münchener Beiträge zur Papyrusforschung, Heft 39), 1954, p. 41 & n. 18.

(٢) راجع :

Suetonius, *Div. Iul.* 35, 1: veritus provinciam facere, ne quandoque violentiorem praesidem nacta novarum rerum materia esset.

عاشرها قيصر - دون زواج - وانجبت منه - بعد رحيله عن مصر في اثناء صيف عام ٤٧ ، ابنا اسمه بطليموس قيصر الذي لقبه الاسكندريون " قيصرون " C.AESARION

له ، تاركاً وراءه محامية من ثلاث فرق رومانية لتدعيم مركزها (١) . وقد غادر قيصر مصر بحراً مع الفرقة السادسة في مايو أو يونيو من عام ٤٧ (٢) .

الحملة في آسيا الصغرى : زيلاً

كان الموقف العسكري قد تخرج في آسيا الصغرى حيث ظهر عدو جديد اذ استغل فرناكيس الثاني ، ابن مثراداتيس الأكبر ، فرصة الحرب الأهلية ، وزحف من القرم (Crimea) وغزا كبادوكيا وأرمينيا الصغرى ، ثم انسحب من المنطقة الأولى ولكنه رفض الجلاء عن الثانية . وقد أنزل عند نيقوبوليس بأرمينيا في أوائل عام ٤٧ الهزيمة بدوميتيوس كالثينوس الذي تضاءلت قواته بعد إرساله فرقتين من جيشه لنجدة قيصر في الاسكندرية . وأسكرته خمر الانتصار فاجتاح بنطوس واستولى على مدنها الواحدة تلو الأخرى ، ونهب أراضيها ونكل بالأسرى الرومان تنكيلاً رهيباً . وبلغ قيصر بطولميسن آكي Ptolemais Ace (عكا) على ساحل فينيقيا ، ولحقت به قوات مثراداتيس البرجامي والفرقة الثانية التي كان كالثينوس قد أرسلها

(١) هذه الفرق هي السابعة والعشرون والسابعة والثلاثون وفرقة مجهولة الاسم لفل قيصر كونها من جنود جابينيوس الذين أسرههم وغيرهم من الأسرى ، وأعطاهم رقم التاسعة والثلاثين (راجع p. 164 Graindor, op. cit.) وقد وضعها كلها تحت قيادة روفيو (Rufio) أو روفينوس (Rufinus) وهو ابن أحد عتقائه كما ورد عند سوبتونيوس (Div. Iul. 76) .

(٢) وصل قيصر الاسكندرية في أوائل أكتوبر من عام ٤٨ وغادرها في عام ٤٧ . لكننا لا نعرف في أي شهر على وجه الدقة . ويقول ابيانوس في « الحرب الأهلية » (II, 90) أنه مكث بمصر تسعة أشهر . ولما كانت الحرب قد استغرقت ستة أشهر ، فإنه يكون لمكث مع كليوبطرة ثلاثة أشهر ، وتؤكد مصر نهائياً في يونيو من عام ٤٧ (انظر ، جرانثور ، ص ١٦٢) غير أن الاستاذ لورد يرى أن أفراد كليوبطرة لم يصرفه عن واجباته هذه القلة الطويلة ، ويرجح أن قيصر غادر مصر في تاريخ يقع بين ١٥ أبريل ، ٥ مايو على الأكثر انظر مقاله بعنوان :

L. E. Lord, "The Date of Julius Caesar's Departure from Alexandria," JRS 28 (1938), 19-38.

(٣) الاسم القديم لشبه جزيرة القيم هو شبه الجزيرة التاورية "Chersonesus Taurica"

اليه ولكنها استقرت بـسوريا . وهناك كافأ قيصر اليهود على ولائهم
فألنى تنظيمات جاينينوس وأعاد أورشليم الى سابق مركزها ، واعترف
بهركانوس كاهنا أعلى ، وترك ادارة بلاد يهوذا في يد أتتياتر . كما
سمح بإعادة بناء أسوار المدينة المقدسة ، وأعاد ميناء يافا (Ioppa)
 لليهود ، وأعفاهم من عبء ايواء القوات الرومانية في الشتاء ، وأعفاهم
كذلك اعفاء مؤقتا من لطة الجزية . ومع أن هذه التنظيمات أحلت
على السناقو ليقرها بصفة رسمية ، وعدلها قيصر نفسه فيما بعد ،
فقد وضعت في الحال موضع التنفيذ ، وأكسبته رضاء يهود الشتات
(Diaspora) الذين كانوا ما يزالون يهتمون بمصير وطنهم الأصلي .

وانتقل قيصر بعد ذلك الى أنطاكية حيث أتم تنظيم شئون سوريا
وعهد بالولاية الى أحد ضباطه . ثم أبحر من سلوقية إلى طرس
(Tarsus) حيث استقبل سفراء مدن كيليكيا . ووقد عليه كاسيوس
(C. Cassius) فصنع عنه . وبعدئذ زحف بسرعة على رأس الفرقة
السادسة الى الشمال ، وبلغ حدود پنطوس حيث التقى بالفرقة السادسة
والثلاثين وفرقة كالثينوس وغيرهما من قوات المشاة والفرسان التي
أمدّه بها ديوطاروس ، أمير جلاتيا . وأما فرناكيس فقد تنازعه عاملان :
الرغبة من خصمه والرغبة في الاحتفاظ بما كسبه . لذلك أرسل الى
القائد الروماني سفراء اما للتفاوض أو لكسب الوقت . وأشار قيصر
بالاستسلام ودفع التعويضات حتى يعفو عنه ، موها اياه بأنه أكثر
رغبة في الرحيل عن آسيا الصغرى الى ايطاليا منه في القضاء عليه . غير
أن فرناكيس ازداد ثقة بنفسه ودهائه فربط عند زيلا (Zela) في اقليم
ينطوس وتأهب للقتال . ودنا قيصر من فريسته واستطاع بحركة خاطفة
تحت جنح الظلام أن يحضر فرقة الى مكان لا يبعد سوى ميل واحد
عن موقع خصمه . وحسب فرناكيس أن اللحظة مواتية لمهاجمة الرومان ،
فحمل عليهم بعجلاته الحربية قبل أن ينظموا صفوفهم . غير أنهم ردوه

بحراهم الثقيلة على أعقابهم ، ولم يلبثوا أن اهضوا على مشاته ، واخترقت الفرقة السادسة خطوط جيشه فشاع فيه الاضطراب وتقهقر دون نظام . واجتاح الرومان معسكره فلاذ بالفرار ناجيا بحياته . ولم تستغرق معركة زيلا التي دارت في أوائل أغسطس سوى خمسة أيام كتب بعدها قيصر الى أحد أصدقائه في روما رسالته المشهورة أو - ان جاز التعبير - برقيته المقتضية التي يقول فيها « أتيت ورأيت وانتصرت *veni, vidi, vici* »^(١) . وشرع في إعادة تنظيم شئون آسيا الصغرى فأقر ديوطاروس على عرش جلاتيا وان كان قد حمل على التنازل عن الجانب الشرقى من مملكته لمثراداتيس البرجامى ، وعن حقه في أرمينيا الصغرى لأريوبرزانيس ، ملك كبادوكيا^(٢) . وترك لدوميتيوس كالفينوس استكمال تنظيم شئون ولاية آسيا ، ثم عهد بالفرقة السادسة وفرقة بنطوس لأحد مساعديه (*legatus*) وجمع الغرامات من المدن المقهورة على وجه السرعة ، ثم أبحر في نهاية أغسطس من عام ٤٧ عائدا الى ايطاليا .

ولما عاد قيصر الى روما وجد أنه قد عين بعد معركة فرسالوس أى

(١) كان من بين الاشياء المعروضة في موكب انتصار قيصر على فوناكيس ملك بنطوس عام ٤٥ نقش يحمل هذه الكلمات التي ترمز الى سرعة انهائه تلك الحرب ، راجع : Suetonius, Div. Iul. XXXVII, 2 .

(٢) ورد في خطبة القاها شيشرون دفاعا عن الملك ديوطاروس (*pro rege Deiotaro*) (١٥ ff. ٧) أنه تأمر على حياة قيصر . ولا سبيل الى التحقق من هذه الرواية . وقد اتهم في عام ٥٠ بالتمرد على قيصر فتولى شيشرون الدفاع عنه نظرا للصداف التي نشأت بينه وبين ابن ديوطاروس أثناء مدحك الخطيب الكبير في بليكيا . وبعد مصرع قيصر اسنرد ديوطاروس ممتلكاته .. وقد انتحاز في معركة فيليبى (*Philippi*) عام ٤٢ الى جانب بروتوس وكاسيوس ، ولكنه تغلب عليهما فجأة وانضم الى ماركوس انطونيوس في الوقت الاكبر ، وبذلك احتفظ بمملكته . وعند ما ظهر له منافس تخلص منه وسيطر على كل جلاتيا . وتوفي في عام ٤٢ . وكان ديوطاروس قد درب مشاهه وفدا لاساليب القتال الرومانية. وبعد ان اصبح حاكم ولاية رومانية في عام ٢٠ ق م . كانت إحدى الفرق الرومانية الثلاث التي تركها أغسطس في البلاد تحمل اسم فرقة ديوطاروس الثانية والعشرين (*legio XXII Deiotariana*) .

منذ أواخر أكتوبر عام ٤٨ دكتاتورا لعام ٤٧ مرة ثانية (١) ، وأن
ماركوس أنطونيوس قد نصب منذ ديسمبر رئيسا للفرسان (magister
equitum) أى مساعدا له استجابة لرغبته . وكان بعض النبلاء
الشبان من حزب قيصر ممن تراكت عليهم الديون قد أثاروا
الاضطرابات في المدينة عام ٤٨ بسبب ما كانوا يعانونه من ضيق
اقتصادي ناجم عن الحرب . وكان قيصر - كما أشرنا - (٢) قد حاول
تخفيف وطأته في عام ٤٩ بإصدار منشور يقضى بتحويل المدينين
تأديئة ديونهم بالعقارات المنقولة وغير المنقولة مقومة بأسعارها قبل
الحرب مع خصم الفوائد التي كانوا دفعوها من أصل الدين (٣) .
وقد تزعم هذه الحركة البريتور كاليبوس (Caelius Rufus) الذي
حاول رغم معارضة زملائه أن يستصدر قوانين يوقف استحقاق
الفوائد والايجارات والديون ، فنحاه القنصل سرقيليوس عن منصبه ،
ثم لقي حتفه عندما حاول أن يثير الفتنة في جنوب إيطاليا بمعاونة ميلو
الذي عاد من المنفى . وتزعم الحركة من بعده دولابلا (P. Dolabella)
أحد قباء العامة ، وصهر شيشرون ، الذي حاول هو الآخر أن
يستصدر قانونا في أوائل عام ٤٧ بالغاء الديون (novae tabulae)
وتخفيض ايجارات المساكن . ولقى ماركوس أنطونيوس عناء كبيرا في
حفظ النظام بالمدينة بل وجد نفسه عاجزا وحده عن معالجة الموقف .

(١) راجع ص ٢٦١ . وعن المرة الاولى ، راجع ص ٢٤٧ .

(٢) راجع ما سبق في ص ٢٤٧ .

(٣) Caesar, Bell. Civ. III, 1 : cum fides tota Italia esset
angustior neque creditae pecuniae solverentur, constituit, ut
arbitri darentur; per eos fierent aestimationes possessionum et
rerum; quanti quaeque earum ante bellum fuisset, atque hae
creditoribus traderentur. Cf. also Suetonius, Div. Iul. XLII, 2 :
decrevit tandem, ut debitores creditoribus satis facerent per
aestimationem possessionum, quanti quasque ante civile bellum
comparassent, deducto summae aeris alieni, si quid usurae nomine
numeratum aut perscriptum fuisset; qua condicione quarta pars
fere crediti deperibat.

فلما بلغ قيصر العاصمة في سبتمبر عام ٤٧ اتخذ من الاجراءات العاجلة ما قضى به على الفوضى وأعاد الأمن الى نصابه ، اذ أصدر قرارا بوقف سريان الفوائد منذ بداية الحرب الأهلية الأخيرة (١) وباعفاء المستأجرين في روما من دفع ايجار عن مدة عام يجد أقصى قدره ٥٠٠ دينار ، وفي ايطاليا بعد أقصى قدره ١٢٥ دينارا (٢) . ولم يلبث أن واجه حركة تمرد خطيرة بين جنود الفرقة العاشرة التي كان قد أعادها الى ايطاليا بعد معركة فرسالوس . فقد أخذ هؤلاء الجنود المعتزون بخدمتهم الممتازة يطالبون بتسريحهم بسرعة ومنحهم ما يستحقونه من مكافآت مالية وقطع زراعية . وسرعان ما زحفوا من كميانيا الى روما لتنفيذ مطالبهم بالقوة . وأدركهم قيصر عند ساحة مارس في الوقت المناسب وواجه حشودهم بجراته البالغة منددا بعصيانهم الذي لا يليق بالعسكريين (٣) . واذا كان - كما يشهد شيشرون - خطيبا مفوها فانه لم يجد عناء في ردهم الى صوابهم واسترداد ولائهم .

الحملة الافريقية : ثابوس

كان جيش پومبي قد تشتت بعد هزيمته في فرسالوس ، ولكن تباطؤ قيصر في حقه بالشرق أتاح لرجال الحزب الارستقراطي وقتا كافيا ليحشدوا فلوله من جديد . وقد تجمعت لديهم حوالي عشر فرق وعدد

(١) Caesar, *Bell. Civ.* III. 20 : *legem promulgavit, ut sexenni die sine usuris creditae pecuniae solvantur.*

(٢) Cf. also Suetonius, *Div. Iul.* XXXVIII, 2 : *annuam etiam habitationem Romae usque ad bina milia nummum, in Italia non ultra quingenos sestertios remisit.*

(٣) خاطب قيصر هؤلاء الجنود باسم *Quirites* ، وهي كلمة مجهولة الاشتقاق كانت تعني قديما المواطنين الرومان بوجه عام (كما في عبارة *populus Romanus* *Quiritium*) ولكنها صارت تعني المدنيين فقط . وفي ذلك تعريض بهم وتوبيخ لهم لانهم في نظره أصبحوا بتمردهم غير جديرين بالزى العسكري ؛

Cf. Suetonius, *Div. Iul.* I.XX.

كبير من وحدات الفرسان في ولاية افريقيا . وكان كوريو ، قبيب العامة في عام ٥٠ الذي التحق بجيش قيصر ، قد غزا هذه الولاية في عام ٤٩ ؛ بفرقتين من الفرق الأربع التي أسندت قيادتها اليه ، لكنه لم يلبث أن هزم ولقى مصرعه على يد أنصار پومپي . وشرع هؤلاء في غزو ايطاليا من الساحل الافريقي .

وعندما شعر قيصر بخطورة الموقف جازف رغم العواصف الشتوية بنقل قواته الى شمال افريقيا حيث استطاع أن ينزل جانبا من هذه القوات بالقرب من بلدة لپتيس الصغرى (Leptis Minor) ^(١) وبات ينتظر وصول بقية جيشه عام ٤٦ . وتمكن ميتيلوس سكيبو (ناسيكا) ، حمو پومپي ، الذي أسندت اليه قيادة جيش السناتو ، من تعويق زحفه بمعاونة أربع فرق أمده بها جوبا (Juba) ، ملك نوميديا ؛ كما استطاع لاينوس ، زميله القديم في معارك غالة والذي اثنى عليه غداة قيام الحرب الأهلية ، أن يضيق عليه الخناق بالقرب من بلدة رومسپينا (Ruspina) . وظل مركز قيصر متحرجا فترة من الزمن ولكنه استطاع بالرغم من ضآلة قواته وتفوق العدو في سلاح الفرسان، أن يخرج من مأزقه دون أن يتكبد خسائر كبيرة ، ولم يلبث أن تحصن في التلال المتاخمة . وكان من حسن حظه أن انضمت اليه قوات بوجود (Bogud) ، ملك موريتانيا ، وقوات ستيوس (P. Sittius) ، وهو ضابط مغامر كان من قبل أحد أنصار كتيлина . وأخيرا لحقت به بقية فرقه فشرع يستدرج العدو الى معركة فاصلة . وسرعان ما تهيأت له الفرصة ، اذ تقدم عبر برزخ ضيق لمحاصرة بلدة ثابسوس (Thapsus) التي تقع على ساحل ولاية افريقيا الشرقية جنوب لپتيس الصغرى، فبادر سكيبو الى نجدها وحشد قواته في مؤخرة جيش قيصر حتى يقطع عليه طريق الانسحاب . وعندئذ استدار قيصر فجأة - وقد استند جناحا جيشه الى البحر - وشن هجوما خاطفا على حشود العدو التي

(وتقع على الساحل الشرقي لجمهورية تونس جنوبى سوسة وللاسسم صورة اخرى هي : " Lepcis Minor ")

انحصرت في قطاع ضيق لا يسمح باستخدام فصائل الفرسان . فلما حدث الالتحام تشتت جيش السناتو ولاذ فرسان نوميديا بالفرار . وطارد قيصر أعداءه بلا هوادة واقتض جنوده عليهم يفتكون بهم دون رحمة . لقد سئموا طول القتال ولم يفلح قائدهم نفسه في كبح جماحهم وانجلت المعركة الرهيبة عن مقتل حوالي ٥٠٠٠٠ روماني ومصرع كبار قواد الحزب الارستقراطي ما عدا لاينوس وابني پومبي ، جنايوس وسكستوس ، الذين فجوا من المذبحة ، وأما كاتو الذي أنيط به الدفاع عن بلدة أوتيكا (Utica) فلم يشأ أن يرغم سكانها الموالين لقيصر على المقاومة بل انه حماهم من انتقام حنود حزبه الهاربين من وجه الجيش المنتصر ، وآثر هو أن ينتحر على أن يقع في يد ألد خصومه (١) .

نهاية كاتو والجمهورية :

لقد كانت الحرب الافريقية (Bellum Africum) آخر صراع خاضه الجمهوريون ضد يوليوس قيصر لأن الحرب التالية التي دارت رحاها في أسبانيا لم تكن في حقيقة الأمر سوى صراع بين قيصر من ناحية وبين لاينوس وابني پومبي من ناحية أخرى . ولم يكن لكاتو مكان في حزب پومبي ، ولا كان في وسعه أن ينكص على عقبيه . لقد قاتل دفاعا عن الجمهورية ، فلما رآها تحتضر على يد قيصر آثر أن يموت معها . وقد أضفى عليه انتحاره هالة من المجد وجعل منه بطلا في نظر الأجيال التالية ، وشهيدا في نظر الفلاسفة الرواقيين تجسدت فيه فكرة الجمهورية . ومن حق القارئ أن يسأل ما هي فكرة هذا الرجل عن الجمهورية ؟ لقد كانت الجمهورية (res publica)

(١) ومن ثم جاءت تسميته بكاتو الأوتيكي (Cato Uticensis) تمييزا له عن سلفه كاتو الرقيب (Cato Censorius) راجع ص ١٦٧ هامش ١ . ومن مشهد انتحار كاتو الأوتيكي، راجع بلوتارخوس ، سيرة كاتو الأصغر ، ٦٦ - ٧٢ .
وتقع أوتيكا (= أوتيكا الحالية) على بعد حوالي ٣٠ ميلا إلى الغرب من قرطاجنة قرب الساحل الشمالي لتونس .

— كما يتضح من اللفظ اللاتيني — شيئا عاما يمتلكه الشعب (res populi) ، أى دولة تقع مسؤولية حكمها على عاتق الشعب ، على الأقل من الناحية النظرية . غير أن الشعب الذى كان له وزن فى نظر كاتو لم يكن سوى جمهور طبقته ، أى جمهور طبقة النبلاء الوراثية : (nobiles) التى كان أفرادها يوصفهم حكاما أو أعضاء فى مجلس الشيوخ ، يمثلون الشعب . وقد انتحر كاتو لأن الحكم أصبح عندئذ مسؤولية رجل واحد أى أصبحت الدولة شيئا فى حيازة فرد واحد (res unius) وكأنها ملكية خاصة . وقد عرض كاتو آراءه فى المسؤولية العامة فى خطب كثيرة ألقاها فى مناسبات عديدة ، لكنها ضاعت كلها تقريبا . ولعل الخطبة الوحيدة التى وصلتنا صورة منها هى تلك الخطبة التى ألقاها فى مجلس الشيوخ أثناء مناقشة مصير المعتقلين من أنصار كتيلىنا وقتلها اليينا المؤرخ سلوستيوس (١) . غير أن شيشرون يمدنا أيضا بمعلومات وفيرة عن كاتو وخطبه . ومنها نعلم أن آراءه فى اصلاح شئون روما تشبه آراء شيشرون الواردة فى كتابى « الجمهورية » و « القوانين » ، ومؤداها العودة الى الدستور الذى كان قائما قبل أيام الأخوين جراكوس عندما كان رجال على شاكلة سلفه كاتو « الرقيب » يديرون دفة الحكم وفقا لمبادئ أخلاقية منقولة عن الفلسفة الرواقية التى تعلمها من أساتذته الاغريق . وكان كاتو الأوتيكي كثير الحديث عن المعانى الخلقية الباردة كالإقدام والمثابرة والصرامة والنزاهة وضبط النفس . ولم يكن غافلا عن مشكلات زمانه ، فكان أعمق فهما من أقرانه الارستقراطيين لمسئوليات روما بعد أن غدت امبراطورية وأكثر منهم دراية بأثر الامبراطورية فى انحلال المواطنين (٢) . كان يرى أن لروما رسالة فحواها نشر

(١) Bellum Catilinae, 52 راجع أيضا ما تقدم فى ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(٢) عن موقف كاتو من مشكلات الامبراطورية ، راجع :
M. Gelzer, "Cato Uticensis." Die Antike, X (1934), pp. 59-91.

السلام في ربوع العالم والسيطرة عليه . غير أنه كان يصر على أن تكون هذه السيطرة متسمة بطابع العدالة والاعتدال في معاملة الحلفاء والشعوب المقهورة . ولم يحدث أن أدلى بصوته في السناتو موافقا على اقامة موكب انتصار لأحد الا بعد فحص أعماله والتحقق من أن القائد المشر قد سلك مع الأعداء سلوكا ينم عن الانصاف والنزاهة (١) . وقد عرف عن كاتو أنه كان طوال حياته رجلا نزيها جريئا لا يخشى في الحق لومة لائم . ولم يحدث - فيما يروى - أن خالف ضميره سوى مرة واحدة عندما وافق على رشوة الناخبين لمساعدة صهره بيبيلوس على الفوز بالقنصلية عام ٥٩ (٢) . لكن لعله ثم يكن مثالي الخلق كما صوروه المعجبون به بعد مماته . فقد وافق أيضا على اقامة صلوات شكرا للآلهة (supplicatio) . بمناسبة انتصار صغير أحرزه بيبيلوس ، بينما أنكر هذا الشرف على قواد آخرين أحرزوا انتصارات كبيرة . لقد كان لا يمتحج اذ أن ينحرف عن مبادئه من أجل أفراد أسرته . وكان كاتو عنيدا . ومع هذا فقد أسلس قياده مرة لقيصر وكلوديوس واشترك معهما في انتهاك الدستور ، بل انه كان على استعداد لأن يسلم ببعض مطالب قيصر حتى في عام ٤٩ . ولا مراء في أن جانبا من تبعة الهزيمة في ثابوسوس يقع على عاتقه لأنه أصر على اسناد القيادة الى اسكيبيو بوصفه صاحب أعلى منصب رسمي بذلا من اسنادها الى لاينوس ، وهو أكفأ ضابط في الجيش . ولا ينبغي أن ننسى أنه كان ضيق الأفق صلف الطبع شديد الاعتداد بنفسه . واذا كان الرواقيون قد خلدوا ذكراه لأنه كفر - في رأيهم - عن كل سيئاته بإثاره الانتحار على الاستسلام لقيصر ، فانه في رأى كثير من المحدثين لم ينتحر الا بدافع الصلف والعناد ، وكلاهما لا يسوغ احراز المجد أو الاندراج في سجل العظماء .

Cicero, ad Fam. XV, 3-6. (١)

Suetonius, Div. Iul. XIX, 1. (٢)

راجع ايضا ص ١٧٢ - ١٧٣ .

ومع هذا فقد كان كاتو وجلا عظيما ووطنيا غيورا في عصر انتشر فيه الفساد ودب الانحلال . ولم يكن سياسيا كبيرا ، اذ أخفق في أن يقرن نفسه بالدولة أو بالأحرى أن يفتنى ذاته في الدولة ، وهو ما نسبته اليه المعجبون به . وناصب رجال المال والايطالين العداء دون وجه حق في بعض الأحيان . وكان واسع الحيلة في عرقلة المشروعات ومهدمها ، بينما كان يفتقر هو نفسه الى ملكة الابتكار والانشاء . وكانت صلابته ونزاهته عقبة كنودا في وجه الحزب الارستقراطي الذي كان هو أبرز أعضائه ، بل كان في حياته مصدر ضعف لهذا الحزب . ولم يكن غافلا — على نحو ما ذكرنا — عن مشكلات زمانه ، ولكنه لم يعرف كيف يواجه تلك المشكلات . لقد عاش سنواته الأخيرة بلا أمل تقريبا ، يأسا من الأوضاع السائدة . وقد لمس بنفسه أثار زلزاله النبلاء وجشعهم ، وفطن الى خطر التحالف مع يومي . ويحدثنا سينيكا (Seneca) الفيلسوف بأنه كان يترقب الموت في حالة انتصار قيصر والنفي الاختياري في حالة انتصار يومي (١) . ويرى أنه أبى أن يحلق لحيته وشعر رأسه أو أن يزين جبينه في المآدب بالكيل من الزهر حدادا على قيام الحرب الأهلية . ولعل القصة مختلفة كغيرها من القصص الكثيرة التي رويت عنه أثناء الحرب . ومع هذا فلا ريب أن كاتو خاض تلك الحرب بوعي الرجل الذي يدنو من نهايته في جمهورية تدنو من نهايتها .

وكان كاتو أعظم في ميقاته منه في حياته . لقد أحدث انتحاره في نفوس الارستقراطيين أثرا أعمق مما أحدثه انتصار قيصر . واذ كان الدكاتور قد صفح عن كثيرين من رجال تلك الطبقة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فكفل لهم قسطا من الحرية للتعبير عن آرائهم ، لئلا يأخذ بعضهم يتكلم عن الجمهورية ويكتب عن دستورها في الماضي عندما

كانت مسئولية الحكم في يد الشعب . ولم تلبث روح كاتوالتي لم تقهر أن غدت رمزا للجمهورية والحرية . وكان شيشرون نفسه يعجب به في شهرته ويتمنى أن يوهب شجاعته ليموت ميتته . وقد كتب فيه مديحا استجابة لرغبة بروتوس . ولم يلبث هذا المديح أن صار نواة لأسطورة كاتو التي شقت طريقها الى عصر الامبراطورية . ويعتبر ضياع هذا الكتاب خسارة لا تعوض . ومن المرجح أن شيشرون عالج الموضوع بشيء من الحذر والتردد لأنه كان يعلم انه لو وفي كاتو حقه من الثناء لأثار غضب أنصار قيصر الذين كان الخطيب قد هادنهم حينئذ ، فهو يقول لصديقه أتيكوس في إحدى رسائله « لقد تنبأ (كاتو) بحدوث ما حدث ، وقاتل ليحول دون حدوثه ، ومات حتى لا يرى تحققه بعينه » (١) . ولم يكن شيشرون وحده هو الذي كتب مديحا في كاتو فقد امتدحه أيضا بروتوس وأقطاب آخرون .

غير أن كتاب شيشرون عن كاتو هو الذي حفز قيصر على أن يكتب وهو ما يزال في حملته الأخيرة في أسبانيا رسالة بعنوان « ضد كاتو (Anticato) » يرد فيها عليه . ولعل ما حفزه أيضا شعوره بصحة الاتهامات التي وجهها اليه كاتو . وقد كان يكرهه منذ سنوات طويلة حتى لم يعد في وسعه أن يفتخر له أعماله أو أن ينظر اليها بعين التسامح التي نظر بها الى أعمال خصومه الآخرين . وقد ضاعت رسالة قيصر التي هاجم فيها كاتو ، غير أن موقفه منه يتضح من « مذكراته عن الحرب الأهلية » حيث يعلل معارضة كاتو بعداوته الشخصية القديمة له وحقده عليه بسبب هزيمته في انتخابات القنصلية عام ٥١ (٢) . وقد

(١) ad Att. XII, 4, 2 : quod ille ea, quae nunc sunt, et futura viderit, et, ne fierent, contenderit, et, facta ne videret, vitam reliquerit.

(٢) Caesar, Bell. Civ. 1, 4 : Catonem veteres inimicitiae Caesaris incitant et dolor repulsae.

صينغ « هجاء كاتو » في أسلوب خطابي ، وروج كالمشورات السياسية عند الرومان ، في شكل دعوى قضائية . هكذا نرى قيصر نفسه الذي أقسم كاتو أثناء حياته ان يقدمه للمحاكمة ، يوجه الاتهام لعدوه بعد مماته . ولا نعرف شيئا عن طبيعة التهمة التي كالهها قيصر له . لعلها كانت تهمة الخيانة العظمى (maiestas) أى الخيانة والضرر بالدولة ، وهى جريمة يبدو أن كاتو كان قد توعد بان يتهم بها خصمه . وكان قيصر يبتغى من رسالته استرضاء شيشرون الذى حظى فنه الأدبي بأعظم الثناء من معاصريه ، واثبات زيف مثالية كاتو التي بدأت حينئذ تتجسم في أذهان الجمهوريين . وقد انتهج فيها - على ما يبدو - أسلوب الخطابة الهجائية المقنعة فتناول حياة كاتو الخاصة ، ولا سيما ادمانه الخمر . ولم ينكر أصدقاء كاتو الذين اعتاد أن يقضى معهم أمسياته في السر والحوار الفلسفى أنه كان مغرما بالنبيذ . غير أن قيصر صورته في شكل مسكير لا يشقى من الشراب . ولعله وماه كذلك بالجشع الذى من أجله طلق كاتو زوجته لكى تزوج هورتنسيوس الثرى ، ومن أجله أعادها الى عصمته بعد أن أصبحت أرملًا ثرية . وليس من المستبعد أن يكون قد ألصق به أيضا تهما أخلاقية فاضحة . غير أن جميع هذه التهم الباطلة التي ابتغى بها قيصر امتهان ذكرى كاتو وتشويه سمعته والخط من شأنه أتت بعكس المقصود منها فزادت من شهرته وأسهمت في اذكاء الروح الجمهورية في روما . وأذكتها أيضا سياسة قيصر نفسها التي سلكها في الأشهر الستة الأخيرة من حياته بعد عودته ظافرا من أسبانيا . وانتهت - كما سنرى بعد قليل - سطر القضاء على الدستور القديم وسقوط الجمهورية .

(١) ولم يكن في وسع أغسطس ، بعد أن آلت اليه مقاليد الأمور ، أن يتجاهل مشاعر الجمهوريين فأعاد تكوين السناتو كأنه باعث الجمهورية ، وملا كثيرا من مقاعد ذلك المجلس بأعضاء من أبناء الأسر الارستقراطية (١) أغسطس (= صاحب الفخامة او صاحب الجلالة) هو لقب سبب اكتسبها نوس (منذ ٢٧ ق م) مؤسس نظام الحكم الامبراطورى .

الذين رتب لهم اعباءات مالية مستديمة . ومع أن كثيرين منهم كانوا أبناء أقطاب لقوا حتفهم في حركة الاغتيالات التي دبرها هو نفسه ، فإن معظمهم ارتضوا حكمه وتفانوا في خدمته . وفي ظل هذا العاهل الذي زعم أنه أرجع الجمهورية أصبح كاتو - وهو رمز الجمهورية القديمة - بطلا في أعين النبلاء والشعراء ومؤرخي العهد الجديد . وبينما دوى صوت كاتو ورفع الى مصاف الآلهة بدأ الصمت يرين على ذكرى قيصر ، ذلك الطاغية الذي أطاح بالجمهورية. ونجد سللوستيوس حينئذ - أى بعد مقتل قيصر - يعدل عن رأيه في كاتو ولا يسبه كما فعل من قبل . لقد باعد الزمن بينه وبين معترك السياسة الذي خاضه كأحد أنصار قيصر ، فعاد بذاكرته الى الماضي واتضح له أن الزعماء القدامى في كلا الحزبين الارستقراطي (Optimates) والديمقراطي (Populares) كانوا يسعون بوجه عام الى تحقيق مطامعهم الشخصية في دولة استشرى فيها الفساد وأعوزها ذلك الطراز من الرجال الذين بنوا عظمة روما . لكنه يقرر أنه كان هناك على أيامه رجلان يتكافآن في الشهرة ويزان غيرهما في الفضائل : قيصر وكاتو . ويعتقد المؤرخ بينهما مقارنة طريفة فيشيد بسخاء قيصر (لاجتذاب الدماء) وحيويته الدافقة ورافته وسماحة طبعه وإثاره الغير على نفسه . غير أن الصورة التي يرسمها لكاتو أوقع في النفس وأطرف : فهو الرجل القويم الخلق المتقشف الزاهد في عَرْض الدنيا الذي لا يشاء أن يبدو فاضلا بل أن يكون فاضلا. وإذا كان قيصر ملاذا للبؤساء ، فإن كاتو كان للأشرار مسوط عذاب . وهو النزاهة والصرامة والحزم مجسدا . وما أشبه هذه الصورة بالصورة المثالية التي وردت في الأساطير . لقد انطمت في ذهنه صورة كاتو الحزبي (وقد كان كاتو رجلا حزبيا) والذي كان قد ندد بأخلاقه منذ سنوات مضت فهو لا يزعج به في معترك

السياسة الحزبية بل يجعله في منأى عن الأحزاب (١) .

ولتتبع تطور أسطورة كاتو عند كبار الكتاب اللاتين : فترجيل يتمثله مشرعا للخير في العالم الآخر ، وهوراثيوس يفسح له مكانا في موكب أبطال الجمهورية ، ويصفه بالرجل المستقيم الذى لا تليق قناته أمام تهديد الطاغية والذى استعصت روحه الأبية على من رضخت له الدنيا بأسرها (٢) . ويقول ليفيوس في فقرة من كتاب ضائع ان المدح لم يزد من شهرة كاتو ولا الذم قلل من شهرته (٣) . هذا بينما لا يشير فترجيل في ملحنته التى يمجّد فيها آل يوليوس الا اشارة عابرة الى الرجل الذى رفع صيت هذه العشيرة فوق غيرها من العشائر الشريفة ، بل ان هذا البيت الذى لم يتم قد يُشتم منه أن الشاعر يلوم قيصر على قيامه بالحرب ضد بلاده (٤) . ويتساءل ليفيوس عما اذا كان مولد قيصر نعمة أم قسمة على الدولة الرومانية (٥) . وفجد حديث الشعراء عنه لا يدور بوجه عام الا حول جسامته وزر المتآمرين الذين اغتالوه ، وصعبود روحه الى السماء وتحولها الى نجم - هو نجم يوليوس sidus Iulium - الذى يجلب الغضب لروما ويفسر بالبركات ابن قيصر ووريثه (أكتافيانوس) (٦) . وأما عن موقف أغسطس نفسه من كاتو فيتبين من قوله لرجل نهش ذكراه ان من يعارض التغيير فى الدولة

Sallustius, *Catiline*, 53-54; cf. T.R.S. Broughton, (١)

T.A.P.A. 67 (1936), pp. 34-46.

Aen. VIII, 670; *Od.* I, 12, lines 35-36; III, 3, lines 1-8; (٢)

II, 1, lines 23-24: et Cuncta Terrarum subacta praeter atrocem animum Catonis.

Hieronymus, in *Hoseam* 2, prol. (٣)

Aen. VI, 832; cf. R. Syme, *The Roman Revolution* (٤)

(1939), p. 317.

Apud Seneca, *Quest. Nat.* V, 18, 4. (٥)

(٦) تبني يوليوس قيصر فى وصيته اكتافيانوس (ابن بنت اخته) وبعد موته حمل اكتافيانوس اسم ابيه بالتبني مضافا اليه اسم اكتافيانوس ، ثم لقب أغسطس .

يعد مواطننا صالحا ورجلا فاضلا (١). وكان لدى أغسطس من الأسباب حينئذ ما يجعله يعارض التغيير في الدولة . غير أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأنه شعر في السنوات الأخيرة بالخطر على نظام الحكم الجديد من تمجيد كاتو ، حتى قيل إنه كتب في أواخر أيامه رسالة عارض بها رسالة بروتوس في مدحه (٢) . ولعل ما دفعه الى ذلك توالي المؤامرات لقلب نظام حكمه ، وبخاصة تلك المؤامرات التي تزعمها رجال من الأسر النبيلة القديمة . وكان أغسطس نفسه قد أحيا نفوذ تلك الأسر في أوائل عهده . لكن بمرور الزمن خبت في صدره الروح الجمهورية فكف عن سياسة احتضان أبناء البيوتات العريقة وبدأ يعهد بالقنصلية لرجال جدد . ولعله أدرك أن تقديس كاتو قد يؤدي الى قيام حزب مناوئ له من الجمهوريين المتعصبين ، وأنه ينبغي مكافحته قبل أن يستفعل خطره .

غير أن رأى الناس في كاتو وقصر كان قد تكوّن في السنوات الأولى من حكم أغسطس . ولم يطرأ على هذا الرأى تغيير كبير في الأجيال التالية . لقد كان النسيان نصيب قيصر في أغلب الأحيان ، ولعل الامبراطور نفسه - كما لاحظ بعض الباحثين - كان له يد في طمس ذكراه (٣) . ولم يكن قيصر بل أغسطس هو الذي تصدر قائمة الأباطرة الذين كان الناس يقسمون بهم عند الشهادة . وكان أغسطس لا قيصر هو الذي نسجت حوله أسطورة . وفي الوقت نفسه استمرت أسطورة كاتو في الازدهار . وحتى عندما أصبح إيمان « المواطن الأول » بالجمهورية سوريا زائفا في عهد نيرون كان من المشرف امتداح كاتو

Macrobius, II. 4. 18 : quisquis praesentem statum civitatis commutari non volet, et civis et vir bonus est.

Suetonius, Aug. I.XXXV, 1

L. R. Taylor, **Party Politics in the Age of Caesar**

(1949), p. 180.

(١)

(٢)

(٣)

أسوة بما فعله كتاب العصر الأغسطى . ولم يعد كاتو يمثل فقط فكرة الجمهورية والحرية بل أصبح أيضا نموذجا للفضيلة ومثلا أعلى عند الرواقين استرشد به كبار القوم وتطلعوا اليه في الأيام الحالكة من عصر أسرة يوليوس - كلوديوس . ولم يقف أثر كاتو عند هذا الحد . فقد أعانت سيرته الكثيرين على مقاومة الأباطرة الطغاة وملاقاة الموت على طريقته . وعندما غضب نيرون على سينيكا وأحس الفيلسوف بدنو أجله انشغل بالتفكير في موت كاتو ثم واجه الموت في شجاعة الرجل العظيم الذى اتخذ قدوة له (١) . وكان المثل الذى ضربه كاتو نبراسا لرومانى آخر ، لعله كان أعظم من سينيكا ، ألا وهو ثراسيا پايتوس (Thrasea Pactus) الذى يحدثنا تاكييتوس بأن قضاء نيرون عليه كان بمثابة القضاء على الفضيلة ذاتها (٢) . وقد كتب پايتوس ترجمة لحياة كاتو ، وهى المصدر الرئيسى الذى استقى منه پلوتارخوس مادته فى كتابة سيرة كاتو الرائعة .

غير أن لوكانوس (Lucanus) ، قريب سينيكا ، هو الذى صور فى ملحمة عن الحرب الأهلية (Pharsalia) ، شخصية كاتو الأسطورية التى أضفاها عليه موته النبيل ، وهى شخصية تناقض شخصية قيصر كل المناقضة . فبينما يمثل كاتو الفضيلة والحرية ، يمثل قيصر الرذيلة والطمعان (٣) ؛ « فهو أبو الوطن الحقيقى الجدير بأن تشاد له المعابد والذى لن تستغف روما أبداً من أن تقسم له بمين إلولاء » (٤) . ولم

(١) Cf. W. H. Alexander, "Cato of Utica in the Works of Seneca Philosophus," *Trans. Roy. Soc. of Canada*, 40 (1946), Sec. II, 59-74.

(٢) *Ann. XVI, 21: Nero virtutem ipsam excindere concupivit interfecto Thrasea Pactus...*

(٣) Cf. B. M. Marti, "The Meaning of the Pharsalia," *Ann. Jour. Philol.* LXVI (1945), 352-376.

(٤) *Pharsalia*, IX, 601-602.

راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٤٠ .

يكن لكاتو في عصر الامبراطورية حزب بالمعنى الصحيح لأن قيام مثل هذا الحزب كان أمرا مستحيلا . غير أن كاتو كانت له عبادة (sanctus Cato) يمارس النبلاء وأعضاء السناتو شعائرها في بيوتهم . وكان هؤلاء يحملون أسماء غريبة لم يكن ليعرفها لو أنه بعث حيا . وقد أصبحوا نبلاء بعد أن تقلدوا مناصب عامة سامية بفضل سياسة قيصر وخلفائه الذين أدخلوا أيضا في السناتو أعضاء من ايطاليا والولايات . هؤلاء النبلاء الجدد كانوا يتطلعون الى « عصر كاتو » حين كان انحكام الرومان وذوو المرتبة القنصلية يتمتعون بوصفهم ممثلين للجمهورية بنفوذ وهيبة (١) . وقد مجدوا ذكره لأنه أثر أن يسوت على أن يشهد بعينه انهيار ذلك النفوذ وضياع تلك الهيبة . وقد رأينا كيف ألهمت سيرته رجلا مثل ثراسيا پاتوس - وهو من أفضل النبلاء - أن يهتز بكرامته ويتشبث بحريته في زمن تفتت فيه الذلة والخنوع ، فلما حان أجله ، أعاقته على ملاقة الموت بشجاعة منقطعة النظر (٢) .

الحملة الأسبانية الأخيرة : موندرا

وبعد أن فرغ قيصر من تنظيم شئون ولاية افريقيا عاد الى روما في صيف عام ٤٦ ، وأقيم له موكب نصر (triumphus) بالغ الفخامة ، لم تشهد العاصمة مثيلا له من قبل ، ولم يشر فيه الى انتصاره على الرومان من بنى جلده ، لأن مواكب النصر لا تقام احتفالا بانتصار روماني على روماني (٣) وانما أقيم ذلك الموكب لمدة أربعة أيام احتفالا

Seneca, Dial. IX, 7, 5.

(١)

(٢) من ماركوس بوركيوس كاتو « الاويكي » (M. Porcius Cato) راجع : A. Afzelius, *Classica et Mediaevalia* (1941), 100-203.

Cf. Scullard (ed.), *Oxf. Class. Dict.* s. v. *Triumphus*. (٣)

انتصاره على غالة ومصر وبنطوس وأفريقيا (١) . وأمام عجلته الحرية التي تجرّها أربعة جياد اقتيد بعض الأسرى وفي مقدمتهم فركنجيتوريكس ، زعيم غالة الوطنى ، الذى أخرج من غياهب السجن ليرى النور لآخر مرة ، وأرسينوى العنيدة ، الأميرة البطلمية وأخت كليوبطرة (السابعة) ، وچوبا ملك نوميديا . وبينما كان قيصر يصعد درجات السلم المؤدى الى معبد جوبيتر فوق الكايتول ليضع فيه مذبحه ، كما جرت العادة ، أكاليل الفار تحية للاله ، سيق فركنجيتوريكس الى ساحة الاعداء . لقد كان قيصر قاسيا متحجرا القلب ازاء أعدائه البرابرة بقدر ما كان متسامحا رحيمًا بخصومه من الرومان . وخلف عجلته سار جنود فرقة القدامى ينشدون أغاني بذيئة أو ماجنة متفاكهين فيها بصلعة قائدهم المحبوب ، وسرب من العربات المحملة بالذهب والتيجان الذهبية والأسلاب والمكافآت التي وعدوا بها : لكل جندي ٥٠٠٠ دينار ، وضعفها لكل قائد سرية (centurio) ، و ١٠٠ دينار لكل واحد من المتفرجين . وبعد انتهاء الموكب أقيمت مأدبة صفت فيها ٢٢٠٠٠ مائدة . وصحب الدكاتور الى منزله ركب من حملة المشاعل فوق الأفيال . وأقيمت أيضا حفلات تمثيلية ومهرجانات رياضية ومعارك بحرية صورية ومبارزات بين أسرى الحرب والمجرمين ترفيها عن الشعب وتمجيذا لذكرى جوليا ، بنت قيصر وزوجة يومى الراحة . وبهذه المناسبة بنى بهوا (Basilica Iulia) وسوقا (Forum Iulium) يحمل كل منهما اسم عشيرته (يوليوس) ، ومعبدًا لقينوس ربة التناسل ، والام التي تنحدر هذه

(١) Suetonius, Div. Iul. XXXVII: Primum et excellentissimum triumphum egit Gallicum, sequentem Alexandrinum, deinde Ponticum, huic proximum Africanum...

ويضيف سويتونيوس بأنه احتفل أيضا بانتصاره على اسبانيا فيما بعد على اعتبار ان من اثاروا هناك الحرب ضده كانوا رومانين خونة ؛ راجع : C.A.H. IX, p. 704

العشيرة من نسلها (Venus Genetrix) ^(١)

ولم يلبث قيصر بعد أشهر قليلة قضاها في تنظيم شئون الحكم ،
أن غادر العاصمة في نوفمبر عام ٤٦ ليقوم بآخر حملاته ويحرز انتصاره
الأخير . كان قيصر بعد أن سحق القوات الموالية ليومبي في أسبانيا
عام ٤٩ قد ترك مقاليد هذه البلاد في يد كاسيوس (Q. Cassius) ^(٢)
لكنه كان اختيارا غير موفق لأن كاسيوس استبد بحكم أسبانيا وأساء
معاملة أهلها فهبوا ثائرين في وجهه . وقد أرسل غيره ليحل مكانه قبل
الحملة الإفريقية ، ولكن لاينوس وابنى يومبي الذين التجأوا بعد
معركة ثابسوس الى أسبانيا استغلوا قيام القلاقل فيها وأذكوا لهيب
الثورة ولما استفحل خطرهما رأى قيصر أن لا مناص من أن يذهب هو
نفسه لاختمادها على رأس قوة مؤلفة من ثمانية فرق : ولا يعنينا من
تفاصيل الحرب الأسبانية (Bellum Hispaniense) سوى أن المعركة
الأخيرة ، وهى معركة موندا (Munda) التى دارت في جنوب أسبانيا
(بين أشيلية وملاقة) في مارس عام ٤٥ ، كانت من أعنف معارك
الحرب وأن قيصر خرج منها ظافرا بينما لقي فيها أقطاب حزب السناقو
حتفهم ما عدا سكستوس يومبي (Sex. Pompeius) ، بن يومبي
الكبير ، الذى قدر له أن ينجو بحياته ويلجأ الى البحر ليثير فيما بعد
مساب جمة في وجه خلفاء قيصر . وبذلك وضعت الحرب الأهلية
أوزارها وأصبح يوليوس قيصر سيد العالم الرومانى دون منازع .

كانت الحرب الأهلية (Bellum Civile) فريدة بين حروب العالم
القديم في اتساع نطاقها اذ شملت كل منطقة البحر المتوسط تقريبا ، وفي
ارتفاع مستوى خطتها العسكرية ، وفي انتصار ضباط أكفاء على
ضباط لا يقلون عنهم كفاءة بصورة حاسمة . وقد أثبت جنود قيصر

(١) راجع ما تقدم في ص ١٢٧ ، حاشية ٢ .

(٢) وهو كويتوس كاسيوس (لوينجنوس) نقيب عام ٤٩ ؛ انظر ص ٢٣٥ .

أنهم أكفأ مشاة في العالم القديم ، واستغل قائدهم ما توافر لهم من مقدرة وخبرة سواء على احتمال السير أو في إقامة الاستحكامات الى أقصى حد مستطاع . ولم يحدث في أى حرب أخرى تشبت قديما بين جيشين متكافئين تقريبا في السلاح أن دمر المتضرع عدوه تدميرا تاما ومنى بمثل هذه الخسائر الطفيفة . ولم تكن أبرز صفة في قيصر القائد هي سرعة زحفه التي صارت مضرب المثل (celeritas Caesariana) بل ثقته الشديدة بذكائه وشجاعته ، فلم يحدث أن تردد مرة في قبول التحدي من جانب خصمه . وليس معنى ذلك أنه كان متهورا بل كان على العكس قائدا حذرا في وسعه أن ينتظر دون ملل اذا أيقن أن الانتظار هو الطريق الوحيد الى النصر . فاذا ما حانت الفرصة الملائمة كان لا يتوانى لحظة في تسديد ضربه في الصميم . وقلما أفلتت منه فرصة مواتية أو سدد ضربه بعد قوات الفرصة . لذلك كان مصير الجيش الذي ينهزم على يديه التدمير أو الأسر في أغلب الأحيان . وكان يصير يفضل دائما أن يحارب بقوات ضئيلة ممتازة التدريب والخبرة . ولم يكن ذلك بسببه صعوبة تموين القوات الضخمة فحسب ، بل ثقته الكبيرة أيضا في استطاعته الانتفاع بكل جندي وحده على القتال بعزم واخلاص . لقد كانت شخصيته الفذة وحدها هي سبب انتصاراته حتى قيل انه لم يتكرر شيئا جديدا في فن الحرب ، فهو من هذه الوجهة لم يكن ندا لمايوس وربما لم يكن أيضا ندا لسلا . ولا كانت له موهبة يومى التي أتاحت له أن يجيد القتال في البر والبحر على السواء ، ولا براعة الاسكندر المقدوني في استخدام سلاح الفرسان كقوة ضاربة . لقد وجد في فن الحرب الروماني ما يكفي وحارسه بمهارة فائقة وطبقة تطبيقا فعالا ينم عن عبقريته . وأيا كان الأمر فقليل هم النقاد العسكريون الذين ساورهم الشك في أن قيصر هو أبرز شخصية في تاريخ روما العسكري .

دكتاتورية يوليوس قيصر واصلاحاته

اصلاحاته في روما واطاليا والولايات :

ينبغي ألا تنسى عند دراسة أعمال قيصر كرجل من رجال الحكم والسياسة أنه قام بها في الأشهر القليلة التي تسنى له أن يمضيها في العاصمة أثناء اندلاع لهيب الحرب الأهلية . فلا عجب أن جاءت اصلاحاته مبتدئة غير كاملة لأن الظروف اضطرتة الى ارجاء كثير من المشكلات حتى يتفرغ لها في السلم ولكن يد الموت اختطفته بعد عام واحد من انتهاء الحرب . ومع هذا فقد استطاع في تلك الفترة التي لم تتجاوز ستة عشر شهرا أن يصدر أو يعد للاصدار طائفة من التشريعات التي تفوق في كثرتها وتنوعها كل ما أصدره الأخوان تيبيريوس وجايوس جراكوس وسلا نفسه . فليس هناك فرع من فروع الادارة لم يترك فيه أثرا مستديما ، فضلا عن أن كل مادة من تشريعاته تكشف عن فطنة سياسية وتنتزع الاعجاب وتثير الأسف على أن الأجل لم يمتد به لاتمام اصلاحاته .

لقد رأى قيصر بعد انتصاره على پومبي والحزب الأرستقراطي وانتماده بالسلطة أن الواجب يحتم عليه اصلاح أداة الحكم التي دب فيها الفساد خلال قرن طويل من التطاحن الحزبي والحروب الأهلية . وكان سلا قد واجه نفس المشكلة فقام ببعض اصلاحات اندثر معظمها

ولم يبق منها سوى القليل . ذلك أن سلا ، على الرغم من تشريعاته الإدارية والجنائية القوية ، كان ضيق الأفق ، مجردا من روح العطف على الجماهير ، شديد التعصب للطبقة الأرستقراطية فلم يفتن الى جوهر مشكلات عصره الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يستهدف من اصلاحاته سوى كسر شوكة خصومه . ودعم نفوذ السناتو وتركيز السلطة من بعده في يد هذا المجلس (١) . وأما قيصر فكان أوسع أفقا وأقل تعصبا وأكثر منه فهما لهذه المشكلات :

كان على قيصر أن يحدد أولا الشروط التي يريد املاءها على الحزب المهزوم . وفي الحق ان ماضيه نفسه قد أملى عليه السياسة التي ينبغي اتباعها ازاء خصومه . ففي مستهل حياته العامة كان دائم التنديد بسياسة سلا الارهاية وانتقامه من أنصار ماريوس . ولذلك حرص منذ عودته الى ايطاليا مع فرقة العسكرية على أن يثبت للرأى العام أنه لا ينتوى الالتجاء الى أساليب سلفه . ونادى منذ بداية الحرب بتأمين فلاحى ايطاليا من المصادرات وأعمال النهب . وعندما وقع جنود من قوات خصومه أسرى في يديه أطلق سراحهم دون عقاب وأدمجهم في فرقة . وعفا بعد فرسالوس دون تباطؤ عن أنصار پومبي الذين سأله العفو ، بل انه زكى كثيرا منهم لمنصب عامة سامية . وكان من بين هؤلاء ماركوس بروتوس (M. Iunius Brutus) وجايوس كاسيوس (C. Cassius Longinus) اللذان ارتقيا منصب الپرتورية عام ٤٤ (٢) ، كما حصل لبيرون الذي انفاز بعد تردد الى معسكر پومبي في عام ٤٨ على عفو غير مشروط . وإذا كان قد عاقب أتباع پومبي الذين لم يكفوا عن مناوآته بعد معركة ثابسوس بمصادرة أملاكهم وتجريدهم من حماية القانون فانه استجاب للوساطة وأرجع من المنفى قرا كان من بينهم خصمه اللدود ماركوس ماركيلوس

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٢ - ٨٥ .

(٢) وهما زعيما المؤامرة التي أودت بحياة قيصر في نفس السنة (١٥ مارس ٤٤) .

قنصل عام ٥١ (١) . وقد لقيت سياسة التسامح ترحيبا شديدا من الرأي العام وتركت فيه أثرا طيبا بقدر ما تركت سياسة سلا الانتقامية من قبل أثراسينا . وليس أدل على عمق أثرها في نفوس الرومان من أن السناو والجمعية الشعبية قررا إقامة معبد تقديسا للرأفة (Clementia) بوضفها ربة ترمز الى تلك الفضيلة التي تحلى بها قيصر .

(١) اصلاحاته في روما :

كان من أولى المشكلات التي عنى بها قيصر ازدحام روما بالسكان الذين بلغ عددهم في زمنه حوالي مليون نسمة وما ترتب على ذلك من صعوبة حفظ الأمن وبخاصة في الأحياء المكتظة بالفقراء في قلب المدينة . وبغض النظر عن المنشآت العامة كالمعابد والأسواق والأبهاء الفسيحة التي زين بها العاصمة ، فانه وضع مشروعا لاعادة تخطيط وسط المدينة ليخفف من تزاخم المساكن ، وهو مشروع خرج الى حيز التنفيذ على عدة مراحل في عهد الأباطرة . ووضع مشروعا آخر لصيانة شوارع روما وضواحيها وتنظيم حركة المرور فيها واستخدام الأراضي الفضاء العامة . ولم يعالج مشكلة حفظ الأمن علاجا حاسما ولكنه أسهم فقط في علاجها بحل الجمعيات (collegia) والنوادي الخاصة والنقابات (sodalicia) ما عدا القديمة منها التي لا صلة لها بالسياسة كالنقابات المهنية والمنظمات الدينية اليهودية . كما شدد من عقوبة جريمة استعمال العنف (de vi) بحرمان المذنب من « الماء والنار » أي تجريده من حق المواطن (٢) ، وقرر عين العقوبة لمرتكبي جريمة الخيانة العظمى (maiestas) ، واذا صدقت رواية سويتونيوس ، قفلا عن فقرة من شيشرون لم تصلنا ، فانه جعل التجريد من كل الممتلكات عقوبة التهمين بقتل الأحرار عمدا (أو أقرائه لابيه) والتجريد من نصفها عقوبة

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٢٢ .

(٢) راجع ما تقدم في ص ٥٩ ، ٩٢ حاشية ٢ ، ١٨٠ .

من يقتل غير هؤلاء (١) . وأهم من ذلك قرار باستخدام القوات العسكرية لمساعدة الحراس *lictores* - وهم القوة البوليسية المدنية الوحيدة بالعاصمة - في حفظ الأمن بالأسواق . لكنه كان من ناحية أخرى أول سياسي ، بل السياسي الوحيد ، الذي عالج بطريقة فعالة مشكلة الفقراء المتعطلين في المدينة (*plebs urbana*) ، وهم أحد عوامل الشغب فيها ، إذ خفض - بمقتضى إحدى مواد قانون يوليوس بتنظيم البلديات أو الحكم المحلي *lex Iulia municipalis* (٢) - عدد المنتفعين بالقمح المجاني من ٣٢٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ (٣) . وألزم المنتفعين بتقديم اقرار بثروتهم أو دخلهم في حالة زيادته عن الحد المقرر للتمتع بهذه المنحة (٤) ؛ وأرسل غير المستحقين لهذه المنحة وعددهم حوالي ١٨٠.٠٠٠ إلى المستعمرات الجديدة التي أنشأها خارج إيطاليا . وبهذه المناسبة قرر انتخاب محتسبين جديدين للإشراف على توزيع هبات القمح (*aediles Cereales*) (٥) . ولتموين المدينة بمقادير كافية من الغلال بصورة منتظمة وضع مشروعا لحفر ميناء واسعة عند أوستيا (*Ostia*)

Cf. Suetonius, Div. Iul. XLII, 3 : parricidas, ut Cicero (١)
scribit, bonis omnibus, reliquos dimidia parte multavit.

والخلاف على كلمة *parricida* اعني من يقتل احدا من قبايلتيك ام من يعمل حرا مع سبق الاصرار ؟

(٢) صدر هذا القانون المعروف خطأ بقانون يوليوس الخاص بالبلديات في عام ٤٥ على ما يرجح ولكنه لم يتخذ الا في شهر يونيو من عام ٤٤ على يد ماركوس انطونيوس بعد

موت قيصر ، ويشار اليه عندئذ باسم قانون انطونيوس بالقرار أعمال قيصر :
Lex Antonia de actis Caesaris confirmandis

وفد وجنائه مدونا على لوحة برنزية في بلدة هراقلية (*Heraclea*) بجنوب إيطاليا
وعرف باسم لوحة هراقلية (*Tabula Heracleensis*) .

Suet. Div. Iul. XLI, 3: atque ex viginti trecentisque (٣)
milibus accipientium frumentum e publico ad centum
quingenta retraxit.

(٤) انظر ترجمة مواد هذا القانون الخاصة بضرورة تقديم القرارات للحصول على
هبات القمح في كتاب :

N. Lewis — M. Reinhold, *Roman Civilization I*, (1951), p. 408 f.

(٥) أو *aediles Cereales* .

لتكون بديلا عن مرسى السفن المكشوف الذى أصبح لا يفى بالغرض من الناحية التجارية .

(ب) فى إيطاليا :

كان من بين ما عاد بالنفع على روما وإيطاليا تلك القوانين التى أصدرها فى سنتى ٤٩ ، ٤٧ ليخفف من حدة الضائقة المالية التى نشأت عن الضرر غداة قيام الحرب الأهلية . فقد استغل بعض النبلاء حالة التوضى وقاموا بمحاولات متطرفة لالغاء جميع الديون . وعالج قيصر الأزمة بأن جعل أثمان العقارات عند اعلان الحرب أساسا لتقييم الديون وأوقف سريان الفوائد منذ بداية تلك الحرب ، وأعفى مستأجرى العقارات من جزء من القيمة الإيجارية السنوية . وكانت هذه القوانين معتدلة لأنها يشرت على المدينين سداد ما فى ذمتهم ولم تهضم فى الوقت نفسه حقوق الدائنين . وينهض دليلا على اهتمامه بتنمية رخاء إيطاليا الاقتصادية ذلك القانون الذى يتطلب من ثروة المواطنين وأصحاب رؤوس الأموال استثمار جانب من أموالهم فى الأراضى الإيطالية أكبر الظن لكى يرفع من قيمتها ويقلل من حدة التناحر الاقتصادي بين النبلاء والفرسان ؛ فضلا عن طائفة من المشروعات العملية للنهوض بالمرافق العامة ، كان من أهمها تخفيف مستنقعات پومپتىنى (فى إقليم لاتيوم) وبحيرة فوكينوس (الى الشمال من نهر ليريس ببلاد المارسيين) لزراعة مساحة الأراضى المنزرعة ؛ وشنق طريق جديد عبر الأبنين الى الأدرياتيكي . وقد تفتت هذه المشروعات تدريجيا فى عصر الأباطرة الأوائل . كما أصدر قانونا يلزم أصحاب المراعى باستخدام نسبة معينة من الأيدى الحرة (لا تقل عن ثلث العمال) . ولا يعتبر هذا القانون خطوة نحو الغاء الرق فى الضياع الرعوية بالريف الإيطالى بل اجراءا وبقائيا ضد ثورات العبيد ومؤازرتهم حركات التمرد على الحكومة المركزية . وبغض النظر عن أن توفير العمل للمواطنين الأحرار يعسود

دائماً بالفائدة على المجتمع والدولة ، فإن هذا القانون ساعد على ملء صفوف الفرق العسكرية عند الحاجة برجال من الريف أصحاب البنية شديدي المراس ، وعلى فتح أبواب الرزق للجنود المسرحين ريثما تتم اجراءات توزيع القضاة الزراعية عليهم

ولما عاد فيصر الى روما في ديسمبر عام ٤٩ استصدر قانوناً بمنح الحقوق الرومانية الكاملة بدلا من الحقوق اللاتينية لكان « غالة عبر الپو » (Gallia Transpadana) وهو اصلاح كان ينادى به منذ بداية حياته السياسية ، ولذلك هجّل بتنفيذه تقديراً للخدمات القيمة التي قدمها له جنود هذه المنطقة أثناء حملاته في « غالة عبر الألب » . وبذلك أصبحت إيطاليا كلها رومانية . وكان من بين اصلاحاته الجوهرية التي ترتبت على هذه الخطوة تنظيم أداة الحكم المحلي في إيطاليا من جديد أو بالأحرى تنسيق النظم الادارية في المدن المتمتعة بالحكم الذاتي (municipia) وذلك بوضع قواعد معينة لشغل المناصب العامة ، ودخول المجالس المحلية ، واجراء التعداد بطريقة أدق وأكثر انتظاما عن ذي قبل . ومعلوماتنا عن هذا الموضوع مستمدة من « لوحة هراقليا » التي تتضمن طائفة من التشريعات المتنوعة أعدها قيصر ولكن معظمها لم يصدر أثناء حياته بل أدمجها أنطونيوس كلها بعد وفاته في قانون واحد يعرف الآن خطأ باسم قانون يوليوس الخاص بتنظيم البلديات (lex Iulia municipalis) ^(١) وتفصيل ذلك يقول : لقد قرب

(١) راجع ص ٢٩٥ حاشية ٢ . وقد نثار حول هذا القانون جدل طويل . ولا تتناول هذه التشريعات تنظيم البلديات أي الشروط الواجب توافرها في حكم المدن الإيطالية واختصاص مجالسها ، واجراء التعداد فحسب بل تتناول أيضا موضوعات متنوعة غير مترابطة كتوزيع القمح المجاني على المواطنين في روما ، والقواعد التي ينبغي للمحتسين ، صيانتها لصيانة الطرق والعمارات وحماية الممتلكات العامة وتنظيم حركة المرور في شوارع العاصمة ... الخ . وفي رأي الاستاذ رابذانه كان ينطبق على روما وإيطاليا فقط لا على الولايات . وفي رأيه أيضا ان قيصر لم يضع نظاما موحدا للحكم في البلديات ، ومن نص هذا القانون ، انظر :

على انشاء مراكز مدنية جديدة في أنحاء الريف الايطالى التى تسودها
النظم القبلية أن صارت ايطاليا مقسمة الى مناطق مدنية أو بلديات
(municipia) تشتمل كل منها على بلدة ، هى بمثابة العاصمة ،
وأراض زراعية حولها تلحق بها اداريا (territorium) . وقد منح
قيصر هذه المناطق المدنية استقلالا ذاتيا ووضع لها نظاما للحكم المحلى
راعى أن يكون موحدا بقدر المستطاع ، بغض النظر عما اذا كانت كل
منها فى الأصل تتمتع بالحكم الذاتى الكامل أى بلدية بالمعنى الصحيح
(municipium) أو بالحكم الذاتى غير الكامل (praeectura) أو
مستعمرة (colonia) أو تحمل غير ذلك من الأسماء (conciliabulum) -
وصار يتولى الحكم فى كل منطقة مدنية مجلس من الحكام ينتخب
أعضاؤه انتخابا محليا ويزاولون نفس الاختصاصات تقريبا فى كل
البلديات وان اختلفت ألقابهم فى مكان عنه فى مكان آخر (١) . وكان

Bruns-Gradenwitz, *Fontes Iuris Romani*, 7th ed. (1909), No. 18;
F. F. Abbott-A. C. Johnson, *Municipal Administration in the
Roman Empire* (1926), No. 24 (pp. 288-298); S. Riccobono, *Fontes
Iuris Romani Antejustiniani I* (1941), No. 13 (p. 140 ff.).

والترجمة والتعلق على النص ، راجع :

E. G. Hardy. *Six Roman Laws* (1911), p. 149 ff.; J. S. Reid,
The Municipalities of the Roman Empire (1913), pp. 129-133, 147;
Cary, *J.R.S.* XIX (1929), 116 ff.; H. Rudolph, *Stadt und Staat
im roemischen Italien* (1935), 113 ff., 217 ff.; M. Cary, "The
Municipal Legislation of Julius Caesar," *J.R.S.* XXVII (1937),
48 ff.; A. N. Sherwin-White, *The Roman Citizenship* (1939),
136 ff.; N. Lewis-M. Reinhold, *Roman Civilization I* (1951),
416 ff.

(١) فهم أحيانا فى المستعمرات ايديلان أو پريتوران أو قنصلان أو دكتاتور أو مجلس
من ثمانية حكام (Octoviri) أو عشرة حكام (Decemviri) أو حاكم باسم (Sinfetes)
كما كان الحال فى مستعمرة قرطاجنة ، وأحيانا أخرى - فى البلديات - حاكمان (Duoviri)
(iure dicundo) يعاونهما ايديلان (duoviri aediles) ؛ أو مجلس من أربعة حكام
(Quattuorviri iure dicundo) يعاونهم أربعة ايديليس (quattuorviri aediles)

يساعدهم ، بوصفهم هيئة تنفيذية ، مجلس تشريعى هو صورة من
السناتو الرومانى ، يتألف معظمه من الحكام السابقين (١) ومن ثم اتسم
الحكم المحلى بطابع أرستقراطى كما هو الحال فى العاصمة . وقد أزاح
تعميم نظام البلديات فى ايطاليا عبئا ثقيلا عن كاهل الحكومة المركزية ،
وبخاصة عن كاهل الپريتورين الذين كانوا يتدبون مساعدين
(prefecti) لتصرف العدالة فى هذه البلاد ، كما تمهد الطريق لانتشار
هذا النظام فى الولايات الغربية فى الأزمنة التالية . وقد اشترط القانون
سنا معينة لكل منصب من المناصب البلدية فى تلك المدن مستثيا من
هذا الشرط كل من خدموا مدة ست سنوات فى كنائب (مشاة) الفرق
الرومانية (legiones) أو مدة ثلاث سنوات فى فصائل الفرسان (alae)
الملحقة بهذا الفرق أو من تمتعوا بالاعفاء من الجندية ؛ وحرم هذه
المناصب على من يزاولون منها معينة كدفن الموتى والدلالة . وحرم
عضوية مجالس التشريع البلدية على المتهمين بجرائم معينة وعلى

وقد يوجد الى جانب ا لحاكمين أو الحكام كورستوران لتصرف الشئون المالية وقد يزيد
العدد عن اثنين فيصل الى سبعة ، وفى كل خمس سنوات عند اجراء التعداد كان يطلق على
الحاكمين فى غالة عبر الاكس لعب (duoviri) quinquennales وكانا
يتنفس مهام الكنسورين فى روما . وعند غياب احد الحاكمين (duoviri)
فانه قد يتنوب عنه حالما آخر باسم praefectus iure dicundo للنهوض
بواجباته وكان يختار من بين اعضاء المجلس التشريعى . واما فى البلديات اليونانية
بالولايات السرفية فكان الحكام يعرفون باسماء خلعة : archontes (فى اينا) أو
strategoi (فى بروجامون) أو prytaneis (فى ميليتوس) أو polemarchoi (فى طيبة)
أو tagoi (فى تساليا) ... الخ .

(١) ويعرف مجلس البلدية التشريعى وهو مجلس استشارى ، باسم senatus
كما هو الحال فى روما أو باسم ordo (فى الولايات الغربية) أو باسم curia
(فى عصر الامبراطورية المتأخرة) ، واما فى المدن اليونانية فيعرف عادة باسم boulê
أو synklêtos أو synedrion ، ويطلق على اعضاءه اسم decuriones (وهى كلمة
مشتقة من decuria أى لجنة من عشرة اعضاء وينقسم المجلس الى عشر لجان)
واحياا اسم conscripti . واما فى الشرق فكانوا يعرفون باسم bouleutai أو
synedroi . وكان عدد اعضاء المجلس فى مدن ايطاليا والولايات الغربية يبلغ اثنى واما
فى الشرق فيبلغ اثنى أو اكثر .

المجالدين ومن أشهر افلاسهم وغيرهم من فاقدى الأهلية المدنية . كذلك استبعد القانون المطرودين من الخدمة العسكرية والضالعين في حركات الاغتيال والمصادرة غير القانونية (proscriptio) ، وإن أجازها للمذنبين الذين شملهم العفو واستردوا حقوقهم المدنية . وليس هناك ما يشير الى أنه أوصد باب المناصب البلدية في وجه المعتقين (liberti) . وأخيرا فقد نص على أنه في حالة اجراء الرقيب (censor) أو أى حاكم آخر التعداد في روما ، يجرى الحكم كذلك في كل البلديات الإيطالية التعداد ويرسلون النتائج الى السلطات في العاصمة .

(ج) في الولايات :

وقد شغلت أحوال الولايات بال قيصر منذ ظهوره على مسرح السياسة ففي سنتي ٧٦٧ و٧٦٨ لفت الأنظار اليه باقامة الدعوى على بعض الولاة الجشعين من أتباع سلا (١) . وعندما تولى القنصلية عام ٩٥ ضاعف عقوبة جريمة الابتزاز (de repetundis) (٢) ، وخفض بعد معركة فرسالوس (٤٨) ضرائب ولاية آسيا وربما أيضا ضرائب غيرها من الولايات الشرقية التي أثقلت كاهلها مطالب جنود يومى وضباطه ، ونقل حق جباية الضرائب من يد الملتزمين الرومان (publicani) الى الحكومات المحلية نفسها ، غير حافل بما قد يثيره ذلك من سخط في هيئة الفرسان . غير أن هذه الاجراءات لم تكن سوى علاج مؤقت لم يستأصل الفساد في الولايات من جذوره . وفي آسيا وصقلية استبدل بضريبة العشور (decuma) السابعة ضريبة ثابتة على الأراضي ، وهو اصلاح مستديم أفادت منه الخزاة الرومانية أكثر مما أفادته سكان هاتين الولايتين . وحدد مدة حكم البريتوريين البدلاء في الولايات بعام واحد ، ومدة القناصل البدلاء بعامين . ولم يكن في

(١) راجع ص ١١٩ ، غاشية ٢ (السطر الاخير) ص ١٢٠ اول الهاشن .

(٢) راجع ص ١٧٥ .

ذلك حرصا على مصلحة الأهالي بقدر ما كان متخوفا من طموح الولاة الذين قد تسول لهم أنفسهم مناوئة الحكومة المركزية . غير أنه أبطل قانون يومبي الخاص باختيار حكام الولايات من بين القناصل والپريتوريين الذين مضت خمس سنوات على اعتزالهم المنصب ، وهو قانون كان يستهدف - كما أسلفنا - اصلاح أداة الحكم في الولايات ومنع المرشحين للمناصب العامة من اقتراض مبالغ ضخمة على أمل سدادها بالرؤشا ، والأموال المبتزقة من الولايات التي يسند حكمها اليهم عقب انتهاء خدمتهم السنوية في روما مباشرة^(١) . لكن ينبغي أن نقول انصافا لقيصر إن رجال الحزب الارستقراطي ضربوا بهذا القانون غرض الحائط غداة قيام الحرب الأهلية ، وأن الهدف الأخير من القانون كان منع الرشوة التي تضاعف خطرها بعد أن صار تعيين الولاة أكثر ارتهانا بارادة قيصر منه بارادة الشعب الروماني . ومع أن هذه الاسلحات لم تمس جوهر النظم الادارية في الولايات ، الا أن فترة دكتاتورية قيصر كان لها أثر بالغ الأهمية في حياتها ، اذ تصدعت خلالها لأول مرة تلك الحواجز التي كانت تفصل بين سكان الولايات وبين الايطاليين . وكان الحزب الارستقراطي قد حاول عبثا وقف هجرة الفلاحين الايطاليين والتجار الى الخارج ، ولم يكن ينظر بعين الارتياح الى استيطانهم في شكل جماعات مستقلة خارج ايطاليا ، وقبلما كان يقر انشاء مستعمرات في أراض أجنبية^(٢) . وأما قيصر فقد شجع الهجرة بطريقتين ، اذ كان يبعث الى الولايات بالفائض من ثراء روما المتعطلين للسكنى في مستعمرات جديدة ذات طابع صناعي أو تجاري ، ويكافئ معظم جنده المسرحين بقصائد زراعية في أراضى انولايات^(٣) ، ولم يمنح سوى قلة منهم قطائع في ايطاليا نفسها . وقد

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٢٧ - ٢٢٠ .

(٢) راجع موقف السناتو من اقتراح جايوس جراكوس انشاء مستعمرة يونونيا ،

ص ٢٥ ، ٢٤ .

(٣) بلغ عدد الجنود المسرحين من قواته التي اشتكت في حملات غالة عبر الألب

وحدها حوالي ٢٠,٠٠٠ جندي .

جعل كل هذه الجماعات الجديدة المقيمة بالخارج في وضع المستعمرات الرومانية أو اللاتينية ، ومنح مثل هذا المركز المتميز لجماعات ايطالية قديمة استوطنت الولايات^(١) . ويقدر عدد مستعمراته في الولايات بما لا يقل عن عشرين مستعمرة (colonia) وعدد المواطنين الرومان انذين حصلوا على قطائع في الخارج بما يزيد على مائة ألف مواطن . وكان معظم هذه المستعمرات يقع في الجانب الغربي من البحر المتوسط . وأما المستعمرات القليلة التي أنشأها في الولايات فلم يكن لها شأن يذكر ما عدا كورثة التي كانت - كمستعمرة قرطاجة في الغرب - تتألف من الفقراء الرومان والعتقاء الذين اكتسب أكثرهم الحرية بفضل الخبرة الفنية أو المهارة الصناعية . وكان قيصر يقصد من بتأسيس المستعمرات الى تحقيق أهداف اقتصادية اذ كان ذلك يوفر على الخزانة أموالا طائلة لأن أراضي الولايات كانت أرخص سعرا من أراضي ايطاليا ، وكان يأمل أيضا أن يخلق منها مراكز زراعية مثل قرطاجة أو مراكز تجارية - صناعية مثل كورثة وسينوبى . وعالج بالمستعمرات مشكلة ازدحام ايطاليا وروما بأعداد غفيرة من الذين انسدت في وجوههم أبواب الرزق أو استمروا حياة البطالة اعتمادا على هبات القمح وأصبحوا عبئا ثقيلا على الخزانة . وفي الحق أنه حل أيضا مشكلة سياسية لأن هؤلاء المتعطلين كانوا مصدرا للشغب واختلال الأمن وسلاحا يستغل في الانتخابات والتطاحن الحزبي . لكن لعله أيضا وضع نصب عينيه هدفا كمساهمة المستعمرين الايطاليين في نشر الحضارة الرومانية في الولايات^(٢) .

(١) كان ادباطا ايضا استوطنون بالولايات كثيرا ما ينظمون في شكل اتحادات حيث فيها بعد conventus civium Romanorum . ولكنها - باستثناء للقليل منها - لم تكن تتمتع بامتيازات سياسة بوصفها اتحادات ذات كيانات مستقلة وإن كانت حقوقا خاصة أخرى .
(٢) عن سياسة قيصر في انشاء المستعمرات ، راجع :

F. Vittinghoff, *Römische Kolonisation und Bürgerrechtspolitik unter Caesar und Augustus* (1952), pp. 49-95.

وعن الامثلة المستمدة من العملة عن هذه المستعمرات ، انظر :
M. Grant, *From Imperium to Auctoritas*, 1946.

وفي وسعنا أن نقف على اتجاهات قيصر من دراسة دستور إحدى هذه المستعمرات . لتتناول مثلا مستعمرة جنيتيفا يوليا (colonia Genetiva Iulia) التي أثنأها عند بلدة أورسو (Urso) بإسبانيا وأسمها باسم عشيرته والربة فينوس (١) . من دستور هذه المستعمرة الذي صدر قيل وفاته يتبين أن بعض المواد متقول عن السلف والبعض الآخر مستحدث من ابتكاره (٢) . ويبدو أنه عين لها أول هيئة حاكمة محتفظا لنفسه بحق إجراء تعيين الحكام في المستقبل. وقد نص على أنه لا يجوز لعضو من أعضاء السناتو الروماني أو لأحد من أبنائه أن يكون راعيا (patronus) للمستعمرة إلا إذا كان مواطنا عاديا في إيطاليا غير مزود بسلطة « الامپريوم » ، وأن يوافق على اختياره ثلاثة أرباع أعضاء المجلس التشريعي المحلي (decuriones). ويتضمن الدستور مادة صارمة لعقوبة جريمة الرشوة النقدية أو العينية في الانتخابات ، لعلها مستوحاة من قانون شيشرون الخاص

(١) المستعمرة منسوبة إلى يوليوس ، اسم عشيرة فيسر ، وإلى جنيتيفا وهي صفة من صفات فينوس ، ربة الحب والتناسل ، بمعنى الوالدة الأم (مثل Genetrix) أي الأصل الذي نبتت منه العشيرة (عشيرة يوليوس) لأن هذه الربة كانت - كما ورد في الأساطير - أم إينياس (Aeneas) ، وهو أبولس فينوس (Iulus) الذي روي لعشيرة يوليوس (gens Iulia) كانت تنحدر من سلالة (راجع أيضا ص ١٤٧ ، حاشية ٢) . ومن هذا النسب انظر أيضا ص ٢٢٢ فيما بعد .

(٢) عن النص نفسه : انظر :

F. F. Abbott-A. C. Johnson, *Municipal Administration in the Roman Empire* (1926), pp. 300 ff.; S. Riccobono, *Fontes Iuris Romani Antejustiniani*, 3rd ed. (1941). No. 21 (p. 177 ff.).

وللترجمة والتعليق ، راجع :

E. G. Hardy, *Three Spanish Charters & Other Documents* (1912), 23 ff.; N. Lewis & M. Reinhold, *Roman Civilization I* (1951), pp. 420 ff.

بالرشوة (١) . ويكشف عن رغبته الأكيدة في دعم الصناعة بالمستعمرة وحرصه على مراعاة طقوس الديانة الرسمية تحت إشراف العرافين والكهنة، وعلى تمجيد ثالث الكايتول : چوپيتر وچونو ومينرقا بإقامة عيد سنوى لهم يستغرق ثلاثة أيام متوالية ، وعيد يستغرق يوما تمجيذا لفينوس . وينهض اسم المستعمرة نفسه وتمجيد فينوس دليلا على مدى اهتمام قيصر بالربة التى اتخذها راعية له ولآل بيته . وليس في هذا الدستور ما ينم عن سياسة دينية تتعارض والعادات الدينية المتبعة في الدولة الرومانية. وأهم من ذلك مادة تنص على أنه لا يجوز الاعتراض على عضوية أحد في مجلس الشيوخ المحلى بحجة أنه عبد معتق ، وهى مادة تنسخ أخرى كانت تشترط حرية المولد ، واستحدثها قيصر لمصلحة العتقاء (libertini) ولها نظير في دساتير المستعمرات التى أسسها في أفريقيا . لقد كان ذلك أمرا طبيعيا في مستعمرات أنشئت لامتناس الفائض من فقراء العاصمة الذين كان يوجد بينهم عدد كبير من العتقاء . ولعل قيصر - كما يتبين من لوحة هرافليا - كان يعتزم في السنة الأخيرة من حياته أن يضع العتقاء في كل من المستعمرات والبلديات على قدم المساواة مع أحرار المولد (ingenui) . وإذا كان تقدم الفكر السياسى عند الرومان يقاس بمحيط معامل العتقاء فإن هذا التشريع دليل على وضحة على سعة أفقه كرجل من رجال الحكم والسياسة . على أن هذه المستعمرات - بغض النظر عن تلك التى نشأت باستيطان المحاربين القدماء (veterani) بالولايات - كان القصد منها - على نحو ما ذكرنا - أن تحل مشكلة ازدحام العاصمة بالسكان لا أن تكون عوضا عن ايطاليا نفسها أو حوض البو - الذى منح

(١) يعرف هذا القانون باسم lex Tullia de ambitu أى قانون توليوس (اسم خشيرو شيشرون) الخاص بالرشوة ، وقد صدر بإيعاز منه أثناء قنصليته عام ٦٣ ، وكان يحرم على الرشح لى منصب أن يقيم مهرجانا عاما خلال السنتين السابقتين على ترشيحه ويطلب مدة حرمان الدين بالرشوة من تولى الوظائف العامة (طبقا لقانون كلورنيوس ، راجع ص ١٢٢ وهامش ٢) الى عشر سنوات .

سكانه الجنسية الرومانية - في تعبئة الجيوش الرومانية . ورواية
سويتونيوس بأن قيصر أسكن ٨٠٠٠٠ مواطن عبر البحر وردت في
نص يفهم منه أن هؤلاء كانوا مهاجرين من فقراء العاصمة . ويستطرد
المؤرخ قائلًا انه منع المواطنين الذين هم في سن الجندية (ما بين ٣٠ ،
٤٠) من التغيب خارج إيطاليا لأكثر من ثلاث سنوات متتالية ما عدا
في حالة انخراطهم في سلك الجيش^(١) . وكان جنود الجيش الذي
حارب تحت لوائه في بلاد الغال قد جمعوا من إيطاليا ، وإن كانوا قد
أنوا من تلك المنطقة التي لم تكن قد اكتسبت بعد الحقوق الرومانية
الكاملة . وأما فرقة ألاوداي (legio Alaudae) الشهيرة التي جندت
في غالة للنايوية ، فيبدو أنه لم يجعلها فرقة نظامية ذات رقم ثابت الا
بعد قيام الحرب الأهلية^(٢) . وقد جرى قيصر على سنة القواد الرومان
في تجنيد الفرسان والمشاة ذوي المتاد الخفيف من خارج إيطاليا . غير
أنه ليس هناك ما يحمل على الظن بأن فرقه العسكرية كانت تشتمل
على نسبة كبيرة من الجنود غير الإيطاليين . وإذا كان خصومه قد
اضطروا في أسبانيا وإفريقيا إلى تجنيد أجانب من سكان الولايات ،
فانه لم يقتد بهم لأن ذلك الاجراء كان لا يتوافق وسياسة الدولة
الرومانية .

كما خرج يوليوس قيصر عن المألوف بتوسعه في منح الجنسية
الرومانية لسكان الولايات الذين استحقوا هذا الامتياز بما أسدوه
من خدمات للجمهورية أو بقبولهم عن طيب خاطر الثقافة الرومانية .
وكان القواد الرومان منذ أيام ماريوس قد منحوا في مناسبات مختلفة
الجنسية الرومانية لجنود القواد المساعدة (auxilia) ، ودرج
السناتو على أن يقر هذا الاجراء من حيث الواقع لا من حيث المبدأ .
غير أن حالات منح الجنسية الرومانية للأجانب كانت بوجه عام قليلة

(١) Div. Iul. XLII, 1.

(٢) كلمة Alaudae (غالية - كلتيه الاصل) بمعنى قبيصة
أو قنبرة (طائر معروف) وقد اعطيت الفرقة رقم لا وصارت الكلمة
Alaudae توعدي معنى الجندي الذي يخدم هذه الفرقة .

متفرقة . وأما قيصر فقد استغل حقه الى أقصى حد في مكافأة الجنود المسرحين بالجنسية الرومانية حتى أنه منحها مرة لفرقة بأسرها ، وهي فرقة الأوداي التي كان قد جمعها عام ٤٧ من غالة الناربونية . ولم يكف بذلك فأصدر قانونا يقضى بمنح الجنسية الرومانية للأطباء والمعلمين الذين يتخذون روما وطنًا لهم ؛ وأعطى الحقوق الرومانية أو اللاتينية لمواطني كثير من البلديات في الولايات ، وكان من بينها جاديس (كاديون) في أسبانيا ، وأوليسيو (لشبونة) في البرتغال ، وتولوسا (تولوز) في فرنسا ، وقينا في الإقليم ذاته ، ومعظم بلدان صقلية . وذهب الى أبعد من ذلك فأدخل في مجلس الشيوخ الروماني عدة ضباط من غالة الناربونية ، ويسر لأسباني يدعى ساكسا (L. Decidius Saxa) الفوز بمنصب قيب للعامة . هزم السياسة التي تهدف الى ازالة الفوارق والحواجز بين الايطاليين وسكان الولايات تمدنا بدليل واضح على أن حصافته كرجل من رجال الحكم لا تقل عن كفافته العسكرية في ميدان الحرب . وقد أسدى بها خدمة جليلة لفن الحكم الروماني ، بل كان فيها بمثابة الرائد الذي أثار الطريق لمن جاء بعده من الأباطرة .

السياسة الخارجية :

وما دنا بصدد الكلام عن اصلاحات قيصر في الولايات فينبغي أن نقول كلمة عن سياسته الخارجية . ان قيصر وان لم يرسم سياسة محددة لمعالجة مشكلة حدود الامبراطورية ، الا أنه وضع الخطط لتوسيع رقعتها في عدة قطاعات . وكانت البلقان أولى المناطق التي أولاهها عنايته لأن حدود مقدونيا واللوريا كانت أكثر من غيرها تعرضا لاغارات البرابرة . وكان قد فطن منذ عام ٥٨ الى ضرورة مد الحدود الرومانية الى منطقة الدانوب فأنفذ اليها بعد معركة فرسالوس بعض

(١) اسمها الروماني : لوسيتانيا .

(٢) فيينا المذكورة بلدة في شمالي غالة الناربونية جنوبي ليون وتسمى الان "Vienne" وهي غير فيينا عاصمة النمسا الان وقديما "Vindobona"

فواته لصد غارات قبائل الدلماتين (Delmatae) (في البوسنة الحديثة) عن الأراضي المطلة على ساحل الأدرياتيكي حيث كانت تقطن جماعة مستقلة من الرومان والايطاليين (C.R. conventus). وقد عهد إلى أولوس جابينيوس بـ نصير يومي الذي صفح عنه قيصر واستدعاه من المنفى (بتأديب تلك القبائل في عام ٤٨/٤٧ ولكن حملته انتهت بكارثة . واستطاع قاتينيوس (قبيب العامة في سنة ٥٩) الذي عينه قيصر حاكما على ولاية اللوريا عام ٤٥ ، ٤٤ أن يرد الدلماتين على أعقابهم ولكنه لم يتوغل في أراضيهم بسبب وعورة التضاريس ورداءة المناخ . لكن سرعان ما ظهر عدو أخطر من الدلماتين في حوض الدانوب الأدنى ، ففي هذه المنطقة وولد زعيم يدعى بورييستاس (Burebistas) سيادته العسكرية على الداكين (Daci) ، وهم قوم من أصل طراقي كانوا قد سكنوا ما نعرفه في العصر الحديث باسم رومانيا وترانسلفانيا ، وأسسوا مملكة تمتد من جبال الألب الشرقية إلى غرب البحر الأسود . وكان بورييستاس قد أثار غضب قيصر عندما شرع في مفاوضات يومية قبل معركة فرسالوس . ومع أنه أطلق للتجار اليونان والرومان حرية التعامل مع أنحاء مملكته ، إلا أنه كان يستمد معظم دخله من أعمال السلب والنهب والغارات التي امتدت إلى حدود مقدونيا وإليريا . ولو طال الأجل بقيصر وتابع فتوحاته لوجه أولى حملاته في عام ٤٤ ضد ملك داكيا .

غير أن العمليات العسكرية في البلقان لم تكن إلا تمهيدا للحملة الكبيرة التي اعتزم القيام بها ضد البارثيين . ومع أن أوروديس (Orodes) ، ملك پارثيا ، لم يستغل ابتعاد قيصر في معركة كرهاي لتقويض نفوذ الرومان في سوريا ، إلا أنه أثار حفيظة قيصر باتفاقه مع يومي أثناء الحرب الأهلية : بمساندة باسوس (Caecilius Bassus) الذي تمرد على سكستوس قيصر (Sextus Caesar) وإلى سوريا

(١) عن هزيمة كراسوس في معركة كرهاي (حران) عام ٥٣ ق م .
راجع ص ٢١٤ - ٢١٧ .

الشرعى فى عام ٤٦ ودير مقتله أثناء الفتنة . ولا ينبغي أن تغفل بين أسباب الحملة رغبة الرومان فى الانتقام لهزيمة كراسوس ، واسترداد هبة روما التى ضلعت فى الشرق من جراء تلك الهزيمة ، وضرورة تأمين الولايات الشرقية ، فضلا عن غنائم الحرب فى حالة الانتصار على العدو وغزو بلاده . ومع هذا فقد كان من الأفضل أرجاء التفكير فى الحملة وتكريس الجهد لانجاز ما هو أشق من الحرب وأعظم ، ونعنى بذلك إعادة بناء الدولة نفسها . ولا جدال فى أن انتصار قيصر على بارتيا وغسله الإهانة التى لحقت بالشرف الرومانى كان كفيلا بدعم مركزه وتوطيد سلطته . لكن يلاحظ أن اكتافيانوس لم يحذ حذوه إذ انصرف بعد سقوط الاسكندرية عن مشروع الحرب ضد البارثيين وعاد الى روما لمواجهة المهمة الشاقة التى تنتظره مقيما بذلك الدليل على أنه كان للدولة خادما أعظم من قيصر . لكن لعل قيصر — كما يرى أحد الباحثين — أراد أن يتخذ من الحملة البارثية ذريعة لارجاء مهمة إعادة بناء الدولة السياسى ريشا تهدأ الخواطر التى أثارته الحرب الأهلية الأخيرة ، أو لعل الحرب — كما يرى باحث آخر — قد أصبحت هوائيه المفضلة فلما بدأت صحته تسوء تملكته الرغبة فى القيام بحملة كبيرة أخيرة .

ومهما يكن من شئ فمن الاسراف أن تتكبر أنه كانت هناكمبررات قوية للعمليات العسكرية الأخرى التى قام بها توطئة للحملة الكبيرة على الشرق . ولقد رأينا كيف هددت قبائل الدلماتين المدن الساحلية فى اللوريا الموالية لروما وجيرانها الليبورنيين (Liburni) ، وراودها الأمل فى طرد الرومان من تلك المنطقة . وليس لدينا دليل واضح على أن الدلماتين تحالفوا مع بوريينستاس ، غير أنهم كانوا — وفقا لرواية ايبانوس — يخشون أن يهاجمهم قيصر تمهيدا لحملة على داكيا . ومن ثم أرسلوا سفارة الى روما للتفاهم . غير أنه أراد أن يخضعهم اخضاعا

تماما فعين قاتينيوس في آخر الأمر ، حاكما على اللوريا لانجاز هذه المهمة ، ومع أن الأخير لم يستطع انجازها - كما رأينا - على الوجه الأكمل الا أن قيصر قدر أن استعراض القوة الرومانية كقيل بارهاب القبائل اللورية المعادية وأن قاتينيوس ربما استطاع اخضاعها نهائيا وتأمين الولاية في السنة الثانية من حكمه . وبعدئذ كان في وسعه أن يضع جيشه تحت تصرف حاكم مقدونيا . ولما كانت حدود هذه الولاية الأخيرة قد تعرضت لغارات الداكين فقد أصبح من الضروري محاربة بوريبيستاس لتأمين هذا الركن من الامبراطورية قبل الاقدام على غزو بارثيا . صحيح أن بوريبيستاس لقي حتفه في مؤامرة لا تدرى أحدثت قبل موت قيصر أم بعد موته . لكن في وسعنا أن نفترض في الحالتين أن القصد من الخطة كان القيام بمظاهرة عسكرية ضخمة في الشمال الشرقى بينما تتخذ التدابير لاسترجاع سوريا . وكان جنود حامية سوريا ممن ظلوا على ولائهم لقيصر أثناء فتنة باسوس قد انسحبوا الى ولاية كيليكيا التي استطاع حاكمها أن يغفل يد الثوار حتى حضر انى سوريا حاكم جديد . وقد استطاع هذا الأخير أن يشق طريقه صوب الجنوب ويضرب الحصار على أپاميا (على نهر العاصى) التي اعتصم فيها باسوس وأعوانه . ولم يلبث باسوس أن استنجد بالبارنيين فقاموا بهجوم على سوريا كي يخففوا عنه ضغط القوات الزاحفة . لكن هذا الهجوم توقف بمجيء شتاء عام ٤٥ . ولم يعد لباسوس أمل كبير بعد أن جاء الى سوريا حاكم آخر في مستهل عام ٤٤ وتحت امرته ثلاث فرق رومانية وانتقلت اليه من بونيا ثلاث فرق أخرى لتعزيزه . وكانت هذه القوات الضخمة كفيفة بتصفية الموقف في سوريا خلال عام ٤٤ وبعدئذ تصبح متأهبة للقيام بدورها في الحملة على بارثيا اذا اقتضت الحال . وأما الولايات الرومانية في آسيا الصغرى فقد انحصرت أهميتها في استخدامها كقواعد لتموين الحملة البارثية .

وقد حرص قيصر على أن يحكم الولايات التي كانت تحتاج الى قوات عسكرية كبيرة في عام ٤٤ رجال يثق بهم . ومن المرجح أنه هو الذي رشع مقدما حكام هذه الولايات لعام ٤٣ ، اذ رشع انطونيوس لبلدونيا ودولابلا لسوريا وتريونيوس لآسيا . وأما في الغرب فقد رأى أن يعين لبيدوس حاكما على أسبانيا القريبة فضلا عن غالة الجنوبية، وأسينيوس بولليو على أسبانيا البعيدة وتحت امرته ثلاث فرق لمواجهة خطر مكستوس پومپي ، وموناتيوس پلانكوس على بقية غالة عبر الألب ، ودكيموس بروتوس على غالة القريبة . وقرر أن يسند حكم بقية الولايات الى من شغلوا الپريتورية عام ٤٤ ، وهم رجال كان له يد في اقتخابهم لهذا المنصب . وقد راعى في توزيع القوات العسكرية حاجات الامبراطورية وحفظ التوازن بين القواد حتى لا ترجح كفة أحد منهم فتسول له نفسه أن يشق عليه عصا الطاعة . لذلك لم يدع أحدا يتولى قيادة قوات ضخمة أو يبقى في القيادة مدة طويلة . واذ كان قد وعى جيدا الدرس الذي تلقاه كراسوس في كرهاى ، فقد أعد قوة قوامها ١٠ر٠٠٠ فارس ، وأخرى اضافية من الرماة لمؤازرة الفرق الرومانية في حملته (١) . وكان ينتوى الزحف إلى بارثيا نفسها عن طريق أرمينيا بدلا من غزو بابل ، وقدر لانهاء الحرب مدة لا تقل عن سنتين .

السياسة المالية :

وحسبنا ان قول عن سياسته المالية ان الخزانة تكبدت نفقات باهظة بسبب مشروعاته الضخمة ومنشآته العديدة التي زين بها العاصمة مجارة للدكتاتور سلا ، واعاقته لأصدقائه المعوزين الذين هيا

(١) يروى ايليتوس (Bell. Civ. II, 110) ان قيصر أعد للحملة ست عشرة فرقة (legiones) أى حوالي ٨٨.٠٠٠ جندي ، على اعتبار ان الفرقة الواحدة = ٢٢.٠٠ جندي ، غير ان الباحثين يرتابون في ضخامة هذا الرقم .

لهم فرص الاثراء بطريق غير مباشر على حساب الدولة ، واسرافه الشديد وبذخه اذ كان يحرص على الترويح عن جمهور المدينة بالمآدب الفاخرة والمهرجانات الفخمة في مواكب النصر التي استغرق أحدها أربعة أيام ، وعلى ارضاء المسرحين بالمكافآت السخية ، هذا الى أن احتفاله بحوالي خمس وثلاثين فرقة عسكرية كان يكلف الدولة نفقات طائلة . وقد زاد من هذه النفقات رفعه راتب جنود الفرق من ١٢٠ الى ٢٢٥ ديناراً في السنة وان كان ذلك قد ساعد على تنمية مخزائهم أثناء الخدمة وقلل بالتالي من احتياجاتهم عند التسريح . لقد كان الحل السليم هو تسريح هذه الفرق ما عدا الضروري منها لصيانة السلم وحفظ الأمن في أرجاء الامبراطورية . وأما عن الاقطاعات الزراعية التي كان يترقبها الجنود المسرحون فكان من الميسور شراؤها لهم بالمال دون اللجوء الى مصادرة أراضى أخرى في الولايات اذا ضمت مصر الى مستلكات الجمهورية . وكانت مصر لا تزال بلداً غنياً وفي وسع روما أن تستغل جانباً من ثروتها لسد حاجتها لقاء ما تكفله لها من أمن وسلام . ولا مراء في أن فكرة من هذا القبيل قد جالت بخاطر قيصر ، غير أن الملكة كليوباترة وقعت حائلاً دون زوال أسرتها وبالتالي دون سقوط مصر حينئذ في يد الرومان : ذلك أنها قتلت الدكتاتور الذي أنجب منها ولداً باسم بطلميوس قيصر . ولم تلبث - على نحو ما ذكرنا - أن لحقت به في روما حيث نزلت بقصر له في حدائقه عبر النهر ، وأقام لها تمثالا في معبد فينوس بوصفها الأم (Venus Genetrix) اننى افحدرت منها أسرته مثيراً بذلك المسلك المتعاض الأريستقراطيين الرومان . وإنه لأمر عسير أن تتحقق من مدى أطماع كليوباترة ، وهل كانت تطمع في مؤازرته لدعم مركزها في مصر فقط أم لبسط سيادتها على غيرها من الأقطار . وأيا كان الأمر فإن مصرع الدكتاتور بدد آمالها وجعلها تنزع بملكيتها الصغيرة على ضفاف النيل .

ومع هذه النفقات فإن قيصر لم يعمل على رفع فئات الضرائب العادية أو على تنمية الدخل بتغيير الجهاز الإداري تغييراً جوهرياً . لقد بنى سياسته المالية على أساس أن الحرب تغطي نفقات الحرب . غير أنه لم يجد مناصاً ، أزاء تتابع الحروب ، من الالتجاء إلى أساليب العنف والأكراه في بعض الأحيان لكي يواجه الأعباء المالية المتزايدة ، فصادر ممتلكات أنصار يومبي الذين تباطأوا في تسليم أنفسهم بعد معركة فرسالوس ، وفرض غرامات فادحة على المدن الأفريقية بعد ثابوس ، واستولى في أنبانيا على أراضي المدن التي قاصرت خصومه . كما حصل على مبالغ ضخمة من بيع « الامتيازات » للملك والمدن الدائرة في فلك روما ، ومن جمع « التبرعات » من الرعايا الأثرياء ، وقد استغل جانبا من الأراضي المصادرة في إفريقية لدعم الخزنة بالمال الناتج من بيعها ، غير أنه وزع معظم الأراضي المصادرة في أسبانيا على المستعمرين الرومان ، فكان سياسة إنشاء المستعمرات كانت غرماً على الدولة في بعض الأحيان . ولعل تخفيض عدد المتقنين نهيات القمع خفف بعض الشيء من فداحة المصروفات . لكن ينبغي ألا ننسى أن المواطنين الرومان في إيطاليا كانوا معفيين من الضرائب المباشرة ، وأن منح سكان غالة غير المواطنين المواطنة الكاملة عاد بالخسارة على الخزنة . ومع هذا فقد كان فرض المكوس الجركمية في الموانئ الإيطالية بعد الغائها في عام ٩٠ بمثابة ضريبة غير مباشرة على المواطنين ، فضلاً عما كانوا يؤدونه من ضريبة على عتق العبيد . وإذا كانت ولايات غالة قد استطاعت أن تغطي بجزئتها الضخمة نفقات حكومتها ، فإن معظم الولايات الأخرى كانت تعاني وقتئذ عجزاً مالياً شديداً . وكان قيصر قد أعفى طائفة من ولايات الشرق الهالينستي من بعض الضرائب . وخفض المبالغ المستحقة على المدن وعهد إلى مجالس هذه المدن بجبايتها دون الاستعانة بالملتزمين الرومان الذين ساءت سمعتهم ، مشدداً الرقابة في الوقت نفسه على الولاة متعاً للتعسف . غير أنه كان لابد من اقضاء

خثرة من الزمن. قبل أن يظهر الأثر الفعال لينحى الابتزاز وتبسيط
الخزافة .

وتأتى فى ختام قائمة إصلاحاته بعض تشريعات متنوعة متفاوتة
الأهمية وفى مقدمتها ما يتصل بالسناو وتكوينه وهى مشكلة عالجه
قيصر بأن زاد عدد أعضائه من ٦٠٠ الى ٩٠٠ عضو محققاً بذلك مشروع
جاوس جراكوس وقاضيا على الأولجركية المتعصبة القديمة . وقد
أدمج فيه كثيرين من أنصاره وضباطه القدامى وبعض أعيان القال
الذين منحهم الجنسية الرومانية . ودعا للجهاز الادارى ومكافأة
لأنصاره فى الوقت نفسه رفع عدد الكويستوريين من ٢٠ الى ٤٠ وعدد
الپريتوريين من ٨ الى ١٦ ، وزاد عدد أعضاء الجناعات الكهنوتية (١)
وغير وضع عدة أسر من العامة بأن إدراجها بين العشائر الشريفة
(*gentes patriciae*) لكى تحل محل بعض الأسر الأخيرة التى اقترضت
وبصبح أفرادها لا تقبل للمناصب الدينية المقصورة على الأشراف ولتعاد
تشكيل محاكم الجنايات مستبعدا « ترابنة الخزافة » من هيئة المحلفين
وان كان الباعث على ذلك ما يزال غير واضح (٢) . وشدد فى الوقت
نفسه العقوبات الخاصة بالجرائم العامة على نحو ما فكرنا . وأصلح
قانونا للحد من البذخ والترف (كالتزين بالمجوهرات وركوب المحاف
والغلو فى زخرفة المقابر) ، وهو قانون كان نصيبه الفشل كقوانين سلا
فى هذا الصدد . وفكر قبل الأوان فى تجميع القانون مفتديا بما فعله
سلا فى تشريع القانون الجنائى ، وهو مشروع يقال ان يومئذ فكر فيه
ثم عدل عنه ، ولم يقدر له أن ينجز إلا بعد إقضاء خمسة قرون (٣) .
وبفضل المسخرات الوفيرة من المعادن الثمينة التى كانت فى حصوته

(١) راجع ص ٨٦ هامش ٢٠٢ ٢٠٢ هامش ٢ .

(٢) راجع ص ١٢٠ ، ٢١١ حاشية ٢ .

(٣) عن المجموعات القانونية الرومانية ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ،

سك عملة تسمى الأوريوس aureus (ويعادل ٢٥ ديناراً) ، فكانت أول قود ذهبية تصدر في روما بانتظام . وتشجيعاً للثقافة وضع مشروع بناء مكتبة تحت إشراف قارو (M. Terentius Varro) ، أكبر علماء الرومان في عصره (١) . وأخيراً قام ، بوصفه كاهناً أعظم ، بإصلاح التقويم الروماني ، وهو أتعق إصلاحاته وأبقاها أثراً . . كان الرومان حتى أيامه يستعملون التقويم القمري حيث تشتمل السنة على ٣٥٥ يوماً ، وكانت أول مارس في الأصل هو رأس السنة الرومانية ، ولكن السلطات عدلت عن ذلك منذ عام ١٥٣ ، وجعلت أول يناير بداية السنة (٢) . وقبل جرت العادة على تصحيح السنة القمرية للمطابقة بينها وبين السنة الشمسية على وجه التقريب ، وذلك بإضافة « شهر نسي » يتكون من ٢٢ يوماً إلى السنة الثانية من كل دورة رباعية ، و « شهر نسي » من ٢٣ يوماً إلى السنة الرابعة من هذه الدورة (٣) . لكن حدث أن أغفل الكهنة في الفترة ما بين سنتي ٥٩ و ٤٦ هذه الإضافات الضرورية لأسباب سياسية أو بواعث شخصية وترب على ذلك أن صارت السنة الرومانية في ٤٦ أسبق من السنة الشمسية بأكثر من شهرين ، فأضاحه . قيصراً العدد اللازم من الأيام للسنة الرومانية الموافقة لعام ٤٦ حتى .

(١) راجع ص ٢٤٧ ، حاشية ١ .

C.L.L. vol. I, 2nd ed., p. 231.

(٢) راجع :

(٣) كان الشهر النسي يضاف بعد اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير الذي كان ينتهي عند ذلك اليوم مرة في كل سنتين . وهذا الشهر النسي المكون من ٥ أيام أصلها من فبراير و ٢٢ أو ٢٣ يوماً إضافياً ، أصبح هو الشهر الثالث عشر من السنة . ويعرف بالشهر الإضافي أو الشهر النسي (mensis intercalaris) . وكانت السنة العادية الأولية من ٣٥٥ يوماً تنقسم إلى ١٢ شهراً : سبعة يشتمل كل منها على ٢٩ يوماً وأربعة على ٣١ يوماً ، وواحد (هو فبراير) على ٢٨ يوماً [المجموع الكلي = ٣٥٥ يوماً] فكان كل من مارس ومايو وكوينتيليس (يوليو فيما بعد) وأكتوبر يشتمل على ٣١ يوماً ، وبقيت الشهور على ٢٩ يوماً ، وفبراير على ٢٨ يوماً . وبهذه الإضافات أصبحت الدورة الرباعية تتكون من ١٤٦٥ يوماً ومتوسط طول السنة $1\frac{1}{4}$ ٣٦٦ يوماً .

بمطابق التقويم الرومانى التقويم الشمسى (١) . ثم وضع تقويميا جديداً كان فى الأصل من ابتكار الفلكى الاسكندرى سوسيجينيس (Sosigenès) ، وجرى العمل به من أول يناير عام ٤٥ . وكان هذا التقويم يستند الى السنة الشمسية المصرية التى تتألف من ٣٦٥ ١/٤ يوم ويدخل فى حسابها الدورة الرباعية بمعنى أن كل سنة من السنوات الثلاث الأولى تتكون من ٣٦٥ ، والسنة الرابعة أو السنة الكبيسة ، من ٣٦٦ يوماً باضافة يوم نسيء (dies intercalaris) بين اليوم الثالث والعشرين والرابع والعشرين من شهر فبراير (٢) .

دكتاتورية يوليوس قيصر :

(١) مناصبه وسلطاته :

ما يزال الخلاف قائماً بين الباحثين حول وضع قيصر وهدفه وهل كان يتنوى اقامة حكم ملكى على أقاض الحكم الجمهورى . وفى رأينا أن لا سبيل الى حسم هذا الخلاف بصورة قاطعة . لكن لعل دراستنا للمناصب التى شغلها والسلطات والألقاب التى منحت له خلال فترة حكمه القصيرة بعد معركة ثابسوس (أبريل ٤٦) تلقى ضوءاً على حقيقة وضعه الدستورى وهدفه السياسى .

(١) وبهذا الاضافة بلغ عدد ايام سنة ٤٦ (وهى تقابل عام ٧٠٨ منذ تاسيس مدينة روما) ٤٤٥ يوماً . وفقد سماها الكاتب ماكروبيوس (Macrobius) آخر سنن الاضطراب (ultimus annus confusionis) فكانها اشتملت على ١٥ شهراً (راجع Suetonius, Div. Jul. XL, 1) .

(٢) وبعبارة اخرى يتكرر يوم ٢٤ فبراير . وقد قل « تقويم يوليوس » معمولاً به بعد سقوط الامبراطورية فى اتحاد العالم المسيحى حتى امر البابا جريجورى الثالث عشر بتصحيحه فى ٢٤ فبراير عام ١٥٨٢ م ، فحذفت عشرة ايام ابتد ، وثلاثة ايام نسيء . فى كل ٤٠٠ سنة منذ عام ٤٥ ، لان السنة كانت حسب تقويم يوليوس تزيد حوالى ١١ دقيقة عن السنة الشمسية الحقيقية ، ومن تقويم يوليوس ، راجع :

٣ . Lewis-M. Reinhold, Roman Civilization I (1951), p. 511 f. ر .
٤ . OCD² (197٥), s.v. Calendars (6) .

استند قيصر في حكمه الى تأييد جنوده القدامى الذين حاربوا معه في غالة وغيرها من الميادين ، والى أنصاره الذين كانوا يدينون له بمناصبهم ، والى القوات العاملة التي أمكنه الاحتفاظ بها تحت السلاح. واستطاع تنفيذ اصلاحاته بفضل مركزه الذي اكتسب صفة قانونية بالمناصب التي أسندت اليه ، والسلطات الاستثنائية التي خولت له ، هذا فضلا عن ألقاب الشرف والتمجيد التي أكسبت وضعه طابعا خاصا . وكانت الدكتاتورية هي أهم تلك المناصب الرسمية . كان قيصر - كما رأينا - قد عين دكتاتورا في النصف الثاني من عام ٤٩ أثناء غيابه ، ثم تنحى عن المنصب بعد أيام من عودته (١) . وقد عين في نفس المنصب مرة ثانية بعد انتصاره في فرسالوس لمدة عام كامل من أواخر أكتوبر ٤٨ الى أواخر أكتوبر ٤٧ على ما يرجح (٢) . وفي أواخر أبريل ٤٦ - فيما يحتمل - قرر اختياره دكتاتورا لمدة عشر سنوات متوالية ، فشغل المنصب بالفعل سنة واحدة للمرة الثالثة (٣) (أبريل ٤٦ - أبريل ٤٥) واعتبر دكتاتورا مسنّ (dictator designatus) لكل

(١) راجع ما تقدم في صفحات ٢٢٧ - ٢٤٨ ، ٢٧٤ .

(٢) Cf. T. R. S. Broughton, *The Magistrates of the Roman Republic* II (1952), pp. 272 f., n. 1.

ولعل بعض الناس اعتدوا أن دكتابورته الثانية لم تبدأ رسميا الا في أواخر عام ٧٧ عندما عاد الى روما بالفعل ، راجع .
A. E. Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," *J.R.S.* XLIV (1954), p. 70, n. 21 *ad fin.*

(٣) نأخذ هنا بالرأى القائل بمرور فترة من الزمن بين الدكتاتورية الثانية والدكتاتورية الثالثة ، وإن قيصر كان فاصلا في الفترة ما بين يناير ٤٦ وأبريل ٤٦ ، راجع :
Broughton, *op. cit.*, p. 285; Raubitschek, *ibid.*, p. 70 f.

ولم تبدأ الدكتاتورية الثالثة رسميا الا بعد عودته الى روما في يوم ٢٥ يوليو عام ٤٦ . حيث انه يوصف في بعض النقوش بالدكتاتور المسنّ (dictator designatus) في الفترة ما بين أبريل ٤٦ ويوليو ٤٦ ، راجع Raubitschek *ibid.*, p. 71 .
ومعنى *designatus* هو المعنّين (أو المنتخبين) لمنصب ولكنّه لم يتقلده رسميا بعد .

سنة من السنوات التسع التالية (١) . ثم شغله بعد ذلك مباشرة للمرة الرابعة حتى تقرر قبل ١٥ فبراير عام ٤٤ بيوم أو أيام قليلة أن يعين دكتاتورا لمدى الحياة (dictator perpetuus) . وتولى قيصر في الوقت نفسه القنصلية ، وهو منصب شغله بصفة تكاد تكون مستمرة من ٤٨ حتى ٤٤ (٢) إما وحده أو مع زميل (٣) ، جامعا أحيانا بين الدكتاتورية والقنصلية (٤) . وفي عام ٤٤ تمتع بالحصانة الشخصية أى اعتبرت ذاته محرومة (sacrosanctus) لا يجوز المساس بها كقضاء العامة ، وإن لم يتمتع - في أغلب الظن - بالسلطة التريونية نفسها (tribunicia potestas) كما يذهب المؤرخ كاسيوس ديون . وكان يتولى أيضا منصب الكاهن الأعظم (pontifex maximus) أى كان رئيس الديانة الرسمية في الدولة منذ عام ٦٣ . وأجيز له عام ٤٨ أن يكون عضوا في كل الجماعات الكهنوتية (collegia) المقصورة عضويتها على الأشراف . وفي عام

(١) Cassius Dio XLIII, 14, 3 (cf. Broughton, op. cit., p. 294 f.)

(٢) ما عدا في الفترة بين سبتمبر وديسمبر (٧) عندما شغل منصب القنصلية إننان من أعوانه هما فوفوس كاليوس ويوبليوس قاتينيوس .

(٣) لم يحدث أن تولى قيصر القنصلية بمفرده إلا في عام ٥٠ ، وقد تنهى عن المنصب حوالي أول أكتوبر من نفس العام ، فانتخب كل من فايوس مكسيوس وجابوس تريونيوس لشغل المنصب في السنة الباقية من العام (consules suffecti) . وحدث أن تولى مكسيوس قبل آخر السنة بيوم واحدا وصى قيصر بانتخاب قاتينيوس ريبيلوس (Rebilus) خلفا له فشغل القنصلية اليوم الأخير من السنة فقط ، وأثار ذلك سخرة شيشرون .

(٤) القنصلية الأولى عام ٥٩ ، والثانية ١٨ ، والثالثة ٤٦ . وقد جمع قيصر بين القنصلية الثالثة والدكتاتورية الثالثة (من أبريل ٤٦ - أبريل ٤٥) . وإذا كان بعض العلماء قد اعتقدوا أن دكتاتورية قيصر الثانية لم تبدأ رسميا إلا في أواخر (٧) عند موته من الخارج (راجع ص ٢١٦ حاشية ٢) فإن ذلك ربما يرجع إلى أن إحدى العملات التي سكنت في أوائل عام ٤٦ حاملة عبارة (COS. TER) قد فسرت بأنه جمع بين القنصلية الثالثة (التي بدأت في ٤٦) والدكتاتورية الثانية التي استمرت في اعتقادهم حتى أوائل عام ٤٦ ؛ ومن هذه النقطة راجع :

H. A. Grueber, *Coins of the Roman Republic in the British Museum* II (1910), 576: COS. TER. DICT. ITER; Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," *J.R.S.* XLIV (1954), p. 70 & n. 12.

٤٦ خول سلطات الرقيب (censor) باسم المشرف على الأخلاق (praeffectus moribus) لمدة ثلاث سنوات ، وبعدئذ لمدى الحياة .

وبفضل هذه المناصب لم يعد في وسع أحد من زملائه من الحكام العاديين أن يعرقل ما يريد إصداره من تشريعات سواء عن طريق الجمعيات الشعبية أم بمقتضى سلطته الدكتاتورية التى تخوله سنن القوانين (legibus scribundis) ، ذلك أن « الامپريوم » الذى منح له كان أعلى من « امپريوم » غيره من الحكام كالقناصل والپريتورين كما أن سلطته كدكتاتور لم تقع تحت طائلة اعتراض قباء العامة (intercessio) . صحيح أن النقباء كانوا يمثلون أقوى معارضة لقيها قيصر أثناء حياته السياسية ، غير أنه لم يكن يتردد - مثلما حدث مرة - فى الإيعاز الى واحد منهم لتقديم اقتراح الى الجمعية القبلية يعزل المناوئين له وانتخاب آخرين يحلون مكانهم . وقد كان فى وسعه أن يتمتع بالسلطة التريونية دون أن يكون نفسه قبييا للعامة (لأنه سليل أسرة من عشيرة شريفة gens patricia) مثلما فعل أغسطس فيما بعد ، فيحل بذلك مشكلة دستورية مستعصية ، غير أنه لم يشأ ذلك أكبر الظن لأن سلطته الدكتاتورية التى لا تسرى عليها سلطة اعتراض قباء العامة جعلته فى غنى عن الثانية . وصحيح أيضا أن السناتو كان فى استطاعته من الناحية النظرية أن يرفض إصدار توصيات (senatus consulta) تحقيقا لرغباته ، كما كان يملك دستوريا الحق فى توزيع الولايات على الحكام ، وأصبح ، على نحو ما ذكرنا ، يمد محاكم الجنايات بنصف عدد المحلفين . وفى الحق ان قيصر لم يسلب هذا المجلس صلاحياته على الأقل من الناحية النظرية ، فظل يبت فى طائفة من الشئون الخارجية ويستقبل السفارات الأجنبية (وبخاصة فى شهر فبراير من كل عام) ،

ويباشر دوره التقليدى فى عقد المحالفات والتصديق على المعاهدات (١). ومع هذا فان قيصر على توقيده لهذه الهيئة التى كان تجاهلها معناه تجريد الحكم من دستوريته تجريدا تاما ، لم يحرص على اشراكها معه فيما كان يصدره من قرارات أو حتى فيما كان يعقده من معاهدات، وأن المجلس بدوره لم يكن يفصل فى أمر هام الا بعد استطلاع مشيئة الدكتاتور والتعرف على رغباته بل كان فى كثير من الأحيان يرجئ النظر فى الموضوع الى ما بعد عودته من ميدان الحرب . وليس هناك ما يؤيد رواية كاسيوس ديون بأن قيصر منح فى عام ٤٨ سلطة اعلان الحرب وابرام الصلح باسم الشعب الرومانى دون الرجوع الى السناتو. غير أن سلطات قيصر الدكتاتور - قياسا على سلطات سلا - أتاحت له أن يرشح عددا كبيرا من أعضاء السناتو مما كان يضمن له الأغلبية فى المجلس فكأنه أصبح فى يده من الناحية الواقعية أمر تعيين حكام الولايات . وكانت صورة السناتو قد تبدلت بعد أن هلك فى الحرب الأهلية بعض أعضائه من خصوم قيصر واعتزل السياسة بعضهم الآخر . وأعاد قيصر بما له من سلطات الرقيب تشكيله بأزطرده منه غير المرغوب فيهم وأدخل فيه عناصر جديدة سواء من ضباطه القدامى أو من سكان غالة البعيدة الذين أثاروا سخرية التقاد سراويلهم الطويلة أو لجهلهم

(١) لم يكن السناتو فى هذا الوقت يملك حق الاعتراض على قوانين الجمعية القبلية أو المئوية إذ أنه فقد هذا الحق قديما بصور قانون هورتنسيوس (lex Hortensia) فى عام ٢٨٧ . وبغض النظر عن فترة حكم سلا التى استرد فيها السناتو حقه فى الاعتراض حتى عام ٧٠ - كان فى وسعه أن يفعل ذلك بطريق غير مباشرى من طريق القنصلين اللذين كانا يعتبران ممثلين له ومتكلمين باسمه (هذا ما لم يكن أحدهما أو كلاهما من خصومه) إذ صدر حوالى عام ١٥٠ قانونان باسم أمابوس وفوفيوس (leges Aelia et Fufia) بخولان القنصلين حق الاعتراض على قوانين الجمعيتين بحجة ظهور طالع obnuntiatio (راجع ما تقدم فى ص ١٧٩) وهو حق تمتعه به أيضا نفاذ العامة ضد القنصلين ولم يزد من سلطاتهم فى الاعتراض بل اكسبها فقط صبغة دينية . غير أن التقييد كلوديوس استمسر فى عام ٥٨ قانونا بتعديل قانونى أمابوس وفوفيوس - وإن كان قد طعن فى شرعية قانونه ، ولعله أبطل فيما بعد (راجع ص ١٧٩ وهاش ٤) وانظر أيضا : J.. Homo, *Roman Political Institutions* (1929), p. 151 f.

الطريق الى دار السناتو (Curia) ، أو من الحكام السابقين كالپريتورين والكويستورين الذين ضاعف عددهم لا لمواجهة الأعباء الادارية المتزايدة فحسب بل طمعا في تأييدهم له بعد انتقالهم الى ذلك المجلس. ولما كانت مقاعد السناتو قد امتلأت بعدد كبير من أنصاره ومن توههم أنهم أنصاره فقد أقسم المجلس يمينا بالسهر على حياته . وكان قيصر بوصفه دكتاتورا يملك حق تعيين مساعد له وهو رئيس الفرسان (magister equitum) الذي كان ينوب عنه في روما وإيطاليا أثناء غيابه في ميدان الحرب . ولتصرف الشؤون الداخلية ولمساعدة رئيس الفرسان خول قيصر الحق في تعيين مديرين أو رؤساء مصالح (praefecti) يحملون شارات منصبه (insignia) ويمارسون سلطة مستمدة من سلطته . وأما في الخارج فقد أجاز له أن يعين مساعدين أو نوابا (legati) وبمنحهم رتبة الپريتور . هكذا قبض على زمام الدولة قبضا محكما بمقتضى سلطته الدكتاتورية .

وقد قيل في الدفاع عن قيصر وتبرير مسلكه إن الجمع بين القنصلية والدكتاتورية لم يكن بدعة من صنعه بل من صنع سلا ، وأن تقلده القنصلية سنوات متتالية له سابقة فيما فعله ماريوس ، وأن انفرادهم بالمنصب الأخير (consul solus) كان مجازاة لپومبي . وكانت قيادة پومبي ضد القراصنة التي أعقبها تنصيبه حاكما على أسبانيا دون مبارحته إيطاليا هي التي أوحى الى غيره أن يفوض على نطاق واسع سلطاته المستمدة من الامپريوم الواحد لطائفة من نوابه ومساعديه (legati) . وقيل أيضا أن حاجيات الجمهورية هي التي حملته على الاتجاه نحو سلطة مركزية كالتى مارسها قيصر . وكان سلا قد خول — بوصفه دكتاتورا — الحق في وضع القوانين ؛ وسواء استعمل سلا هذا الحق أم لم يستعمله ، فإنه كان يتضمن معنى تنازل الشعب الرومانى مؤقتا عن سيادته . وقد تكرر هذا التنازل في أيام قيصر وإن كان قيصر

لم يستغل - على ما يبدو - هذا الحق في المسائل الهامة الا مرات قليلة . غير أن الجديد في الأمر هي تلك السلطات التي لم تكن مستمدة من أى منصب رسمى . وبغض النظر عن رواية كاسيوس ديون بأن قيصر منح سلطة اعلان الحرب وعقد الصلح دون الرجوع الى السانوف - اذ أنها رواية ينفرد بها ذلك المؤرخ - فانه منح من الناحية الواقعية لا القانونية ، الحق في ادارة انتخابات كبار الحكام ، وخوله السناتور بعد انتصاره في مونداء الحق في أن يرشح سنوبيا من يشاء لشغل نصف عدد المناصب العليا في الدولة . ومع أنه كان يكتفى بتركية أنصاره لدى الناخبين ، الا أن ذلك كان ينطوى على سابقة تجاوزت الحدود المألوفة في اقضاء الشعب الروماني عن حكم البلاد . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فأصدرت الجمعية الشعبية^(١) بأيماء من أحد أنصاره قرارا (plebiscitum) في عام ٤٤ يجوز اجراء انتخابات الحكام مقدما للسنوات التالية . واذ كان قيصر قد انتفع بهذا القرار فان تركيباته غدت بمثابة توجيه للمواطنين وايعاز إليهم باقتخاب أنصاره .

ب - ألقابه الدينية :

ويحدثنا كل من سويتونيوس وكاسيوس ديون عن قائمة طويلة بألقاب الشرف والامتيازات التي أعدت على قيصر حتى تتناسب وهذه المناصب الرسمية والسلطات غير العادية^(٢) . وقد أعدت عليه لبواعث مختلفة منها الاعتراف بفضله والاستجابة لرغبته والتزلف اليه والرهبة منه . ولعل بعض هذه الألقاب والامتيازات غير صحيح اختلقه المعجبون به أو المداهنون أو الراغبون في إثارة المسخط عليه . ومع هذا ، وبعد

(١) Suetonius, Div. Iul. LXXVI: Dio, XLIII 14, 44-45; (٢) XLIV, 3-6.

ومن سيرة يوليوس قيصر كما وردت عند المؤرخ سويتونيوس ، راجع :

H. E. Butler & M. Cary, Suetonius, Divus Iulius. 1927.

C. Brutscher, Analysen zu Suetons Divus Iulius und der Parallelüberlieferung. 1958.

المسماة - تحديدا - *Comitia Plebis tributa* - اذ كان يعرف من قبل بمجلس العامة
كانت تنعقد بدعوة من احد نقيبى العامة ويركاسته ، دون حضور
أف وصار لقراراتها (*Plebiscita*) قوة القوانين (منذ
ق ٥٠ م) اما في حالة انعقادها بدعوة من قنصل أو بريطور يحضرها

اغفال الزائف منها ، فلم يسبق أن تمتع بمثلها حاكم روماني واحد ، فضلا عن مجافاة جانب منها للتقاليد الرومانية . لتتناول أولا تلك الطائفة من الألقاب والامتيازات ذات الطابع الديني والتي ما تزال ماثرة نقاش بين المؤرخين ؛ اذ يرى فريق منهم أنها نشأت عن سياسة دينية مرسومة ترمى الى تأليهه رسميا ، وأن هذا التأليه كان وسيلة لدعم نظام الحكم الملكي الذي اعتزم افامته في روما اقتداء بما فعله ملوك الشرق الهلينستي ، بينما يرى فريق آخر أن قيصر ، على كثرة ما خلج عليه من ألقاب وامتيازات شبه إلهية ، لم يؤله رسميا أثناء حياته ، اذ توجد لها سوابق في التاريخ الروماني ولا تنطوي بالضرورة على معنى التأليه . ونحن أميل الى الرأي الثاني ونرى أنها لم تكن وليدة سياسة وضعها هو بقصد تأليهه رسميا بل كانت وليدة حماس شديد غمر بعض أنصاره الذين كانوا يسعون جاهدين الى نوطيد سلطته ودعم مركزه واعلاء شأنه . وكان أول ما أصدره السناتو في هذا الصدد توصية بوضع عجلته الحرية في مواجهة تمثال چويتر بالمعبد القائم فوق الكايتول ، واقامة تمثال له في نفس المعبد تظهر فيه صورة الأرض (المعمورة) تحت قدميه . وترمز العجلة الحرية الى موكب نصره ، بينما يخلد تمثاله الآخر ذكرى انتصاراته في طول البحر المتوسط وعرضه . واذا كان هذا التمثال قد حمل نقشا يوصف فيه تيسر بأنه نصف اله (hemitheos) فقد أمر الدكتاتور بطمسه لا لأن اللقب - كما يعتقد البعض - كان أقل مما يليق به بل لأنه كان أكبر مما يستحقه . وقد تزايدت الألقاب والامتيازات وقاربت ألقاب الآلهة وبخاصة بعد انتصاره في معركة موندا (أبريل ٤٥) الذي اتفق أن وصل نبأه العاصمة في يوم عيد الباريليا (Parilia) ، حيث كان يحتفل دائما بتأسيس روما (٢١ أبريل ٧٥٣) . وعندئذ أوصى السناتو بأن تقام مهرجانات الملعب الكبير (Ludi Circenses) نمجيدا لقيصر وكأنه هو مؤسس المدينة . وأعقب ذلك قرار بمنحه لقب المحرر (Liberator) أي محرر الدولة من العبودية بانتصاره على

= العامة والاشراف ، ولها حق اصدار القوانين ، وتعرف عندئذ باسم *Comitia populi tributa* أي جمعية الشعب القبلية تمييزا لها عن الاولى (جمعية العامة القبلية) .

الأعداء في تلك المعركة . ولا سبيل الى التيقن من صحة القرار الخاص
بتشييد معبد للحرية (Libertas) بوصفها ربة تجسدت في قيصر لأن
مثل هذا المعبد لم يشيد قط كمعبد ربة الوئام (Concordia) . الذي قيل
ان قرارا صدر بينائه في العام التالي تكريما لقيصر الذي بفضلهم
الناس بالسلم والوفاق . ولما كان قد قرن بالمؤسس الأول للمدينة فقد
نصب له تمثال في معبد الاله كويرينوس (Quirinus) وهو من ساد
الاعتقاد بأنه هو روميلوس (Romulus) ، مؤسس روما ، الذي رفع
الى السماء وأله . وروى كاسيوس ديون أن هذا التمثال قد نقش
عليه كلمتان معناهما « الى الاله الذي لا يقهر » (١) - وهي عبارة
وصف بها الاسكندر الأكبر من قبل ولعلها استعيرت في وصف قيصر.
ومن الجائز أنها انشئت بعد موته لا أثناء حياته . وحوالي نفس الوقت
تقرر أن يدخل على منزله من التعديل ما يجعله في شكل المعبد فوق تل
انباتين ، وأن كنا لا ندرى على وجه التحقيق أصار هذا المنزل مقرا
رسميا له بوصفه كاهنا أعظم أم نل مقرا خاصا به (٢) . وتقرر كذلك
أن يحمل تمثاله مع تماثيل الآلهة في موكب المهرجانات الرياضية التي
تقام في الملعب الكبير (Ludi Circenses) . وعندما أقيمت المهرجانات
الرياضية مرة ثانية في يوليو من نفس العام احتفالا بانتصاره في موند
حمل تمثاله بجانب تمثال ربة النصر (Victoria) في الموكب الرسمي ،
وهو مشهد - ان صدقت رواية شينرون - امتعض منه الجمهور
حتى أنه أمتنع عن التصفيق لربة النصر الأثيرة اليه نسبه لوجود قيصر
بجوارها (٣) . لكن لعل الأمر اخلط على الناس فلم يعد في وسعهم
التمييز بين تمثال قيصر الانسان وبتماثيل الأرباب الذين هم في صحبته.

Dio, XLIII, 45, 3.

(١)

(٢) يقول ديون : ان منزلا بنى له على نعمة الدولة في شكل المعبد . غير ان رواية
شبنرون هي الأصح (Phil. 43, 110) إذ يقول : ان جمعونا (fastigium) أخيف
منزله . فارت أيضا رواه المؤرخ فلوروس (١١٧ - ١٢٨ م) : Flor. II, 13, 91
ad Att. XIII, 44, 1.

(٢)

وأهم من ذلك ظهور صورته في ذلك العام على العملة الرسمية لأول مرة (١) ، وهي التي لم تكن ترسم عليها عادة سوى صور الآلهة ، ولم يسبق أن سكنت وهي تحمل صورة انسان ما يزال على قيد الحياة . هذا الامتياز ، وان لم ينهض — في رأينا — دليلا قاطعا على تألية قيصر ، كان أبلغ من سواء دلالة على أنه لم يعد يحفل بالتقاليد الدستورية ، ولا ندري أكان في ذلك مقادا لأنصاره أم متشبها بالامسكندر أم متأثرا بملوك الشرق الهلينستي . وشهد عام ٤٤ طائفة من الامتيازات الرفيعة التي أسبغت عليه . فقد تقرر منحه لقب أبى الوطن (Pater Patriae) مع تخويله الحق في كتابته على العملة . وليس اللقب بالبدعة اذ سبق أن منحه الساتو لشيشرون اعترافا بفضله في انقاذ المدينة من خطر مؤامرة كتيлина (٢) . ولعله منحه لقيصر لأنه ألقذ الدولة من العبودية باتصاره في معركة مولدا على نحو ما ذكرنا ، أو ليؤكد رعايته الأبوية للوطن لأنه كان بوصفه كاهنا أعظم يعتبر ممثلا للدولة لدى الآلهة . وأما القرار بأن يحلف الناس اليمين بروحه الحارسة (Genius) (٣) ، والاحتفال بيوم ميلاده واعتباره عيدا تقام فيه الصلوات ، وتقديم القرابين سنويا من أجل سلامته وطول بقائه ، وتنظيم المهرجانات كل أربع سنوات تكريما له ، واطافة يوم من أجله الى كل عيد رسمى كبير تبجيلا له ، فكلها امتيازات وان تضمنت معنى تشبيهه بالآلهة أو قرنه بهم ، فهي لا تقطع بتأليه رسميا أثناء حياته . وقد سمي أيضا شهر كوينكتيليس (Quinctilis) وهو الشهر الخامس من السنة حسب التقويم الروماني القديم (٤) والذي ولد فيه قيصر ، بشهر يوليو

(١) Dio, XLIV, 44.

(٢) راجع ما تقدم في ص ١٦٥ وهامش ١

(٣) وهي تترجم عادة في اليونانية بكلمة Tychê ومعناها ربة الحظ أو التوفيق أو الروح التي تسدد خطا الانسان (راجع ص ٩٨) .

(٤) كان مارس هو أول شهر في السنة الرومانية حسب التقويم القديم (راجع ص

٣١٤) . وعندما أصبحت السنة تبدأ بينابرصار يوليو هو الشهر السابع .

(mensis Iulius) تخليداً لذكره . ولا يبدو ذلك أن يكون تكريماً مناسباً للرجل الذي أصلح التقويم الروماني ولا يحمل من معاني التأليه أكثر مما تحمله تسمية الشهر السادس (Sextilis) فيما بعد بشهر أغسطس تمجيذاً لاكتافيانوس . ولم نعر حتى الآن على ما يؤيد قرار السناتو بإطلاق اسم عشيرته على إحدى القبائل الرومانية. لكن لا ريب في صحة القرار الذي صدر بإضافة جماعة جديدة تحمل اسم عشيرته (Luperci Iulii) إلى الجماعات الكهنوتية القديمة القائمة على عبادة الإله بان (Luperci) والتي كانت تحمل أسماء بعض العشائر العريقة كعشيرة فايوس وعشيرة كوينكتيوس ؛ وهذا شرف كسابقة لا يعنى سوى مساواة عشيرته (gens Iulia) بتلك العشائر (١) .

وليس من المستبعد أن يكون السناتو قد أصدر قراراً بوضع تماثيله في جميع معابد روما والمدن الإيطالية ، ويغالي ديون وأپيانوس فيقولان أن معابد كثيرة تقرر بناؤها له كأنه إله ، وبينما يتفقان في أن قراراً صدر ببناء معبد له ولرأفته (Clementia) ، وهى أبرز فضائله ، يروى بلوتارخوس أن هذا المعبد تقرر بناؤه لرأفته ، عرفانا بالشكر على صفحه عن خصومه رغم انتصاره (٢) . ولدينا عملة مرسوم عليها معبد وعبارة إلى جانبه تقول « لرأفة قيصر » (Clementiae Caesaris) (٣) . والتفسير الصحيح فيما يحتمل هو أن المعبد - الذى يبدو أن بناءه لم يتم - قد تقرر تشييده لا لقيصر نفسه بل لفضيلة الرأفة التى ألهمه وكأنها ربة تجسدت فيه وأن تماثله تقرر وضعه في هذا المعبد ليظهر في صورة من يصافح الربة أو يؤدي لها التحية مثلما وضع في معبد

Cicero, Phil. II, 85; XIII, 31.

(١)

Appianus, Bell. Civ. II, 106; Dio, XLIV, 6, 4;

(٢)

Plutarchus, Caes. 57.

(٣) وهى من فئة الدينار ، انظر المورقة في كتاب :

L. R. Taylor, The Divinity of the Roman Emperor (1931), p. 69.

كويرينوس ومعابد غيره من الآلهة . ولقد أثبت باحث دقيق أن إقامة تمثال انسان في معبد اله لا ينهض بالضرورة دليلا على أنه كان مؤلها أو يعبد كاله (١) . ويذهب ديون الى أبعد من ذلك مما جعلنا نرجح - ازاء اهتمام اكتافيانوس بتأكيد ألوهية قيصر بعد مصرعه - أن اناس خلطوا بين ما سبق ١٥ مارس عام ٤٤ وما أعقبه . ويضيف هذا المؤرخ الى قرار السناتو بتأليه قيصر ، أنه رفع الى مرتبة كبير الآلهة فحمل لقب زيوس يوليوس (أى چويتر يوليوس) وأن أنطونيوس عين كاهنا له وكأنه كاهن لچويتر (flamen Dialis) (٢) . ويؤيد سويتونيوس الشق الثانى من هذه الرواية فيقول إن قيصر وافق على تنصيب كاهن له (٣) . وتجد الروايتان تعزيزا فيما ورد على لسان شيشرون أثناء حديثه عن قرارات تكريم الدكتاتور قبيل اغتياله ، اذ يقول إن المؤله يوليوس له كاهن هو ماركوس أنطونيوس مثلما يوجد لكل من چويتر ومارس وكويرينوس كاهن خاص (flamen) (٤) . ولا يسعنا ازاء هذا الاجماع الا أن نسلم بتعيين كاهن لقيصر ، وهو شرف دينى رفيع لأن هذا الكاهن كان يحمل عين اللقب (flamen) الذى يحمله كهنة الآلهة الثلاثة الكبار . ومع هذا فينبغى التنبيه الى أن الكاهن - كما يقره شيشرون نفسه - لم يتقلد منصبه رسميا ، ومن الجائز أنه عين تكريما لقيصر لا لعبادته ، بل ليس من المستبعد أن يكون قد عين

A. D. Nock, "Sunnaios Theos" Harv. Stud. Class. Philol. (١)

XLI (1930), p. 3.

Dio. XLIV. 6, 4.

(٢)

Div. Iul. LXXVI: Non enim honores modo nimios

(٣)

recepit: sed et ampliora etiam humano fastigio decerni sibi passus est: templa, aras, simulacra iuxta deos, pulvinar, flaminem, lupercos, appellationem mensis e suo nomine.

Philip. II. 43, 110: Est ergo flamen, ut Iovi, ut Marti,

(٤)

ut Quirino, sic divo Iulio M. Antonius; cf. XIII, 21, 47.

وسواهم من الآلهة كان لهم كهنة يعرفون بنسب pontifices راجع ما تقدم في ص

٢٠٤ هامش .

لربة الرأفة (Clementia) لا لقيصر نفسه . وأما عن تلقيبه
بجوبيتر يوليوس فهي رواية ينفرد بها كاسيوس ديون ولم يؤيدها
كاتب آخر . ولما كان شيشرون يعتبر - برغم تحامله على قيصر - حجة
أوثق منه فقد حاولت باحثة تفسير ذلك بأن ديون انما رسم كلمة ديقوس
divus (ونطقها الصحيح « ديوس » بمعنى المؤله) بحروف يونانية
ولكنها حرفت عند النقل الى كلمة زيوس (١) ، بل انها لا تستبعد أن
تكون كلمة divus قد أوحى الى ديون بالصلة بزيوس وجوبيتر ،
ولا سيما أنها ترتبط بالاسمين من ناحية الاشتقاق اللغوي (٢) .

هذه الباحثة ومن ينحون نحوها لا تعوزهم القرائن للتدليل على
تشبيه قيصر بجوبيتر في أذهان الرومان . وكانت نظرية تأليه الملوك قد
لقيت منذ أيام الاسكندر قبولا في الشرق الهلينيستي واستغلها ملوكه
بانتبارها مبررا قانونيا وسندا أدبيا لممارسة السلطة المطلقة ووسيلة
لتميز الحكم الاستبدادي الشرعى من حكم الطغيان . واذ كان ذلك
العصر قد آمن بنعدد الآلهة فقد امتساع فكرة تأليه الأبطال بعدماتهم،
واعتنت طبقاته المثقفة مذهب يوهيميروس (Euhemerus) الذى نادى
بأن الآلهة انما هم فى الأصل بشر قاموا أثناء وجودهم على الأرض
بجلائل الأعمال أو غمروا الناس بفضائلهم فرفعوهم الى مصاف الآلهة.
لذلك لم يحمل تأليه الملوك فى طياته معنى الايمان الدينى أو المساس
بالمشاعر الدينية . وقد عرفت روما هذا المذهب كما ورد فى الأصل
وعرفته كذلك فى الترجمة منذ أيام الشاعر انيوس (Ennius) (٣) ، واتصل
الرومان بملكيات من هذا الطراز فى كل من مصر وسوريا . واذ كان

(١) ترسم كلمة divus فى المفعول به divum ، وكلمة Zeus فى المفعول به Dis
والأرادف الصحيح لكلمة divus فى اليونانية theios (وأحيانا theos كما فى البردي)
Lily R. Taylor, The Divinity of the Roman Emperor (٢)
(1931), p. 70.

(٢) عن هذا الشاعر الذى عاش بين ٢٢٩ - ١٦٩ ، راجع كتابنا «مصادر التاريخ
الرومانى» ، ص ٢٧ - ٤١ .

هو الطراز الوحيد من الحكم الملكى الذى عرفوه فى القرن الأول ق.م. فقد كان من الطبيعى أن يتأثر به أى حكم فردى يقوم فى روما . لعل قيصر - كما ينهب هذا الفريق من العلماء - قد أدرك التقارب الشديد بين سلطته وسلطة زيوس ، حارس الدولة الرومانية . أو لم يقل يوهيميروس إن زيوس كان أول ملك يتخذ من تأليه نفسه وسيلة لمضاعفة سلطته ودعم سلطانه ؟ لقد كان جوبيتر هو الاله الذى قرن به قيصر كنصف اله (hemitheos) فى قرار السناتو الصادر عام ٤٦ (١) ، وبهذا الاله نفسه قرن - على ما يبدو - فى طائفة العملة النحاسية التى ضربت عام ٤٥ وعليها صورة الصاعقة ؛ بل لقد صنع لقيصر تمثال عليه الدرع (aegis) وفى يده الصاعقة ، وهما الشعاران الرئيسيان لجمهورية روما . لا بد إذن من أن بعض أتباعه قد فهموا تأليه السناتو إياه بما يعنى مساواته بكبير الآلهة . ولقد رفض قيصر التاج الذى حاول أنطونيوس أن يضعه على رأسه فى عيد اللوير كاليا (Lupercalia) وبعث به الى معبد جوبيتر العلى الأعظم قائلا « جوبيتر وحده هو ملك الرومان » (٢) . ولعل ذلك هو ما حدا بأنطونيوس ومن على شاكلته أن يوعزوا الى السناتو بتلقيب قيصر بالموثله (divus) - وهو لقب قريب من اسم زيوس وجوبيتر . وجدير بالملاحظة أيضا أن الجمهور حاول أن يدفنه بعد موته فى معبد جوبيتر فوق الكابيتول .

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بتأليه قيصر رسميا وتلقيبه بجوبيتر أثناء حياته . لكن بغض النظر عن هذا اللقب المغالى فيه ، فإن رواية شيشرون جديرة بالاهتمام لأنه كما أسلفنا يعد حجة أوثق من كاسيوس . ولو صح كلامه لكان معناه أن قيصر قد لقب أثناء حياته بالموثله يوليوس (Divus Iulius) . غير أن ذلك يشير مشكلة ، لأن هذا اللقب (divus) - كما نعرف من تاريخ الفترة التالية - لم يكن يطلق

(١) كلمة hemitheos (نصف اله) يونانية ولا نعرف مرادفها اللاتينية .

(٢) Dio, XLIV, 11.

على الأباطرة إلا بعد مماتهم إذا قرر السناتور رفعهم إلى مصاف الآلهة أى إذا وافق على تأليههم . ومن ثم فقد اتفقت غالبية الباحثين على أن قيصر لم يخلع عليه لقب المؤله (divus) إلا بعد مماته (١) ، بل إنه لم يؤله بمناسبة المهرجانات الرياضية التى أقامها أكتافيانوس تمجيذا لذكره فى يوليو عام ٤٤ . وينبغى ألا تنسى أن شيشرون كان من الحزب المناوئ له فلم يكن راضيا عن مسلكه بل كان متحاملا عليه ، وأن عبارته وردت فى خطبة كتبها للتشهير بصدقه ماركوس أنطونيوس . فمن الحكمة أن نرتاب فى روايته فى هذا الصدد حتى يظهر من الأدلة ما يقطع الشك باليقين . وفى الحق أنه لم يصلنا من روما وإيطاليا حتى الآن دليل مادى قاطع بأن قيصر أعتبر من الناحية الرسمية إلهاً أو مؤلهاً أثناء حياته . ولا عبرة بالنقوش التى جاءتنا من بلاد الإغريق وآسيا انضغرى حيث لم يتخرج الناس من تلقب الحكام بالآلهة وهم على قيد الحياة ، فالتأليه فى نظرهم كان لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب العرفان بالجميل أو الإعجاب الشديد أو الحماس الفياض . فإذا طرحنا جانباً الألقاب التى لا تتضمن بالضرورة معنى التأليه كالمُنْقَذ (sôtêr) والمحِبِّين (euergetês) والمُؤَسِّس (ktistês) ، والنقوش القليلة التى لا تحمل أى تاريخ (٢) ، فلا يتبقى سوى ثلاثة نقوش أحدها رسمى ومؤرخ (٣) والآخران يرجح أنهما رسميان وينسبان أما إلى عام ٤٨ بعد فرسالوس (فى أغسطس) كالنقش الأول أو إلى عام ٤٦ بعد نابسوس (فى إبريل) (٤) . فى هذه الوثائق يوصف قيصر أثناء حياته

Cf. however, L. R. Taylor, *op. cit.*, p. 69.

(١)

(٢) كالنقش المهدى إلى جايوس يوليوس قيصر « الإله » ، وقد وجدناه فى لمبوس : *Ath. Mitt.* XIII (1888), 61.

C.I.G. 2957=Dittenberger, *Syll.* 3, 760.

(٣)

C.I.G. 2369=I.G. XII 5, 557

(٤) وهو من كارثيا فى كيوس

Arch. Eph. 1916, 151; *op. cit.*, 1929, 142 (cf. *J.R.S.* XLIV, 1954, p. 66).

(وهو من ديميترياس فى تساليا)

= وانظر أيضا النقش (I.G. XII, 2, 165b) وهو من مدينة موتيليني

بالاله (theos—deus) لا بالمؤله ، وفي الأولى بالذات (وهى من افسوس) تصفه مدن وقبائل آسيا (الصغرى) بالاله المتجلى (epiphanês). منقذ البشر كافة ، سليل أريس (مارس) وأفروديتى (فينوس) . واذا صح أن هذه النقوش الثلاثة تنتسب الى عام ٤٨ فهى اذن سابقة على أى محاولة قامت بها السلطات الرومانية لرفعه الى مصاف الآلهة . وبعبارة أخرى لا يمكن أن تبعد هذه النقوش دليلا على تأليه رسميا فى حياته . ولنقص اهتمامنا على الأدلة المستقاة من روما وايطاليا حيث عثرنا فعلا على أربعة نقوش لاتينية يوصف قيصر فى ثلاثة منها بالمؤله يوليوس وفى الرابعة بالاله . لكن اثنين منهما يرجعان الى سنة ٤٢ لأنهما يتسيران الى قانون باسم روفرينوس (lex Rufrena) ، وهو رجل يرجح أنه كان أحد ثقباء العامة فى تلك السنة ، أى بعد مرور سنتين على مقتل قيصر (١) ، بينما لا يحمل النقش الثالث — وهو اهداء « لروح المؤله يوليوس الحارسة وأبى الوطن الذى أدرجه السناتو والشعب الرومانى فى عداد الآلهة » — أى تاريخ وان كان سياق الكلام يوحي بأنه كتب بعد وفاته (٢) ؛ وأما الرابع فهو نقش كتبه ضابط رومانى صغير (decurio) من مدينة نولا اعترافا بفضل «قيصر الاله» (٣) ، ولا يمكن

= فى لسبوس والذى يرجع الى عام ٤٨ (فصلية قيصر الثانية) ويرجح انه رسمى ، وفيه يوصف قيصر بالاله ، الخير ، المؤسس (أى مؤسس المدينة) .

(١) Dessau, I.L.S. 73 : Divo Iulio iussu populo Romani

(من مكان غير معروف فى ايطاليا) statutum est lege Rufrena

Dessau, I.L.S. 73a : Deivo Iulio i[ussu] p. R. [st]atut [um est] lege [Rufrena] (من قرية فى بكنيوم)

Dessau, I.L.S. 74 : Genio divi Iuli parentis patriae (٢)

quem senatus populusque Romanus in deorum numerum rettulit.

(وهو نقش من بلدة آيسرنيا فى سبنيوم . لكن راجع رأى الاستلاة تيلور التى

تقول انه من المحتمل تاريخه بفترة حياة قيصر لان الاحتمالات للروح الحارسة نادرة فى حالة الكوتى :

(٣) I.. R. Taylor, The Divinity of the Roman Emperor, p. 269.

Dessau, I.L.S. 6343 : M. Salvio Q. f. Venusto decurioni

[be]neficio dei Caesaris.

وكلمة decurio هنا (فصلية من عشرة رجال من الخيالة .

أن ينهض دليلا لسببين أولهما أنه لا يقطع بأن قيصر وصف بأنه إله في نفس الوقت الذي أنعم فيه بهذا الفضل على كاتب النقش ، وثانيهما أنه على فرض أنه ينتمى الى فترة حياة قيصر فإنه نقش شخصى لا يقطع بتأليه رسميا أثناء حياته . (٤)

ج - لقب « امبراطور » :

ومن بين الألقاب غير الدينية للمهمة لقب امبراطور (imperator) وهو لقب شرفى بمعنى القائد الأعلى وبخاصة القائد الأعلى المظفر . وكان الجنود - كما أسلفنا - يحيون به قائدهم بعد انتصاره في المعركة (١) . وكان امتيازاً يكسب صاحبه الحق فى أن تحتفى به الدولة رسميا باقامة موكب نصر (triumphus) يدخل فيه العاصمة بعد عودته الى إيطاليا . على أن حمل اللقب كان موقوتا بمدة تمتع القائد بسلطة « الامپيريوم » العسكرية ، أى أنه كان عليه أن يتنحى عن اللقب عند تنحيه عن هذه السلطة . ولم يكن يجوز له أن يحمل اللقب بعد دخوله روما وارتدائه الزى المدنى أى داخل الپوميريوم (Pomerium) ، وهى حدود المدينة المقدسة التى تفصل بين نطاق السلطة العسكرية خارجها ونطاق السلطة المدنية داخلها . وفى الواقع أن كل صاحب « امپيريوم » ، وهى سلطة تتضمن حق اصدار الأوامر العسكرية ، كان يعتبر « امبراطورا » من الوجهة القانونية البحتة طالما كان مخولا هذه السلطة . وقد حمل هذا اللقب فى كل مرة أحرز فيها انتصارا على أعدائه مثلما حمل من قبله يومبى وكراسوس وشيرون وكثيرون غيرهم عقب انتصاراتهم . غير أن اثنين من المؤرخين القدامى يزعمان أن قيصر قد وافق على الحق الذى خوله السناتو له باستعمال لقب « امبراطور » كجزء

(١) عن هذه التحية التى تسمى « بالتحية الامبراطورية » (salutatio imperatoria)

راجع ما عدم فى ص ١٠٢ وهامش ١ .

(٢) فى الواقع ان قيصر لم يعتبر مؤلفها بصفة رسمية الا بعد مقتله بحوالى سنتين وذلك بقرار اصدده السناتو فى اول يناير
٤٢ : *Publius Tullius*

ثابت في أول اسمه (praenomen) (١) مثلما فعل أغسطس فيما بعد (٢). لكن هذا الزعم لا تؤيده الأدلة المستقاة من العملة التي ظلت تسك وهي حاملة اسمه الشخصي الأول (جايوس) حتى وفاته. ومن المؤكد أن اسمه الكامل الذي ورثه عنه أكتافيسوس بمقتضى وصية التبنى لم يتضمن لقب «امبراطور». وقد أثبت أحد الباحثين بما لا يدع مجالا للشك أن قيصر لم يحمل هذا اللقب بصفة مستديمة (٣). ولم يختكره لنفسه إذ كان من حق أى صاحب «امپيريوم» مظفر أن ينادى من جنوده بهذا اللقب وأن يطالب بموكب نصر بعد عودته الى إيطاليا. ولا جدال في أن الفرق الرومانية كلها كانت تطيع أوامر قيصر بوصفه متمتعا بالامپيريوم الأكبر أو الأعلى. لكن هذا ليس معناه أن حكام الولايات (من القناصل السابقين) المتمتعين بالامپيريوم الذي يخولهم قيادة جيوش الاحتلال في ولايتهم كانوا مجرد نواب أو مساعدين له (legati) مثلما كان أفرانيوس - مثلا - نائبا ليومبي في أسبانيا. ولقد دخل كل من پديوس وفايوس العاصمة في موكب انتصار وكان قائيوس، حاكم اللوريا، يترقب مثل هذا الشرف. لعل قيصر حمل لقب امبراطور مرات أكثر من سواه نظرا لكثرة انتصاراته وبالتالي حمله مدة أطول من غيره. ولا تنكر أنه كان حريصا على أن ينادى بهذا اللقب الذي يرمز الى السلطة العسكرية حرصه على لقب الكاهن الأعظم، رمز السلطة الدينية (٤). ولعله أيضا تخطى العرف الجمهوري عندما احتفظ

(١) كان الاسم الروماني يتألف من ثلاثة عناصر: الاسم الشخصي (praenomen)، واسم العشيرة (gentilicium) (nomen) واللقب واسم الأسرة (cognomen)، مثال ذلك: جايوس يوليوس قيصر، وتيبريوس سمپرونيوس جراكوس.. الخ (راجع ص ٥، حاشية ١).

(٢) Suetonius, Div. Iul. LXXVI; Dio XLIII, 44, 2: cf. LII, 40, 2; 41, 4.

(٣) D. McFayden, The History of the Title Imperator under the Roman Empire (1920), pp. 15 ff.

(٤) Cf. A. E. Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," J.R.S. XLIV (1954), pp. 71, n. 14; 73.

مرة باللقب ، حتى بعد دخوله المدينة (١) . لقد كان كاتشيانوس هو الذى استأثر بلقب امبراطور ، وجعله جزءا ثابتا فى اسمه ، ومن ثم أصبح رمز السلطة العليا ووفقا على رئيس الدولة دون سواء (٢) ، وبرور الزمن صار ذا مفهوم آخر وهو امبراطور بالمعنى الحديث للكلمة (٣) .

د - الامتيازات « الملكية » :

بقى أن نستعرض تلك الامتيازات التى قيل انها جعلت من قيصر ملكا لا حاكما لدولة جمهورية. لعل قيصر زعم أنه سليل الملوك والآلهة : سليل الآلهة لأن عشيرته الشريفة ، وهى عشيرة يوليوس كانت - فيما روى - تنحدر من صلب يولوس (Iulus) ، بن آينياس الطروادى (وفقا لفرجيل) أو حفيده ، الذى يعلم الجميع أنه ابن أفروديتى (فينوس) ، ربة الحب والجمال ، من أنخيسيس ، و سليل الملوك لأن عشيرته قد نسبت نفسها أيضا الى ملوك ألبالونجا الذين يصعد نسبهم الى مارس ، اله الحرب (٤) . فلا عجب أن كان هذا النسب موضع اعتزاز يوليوس قيصر الذى اختص هذين الالهين بالتكريم ، فساد لفينوس معبدا بوصفها الربة الوالدة (Venus Genetrix) ، وقرر اقامة معبد للمارس ، بصفته الها منتقما (Mars Ultor) اقتص له من

(١) قبل اقامة موكب نصره فى عام ٤٦

(٢) ترجم اليونان لقب imperator بكلمة autokratôr بمعنى التفرد بالسلطة ،

وهى ترجمة غير صحيحة.

(٣) استعمل آكتافيانوس اللقب استعمالا مزدوجا فجعله - مثلا - جزوا ثابتا فى

اول اسمه (بدلا من اسمه الشخصى جايوس الذى ورثه عن الدكتاتور) بمعنى صاحب السلطة العليا ، و اضاف تانية الى القاب بمعنى المنتصر (كلا من الرات) ، مثال ذلك :

Imp. Caesar divi f. Augustus, pontifex maximus imp. XII, cos. XI, trib. pot. XIV, Aegypto in potestatem populi Romani redacta Soli donum dedit. (Dess. I.L.S. 91)

وهو نقش محفور على قاعدتى مسلتين وجدتتا فى الملعب الكبير (Circus Maximus)

فى روما ويرجع الى عام ١٠/١ ق.م.

Cf. Raubitschek, J.R.S. XI.IV, p. 75.

(٤)

اعدائه ، وان كان بناؤه لم يتم الا في عهد أغسطس . فلا غرابة اذا كان قد اتعل أحيانا الحذاء الطويل الأحمر الذى قيل ان أسلافه من ملوك البالونجا كانوا ينتعلونه . ومن النسط أن نعد ذلك تشاهدا على مركزه الملكى . وقد أعطى الحق في أن يزين رأسه باكليل من الغار وأن يلبس عباءة أرجوانية وأن يجلس على كرسي موشى بالذهب والعاج . غير أن هذه الامتيازات لم تكن وقفا على الملوك اذ كانت تمنح للقائد الذى يقام له موكب انتصار (triumphator) . وقد لبس پومپى العباءة الأرجوانية بعد موكب نصره الأخير . ومما يدل على أن هذه الامتيازات كانت من قبيل التكريم فقط دون أن ترمز الى أى وضع دستورى أنها كانت في أول الأمر قليلة وبعدئذ كثيرة وأخيرا غير محدودة (١) . ولقد روى أيضا أن تمثاله وضع في الكايتول الى جانب تماثيل ملوك روما السبعة كأته الملك الثامن (٢) . وأعمق من ذلك مغزى قرار السناتو بأن ترسم صورته على العملة الرسمية في السنة الأخيرة من حياته . ولقد شرحنا معنى هذا القرار من الناحية الدينية . لكنه كان بنطوى أيضا - وبخاصة في نظر خصومه - على معنى آخر هو التشبه بالدول التي تصدر نقودا عليها صور ملوكها . صحيح أن قيصر لم يكن أول روماني يسك عملة تحمل صورته ، فقد سك فاوستوس ابن الدكتاتور مبالا عملة تحمل صورة أبيه ، وأصدر أحد كبار الموظفين الرومان في ولاية أسبانيا نقودا عليها رأس پومپى . غير أن هذا لم يحدث الا بعد وفاة الزعيمين فضلا عن أن العملة الأولى ، وان ضربت في روما ، لم تكن رسمية ، وأن الثانية ، مع افتراض أنها رسمية ، لم تضرب للتداول في العاصمة . وحدث بعد سنتين من مقتل قيصر أن أصدر بروتوس عملة تحمل صورته وشعار الحرية (٣) . ومع أنها ضربت في الولايات الا أنه

F. E. Adcock, C.A.H. IX (1932) p. 727.

(١)

(٢) منهم بلونادخوس بالاميازاب الملكيدون الدلبه التي منحت لقبصر وبذكر لنا

طالفة كبيرة منها (راجع تراجم العظماء : حياة قيصر) .

(٣) أى تحرير الجمهورية من طغسان قيصر بالقتاله .

قصد بها أن تكون عملة رسمية . لقد كان قيصر أول روماني تسك أثناء حياته نقود رسمية حاملة صورته يقصد التداول في روما . ومنع هذا فمن الغلو أن نحمل قرار السناتو في هذا الصدد معنى أكثر من الرغبة في اطرائه وتكريمه ، أو أن نقصر رسم صورته على العملة بمعنى انتهاء الجمهورية . ان حكم قيصر الأوتوقراطي كحكم سلا قد يصفه من ضاقوا به لتقييده حريتهم أو لتجاوزه العرف الجمهوري بأنه حكم ملكي (regnum) . غير أن هذه الكلمة ليست بالتعريف القانوني أو الدستوري المحدد ، وإنما كانت تستعمل أيضا لوصف حكم معين بالاستبداد أو الطغيان (dominatus) . وثمة حق آخر تمتع به قيصر ورأى فيه النقاد ما يجافى التقاليد الدستورية . فقد منحه السناتو حقاً - سبق أن أُلحنا إليه (١) - وهو أن يدرج أفراداً جددًا في طبقة الأشراف أو بالأحرى الحق في أن يرفع أسرا من العامة الى مصاف الأشراف . فقد لوحظ أن عدد الأسر الشريفة كان يناقض باستمرار . ذلك أن أبناء الزواج المختلط (بن العامة plebs والأشراف patricii) كانوا يعتبرون من العامة . ولما كانت بعض المناصب التي تُشغل بالانتخاب (كمنصب ترييونية العامة وأحد مناصب القنصلية ، على سبيل المثال) موصداً في وجه الأشراف فقد أغرى ذلك بعض ذوي الطموح السيامي بالاندماج في أسر العامة عن طريق التبنى مثلاً فعل كلودبوس (Clodius ١٢) في عام ٥٩ (٢) . غير أن عبادة الآلهة وفقاً لطقوس الديانة الرسمية كانت تقتضى أن يتولى الأشراف الشبان بعض المناصب الكهنوتية القديمة ؛ ومن ثم أصبح دعم طبقة الأشراف أمراً ضرورياً على الأقل لشغل هذه المناصب الدينية . وكان من الطبيعي أن توكل هذه المهمة الى الدكتاتور الذي نصب

(١) راجع ص ٢١٢ .

(٢) راجع ص ١٧٩ .

لتنظيم شئون الدولة أو اصلاح الدستور (١) . غير أن السنة النقاد انطلقت تقول ان قيصر أجاز لنفسه حقا ملكيا لأن الملوك القدامى وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بحق زيادة عدد الأشراف أو تحويل أسر العامة الى أسر شريفة .

وفي رأينا أن قيصر لم يشغل مركزا ملكيا ولم يعمل بالتالى على دعم مثل هذا المركز بتأليه نفسه اقتداء بحكام الممالك الهلينية . فهذه الممالك كانت قد شاخت ووهنت وولى مجدها الغابر . وأيا كان الرخاء الاقتصادى الذى حققه ملوك الشرق الهلينيستى لرعاياهم فى بعض الأحيان أو الخدمات التى أسدوها للحضارة بوجه عام فإن حكمهم قد باء فى النهاية بالفشل السياسى . ولامراء فى أن دستور الجمهورية الرومانية كان قد أصبح منذ وقت طويل غير ملائم لحكم عالم البحر المتوسط ، لأن المهمة كانت أجسم من أن تترك فى يد طوائف السناتو المتعصبة المغرضة أو النبلاء المتنافسين ذوى الطموح الذين استغلوا فترة حكمهم القصيرة فى الولايات لاحتراز السلطة واقتناء الثروة ، أو فى يد قباء العامة الذين أساءوا استعمال حق المنقضى ، أو فى يد قواد الجيوش المرتجلة الذين تمردوا على الحكومة المركزية ، أو أصحاب رؤوس الأموال الذين انصرفوا الى جنى الأرباح الطائلة من التزام جباية الضرائب . ومع هذا كله فقد أحرز نظام الحكم الرومانى الذى كانت « دولة المدينة » مركز اشعاعه السياسى نجاحا كبيرا . وكان قيصر نفسه قد قاد جيوش الغرب الى النصر فى ربوع الشرق واتضح له من الحرب الأهلية أن إيطاليا كانت لاتزال هى مركز الثقل العسكرى فى عالم البحر المتوسط . ولم يكن لقوات الشرق البحرية والبرية وزن كبير فى نظر جندى كان يضع ثقته دائما فى الفرق الرومانية . ولقد

(١) أى عين - كما يرى مومسن - : dictator rei publicae constituendae ;
وإن ذهب بعض الباحثين الى أنه نصب لإدارة دولة الحكم : dictator rei gerendae ;
Cf. Broughon, *The Magistrates of the Roman Republic* II (1952).
p. 284 f n. 1

وهنت قوى الملكيات الهلينية وأصبحت أشبه ما تكون بالأشباح والأوهام ، فهل كان قيصر ، الذى عرفه بنزعتة الواقعية ، ليضحي بالسلطة الحقيقية من أجل سُلطة جوقاء ؟ من الواضح أنه كان قد اعتزم فى السنة الأخيرة قبيل مصرعه أن يمارس سلطة أوتوقراطية فى المدة الباقية من حياته سواء لمتابعة اصلاحاته أو لتجنب البلاد أهوال الحرب الأهلية . غير أنه من الخطأ أن يقال ان رجلا مثله على جانب كبير من الفطنة السياسية قد حاول أن يدعم هذه السلطة بالتخلي عن تقاليد الغرب واقتباس تقاليد الشرق الهلينية .

ولا جدال فى أن عوامل الضعف الذى اصاب الحكومة الرومانية لم تكن لتعالج إلا بنوع من الحكم الأوتوقراطى أو - على الأقل - بأسناد حل المشاكل القائمة الى رجل واحد . وكان الفكر السياسى عند الرومان يتجه طوال الجيل السابق نحو تغيير دستورى من هذا النوع وان كانت ذكرى الماضى الذى هيمن السناتو فيه على مقاليد الأمور قد وقفت حائلا دون هذا التغيير . ولقد حاول أغسطس التوفيق بين الفكرتين - فكرة الحكم الفردى وفكرة حكم السناتو - بإيجاد حل وسط فى الظاهر . ولم يكن قيصر ممن يرضون بأوساط الحلول . لكن لعله اعتقد أنه قد يستطيع فى السنوات الباقية من حياته أن يتكر شكلا من أشكال الحكم الأوتوقراطى يوائم فيه بين تقاليد الشرق والغرب . وليس فى وسع أحد أن يتكهن بالشكل الذى كان سيصير اليه هذا الحكم لو امتد به الأجل . « لقد قتل قيصر لما كان عليه لا لما كان من المحتمل أن يكون عليه » . وما لدينا من الأدلة ، وما نعرفه عن أخلاقه ، كلاهما لا يؤيد أنه قد رسم خطة واضحة لمستقبل الدولة الرومانية . فقد عرفناه قائدا يركن الى عبقرية العسكرية فى ايجاد مخرج له من مأزق الحرب . وفى أكبر الظن أنه أرجأ البت فى المشكلة الدستورية الى ما بعد عودته من الحملة البارتية . وثمة شيء له دلالة : وهو أنه لم يعين أحدا ليخلقه من بعده .

سقوط الجمهورية

(٤٤ - ٢٧)

ظهور اكتافيانوس

اغتيال يوليوس قيصر

كان اقتصار قيصر في معركة موندأ بأسبانيا عام ٤٥ ق قد وطد مركزه كحاكم مطلق ، وأتاح له فرصة الحصول على معظم ألقاب الشرف التي سبقت الإشارة إليها . وقد اتضح عندئذ أن قيصر لا ينوى مراعاة تقاليد الحكم الجمهوري ، اذ لم يسمح للسنتو أو للجمعية (القبلية) بحرية التصرف . وكان على الرغم من رفقته وتسامحه مع خصومه سريع الغضب على من يتجاهله أو يتحدى سلطته . وقد أثار بسلكه الاستبدادي ونزوعه الى الحكم المطلق الحقن الدفين في صدر الأولجركية الأرستقراطية التي كانت تمسك بمقاييد الحكم من قبله . وقد ضاقت ذرعا بالقيود التي فرست عليها من جراء سلطته الأتوقراطية . وقد زادها حنقا اسنحفاف قيصر بالسنتاتو الذي هبط الى مستوى مجلس استشاري محض . ولم يكن من المتوقع أن تدعن الطبقة الأرستقراطية ذات التقاليد العريقة للأرضاع الجديدة أو أن تروض نفسها على القيام بدور هزيل في الحياة السياسية ، أو أن تقنع بخدمة حاكم مستبد كان بالأمس واحدا منها . وقد شارك هذه الطبقة في شعورها كثير من الموالين لقيصر ، وكثير من أنصار الحكم الجمهوري الذين كانوا قد تصافوا معه . وهكذا تجمعت هذه العناصر المتدمرة وديرت مؤامرة للتخلص من الدكتاتور . وكان على رأس هذه

المؤامرة جايوس كاسيوس أحد أنصار پومبي القدامى ، والذي نصبه قيصر بريتورا لعام ٤٤ (١) . وقد استطاع كاسيوس أن يضم الى جانبه ماركوس بروتوس ، وهو سليل أسرة رومانية عريقة تنحدر من صلب بروتوس الذي يروى أنه كان قد حرر روما قديما من طغيان الملكية الأتروسكية . وكان ماركوس بروتوس قد انحاز الى جانب قيصر بعد موقعة فرسالوس (عام ٤٨) ، وصار موضع رعاية وتقدير الدكاتور . لكنه رضخ لإلحاح المتآمرين الذين زينوا له أن الواجب يحتم عليه أن يقتدى بسلفه الكبير بروتوس الذي خلص روما من الملكية البغيضة . وكان من بين المتآمرين ذوى المكاة جايوس تريونيوس وديكيوس بروتوس ، وكلاهما من أنصار قيصر (٢) . وبلغ عدد المشتركين الى المؤامرة حوالي ٦٠ رجلا من أعضاء السناتو . وحددوا اليوم الخامس عشر من شهر مارس (Idibus Martiis) عام ٤٤ كموعده لتنفيذ المؤامرة .

وكان قيصر حينئذ منهمكا في الاستعداد للحملة التي اعتزم القيام بها ضد داكيا (Dacia) - شمالي نهر الدانوب الأدنى - على أن يتبعها بحملة أخرى على بارثيا (Parthia) التي كانت تهدد ولاية سوريا منذ هزيمة كراسوس . وكان قيصر يتوق الى غسل عار هذه الهزيمة وتأمين الحدود الشرقية للإمبراطورية بصفة نهائية . وقد حشد لهذا الغرض جيشا يتألف من ١٦ فرقة (legiones) و ١٠٠٠٠٠ من الخيالة في بلاد الانغريق . وأوشك بالفعل أن يغادر العاصمة ليتولى قيادة هذا الجيش . وقد روى أنه حذر من وجود مؤامرة سي حياته ولكنه لم يكثر بالتحذير ، بل انه صرف حرمه الخاص ، ورفض حرسا مؤلفا من رجال السناتو والفرسان . وفي اليوم المشئوم ذهب قيصر الى دار السناتو حيث كان من المزمع مناقشة مسألة منحه لقب « ملك » من الولايات . وقبل أن يدخل القاعة تظاهر أحد المتآمرين بتقديم مظلمة

(١) راجع ص ٢٩٣ .

(٢) راجع ص ٢١٠ - ٢١١ ، ص ٢١٠ .

اليه ، ولم يثبت أن أحاط به بقية المتآمرين واستلوا الخناجر التي أخفوها تحت طيات عباءاتهم وطعنوه عدة طعنات حتى خر صريعا عند قاعدة تمثال بومبي .

لقد مجد الكتاب الرومان الذين تأثروا بالمصادر الموالية للجمهوريين أسماء كاسيوس وبروتوس وشركائهما وأشادوا بدورهم في قتل قيصر لانهاد الجمهورية من طغيانه ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه الا باسم الحرية ، ومن ثم فقد خلعوا عليهم لقب المحررين *Liberatores* ، كما أصبح كاتو الذي آثر الموت على رؤية موكب انتصار قيصر ، أصبح في نظرهم شهيدا وبطلا ورمزا لمقاومة الطغيان ، على نحو ماسبق تفصيله (١) . غير أن هذا الرأي يشوبه ضيق الأفق والتعصب الحزبي . ذلك أن الجمهورية التي اتهم قيصر بالقضاء عليها لم تكن نظاما ديمقراطيا بل نظاما يتيح لفئة قليلة من النبلاء وأصحاب رؤوس الأموال الرومان أن تستغل الملايين من سكان الولايات لخدمة مآربهم الشخصية واشباع نزوات دهماء العاصمة الذين استمروا حياة التسكع والبطالة . ولم يعد نظام الحكم الجمهوري يعبر حتى عن رأى جُلّ المواطنين الرومان . وعجزت السلطات الحاكمة عن تحسين الأحوال وحفظ الأمن . وأصبح من الضروري القيام باصلاحات جذرية حاسمة . ولم يكن من الميسور تنفيذ مثل هذه الاصلاحات الا بالقوة . ولئن كان قيصر قد لجأ الى الرشوة للفوز في الانتخابات ، والى العنف لتوطيد مركزه ، والى السلاح لفض النزاع بينه وبين السناتو ، فينبغي أن نحكم عليه أو له بمقياس ما كان متبعاً في عصره .

وكان قيصر صورة حية للعصر الذي عاش فيه ، فشق طريقه الى العلا بوسائل استعملها سابقوه ومعاصروه . ولا مرأى في أنه كان رجلا محبا للسلطة . لكن ذلك لا يمكن أن يكون محلا للوم ، بل انه ليس من الانصاف أن نلومه لاستعماله السلاح دفاعا عن نفسه عندما أراد

السناتو التخلّص منه بالقوة . ان قيصر يعتبر بحق من أعظم الشخصيات التي ظهرت في التاريخ ، فهو في الطليعة بين السامسة والقواد . كان قيصر في ساحة الحرب بارعا على السواء في توزيع القوات ورسم الخطط العسكرية . وكان في ميدان السياسة بارعا في وضع برامج الإصلاح العملية العامة مع الالمام التام بتفاصيل الشؤون الحزبية . ولم يكن يأى حال رجلا انتهازيا ، بل كان يخطط البرامج السياسية الشاملة مقدما ثم يعمل مثابرا على انجازها . وكان أكثر من غيره فهما للاتجاهات السياسية العريضة في عصره . وأسهم أكثر من خصومه في تحديد هذه الاتجاهات والسير بها الى غاياتها . ومع أنه كان عند السعى وراء أهدافه غليظ القلب مجردا من الشعور ، وكان في جميع علاقاته مترمنا تزمّت الأشراف (فهو سليل أسرة من أعرق العشائر الشرفية) ، الا أن شخصيته الجذابة يسرت له خلق روح الزمالة بين جنوده ، واثارة شعور الولاء والتضامن بين أنصاره السياسيين . وقد دفعته الروابط الأسرية وميوله الطبيعية الى الانحياز الى جانب الحزب الديمقراطي (Populares) . لكن ذلك لم يكن معناه تمسكه بالمبادئ الديمقراطية في الحكم . ان مذهب الحكم المطلق الذي اعتنقه وسعى الى تحقيقه في أواخر أيامه كان نتيجة منطقية للسلطة الكبيرة وحرية العمل الواسعة التي تمتع بها أثناء فترة قيادته الطويلة غير العادية في بلاد الغال . وليس أدل على شجاعته الفائقة ، وثقته بنفسه من قبوله تحمل مسئولية قيادة مصائر العالم المتحضر ، ومحاولته إلغاء النظام القديم ، واقامة نظام جديد للحكم يكفل السلام والأمن للمواطنين الرومان وسكان الولايات الرومانية . لقد قضى قيصر نوبة قبل أن يستطيع تنفيذ أهدافه ، غير أن الجمهورية نفسها كانت قد قضت نحبها هي للأخرى ، ولم يكن من الميسور بعث الحياة فيها من جديد . ولم يعد هناك مناص من أن يقوم من بعده نظام حكم ملكي أو شبيه بالملكي .

ظهور اكتافىوس :

لم يقم قيصر بأى ترتيبات بشأن من يخلفه فى مركزه ، وأحدث مقتله ذعرا هائلا فى روما . وكان المتآمرون يتوقعون أن تؤول السيطرة الى السناتو مرة أخرى . لكن خاب ظنهم لأن الشعب لم يقابل جريمتهم بالترحاب ، ولأن حزب قيصر ، على الرغم من اختفاء زعيمه ، ظل قائما واقفا لهم بالمرصاد . كان الحزب يتألف من ضباط قيصر القدامى ، والمحاربين القدماء ، ودهماء المدينة . وكان على رأسه ماركوس انطونيوس^(١) ، والقنصل ، وماركوس لبيدوس ، رئيس الفرسان (magister equitum) . وانعقد مجلس السناتو فى يوم ١٧ مارس عام ٤٤ ، وكان من الواضح أن أغلبية أعضائه تؤيد المتآمرين . لكن هذه الأغلبية كانت تخشى الفرقة العسكرية التى كانت تحت أمره ماركوس لبيدوس ، والمحاربين القدماء ، المناصرين لقيصر فى العاصمة . وتولى انطونيوس الذى وضع يده على أوراق قيصر^١ أمواله ، زعامة حزبه وشرع فى مفاوضات خصومه . وتم الاتفاق على العفو عن المتآمرين فى مقابل التضديق على تنظيمات قيصر وحتى مشروعاته التى لم تنفذ بعد ، وإقرار وصيته ، والاحتفال رسميا بجنازته .

وقد ظهر من وضية قيصر أنه ترك حوائفه على الضفة اليمنى للتيير لتكون متنزها عاما ، وأوصى لكل مواطن روماني بهبة مقدارها ٣٠٠ مسترتيوس ، وتبنى جايوس اكتافىوس (C. Octavius) وهو ابن آتيا ابنة أخته جوليا وجعله وريثا لثلاثة أرباع ثروته . وقد ألقى ماركوس انطونيوس خطابا رائعا فى تأييد قيصر ، واستطاع أن يلهب به حماس الجماهير ويشير شعورهم ضد قتلة قيصر . وحملت الجماهير جثة الدكتاتور الى السوق العامة حيث أحرقتها (طبقا لطقيوس الدفن الرومانية) ثم وارت رمادها التراب هناك . ولم يجد المتآمرون فى أنفسهم الجرأة على البقاء فى المدينة ، فرحل دكيوس بروتوس الى

(١) ولد ماركوس انطونيوس فى عام ٨٣ ، وهو ابن انطونيوس الملقب بالكريتي (راجع ص ١١٢ وحاشية ٢) .

ولايته غالة القرية ، بينما توارى ماركوس بروتوس وكاسيوس في مكان غير بعيد عن روما . وأمسك أنطونيوس بزمام السلطة في روما وسيطر على الموقف واستغل حرسه الخاص المؤلف من ٦٠٠٠ محارب قديم لالقاء الذعر في قلب خصومه ومعارضيه ، وكبح جماح زميله ليدوس وأشياع قيصر الذين كانوا ينادون بالانتقام من المتآمرين . وقد انتخب ليدوس كاهنا أعظم خلفا لقيصر . وغادر روما الى ولايته أسبانيا القريبة ليصد هجوما من جانب سكستوس پومبي الذي عاد الى الظهور في أسبانيا البعيدة وأزل الهزيمة بوالها الروماني .

وكان قيصر قبل موته قد قرر اسناد حكم ولاية مقدونيا الى أنطونيوس ، واسناد ولاية سوريا الى دولابلا (P. Dolabella) الذي أصبح زميلا لأنطونيوس في القنصلية غداة مصرع قيصر^(١) . وقد عدل أنطونيوس هذا الترتيب بقانون لكي يسند الى نفسه حكم ولاية غالة القرية « وغالة عر الألب »^(٢) لمدة ست (عدلت لخمس) سنوات لا سنتين كما يقضى القانون الذي وضعه قيصر ، على أن يتولى دكيوس بروتوس حكم ولاية مقدونيا . وأسند حكم ولايتي برقة وكريت الى كل من جايوس كاسيوس وماركوس بروتوس في العام التالي . وقد غادرا إيطاليا بعد شهر قليلة الى الشرق بقصد وضع أيديهما على الولايات هناك قبل وصول دولابلا ، وكانا يأملان في حشد قوات يتمكنان من انوقوف بها في وجه أنطونيوس نظرا الى أنه كان يعتبر نفسه الوريث السياسي لقيصر ، وكان يتتوى السير على نهجه للاستيلاء على السلطة المطلقة .

(١) كان قيصر قد قرر أن يرشح دولابلا ليعمل مكانه بعد رحيله الى پارثيا . لكن زميله القنصل أنطونيوس عارض ذلك . لكنه وافق عليه بعد اغتيال قيصر . وأصبح دولابلا قنصلا « مكملا » (consul suffectus) .

(٢) خارج (غالة الناريونية) ، أي " غالة كوماتا " .

غير أن أنطونيوس لم يلبث أن وجد منافساً لم يخطر على باله في شخص جايوس اكتافيوس ، ابن قيصر المتبنى ، والذي كان يبلغ من العمر وقتئذ ١٨ عاماً^(١). وكان عند موت قيصر ينزل في مدينة ابولونيا بولاية اللوريكوم- (اللوريا) مع الجيش الذي حشد هناك استعداداً للحملة على بارثيا . ولم يستمع اكتافيوس الى نصيحة أبويه وعاد الى روما وطالب بميراثه^(٢). ولم يسترح أنطونيوس الى عودته لأنه كان قد لا جزاء من ثروة قيصر ورفض أن يفرض^(٣) وعندئذ جمع اكتافيوس أمواله عن طريق بيع ممتلكاته الخاصة وعن طريق الاقتراض ، وأدى للمستحقين نصيبهم طبقاً لوصية قيصر . وبذلك استطاع أن يكسب بسرعة رضا أتباع قيصر . وازاء معارضة أنطونيوس لم يتم تنفيذ الاجراءات الخاصة بإعلان اكتافيوس ابناً لقيصر بالتبني الا في العام التالي . لكنه بدأ يحمل اسمه « جايوس يوليوس قيصر » ، وأضيف اليه تعميلاً شتبه من اسمهم بميثريته فصار « جايوس يوليوس قيصر اكتافيانوس » ، وان كان معاصروه قد أطلقوا عليه اسم « قيصر » . وقد اشتهر فيما بعد (عام ٢٧) بلقب « أغسطس » (Augustus) .

وقد استخف أنطونيوس بذلك الشاب المعتل الصحة ، وظل لا يعترف به فترة ، لكنه سرعان ما أدرك خطأه . وكان أنطونيوس على نحو ما رأينا - يتوق الى وضع يده على ولاية غالة القرية . غير أن دكيوس بروتوس رفض اخلاء الولاية ، فصمم أنطونيوس على طرده منها بالقوة . وحصل على اذن باستدعاء الفرق الأربع من مقدونيا لهذا الغرض . لكن قبل وصول هذه الفرق جمع اكتافيانوس - على ثقته الخاصة دون تكليف رسمي - قوة من جنود قيصر القدماء في كمبانيا ، وانحازت اليه أثناء زحفه من برنديزي الى روما ، فرقتان من الفرق الأربع العائدة من مقدونيا . هكذا انقسم أنصار قيصر فريقين أو حزبين . وبدأ اكتافيانوس يتعاون مع الجمهوريين في السنوات مما شجع الآخرين على مقاومة أنطونيوس الذي تعذر التفاهم معه . وأما

(١) ولد في ٢٣ سبتمبر ٦٣ . وهو ابن بنت اخت يوليوس قيصر وابوه كان ثرياً من طبقة الفرسان تولى البرترسة ، وحكم مقدونيا توفي ٥٨ .
(٢) في رواية أخرى انه اوفد هناك لاسنكم دراساته وتعليمه

شيشرون الذى لم يشترك فى المؤامرة على حياة قيصر — وان كان قد أبدى ارتياحه لمصرعه — فكان على وشك أن يغادر إيطاليا للانضمام الى بروتوس عندما سمع بتغيير الموقف فى روما ، ولذلك عاد الى العاصمة ليتولى زعامة الحزب الجمهورى . وأقنع شيشرون السناتو بالائتلاف مع اكتافيانوس ضد أنطونيوس الذى رحل الى غالة القريبة فى أوائل ديسمبر (عام ٤٤) . وفى خطبه الشهيرة باسم « الخطب الفيليبية » كشف شيشرون عن مدى بغضه لأنطونيوس ، مثيرا بذلك حقد الأخير عليه .

معركة موتينا (١٦ أبريل ٤٣)

وفى غالة القريبة رفض دكيوس بروتوس — اعتمادا على مساندة السناتو — أن يسلم الولاية لأنطونيوس وقام الأخير بمحاصرتها فى مستعمرة موتينا (Mutina) بنفس الولاية . واتخذ السناتو التدابير اللازمة لنجدة ، وأصدر أمره لأنطونيوس بمغادرة الولاية . ونصب هيرتيوس وپانسا قنصلين فى يناير عام ٤٣ ، وتوليا القيادة ضده وكانت معاونة اكتافيانوس ضرورية لتصفية الموقف ، فمنحه السناتو فى نفس الشهر سلطة *پروپرايتور* (propraetore) وهى تقبض الامير يوم ، وخوله حق القنصل فى أولوية التصويت على المشروعات فى المجلس . ولم تلبث القوات المتحالفة أن أنزلت الهزيمة بأنطونيوس فى معركتين على مقربة من موتينا (١) ، وأرغمته على رفع الحصار فلاذ بالفرار الى « غالة الناربونية » .

ولما كان القنصلان هيرتيوس وپانسا قد لقيا حتفهما فى المعركة ، فقد عهد السناتو بالقيادة ومهمة مطاردة أنطونيوس الى دكيوس بروتوس (٢) متجاهلا اكتافيانوس . وبدأ كآن السناتو قد استرد سلطانه ،

(١) الأولى هى معركة "Forum Gallorum" والأخرى هى موتينا ، وإحدهما قريبة من الأخرى .

(٢) راجع ص ٢٤٦

والمقصود بابويه امه A.T.I.A / وزوجها (بعد ترحلها) *L. Marcia* كانت *Calpurnia* زوجة قيصر قد سلمت أوراقه ومبلغ ٤٠٠٠ لنت ، عقب مصرعه لصديقه ماركوس أنطونيوس .

اذ تمكن ماركوس بروتوس وكاسيوس من وضع أيديهما على الولايات الشرقية بعد هلاك دولابلا في إحدى المعارك ، كما تمكنا من حشد قوات برية وبحرية ضخمة . وعلى ذلك فقد منحهما السناتو سلطة عسكرية غير عادية (imperium maius) في الشرق^(١) ، وأسند القيادة اببحرية الى سكستوس پومپي الذي كان مرابطا وقتئذ في مرسيليا . واستطاع شيشرون في آخر الأمر أن يقنع السناتو بإعلان أنطونيوس عدوا للدولة^(٢) . ولم يعد الخطيب الكبير يشعر بالحاجة الى معاونة اكتافيانوس . وقد عبر عن موقف الجمهوريين ازاءه بقوله « ان هذا الشاب جدير بالثناء ، جدير بالتكريم ، جدير بالتخلص منه »^(٣) لكن سرعان ما تبين لشيشرون أنه لم يقدر اكتافيانوس تقديرا سليما ، ذلك الشاب الذي لم يكن قط أداة طيعة في يد السناتو ، بل استعمل هذا المجلس أداة لتحقيق أغراضه .

وقد رفض اكتافيانوس معاونة دكيوس بروتوس . وطالب السناتو ترشيحه هو قنصلا ، وبالاحتفال رسميا باتتصساره ، ومنح مكافآت لجنوده . ولما رفض السناتو مطالبه ، زحف إلى روما بجيشه واحتل المدينة . وفي ١٩ أغسطس عام ٤٣ انتخب اكتافيانوس قنصلا مع پديوس (Q. Pedius) كزميل له . واقتصد الأخير قانونا (lex Pedia) يقضى بإنشاء محكمة خاصة لمحاكمة قتلة قيصر الذين أدينوا أو نفوا من إيطاليا . ووقع عقوبة الإعدام على سكستوس پومپي غايا . وألغى أيضا قرار السناتو بإعلان أنطونيوس عدوا للدولة .

الحكومة الثلاثية - نوفمبر ٤٣ :

وفي طريقه الى غالة الناربون^(٤) (عبر الألب) قابل أنطونيوس زميله

ad Fam. XI, 20, 1 : laudandum adolescentem, ornandum, (١)

tollendum.

(٢) اي امبريوم بروقنصلى اكبر من الامبريوم البروقنصلى الذى يتمتع به حكام الولايات الرومانية .

(٣) اصدر السناتو هذه " قراره النهائى " فى ٢١ ابريل ٤٣ .

القديم لبيدوس الذى كان السناتو قد استدعاه من أسبانيا لنجدة
دكيوس بروتوس . لكن لبيدوس كان ينتمى الى حزب قيصر وقد
أزعجه نجاح ماركوس بروتوس وكاسيوس ونشاطهما فى الشرق ،
ولذلك أمر قواته بالانضمام الى أنطونيوس^(١) . وكان دكيوس بروتوس
قد شرع فى مطاردة أنطونيوس وأوشك أن يقنع « پلانكوس »
(L. Munatius Plancus) حاكم ولاية غالة عبر الألب (كوماتا) بالتحالف
معه . لكن حاكم هذه الولاية تخلى عنه عقب سماعه بما حدث فى
روما ، وانحاز الى أنطونيوس . كما تخلى الجنود عن دكيوس بروتوس
الذى التجأ الى بلاد الغال حيث لقي مصرعه . عندئذ زحف أنطونيوس
ولييدوس إلى إيطاليا .

وكان اكتافياتوس قد اضطلع بمهمة الدفاع عن إيطاليا وأسرع
بالزحف شمالا لصد قوات أنطونيوس ولييدوس . لكن قبيل الصدام
أمبري الفريكان استعدادا للتفاهم وتوحيد الجهود للقضاء على العدوين
المشتركين ماركوس بروتوس وكاسيوس . وعلى ذلك فقد عقد الثلاثة
في كونيوس^(٢) ٤٣ مؤتمرا بالقرب من بلدة بونونيا (Bononia) (٤) « فى
غالة القريبة » . وسويت الخلافات بينهم ورسمت الخطط للتعاون فى
المستقبل . واتفق الثلاثة على تكوين حكومة ثلاثية لتنظيم شئون الدولة
(triumviri reipublicae constituendae) وذلك لفترة مدتها خمس
سنوات ، على أن يتمتع كل منهم بالسلطة العليا الانفصالية ، مع حق
تعيين الموظفين وتكون أعمالهم نافذة دون حاجة الى موافقة السناتو .
كما وزعوا فيما بينهم الولايات الغربية على النحو التالى : -

(١) تسند الى أنطونيوس الولايات التى سبق أن خصصت له وهى
« غالة القريبة » وكل بلاد الغال عبر الألب (ما عدا غالة
الناربونية) .

كان لبيدوس حاكما على ولايتين : « أسبانيا الغربية » وغالة البشار
(١) وهى بولونيا Bologna الحديثة فى سهل لوبارديا .

(٢) هكذا تبدو نظريا لكنها فريدة ، وتشبه - واقعيا - السلطة
مطلقة التى يتمتع بها مسلاكدكتاتور (راجع ص ٨٢) وان كانت
نابرة غير محددة زمنيا .

(ب) وتسند الى ليدوس غالة الناربونية وأسبانيا القرية .

(ح) وتسند الى اكتافانوس ولايات سردينيا وصقلية وافريقيا .

واتفق أيضا على أن يتنحى اكتافيانوس عن القنصلية على أن يتولى بالإشتراك مع أنطونيوس قيادة الحملة ضد جيوش الحزب الجمهورى فى الشرق ، بينما يبقى ليدوس فى روما لحماية مصالحهما . واكتسبت « الحكومة الثلاثية » صفة شرعية بمقتضى قانون تيتيوس (lex Titia) الذى تبناه أحد ثقباء العمامة فى ٢٧ نوفمبر عام ٤٣ . وبأشر أعضاء الحكومة عملهم رسميا فى أول يناير عام ٤٢ . وكان الائتلاف - على قهض الائتلاف الثلاثى السرى غير الرسمى بين يومى وكراسوس وقيصر (١) - عبارة عن لجنة ثلاثية متمتعة بكافة السلطات العليا الرسمية .

(د) وقد بدأت هذه الحكومة بنشر قائمة سوداء بأسماء المفضوب عليهم ومصادرة أملاكهم على غرار ما فعله سلا . وكان الدافع هو الرغبة فى الانتقام الشخصى أو الاستيلاء على الأموال اللازمة لجنودهم . وكان على رأس الضحايا الخطيب شيشرون الذى أصر أنطونيوس على اعدامه . وقد لقي شيشرون حتفه وهو مؤمن بالنظام الجمهورى الذى تقانى فى الدفاع عنه . لكن ينبغى أن لا تنسى أن تقاينه كان من أجل قضية طبقة النبلاء المنحلة . صحيح أنه لم يشترك فى مفاستها ولكنه أغمض عينيه على هذه المفاسد بل سعى أحيانا الى تبريرها . وفرضت الحكومة الثلاثية ضرائب استثنائية على أرباب الأملاك . وأنشأت للمحاربين القدماء مستعمرات فى أراضى ١٨ مدينة من مدن إيطاليا المزدهرة .

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٦٩ - ١٧٧ .

(٢) وهو ما يعرف اصطلاحا باسم PRORCRIPTIO وقد شملت القائمة حوالى ٣٠٠ من أعضاء السناتو ، ٢٠٠٠ من طبقة الفرسان لكن كثيرين هربوا ، وعفى عن عدد كبير من أعضاء السناتو .

وفي عام ٤٢ أقام اكتافيانوس معبدا ليوليوس قيصر في السوق العامة حيث ووري رماد جثته ~~عندما كان الصبي قد اتخذ قراراً~~ برفع قيصر الى مصاف الآلهة الرومانية وتلقيه يوليوس المؤله (Divus Iulius) (١).

لكن اكتافيانوس لم يلبث أن وجد صعوبات في وضع يده على بعض الولايات المخصصة له ، اذ كان سكستوس پومپي - بفضل سيطرته على البحر - قد احتل سردينيا وصقلية ، كما تضاعفت قواته بانضمام كثيرين ممن أرادت الحكومة الثلاثية التخلص منهم ، وغيرهم من المغامرين . وتبين لـ اكتافيانوس أنه ليس بوسع طرد سكستوس پومپي من هذه الولايات قبل أن يقضى أولا على ماركوس بروتوس وكاسيوس .

معركة فيليبى (سبتمبر / أكتوبر ٤٣)

كان بروتوس وكاسيوس قد حشدا جيشا قوامه ٨٠.٠٠٠ روماني فضلا عن بضع كئات مؤلفة من جنود الحلفاء . واحتل هذا الجيش موقعا في طراقيا وظل يتربح هجوم قوات الحكومة الثلاثية . وفي صيف عام ٤٢ قتل هذه الحكومة قواتها عبر الأدرىاتيكى على الرغم من أن أسطول الأعداء كان يربط فيه . والتقى الجيشان عند مدينة فيليبى (Philippi) التى تقع على الحدود بين مقدونيا وطراقيا . ودارت في سبتمبر رحى معركة غير فاصلة هزم فيها أنطونيوس غريمه كاسيوس الذى استبد به اليأس فاتحرا . غير أن قوات بروتوس دحرت قوات اكتافيانوس الذى أقعده المرض . وقد اضطر بروتوس ازاء الحاج جنوده الى الاشتباك في معركة أخرى . وفي هذه المرة (٢٣ أكتوبر) منى بالهزيمة الساحقة فاتحرا هو الآخر .

(١) تاريخ هذا القرار الخاص هو اول يناير عام ٤٢ ومن ثم صار اكتافيانوس يحمل لقب " ابن يوليوس المؤله " او ابن المؤله
ص ١٧١

تقسيم ادارة الامبراطورية :

وبعد هذا الانتصار أعاد أنطونيوس واكتافيانوس توزيع الولايات الغربية بينهما ، وأما ليدوس فقد أسقطاه من الحساب لأنها كانتا يرتبان في نواياه ، بل اتهاهما بالتواطؤ مع سكستوس پومپى . وفي التوزيع الجديد لم تمنح غالة القرية لأي منهما نظرا لأهمية موقعها الاستراتيجى ، ولم تعد تعتبر ولاية (١) . بل أدمجت في ايطاليا التى صارت حدودها السياسية تطابق حدودها الجغرافية . وأخذ أنطونيوس كل « غالة عبر الألب » . وأخذ أكتافيانوس أسبانيا القرية ، وأسبانيا البعيدة ، وسردينيا ، وكذلك أفريقيا على أن تمنح الأخيرة لزميلهما ليدوس لو أثبت حسن نواياه في المستقبل . ومنذ اجتمع الثلاثة في بونونيا كان أنطونيوس هو الشخصية المسيطرة في الائتلاف ، وقد ازداد نفوذه نتيجة لانتصاره في معركة فيليبى . وقد تقرر في هذه المرة أن يأخذ أنطونيوس على عاتقه تنظيم شئون الولايات الشرقية ، ويجمع الأموال اللازمة من هناك ، بينما يعود اكتافيانوس الى ايطاليا ، ويعمل على تنفيذ مشروع توزيع القطائع الزراعية على الجنود القداماء ، وهو ما وعدتهم به الحكومة الثلاثية . وقد ترتب على هذا القرار نتائج هامة فيما بعد .

وفي صيف عام ٤١ زارت كليوبطرة (Cleopatra) ملكة مصر أنطونيوس في مدينة طرسوس بولاية كيليكيا (بآسيا الصغرى) (٢) . وقد سارت اليه في موكب بحرى فاخر ، واستطاعت أن تفتنه بجمالها وذكائها مثلما فعلت من قبل مع يوليوس قيصر ، ولم تجد في ذلك عناء كبيرا لأن أنطونيوس كان بطبيعته مغرما بالبذخ والترف وحياة اللهو

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٨ وحاشية ٢ .

(٢) زارته بدعوة منه لمساءتها عن سبب تقاعسها عن مساندته رجال حزب قيصر ولعلها قد اشركت معها في الحكم ابنها "قيصرون" عقب عودتها من روما (بعد ١٥ مارس ٤٤) وتخلصها من اخيها الثانى لفترة قصيرة فى عام ٤١ ، ويعتد بصفة مستديمة (منذ ٣٦ - ٣٠) راجع "الملحق" الذى اخذناه لكتاب "مصر من الاسكندر" ٠٠ (١٩٧٣) ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

والمتعة . وقد تبع أنطونيوس الملكة الى مصر حيث مكث معها حتى عام ٤٠ (١) .

وواجه اكتافيانوس في ايطاليا مشكلة توزيع المقاطع الزراعية على حوالي ١٧٠٠٠٠ من المحاربين القدماء . وقد تبين له أن المدن الايطالية التي سبق اختيارها لهذا الغرض (وعددها ١٨ مدينة) ليست بكافية ، ولهذا أمر بمصادرة كثير من الملكيات الصغيرة مما أدى الى تشريد أصحابها المعوزين . وقد دفعت تعويضات لعدد قليل منهم كالشاعر فرجيليوس (P. Vergilius Maro) وهو فرجيل (٢) - وذلك بفضل وساطة بعض ذوى النفوذ . وأيا كان الأمر فقد كان لهذا الاجراء تأثير سيء على رخاء ايطاليا من الناحية الاقتصادية . وقد لقي اكتافيانوس في تنفيذ مشروعه مقاومة شديدة من جانب أصدقاء أنطونيوس ، وبخاصة من زوجته وأخيه لوكيوس أنطونيوس . وقد أفضى ذلك الى نشوب القتال واضطر اكتافيانوس الى محاصرة لوكيوس أنطونيوس في بلدة بيروميا (Perusia) وأرغمه على الاستسلام ، وأما فولشيا فقد فرت لتلحق بزوجها أنطونيوس ، ولجأ أنصارها الى معسكر سكستوس بومبي الذي كان لا يزال مسيطرا على صقلية . لكن أهم من ذلك كله حصول اكتافيانوس على بلاد الغال التي آلت اليه بموت واليهما نائب أنطونيوس . وقد أصبح في وسعه حينئذ أن يعهد وهو مطمئن بولاية افريقيا الى زميله لبيدوس مع تزويده بحامية قوية . وكان من الدلائل الأخرى على قرب نشوب النزاع بين اكتافيانوس وأنطونيوس طلاق الأول من زوجته كلوديا (Clodia) (٣) ، وهي ابنة زوجة أنطونيوس ، وزواجه من سكريبونيا (Scribonia) إحدى قريبات سكستوس بومبي ، الذي كان اكتافيانوس يأمل في كسبه الى صفه (في ٤٠) ،

(١) حملت منه - وبعد رحيله انجبت توأمين ، ابنا وبنتا .
(٢) عاش بين ٧٠ - ١٩ ق.م. وهو اكبر الشعراء اللاتين ، ومؤلف ملحمة «الانيانكا» .
(٣) هي ابنة نقيب العامة P. Clodius في عام ٥٨ .
راجع ص ١٧٧ وما بعدها) من زوجته Fulvia (التي تزوجها من بعده ماركوس أنطونيوس عام ٤٥) وتزوجها اكتافيانوس عام ٤٢ وطلبها دون ان يدخل بها وانجب من سكريبونيا (التي تزوجها عام ٤٠)

اتفاقية برنديزي (٤٠)

وقد حدث في تلك الأثناء أن اكتسح البارثيون ولاية سوريا ، وزاد الموقف سوءا أن كوينتوس لاينيوس (Q. Labienus) ، وهو أحد أتباع بروتوس وكاسيوس ، استطاع بالتحالف مع البارثيين أن يتوغل في قلب آسيا الصغرى حتى البحر الايجي . عندئذ عاد انطونيوس على وجه السرعة الى ايطاليا لكي يدعم قهوذه الذي تضاعف في العاصمة ، ويحشد قوات لتوطيد النفوذ الروماني في الشرق من جديد . وكان كل من انطونيوس واكتافيانوس مستعدا للقتال . وبدأت المناوشات بينهما بالفعل عند برنديزي التي رفضت أن تفتح أبوابها لانطونيوس . لكن ازاء الحاح جنود الطرفين عقد الصلح بينهما بمقتضى ما يعرف بنسم معاهدة أو « اتفاقية برنديزي » . وبمقتضى هذه الاتفاقية أخذ اكتافيانوس ولايات أسبانيا وبلاد الغال وسردينيا وصقلية ودلماتيا ، بينما أخذ انطونيوس الولايات الرومانية الواقعة شرق البحر الادرياتيكي . واحتفظ لبيدوس بولاية افريقيا . وأما ايطاليا نفسها فبقيت مشاعا بين الأقطاب الثلاثة . ودعما لهذه الاتفاقية تزوج انطونيوس الذي توفيت زوجته باكتافيا (Octavia) أخت اكتافيانوس (بعد أكتوبر ٤٠) .

اتفاقية ميسينوم (٣٩)

وفي العام التالي (٣٩) اضطر اكتافيانوس وانطونيوس الى عقد الصلح مع سكسيوس بومبي الذي كان لا يزال مسيطرا على صقلية ، واقتزع سردينيا من يد اكتافيانوس بالاضافة اليها . وقد يمرت له سيطرته على هاتين الجزيرتين والبحار المجاورة لايطاليا أن يقطع طريق المواصلات على السفن التي تحمل مؤونة القمح الى روما حيث كانت قد حدثت مجاعة . وقد ترتب على ذلك أن اجتمع الثلاثة في ميسينوم (Misenum) - قرب پوتيولي عند خليج نابلي - حيث تم الاتفاق على

(٤٠=) ابنته الوحيدة جوليا (في عام ٣٩) ، وطلق امها في نفس السنة ، ولم يلبث ان تزوج فوراً (عام ٣٩) ليفيا دروسيلاً Livia التي كانت متزوجة قبله برجل يدعى تيبيريوس كلوديوس نيرون ولهما منه ولدان .

أن يتولى سكستوس بومبي حكم ولايات سردينيا وكورسيكا وصقلية وأخيراً (أى جنوب بلاد الأغر يق) لمدة خمس سنوات ، وأن يرشح قنصلا وينصب عرافا ، ويتقاضى تعويضا (٧٠ مليون سسترتيوس) عن أملاك أبيه (بومبي الكبير) في روما ، وأن يعمل في مقابل ذلك على تأمين البحر ووصول قوافل السفن المحملة بالقمح سليمة الى روما ؛ وأن لا يأوى في جيشه بعد ذلك عبيدا آبقين . بيد أن هذه الاتفاقية (معاهدة ميسينوم) لم تنفذ . وفي العام التالي (٣٨) اصطدم اكتافيانوس بسكستوس بومبي الذي عاد الى أعمال القرصنة ، ونشبت بينهما الحرب مرة أخرى ، واسترد الأول سردينيا ولكنه عجز تماما عن الاستيلاء على صقلية .

اتفاقية تارنتوم (٣٧)

وفي عام ٣٩ عاد أنطونيوس الى الشرق حيث كان اللوريون يهددون ولاية مقدونيا ، وكان البارثيون لا يزالون يحتلون آسيا الصغرى وسوريا . وقد أحرز أحد ضباط انطونيوس انتصارا ساحقا على اللوريين ، وطرد ضابط آخر وهو لاينوس البارثيين من آسيا الصغرى ، واسترد سوريا ، وصد هجوما آخر شنه البارثيون . وفي عام ٣٨ رجع انطونيوس الى ايطاليا استجابة لنداء اكتافيانوس الذي أزعجه نشاط سكستوس بومبي المتزايد . لكن اكتافيانوس لم يحضر الاجتماع في الوقت المناسب ، ولم يشأ انطونيوس أن ينتظره . ومع هذا فقد تم اجتماع الطرفين في تارنتوم (Tarentum) في ربيع العام التالي (٣٧) ، لأن اكتافيانوس شعر بحاجة الشديدة - بعد هزيمته على يد سكستوس بومبي - الى مساعدة انطونيوس ، كما شعر انطونيوس بحاجة الى مزيد من الجنود الايطاليين لاستخدامهم في

حملته على بارثيا . ولم تكن الثقة متبادلة بينهما . لكن على الرغم من ارتياب كل منها في نوايا الآخر ، فقد تم الصلح بينهما رسميا بفضل مساعي اكتافيا . ونصت « اتفاقية تارتوم » على أن يمد أنطونيوس زميله بحوالي ١٢٠ سفينة لكي يستخدمها في حربه ضد سكستوس پومبي ، وأن يتعهد اكتافيانوس في مقابل ذلك بأن يمد زميله بأربع فرق عسكرية من الفرق المرابطة في افريقيا . وتعد أنطونيوس تعهدهاته ، ولكن اكتافيانوس لم يمد بالفرق التي وعده بها . ولما كانت سلطة الحكومة الثلاثية قد انتهت رسميا في آخر ديسمبر عام ٣٨ ، فقد قرر أعضاؤها إعادة تعيين أنفسهم لمدة خمس سنوات أخرى تنتهي في آخر عام ٣٣ (١) واحتفظ بنفس توزيع الولايات الذي نصت عليه اتفاقية برنديزي عام ٤٠ . وقد تم هذا التعيين كسابقه عن طريق قانون خاص .

وفي تلك الأثناء شدد اكتافيانوس هجومه على صقلية ، وعاونه لييدوس بمحاصرة مدينة ليليايوم . وأخيرا استطاع اجريبا (M. Vipsanius Agrippa) (٢) . وهو أقدر ضباط اكتافيانوس ، تدمير معظم أسطول سكستوس پومبي في معركة ناولوخوس (Naulochus) عام ٣٦ ، وفر الأخير الى آسيا حيث وقع أسيرا في يد قوات أنطونيوس بعد حوالي سنتين ، وبعدئذ لقي مصرعه . وبعد فرار سكستوس پومبي بدأ لييدوس ينازع حق اكتافيانوس في صقلية ، ولكن قواته تطلت عنه وافحازت الى اكتافيانوس ولم يجد مفرا من أن يضع نفسه تحت رحمة الأخير . وقد جرد من سلطته ولم يحتفظ الا بمنصب الكاهن

(١) خُصِّبَت الخمس سنوات (quinquennium) باثر رجعي ابتداء من أول يناير

عام ٢٧ وبذلك تنتهي في ٢١ ديسمبر عام ٢٢ . وفي رأي آخر أنها خُصِّبَت ابتداء من أول

يناير عام ٣٦ ، وبذلك تنتهي في ٢١ ديسمبر عام ٢٢ .

(٢) ولد حوالي سنة ٦٣ ومات في مارس ١٢ ق م تزوج جوليا ابنة -
اكتافيانوس في عام ٢١ وانجب منها ابين وثلاث بنات .

(٣) في ٣ سبتمبر وسبقها انتصاره في معركة «...»

الأعظم ، وعاش بقية حياته في إحدى المدن الإيطالية الى أن توفي سنة ١٢ . ووضع اكتافيانوس يده على ولاياته . وترتب على هزيمة سكستوس بومبي وعزل لبيدوس أن أصبح اكتافيانوس منفرداً بالسلطة في النصف الغربي من الامبراطورية ، واحتدم بينه وبين أنطونيوس أوار المنافسة التي انقلبت إلى خصومة شديدة .

انتصار اكتافيانوس :

رحل أنطونيوس بعد اتفاقية تارتوم الى سوريا للاستعداد لغزو بارثيا ، وبدأه بالفعل في عام ٣٦ . وقد تجنب أنطونيوس طريق صبح ماين النهرين ذى الذكريات المشؤمة (١) ، وسلك طريقاً شمالياً عبر ارم الى « ميديا أتروپاتيني » ، معتمداً على معاونة ملك أرمينيا . لكن الأتخلى عنه وغدر به . ونجم عن ذلك أن دمر البارثيون آلات الجص الرومانية وقضوا على احتياطي مؤوتهم . عندئذ وجد أنطونيوس نفسه مضطراً الى أن ينفض يديه من الحملة ، وينتقد جيشه بالانسحاب واستطاع بشجاعته وبراعته في القيادة أن يسحب معظم قواته الى أرمينيا على الرغم من مطاردة الخيالة البارثيين له ، ولكنه خسر عملية الانسحاب هذه حوالي ٢٠٠٠٠ جندي ، وتدهورت سمعته لفشل الحملة . وتبين له أن من المستحيل معاودة الحملة على بارثيا دون أن يتلقى امدادات من إيطاليا . وعندما بعث اليه اكتافيانوس بما تبقى من سفن بعد المعارك البحرية حول صقلية دون أن يمدّه بالفرق العسكرية التي وعده بها ، أدرك أن اكتافيانوس يدبر اقصاءه عن إيطاليا ، وأنه اذا لم يعمل على دعم تفوذه في الغرب من جديد ، فليس أمامه سوى ترويض نفسه على قبول مركز أدنى من مركز خصمه .

(١) عن حملة كراسوس التي انتهت بكارثة « كرهاي » في تلك المنطقة ، راجع ص ٢١٦

وعلى أى حال فلم يكن فى وسع انطونيوس حينئذ الا أن يعقد محالفة مع ملك « ميديا اتروباتينى » ، وأن يحتل أرمينيا ، وأن يأخذ ملكها أسيرا عقابا على غدره به .

وقد زادت شقة الخلاف اتساعا بين انطونيوس واكتافيانوس بسبب علاقة الأول بكليوبطرة ، فبينما كان أنطونيوس مقيما فى أنطاكية عام ٣٧ ، عقد زواجه رسميا على الملكة المصرية (١) . وبعد هزيمته فى بارثيا رفض أن تلحق به اكتافيا زوجته الرومانية الشرعية التى كانت وفية له وترغب فى مساعدته . وكان معنى مسلكه هو نبذ صداقته لاكتافيانوس جهارا . ومع أنه من العسير أن يقرر أن انطونيوس قد أصبح أداة طيعة فى يد كليوبطرة ، فإنا لا نستطيع أن ننكر أنه بدأ يقتنع بمشروعاتها التى تتلخص فى أن يتمسك بحقه فى خلافة يوليوس قيصر وحكم الامبراطورية على أن تكون هى بوصفها زوجته شريكة له فى السلطة مع ادماج مصر فى الامبراطورية عندما تصبح الظروف مواتية . وهكذا تؤمن مستقبلا ومستقبل مملكتها . وقد اتضح أحد هذه المشروعات بجلاء فى الاحتفال الذى أقيم بالاسكندرية عام ٣٤ ، حيث ظهرت كليوباترا فى زى الربة ايزيس ومعها انطونيوس ، وقد جلس الاثنان على عرشين شاهقين من الذهب . وخطب انطونيوس فى انجماهير المحتشدة ، ونادى كليوبطرة باسم « ملكة الملوك » وحاكمة مصر وقبرص وكريت وفلسطين ، ونادى بقيصرون (٢) الذى اعترف بينوته ليوليوس قيصر كشريك لأمه فى الحكم باسم « ملك الملوك » ، وأعلن ابنه الأكبر من كليوبطرة ملكا على أرمينيا وميديا وبارثيا ، وأعلن ابنه

(١) عن علاقة كليوبطرة بانطونيوس فى هذه الفترة ، راجع كتابنا «مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية» ص ٢١ - ٤٠ .

(٢) اسمه الرسمى بطلميوس قيصر ، راجع ص ٢١١ . وكذلك ص ٢٧١ حاشية ٣ . ولد - على ما يرجح فى ٢٣ يونيه ٤٧ بعد مغادرة قيصر لمصر .

(٣) الابن الأكبر ، اسمه الاسكندر هيليوس الشمس ، البنت الصغرى =

الأصغر ملكا على سوريا وفينيقيا وكيليكيا وأما ابنتهما الصغرى فأعلنت ملكة على برقة . ومع أن افطونيوس لم يلقب نفسه « ملكا » إلا أن هذه الاجراءات أثارت عليه الدوائر الرومانية التي أغضبها تقسيمه ولايات روما الشرقية على أمراء أجانب ، وإن لوحظ أن بعض هذه الممتلكات التي عرفت باسم « الهبات السكندرية » لم تكن قد وقعت بعد تحت سيطرة الرومان .

وعندما بلغ اكتافيانوس في عام ٣٣ نبأ اعتراف افطونيوس ببنوة قيصر ليو ليس قيصر ثارت ثائرتة واحتج على ذلك وشكك في الشكوى من سوء معاملة افطونيوس لأكثافيا ، ومن ثم فانه لم يعمل على تحقيق مطلبى افطونيوس بخصوص الامدادات من الجنود الايطاليين والاضاع الزراعية لجنوده القداماء . وأخذ الطرفان يتبادلان التهم والسباب ، واشتدت حملة كل منهما على الآخر ، واشترك في الحملة أنصار الطرفين . وقد شوهت الحقائق في غمار هذه الحملة الدعائية المحمومة ، وجاءتنا أخبار هذه السنوات في المؤلفات التاريخية مضطربة متناقضة حتى ليتعذر علينا ، ان لم يكن من المستحيل ، أن نبني صورة صحيحة واضحة عن الموقف من وجوه كثيرة .

وقد انتهت مدة الحكومة الثلاثية من الناحية القانونية آخر عام ٣٣ وتولى القنصلية في العام التالي رجلا من مرشحي افطونيوس الذي سعى الى كسب تأييد الرأي العام في روما فأرسل الي السنا تو رسالة يطلب فيها اقرار جميع تنظيماته (acta) التي اجراها في الشرق ، ويعرض فيها أيضا التنحي عن سلطاته الاستثنائية كمضو في الحكومة الثلاثية واعادة الدستور القديم . ولم يشأ القنصلان أن ينشرا كل محتويات الرسالة حتى لا تثير مسألة توزيع الممتلكات الشرقية على

== واسمها كليوباتره سيليني (القمر) هما توامان ولدا في عام ٤٠ . (راجع ص ٢٥١ هامش ١) وأما الابن الأصغر واسمه "بظلميوس فيلادلنوس" فقد ولد عام ٣٦ .

كليوبطرة وأبنائها غضب الرأي العام عليه ، بل أن أحد القنصلين هاجم اكتافيانوس ، وكاد يتقدم باقتراح بتنحيته عن السلطة العليا في الحال لولا اعتراض أحد قضاة العامة على ذلك . عندئذ لجأ اكتافيانوس الى العنف وأرهب السناتو بحرسه الشخصي المسلح ، ولم يجرؤ أحد على مقاومته ، ولذا بالفرار كل من القنصلين وعدد غفير من أعضاء السناتو لاجئين الى معسكر انطونيوس الذي رد على اكتافيانوس بأن أعلن رسميا طلاقه من اكتافيا . وكان مغزى ذلك هو إشهار الحرب على أخيها الذي أخرج على الفور وصية انطونيوس المودعة في معبد الربة فستا ، ونشر منها بعض الأجزاء التي كان يعرف أنها تثير الرأي العام ضده وضد كليوباترا ، ولا سيما ذلك الجزء الذي قيل إن انطونيوس يؤكد فيه توزيع الولايات الشرقية على كليوبطرة وأبنائها ، والذي لا يستبعد أنه كان مزيفا أو مدموسا عليه (١) . وقد ازداد شعور العداء نحو كليوبطرة الى حد أن اكتافيانوس استطاع أن يحمل أعضاء السناتو الذي بقوا في روما ، وسكان المدن الإيطالية المتمتعة بالحكم الذاتي ، وسكان الولايات الغربية ، على أن يقسموا له يمين الولاء (coniuratio) . وكافية هذه اليمين هي السند الرئيسي لسلطته في السنوات القليلة التالية ، حيث أن اكتافيانوس لم يعد يعتبر نفسه عضوا في الحكومة الثلاثية .

وامتادا الى هذه الثقة التي وضعها فيه الشعب ، استصدر اكتافيانوس قرارا بإبطال سلطة انطونيوس العليا ، والغاء ترشيحه قنصلا لعام ٣١ . وبديهي أن انطونيوس لم يعترف بشرعية هذه الاجراءات . وأخيرا أعلن اكتافيانوس الحرب رسميا لا على انطونيوس

(١) عن هذه الوصية ، راجع كتابنا « مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأدراك البردية » ص ٢٤ وحاشية ١ .

بل على كليوبطرة عدوة الشعب الروماني ، قاضيا بذلك على أي أمل في الصلح .

معركة اكتيوم (سبتمبر عام ٣١) :

في خريف عام ٣٣ استقر أنطونيوس وكليوبطرة في مدينة أفسوس (على ساحل آسيا الصغرى) وشرعا في تعبئة القوات اللازمة لتوطئة للصراع المرتقب . وكان بعض كبار الرومان في معسكر انطونيوس يعترضون اعتراضا شديدا على وجود الملكة المصرية لأنهم كانوا لا يرغبون في الظهور كأنهم يقاتلون من أجلها ويشعرون بأن ارتباطها بأنطونيوس على هذه الصورة انما يقوى من مركز خصمه . لكن كليوبطرة كانت هي التي تمول الجيش والأسطول بأموال مصر ، ولذلك بقيت غير حافلة بالاعتراض . وفي غضون العام التالي (٣٢) حشد انطونيوس جيشا يتألف من ٨٥٠٠٠ أو ٩٠٠٠٠ مقاتل ، وأسطولا قوامه ٥٠٠ سفينة وزحف على رأس هذه القوات نحو الغرب عبر البحر الايجي متجها الى بلاد الاغريق وقيل أنه فكر في النزول في ايطاليا ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، ولذلك أنزل جيشه في سواطيء خليج أمبراكيا (غربي بلاد الاغريق) ورابط أسطوله في مياه ذلك الخليج حيث أمضى شتاء عام ٣٢ - ٣١ .

وفي ربيع عام ٣١ عبر اكتافيانوس ومعه جيش يضاهي جيش انطونيوس في العدد وأسطول مؤلف من ٤٠٠ سفينة ، البحر 'لادرياتيكي الى ايبيروس (غربي بلاد الاغريق) حيث رابط في مواجهة العدو الذي احتل خليج اكتيوم (Actium) عند مدخل امبراكيا . واستطاع أجريا ، وهو من أقدر قواد اكتافيانوس ، استطاع أثناء المناورات التي حدثت بعد ذلك ، أن يحاصر أسطول أنطونيوس في خليج

اكتيوم ، بينما أخفقت محاولات أنطونيوس لارغام خصمه على خوض معركة برية أو منع وصول المؤونة اليه من البر . واستولى اكتافيانوس على كورثة وغيرها من المراكز الحيوية ، واستغل تفوقه في سلاح الفرسان لقطع طريق الاتصال بين قوات انطونيوس وداخل بلاد الاغريق حتى بدأت هذه القوات تشعر بنقص المؤونة ووطأة الأمراض . ونشب النزاع بين كليوبطرة وبعض الضباط الرومان وتخلت بعض الشخصيات البارزة عن انطونيوس وانحازت الى اكتافيانوس . وهكذا وجد انطونيوس نفسه في مركز صعب فاضطر الى خوض معركة بحرية . وليس في وسعنا الآن أن تبين نواياه بوضوح ، فقلعه كان يتتوى أن يقاتل حتى يحرز نصرا حاسما . لكن يرجح انه كان قد وطد العزم على أن يترك معظم قواته لتدافع عن نفسها في المعادل الاستراتيجية ببلاد الاغريق ، بينما ينسحب هو وكليوبطرة مع بقية قواتهما بعد أن يخرقا الحصار . ولو نجحت المحاولة لأصبح في وسعه أن يجمع شمل الحاميات التي تركها وراءه في الشرق بحيث يتسنى له مواصلة النضال ضد خصمه . وقد استطاعت كليوبطرة أن تخرق الحصار مع جزء من الأسطول المحمل بالكنز الخاص بها ، وسرعان ما تبعها انطونيوس . لكن أغلب سفنه وقعت في الأسر أو استسلمت للعدو . وسرعان ما استسلمت أيضا للعدو قواته التي كانت مرابطة على الساحل . وعندما رفضت حاميات الشرق الامتثال لأوامر انطونيوس اضطر الى الانسحاب الى الاسكندرية والاعتماد على ما تيسر له حشده هناك من قوات جديدة .

وتقدم اكتافيانوس على مهل نحو الشرق . وفي صيف عام ٣٠ بدأ غزوه لمصر . وذهبت سدى كل محاولات انطونيوس لتنظيم الدفاع عنها ، اذ تخلت عنه قواته ، وانحازت الى اكتافيانوس الذي احتل

الاسكندرية في أول الشهر السادس (وهو شهر أغسطس فيما بعد) (١) عام ٣٠ . ولما ترامى الى سمع أنطونيوس أن كليوباترة انتحرت ، انتحرت هو الآخر ، لكن الملكة لم تكن قد انتحرت بل حوصرت وأوشكت أن تقع أسيرة . ولما وجدت أن اكتافيانوس رجل شديد المراس قوى الشكيمة لا تلين له قناة وأنه من المستحيل اقناعه باحتفاظها بمملكتهما فقط لنفسها أو حتى لأبنائها ، آثرت أن تحذو حذو أنطونيوس (الذى حزن عليه وبكته) على أن تقع أسيرة وتدخل روما في ثياب الذل مسوقة في موكب انتصار اكتافيانوس الذى كان يأمل - على ما يرجح - في أن يتحقق له ذلك . فقد لوحظ أنه عمل على تحويل دور « الملكة المصرية » في الصراع لكى يجمع حوله رأى العام الرومانى ، غير أنه لم يشأ أن يتحمل مسئولية مقتلها ، وان أمر بقتل قيصرين والابن الأكبر لأنطونيوس لأن كلا منهما كان نسبه يؤهله لأن يكون منافسا خطيرا في المستقبل . وتحولت مصر الى ولاية رومانية ، وأسهمت مواردها في سد نفقات الحملات التى قام بها بعد ذلك ، ومكنته من توزيع المكافآت على جنوده المسرحين .

وبعد أن أعاد اكتافيانوس تنظيم الولايات القديمة والممتلكات الرومانية الأخرى في الشرق ، عاد الى روما في عام ٢٩ حيث احتفل لمدة ثلاثة أيام بانتصاراته على الشعوب غير الرومانية في أوروبا وآسيا وأفريقيا ، تلك الشعوب التى قهرها هو أو ضباطه المساعدون أثناء عهد الحكومة الثلاثية .

(١) الشهر السادس (mensis Sextilis) على اعتبار أن السنة كانت قديما تبدأ من مارس ، فلما أصبحت (بعد عام ١٥٢) تبدأ من يناير أصبح « الشهر السادس » هو الشهر الثامن . ولكنه ظل محتفظا باسمه القديم الى أن سمي في عام ٢٧ ق.م. باسم « أغسطس » وهو اللقب الذى خلع على اكتافيانوس فى نفس العام (٢٧ ق.م.) راجع كتابنا « مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البيرية » ص ٤١ ، حاشية ١ . وجدير بالذكر أن عام ٢٧ ق.م. هو تاريخ قيام الحكم الإمبراطورى .

وهكذا آلت الى اكتافيانوس وهو في سن الثالثة والثلاثين تركة
يوليوس قيصر السياسية بعد أن أثبت جدارته بها . وقد أسدل
انتصاره الأخير الستار على قرن مشحون بالنزاع الأهلى كان قد بدأ
منذ تريونية تيريوس جراكوس ، اذ قضت الحروب وحركات الانتقام
على أرواح غفيرة من الرومان والايطالين ، وأشرفت بلاد الاغرين
ومقدونيا وآسيا الصغرى على الدمار . وقد تاق الناس فى الامبراطورية
قاطبة الى السلام . فلا عجب أن نادوه فى كل مكان باسم منقذ البشرية
ولقبوه بمؤسس عصر ذهبى جديد ، وأبدوا استعدادهم لعبادته كاله .

* * *

محتويات الكتاب

صفحة

١ — ٤٤

الفصل الأول :

الثورة : الدور الأول

النضال بين الأرستقراطيين والديمقراطيين (١٣٣ — ٧٨)

السناتو والزعماء الشعبيون

٢

تييريوس جرا كوس

« قانون الإصلاح الزراعي »

١٤

جايوس جرا كوس

« ظهور الحزب الديمقراطي »

٤٥ — ٩٩

الفصل الثاني :

ماريوس وسلا

(١٠٧ — ٧٩)

٤٦

ماريوس

٤٦

الحرب ضد يوجورثا

٥٢

الحرب ضد الكبرى والتوتون

٥٤

إصلاحات ماريوس العسكرية

٥٧

تريونية جلاوكيا وساتورنينوس

٦٠

سلا

٦٠

الحرب الإيطالية

٧٣

الحرب الأولى ضد متراداتيس

٧٨

التطاحن الحزبي والصراع العسكري

صفحة

٨٢

دكتاتورية سلا وتشريعاته

١٠٠ — ١٤٢

الفصل الثالث :

الثورة الدور الثاني

النضال بين السناتو والقواد العظام (٧٨ — ٦٢)

١٠٠

ظهور بومي الكبير

١٠٣

الحرب ضد سرتوريوس

١٠٩

- الحرب الثانية ضد مثراداتيس

١١٥

ثورة اسبرتا كوس والبييد المجالدين

١١٨

قنصلية بومي وكراسوس

١٢٣

الحرب ضد القراصنة والحملة في الشرق

١٣٩

تنظيمات بومي وأثرها في الشرق

١٤٣ — ١٩٨

الفصل الرابع :

الثورة : الدور الثاني

النضال بين السناتو والقواد العظام (٦٥ — ٥٩)

١٤٣

ظهور يوليوس قيصر

١٤٣

الماصية في غياب بومي

١٤٣

موقف السناتو

١٤٤

دسائس كراسوس

١٤٧

مناورات قيصر كحليف لكراسوس

١٥٠

شيشرون و « الوفاق بين الطبقتين »

١٥٥

مشروع رولوس

١٥٩

مؤامرة كتيلينا

١٦٩	<u>الائتلاف الثلاثي</u>
١٦٩	عودة بومي
١٧٢	قنصلية قيصر
١٧٧	تريونية كلوديوس
١٨١	<u>فتح بلاد الغال</u>
١٨١	(أ) الأحوال في غالة كوماتا
١٨٣	(ب) الملقبي وأريوفستوس
١٨٦	(ج) البلجيك والفنيقي
١٨٩	(د) غزو ألمانيا وبريطانيا
١٩١	(هـ) الثورات الأخيرة : ثركنجيتوريكس
١٩٤	(و) أهمية غزو بلاد الغال
١٩٩ — ٢٣٦	الفصل الخامس :

مقدمات الحرب الأهلية

(٥٨ — ٥٠)

١٩٩	<u>العاصمة في غياب قيصر</u>
١٩٩	الحلاف بين بومي وكراسوس
٢٠٨	مؤتمر لوكا
٢١٠	قنصلية بومي وكراسوس الثانية
٢١٢	مصرع كراسوس وانحلال الائتلاف الثلاثي
٢١٨	قنصلية بومي الثالثة
٢٢٤	<u>النزاع السياسي بين بومي وقيصر</u>

صفحة
٢٣٧ — ٢٩١

الفصل السادس :

الحرب الأهلية

بين قيصر والسنانو (٤٩ — ٤٥)

٢٣٧ مسئولية إثارة الحرب :

٢٤٠ انسحاب رومي من إيطاليا

٢٤٦ الحملة الأسبانية الأولى : إيلردا

٢٤٨ القتال في بلاد اليونان : فرسالوس

٢٥٣ نهاية رومي

٢٥٩ حرب الاسكندرية

٢٧٢ الحملة في آسيا الصغرى : زيبلا

٢٧٦ الحملة الافريقية ، ثابسوس

٢٧٨ نهاية كائو والجمهورية

٢٨٨ الحملة الأسبانية الأخيرة

٢٩٢ — ٣٣٧

الفصل السابع :

دكتاتورية يوليوس قيصر

وإصلاحاته

٢٩٢ إصلاحاته في روما وإيطاليا والولايات

٢٩٤ (١) إصلاحاته في روما.

٢٩٦ (ب) في إيطاليا

٣٠٠ (ج) في الولايات

٣٠٦ السياسة الخارجية

٣١٠	السياسة المالية
٣١٥	<u>دكتاتورية يوليوس قيصر</u>
٣١٥	(أ) مناصبه وسلطاته
٣٢١	(ب) ألقابه الدينية
٣٣١	(ج) لقب « امبراطور »
٣٣٣	(د) الامتيازات « الملكية »
٣٦٠ — ٣٣٨	الفصل الثامن :

منقوط الجمهورية

(٤٤ — ٢٧)

٣٣٨	ظهور أكتافينوس
٣٤٢	<u>اغتيال يوليوس قيصر</u>
٣٤٥	عودة أكتافينوس
٣٤٦	معركة موتينا
٣٤٩	<u>الحكومة الثلاثية :</u>
٣٥٠	معركة فيلبي
٣٥٢	تقسيم إدارة الإمبراطورية
٣٥٢	اتفاقية برنديزي
٣٥٢	اتفاقية ميسينوم
٣٥٣	اتفاقية تارتوم
٣٥٥	<u>انتصار أكتافينوس :</u>
٣٥٩	معركة أكتيوم
٣٦٧ — ٢٦٢	<u>محتويات الكتاب :</u>

رقم الايداع: بدار الكتب المصرية ٨٨/٨٤٧٢
الرقم الدولي ٣ - ٤٣٧ - ٠٤ - ٩٧٧

مطبعة العمرانية للأوفست
٤٨ شارع زهران بالعمرانية الغربية
العمرانية الغربية - جيزة
ت : ٥٣٧٥٥٠